دائرة المعارف العامة

(٤)

رعاة البقر

تأليف

رايمون أدامز

ترجمة

عمر القبانى

الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس ميدان رمسيس - القاهرة

دائرة المعارف العامة

(٤)

رعاة البقر

تأليف

رايموند آدامز

ترجمة

عمر القباني

الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس ميدان رمسيس - القاهرة

١٩٦٥

هذه ترجمـــة كتاب

THE OLD – TIME COWBOY

تأليف

RAMON · F · ADAMS

*

*

Published by :

Macmillan Co. New york

« دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع »

عمارة رمسيس — ميدان رمسيس — القاهرة

محتويات الكتاب

الموضوع : الصفحة

(١)

رعاة البقر الأقدمون

هناك مثل يقول : « إن راعى البقر رجل له أهواؤه وحصانه » وهو تعريف لا يفضله غيره ، فلو أن راعى البقر لم تكن له أهواؤه لما طال به عهده ، ولو لم يكن له فرسه لما كان راعى بقر ، وقد وصف راعى بقر بنى جنسه فقال : « إن رعاة البقر جماعة ذات ضجيج ، لهم سيقان مقوسة ، ومعدة من النحاس الأصفر ، يركبون الخيل ويكرهون أن يقوموا بأى عمل غير ذلك » .

والكثير منا يعرفون عنه أنه رجل يحترف رعى الماشية ، وكان الناس فى شرق أمريكا من جيل مضى يرون فيه شخصاً متعطشا للدماء ، والدمار ، يتسم بالجرأة والحق ، ويدجج نفسه بسلاح يثقل على حصانه فيخر من تحته ، وهو مستعد دائماً لأن يطلق النار ، أما اليوم فهو معروف بأنه بطل أبطال قصص أهل الغرب[١] وأنه بطل ركوب الخيل كما تراه على شاشة التلفزيون ، أو صاحب الزى الغريب بألوانه الزاهية الزاعقة ، الذى نسمع قصصه فى الإذاعة ، وأما أهل الغرب الذين يعرفونه معرفة أكيدة ، فيرون فيه رجلا عادياً بسيطاً يتميز بالشجاعة ، ويخلو قلبه من الهم ، يحب المرح ، وفىّ ، لا يشكو دهره ، يبذل ما فى وسعه ليعيش حياته التقليدية التى هو فخور بها غاية الفخر ، فإن كان من تكساس ، فهو شهير كأهل تكساس بحب الشراب ، وكراهية أهل المكسيك .

والواقع أنهم طبقة من الناس لم تراع الأمانة فى وصفهم ، وكانت النتيجة أن أسىء فهمهم ، وظلموا فى الحكم عليهم من الناس عامة ، كما ظلم راعى البقر من الناس فيما مضى ، وعانوا قسوة من كتب عنهم من المؤلفين الذين لم يتوخوا الدقة ، ولم يكن لهم فهم صحيح لحياة رعاة البقر ولا لعملهم ، فصوروا النواحى الموحشة الفجة من مناطق الماشية ، وزيارتهم الجريئة المغامرة للمدن ، واستخدامهم للغدارات فى استخفاف وعدم اكتراث ،

(*) غرب الولايات المتحدة — المترجم .

ومعاقرتهم الحان ، ومبارزاتهم ، ومزاحهم العنيف ، ومقامراتهم ، وانتهاكهم لكل الحرمات ، كان هذا كله موضوع كتابة الكتاب يلونونه بألوان زاهية فاقعة ، ويروون للفقراء من أهل الشرق ما هم فى شوق إليه من قصص فاضح عن رعاة البقر .

وهكذا قامت آراء عديدة عن رعاة البقر ، فالشباب من أهل الشرق يرى فيهم قمة الشجاعة ، والوحشية ، والدهاء ، ومهارة أهل الغرب ، أما الجاهل فكان يرى فيهم جماعة من الأشرار ، الغارقين فى الشراب والدماء والجريمة ، على أنه رغم كل ما كتب عنهم ، فالذين خبروهم وعاشوا معهم ، وجدوا فيهم جماعة من ذوى الطبيعة السمحة ، شفت أرواحهم ، يسارعون إلى المعروف ، وإلى رد ما يوجه إليهم من مهانة .

ولقد كان ما وصفوا به من الخطأ إلى درجة أن بعض الناس ، حتى فى أيامنا هذه ، ما يزالون ينظرون إليهم نفس النظرة الشزراء ، فيرون تلك القبعة الواسعة دون أن يروا ما تحتها من وجه مخلص أمين ، ويذكرون تلك اللحظات المرحة المغامرة التى يختلسونها فى ساعة راحة ، وينسون حياتهم الطويلة بمشاقها وولائهم الخالد لمن يعرفهم ، وقليل من أهل هذا الزمان من يدرك أنهم كانوا من الشجاعة بمثل ما يجب أن يكون كل إنسان ، كانوا لا يعرفون الخور ولا الجبن ، وكانوا يلتزمون مكانهم إلى جوار قطعان الماشية فى كل الظروف ، فإذا استفزهم إلى القتال شىء كانوا على استعداد للقتال ، لم يكن بينهم جبان ، فالحياة لم تكن لديهم شيئاً يستأهل الجبن ، وكانوا رجالا تغطى صدورهم فراء من الشعر ، نشأوا على رعاية البقر ، وعاشوا فى البلاد عيشة طويلة عرفوا فيها أنواع السحالى كلا منها باسمها .

ولقد رأى القصاصون مختلف الألوان ، لكنهم لم يروا شكل هؤلاء الرعاة الذين

عاشوا فى أرض موحشة ، إنهم رأوا الظاهر ، ولكنهم لم يروا ما ينطوى تحته من صفات ، وهم فى محاولتهم أن يصفوا مالم يروه ، تخبطوا فيما قالوا ، وكانوا بعيدين عن كل دقة وعدالة ، وفى اتجاههم إلى أن يثيروا عجب القراء ضلوا الطريق وشوهوا الغاية .

ولا شك أنه من الظلم أن نحكم على فئة كبيرة بما تقوم به قلة من الأفراد فى يومين أو ثلاثة يقضونها فى المدينة ، بدلا من أن نحكم عليها بتلك الشهور الطويلة من التعب والنصب ، ومن الجهد الشاق الأمين ، الذى يقوم به أهل الفئة جميعاً ، وإلا كنا نحكم على كل خريجى الجامعة بما نحكم به على واحد منهم حدث أن انحرف إلى السكر أو السرقة ، فلكى نحكم حكما صحيحاً على الخصائص الحقيقية لذلك الذى يذرع السهول والوديان على ظهر حصانه ، يجب أن نراه فى صورته الصحيحة بتلك السهول الموحشة الشاسعة ، ففيها كان يقضى أيامه ، وفيها كان يقوم بعمله ، وفيها كان يلاقى حتفه ، كما يلقى أى خطر غيره ، هادئاً ، لا يشكو ولا يتململ .

ولقد أقام القصص من راعى البقر أروع صورة رومانتيكية فى الغرب ، وجعل منه على الورق فارساً لا يبزه فارس فى استخدام بندقيته ، وإن لم يكن كذلك فى فلاة الواقع ، أما أهل الغرب فلم يكونوا يرون فى أنفسهم نمطا خاصا ولا صفات غير عادية ، والحقيقة أنهم لم يكونوا يرون فى أنفسهم شيئاً خارقا ولا يدعون لأنفسهم بطولة ، لقد خلق الواحد منهم ليرعى البقر ، واستهواه ذلك العمل استهواء جعله يتمنى أن يكون له حصان لعوب ، وأصبح راعياً من أخمص قدمه إلى أم رأسه .

كثير من الناس يستمتعون بقراءة قصة جميلة عن أهل الغرب ، لكن

عليهم أن يدركوا أن راعى البقر الحقيقى كان يقضى شهوراً طويلة موحشة فى الفلاة يرعى الماشية ، ولم يكن ينطلق فى المدينة ليسعى وراء متعة تكلفه أجر عامين ، أو يقوم بأعمال معجزة فى إطلاق النار من مسدسه ذى الطلقات الست ، كانت حياته أى شىء إلا أن تكون تلك الجدة الرائعة من اللذائذ والمباذل التى تصورها القصص والسينما ، قد تستهويه وهو فى الفلاة بعض الرغبة الجامحة ، لكنه ما يكاد يصل إلى المدينة حتى تنصرف رغبته إلى البيض ولحم الخنزير وغير ذلك مما لا يستطيع الحصول عليه من عربة البيع المتنقلة .

لم تكن أيام راعى البقر رومانتيكية ، فلا سحر فى الصحو من الرابعة صباحاً ، ليطعم التراب الثائر من حوافر القطيع ، ولا سحر فى أن يخوض ماء نهر موحل ، ولا فى أن يعالج تسلخات أطرافه من كثرة ما يشد بقرة غبية بعيداً عن شقوق الأرض التى تبتلعها ، ولا فى أن يعرق فى قيظ الصيف أو يتجمد فى زمهرير الشتاء .

كانت النيران التى تشتعل فى البرارى ، وكانت الأنهار التى تفيض ، والزوابع ، وعواصف الجليد ، والخيول الموحشة ، والماشية المفترسة ، والشقوق التى تتردى فيها الخيل ، والأشجار التى تصطدم بها ، والهنود المستيئسون ، وقطاع الطرق الذين يكمنون لهم ، والحبل الذى يخيل لهم الأمان وهم يحملونه فى أيديهم — كانت هذه كلها ، وكثير غيرها جزءاً من حياة كل يوم التى يحياها راعى البقر ، فلا غرابة فى أن يعانى آلام البرد فى أخريات حياته ، آلام البرد التى نشأت من كثرة ما كان يركب ، وطول ما كان ينام ملتحفا السماء فى مختلف الأجواء ، لا يستره من النجوم شىء إلا ما كان يغطى به ظهر جواده .

ولو أن علماء التغذية فى هذا العصر الذى نتناول فيه وجبات متوازنة علمية مدروسة ، عرفوا ما كان يأكله رعاة البقر لا نتفضوا فزعاً ، ومع ذلك فقد كان

راعى البقر صحيح الجسم قوى البدن من وجباته التى لم تكن تكاد تتغير من اللحم والفول والخبز المقدد ، ولعل ذلك من أثر الجهد الشاق والهواء الطلق . كان يبدو جلداً على عظام ، ولم يكن يضيره إلا فساد دمه من أثر ضعف وجباته وشرب الماء العكر .

وكان شيئا عادياً عنده أن تصاب يداه بالقروح والأورام ، من حكة حبل أو رفسة ثور صغير حوافره حادة كالزجاج ، أو لدغة بعوضة أو من غير ذلك كله ، وقد لا تشفى قروحه من بعيد ، بل تشتد آلامه منها ، فكان يحتفظ دائما بذرور يسكن آلامه أو يكسوها بالشحم الذى يلتقطه من محاور العربات .

وكانت هناك دائماً تلك الحبوب والجرعات الملينة التى تعالج أمراضه الباطنية ، لكنه لم يكن يلجأ إليها ما دام قادراً على العمل ، يظل ممتنعاً عليها حتى يقع من طوله ، وهنا يلتمس العلاج بها مؤمناً بما يعلن به عن مفعولها ، وكان كثيراً ما تغطى يديه الدمامل والبثور ، فكان يعالجها بمضغات من التبغ يربطها حول بثوره بقطعة من الخيش أو خرقة من ثوبه ، لكن هذه البثور كانت تنتشر فى جسمه إلى مقعده ، وتجعله يتمنى لو نام فى فراشه داخل عربة النوم ، لكنه يخاف أن يظن سيده أنه لا يريد العمل ، فكان يحاول أن يبتعد بمقعده عن وسط السرج ، وكثيراً ما كانت تفعل الأورام فعلها فيه ، وهنا يضطر إلى استخدام لبخة تسويها ، وكان يتلوى من آلامه فى صبر ، فلم يكن يفزعه إلا أن يتصور أحد أنه يغرر بسيده .

وكان يحرص حين يكون فى المدينة على أن يأخذ زاده من الكبريت والعسل الأسود ، ففى الفلاة قد يجد العسل ، لكنه لا يجد الكبريت على مسيرة خمسين ميلا من حوله اللهم إلا فى أعواد الثقاب التى كان يحضره من المدينة معه .

ولم يكن أبداً فى حاجة إلى طبيب إلا حين تتكسر عظامه ، فكان إذا سرى السم فى أمعـــائه ، وانتشرت فى جسمه القروح والأورام ، لا يشفى منها أبداً .

فإن ذهب إلى المدينة ، بعد شهور طويلة قضاها فى الفلاة ، يلتمس قليلا من المتعة فيها ، فلا لوم عليه ولا تثريب ، كان حيواناً صلب العود ، ممتلئاً بالحيوية والزهو ، فلا شك أنه من سلالة آباء مغامرين ، هم الذين أقاموا الحدود وأقاموا عندها ، فكان من ثم أميناً ، صادقاً ، يكره الخروج على القانون ، ويحارب الشر . كان رعاة البقر عمالا مجدين نشيطين ، وطبيعى أن يكون أولئك الذين يعملون بجد وفى صراحة يعيشون حياة مستقيمة .

إن السينما تصوّر راعى البقر فى صورة من يطوى السهول طى السجل تحت براثن فرسه ، يطير شعره فى غير نظام ، وينيخ جواده قريباً من الأرض ، وتبرز عيناه جذلا بسرعة ركوبه ، وتصوره على أنه قادر على أن يصعد إلى سن الجبل ، ويسير فى أوعر الطرق بسرعة الريح ، ساعات لا عدد لها ، أو تصوره يركب جواداً لامعاً رجراجا ، ما يكاد يشكم لجامه حتى يتقاعس ليثب إلى القمر وثبة واحدة ، أو تصوره ، يطارد لصاً أو سفاكا ، يطلق عليه وابلا من رصاصه دون أن يصيب منه شعرة .

كان راعى البقر الحقيقى أحياناً يركب جواده فى جولة من جولاته ، أو فى عمل من أعماله ، لـكنه وهو فى الفـــــلاة يمارس واجباته فى المزرعة لم يكن يركض جواده ، ولا يثيره ، بل كان يمضى به فى خطوات هادئة رتيبة ، لا تتعب الجواد ولو سار طوال اليوم ، وكانت تلك الخطوات القصيرة رمزاً طبيعياً لجواد راعى البقر يلتزمها دائماً مالم يكن فى حالة عاجلة ، ، وكان الراعى يستكين لها ليسلم هو ، ويسلم فرسه .

ولقد كان لحياة راعى البقر الحقيقى بمتاعبها وعزلتها وأخطارها ما نمى فيه صفات غريبة إلى درجة عالية ، فكان يجمع إلى جسمه الهزيل الضامر شجاعة منقطعة النظير ، وعدم اكتراث بما يعانيه ، ونشاطاً دائباً حين يتطلب العمل ذلك منه ، وبفضل هذه الصفات فيه لم يكن يرى له قرناً ، كان بصيراً على نفسه ، فلم يكن بحاجة إلى إرشاد أحد أو نصحه ، ولم يكن هنــاك عامل فى مثل نشاطه ولا الثقة فيه ، إنه قد يكون جافاً فى بعض نواحيه ، لـكنه كان شريفاً غاية الشرف فى كل ما يتطلبه عمله منه .

كان راعى البقر فى قديم الزمن يعيش فوق سرج حصانه ، وكان فارساً بكل شعرة فيه ، لا يحب المشى ، ولو لمسافة قصيرة ، وكان راعى البقر الذى يحترم نفسه يأنف من أن يرى سائراً على قدميه ، وحتى لو أن رحلته لم تـكن تتجاوز مائتين أو ثلثمائة خطوة ، كان يفضل أن يسرج جواده ويركبه على أن يبذل هو هـــذا الجهد من ذات نفسه ، كان جواده همزة الوصل بين فراشه وفلاته .

وهذا ما جعله يبدو مدققاً فى أن يجيد ركوب الخيل ، وكان حين يخلو من عمله ، ويركب جواده إلى فلاة أخرى يعمل أجيراً فى إحدى مزارعها ، ويحرص على أن يتقصى خبر من يسعى للعمل عنده ، فلم يكن يرضى بالعمل فى مزرعة لا يستطيع صاحبها أن يقدم له وجبة من شواء ، فبغير ذلك لا ترضى كرامته ، ولم يكن راعى البقر القديم يرضى بالعمل الذى ينافى كرامته ، فيحتطب مفضلا ذلك على أن تجرح كبرياؤه ، وكان أحيانا إما إن يحتطب أو يتضور من الجوع ، وكان من أسوأ مايسيئه أن يطلب إليه حلب البقر ، فلم يكن يجد سبيلا إلى معالجة تلك الحيوانات التى لا قرون لها ، وكان يرى أن عمله إنما هو خدمة غيره ، لـكنه كان يرى فى نفسه شيئاً أرفع من

غيره من الأجراء . كانت فيه كبرياء الفرسان ، ويعتبر نفسه متخصصاً فى عمله ، إذ كان يعتبر نفسه فارساً وليس عاملا أجيرا .

كان حين يطارق باب مزرعة يلتمس عملا فيها ، يتمنى لو أن عملية إقامة الحواجز والأسوار قد انتهت ، وأنه لن يكلف بحفر الأرض ونصب الشواخص ، ولم يكن يحب أن يطلب إليـه أن يمسك بفأس ، فالحذاء ذو الـكعب العالى لا يصلح لمن يعملون فى الأرض ، ولم يكن يرضى أن يراه أحد فى حذاء ذى كعب وطىء ، لـكنه كان لا يأبى عملا يمكن أن يقوم به وهو على ظهر جواده ، كان يعمل ساعات طويلة دون تململ ولا شكوى ، فى الجفاف وتحت وابل المطر ، وفى الحر والبرد ، وفى التراب والعواصف ، ولم يكن يفـكر قط فى متاعبه إن كان القطيع أو سيده يتطلب ذلك الاهتمام منه .

ولم يكن يرى غرابة فى أن يقاوم النار فى البرارى ، أو فى أخطار الشقوق ، أو فى ركوبه وحده فى الفلاة ، أو فى الحراسة فى قيظ الصيف وزمهرير الشتاء ما دام يفعل ذلك وهو يمتطى صهوة جواده ، ومن ناحية أخرى ، كان لا يرضى أن يفتح بوابة إلا إذا كان يستطيع أن يميل وهو فوق سرجه ليفعل ذلك ، كان عمله دائما وليد ضرورة ، ومع الضرورة نشأ تقاليـد كان يتبعه فى غيرة حتى أصبح راعى البقر أغرب شخصية أجيرة عرفها الناس ، أما العمل الوحيد الذى كان يعمله وهو راجل على قدميه ، ويرى فيـه عملا شريفا ، فهو العمل فى الحظيرة أو فى الوسم بالنار .

ولقد نشأت حرفتهم فى الولايات المتحدة فى السنوات التى تلت الحرب الأهلية ، وبلغت أوجها فى ثمانيات القرن الماضى ، ثم اضمحلت قبل أن تنتهى التسعينات ، وليست لهم قواعد يسيرون عليها فى عملهم إلا أن يؤدوه ، ولا مواعيد إلا من شروق الشمس إلى غروبها ، فلم يـكن هناك من الوقت ما يسمح لهم

بالقيام بأعمال الخدمة الحقيرة ، أو بالتدرب على أى عمل آخر سوى رعاية الماشية من فوق ظهر الجواد .

ولم يكن راعى البقر ليرضى رعى الغنم ، فهذا عمل يقوم به إنسان راجل دون شك ، فهو لا يصلح إلا لجامعى الدهن الذين لا يجدون غضاضة فى أن يعيشوا مع كلب أو كلبين ، ولا يأبهون لما يروى عنهم من قصص ساخر ، ولو أن شيئا كان بغيضاً إلى نفس راعى البقر ، كان رعى الغنم هو ذلك الشىء ، لم يكن يتصور أن هناك من يفضل لحم الضأن على لحم العجول ، ولم يكن يرى فى غباء الغنم إلا غباء راعيه .

ولم يكن راعى البقر أيضاً يحب أن يرى نفسه سائراً فى أذيال بغل يجر المحراث ، فإن أصر سيده على أن يفعل ، كان يطالب إليه فى أدب أن يدفع له أجر أيامه ثم يطوى فراشه فوق ظهر جواده ويسير فى طريقه إلى الغرب ، فبلاد الله واسعة ، وما تزال هناك الأريزونا ، والمـكسيك الجديدة ، وهناك الشمال الغربى الذى يستطيع المرء أن يستمتع بالاحترام فيـه ، كان راعى البقر على استعداد دائماً لأن يرحل إلى بلد جديد ، لـكنه ما يكاد يصل إلى أول مدينة صغيرة — بعد أن يقبض أجره — حتى تـكون نهاية مطافه ، يجرع فيها كئوس الشراب ، ويحس فيها أنه عاد بنى آدم من جديد

وكان راعى البقر فى تلك الأيام يستطيع العودة إلى المزرعة بعد أن يفلس ، يأكل فيها حتى الربيع التالى ، وما دامت المزرعة ليس فيهـا ما يتطلب عملا سوى العناية بالخيل المسرجة (وهناك أجراء يفعلون ذلك) فلا يقلقـه شىء ، كان يقضى وقته يلعب الورق ويركب الخيل ، وكان ذلك هيناً عليه .

وثمة طريقـة أخرى كان راعى البقر يحياها فى الشتاء حين كان يتعطل ، هى أن يعمل فى عزق الأرض ، وقد يضطر أى راعى بقر محترم أن يحترف

عزق الأرض فى هذا الفصل ، لـكن عامل العزق المحترف كان موضع احتقار من رعاة البقر ، على أن راعى البقر كان يستغل كرم ضيافة القرية ، ويمكث فيها أقصى ما يستطيع ما دام لا يجد عملا آخر ، وتقـدم إليـه وجبات الطعام فى انتظام وبغير مقابل ، وكان بعض رعاة البقر يفعلون ذلك فى الشتاء على سبيل التنويع ، وكان يرحب أصحاب المزارع بهم بشرط ألا يكونوا كثيرى العدد ، ثم إن أصحاب المزارع كان يحبسهم الشتاء عن مغادرة مزارعهم ، فكان يسرهم أن يروا وجوها جديدة ، وكان رعاة البقر يروون لهم كذلك أخبار العالم الذى حولهم .

ولقد أكسب ضوء الشمس عيون رعاة البقر ذلك الوهج الذى فيها ، كما صبغت ريح البرارى وجوههم ، ولم تـكن تلك القبعـة العريضة الواسعة ولا ذلك الحذاء الغريب هى التى أضفت على راعى الغنم شخصيته ، وإنما أضفاها عليه ذلك التراب المرجانى ورائحة الخيل ، وحظيرة البقر التى دمغته ، ولو أنه غادر حظيرة البقر وارتدى ثياب المجتمع الأنيق ، فقابله راعى بقر آخر لعرفه على الفور .

ولا يضع راعى البقر السرج على حصانه إلا حين تتقدم به السن ، فإذا ما تقدمت به السن إلى حد يصبح معه عاجزاً عن الركض كمهر صغير ، كان يجد متعته فى أن يجلس إلى أمثاله من الشيوخ يروى لهم أخبار البقــر ذات القرون ، وكان يحلو لهم أن يتوغلوا فى ثنايا تاريخهم ، وأن يبينوا لشبابهم أن الحياة التى يحيونها الآن حياة ناعمة لينة كدهن الدب ، وقد يجلس الشيخ منهم يهز رأسه كالحصان حين تدخل فى أذنه نحلة ، ويروى قصصاً طويلة من نسج خياله ، يحاول فيها أن يقنع الشباب بأنه كان من الفتوة والوحشية فى صغره إلى درجة كانوا يضطرون معها إلى تقييد ساقيه ليقصوا له شعر رأسه .

ولما بدأت إقامة الأسيجة حول المزارع ، كان عجائز رعاة البقر يحنون إلى

أن يذهبوا إلى أى مكان يستطيعون أن يمدوا فيـه أنشوطتهم دون أن تعترضها قائمة من قوائم السياج ، ومعظم رعاة البقر الأقدمين قد شدوا رحالهم إلى البوادى البعيدة ، ولم يعد لهم أثر فى مناطق حياتهم الأولى .

وكان راعى البقر القديم شرها فى تدخين السجائر ، ولو أن شارة وضعت لتمييزهم لـكانت هى تلك العلبة الصغيرة بخيوطها الصفراء التى تتدلى من صدره أو من جيب قميصه .

وكان كذلك أول ما يفعله حين يجلس جلسة الضفدعة على الأرض ليستريح ، أن ينتزع ورقة طباق من كتاب صلواته ، ويبدأ فى لف سيجارة له ، وكان كلما حزبه هم أو ألم به ضيق ، لف سيجارة لنفسه ، والواقع أنك كنت تراه يضرب حول رأسه ستاراً من الدخان كلما خلت يداه من عمل شىء .

كان لا يجد لذة فى تدخين الغليون ، ولهذا ترك هذا الفرن المشتعل لرعاة الغنم والعاملين فى العزق ، ولم يكن يرى متعة فى أن ينفث دخانه من وراء غليون قديم فيملأ الهواء بدخان أكثر مما ينبعث من غابة رطبة تحترق ، ولا سيما إذا كان هــذا الغليون كبير الحجم بحيث يصلح مدخنة لقطار بضاعة .

ومعظم رعاة البقر الأقدمين كانوا يحرصون على أن يكونوا على قدر كبير من الفهم ، وكانوا من أجل ذلك يربون فى أنفسهم القدرة على قراءة الإشارات ، فـكل أثر على الأرض كان يروى لهم قصة أوضح مما لو أنهم قرءوها فى كتاب ، وبهــذه القدرة على قراءة الإشارات ، كان راعى البقر يوفر وقت مزرعته ، ومالها ، وخيلها ، بل قد يوفر حياته هو أحياناً ، وكان حين يخرج لصيد الخيل يستطيع أن يدرك من آثار أقدامها إن كانت ترعى العشب أو تسير إلى مكان ما ، أو يركضها صاحبها فى عجلة إلى حيث شاء .

وقد يرى الناس أن راعى البقر وهو يركب حصانه شبه نائم ، ولكن عينيه لا يفوتهما شىء ، فإن رأى قطيعاً ينتشر ليرعى ، عرف أن كل شىء هادىء ، أما إن سمع بقرة تخور فى عصبية وحرقة ، عرف من ذلك أن صغيرها مات أو يعانى من شىء ، ولو رأى حيواناً ضامر الجسم متورم الفك يميل برأسه ، كان ذلك دليلا على أن ثعباناً قد لدغه .

ويقصد بقراءة الإشارات آثار الأقدام بصفة عامة ، لكنها تتضمن أشياء أخرى ، فراعى البقر يستطيع أن يرى راكباً من بعيد فيقرر إن كان هذا الراكب رجلا أبيض أو أحد الهنود ، فالرجل الأبيض يجلس فوق جواده معتدل القامة والساقين ، أما الهندى فإنه يلف بجسمه ويدور ، ويغرس كعبيه فى بطن الحصان فى كل وثبة ، وكان صاحب العربة حين يربط فرسه إلى عربته فى إحدى جولاته يستطيع راعى البقر أن يقول له إن كان الفرس يستطيع أن يتم جولته معه أم لا ، وكان السيد حين يأخذ زمام الفرس من الراعى يعرف هذا ـ دون كلمة تقال ـ أن السيد يريده على أن يغرب عنه قبل أن يلهبه برصاص غدارته .

وفى الأيام الصحو لم يكن بحاجة إلى ساعة يعرف بها الوقت ، وفى الليل كان يستطيع أن يعرفه بالنجوم ، وكان قادراً على التنبؤ بحالة الجو من مراقبة حركات ماشيته ، فالماشية كان يبدو أنها تعرف ، وكان يستطيع أن يقول لك من أية ولاية قدمت بمجرد النظر إلى ثيابك التى تلبسها ، ولم يكن فى حاجة إلى الكلمات ليعرف هذا الشىء أو ذاك .

وعند رعاة البقر شعور صادق بالإخاء والمودة حتى بعد أن يتقاعدوا عن العمل ، فلو أن اثنين تقابلا ، ولم يحدث أن رأى أحدهما الآخر من قبل ، اندمجا فى الحديث عن البقر ، وحتى لو أن واحداً سخر من زميله فى ساعة صفاء ، فإن زميله هذا لا يكن له إلا كل شعور بالمودة والحب .

حين تحولت المزارع الكبيرة إلى مراع صغيرة تحيط بها السياج ولا تتطلب إلا عمل شخص راجل ، غادر كثير من رعاة البقر مقارهم إلى المدن يعملون فيها فى خدمة الحانات أو اصطبلات الخيول ، فهنا كان ما يزال يستمتع بصحبة رعاة البقر والخيل ، وما يزال رعاة البقر يرون فى تلك السياج والأسلاك التى امتدت حول المزارع فساداً له مابعده فساد ، فلما انتشرت المزارع الحديثة ، اجتاز كثير من رعاة البقر الحاجز الأعظم ، إلا أن السن كانت قد شاخت بهم فلم يعودوا يأبهون لما جرى من تغيير .

(٢)

التعلم من الكتب

لما لم يكن راعى البقر القديم شخصاً متعلما ، لم تتح له أى فرصة لدراسة فروع عالية من المعرفة عن طريق الكتب ، فقد كان ذلك تكليفاً له ينوء بطاقته ، كما أنه لم يكن يحب القواميس ، لأنه لم يسبق أن قرأ « وبستر »(*) فلو أنك ذكرت له اسمه لما تردد فى أن يسألك أى نوع من الرجال هو ، وكانت قواعد اللغة التى يستعملها راعى البقر وعرة صعبة كالجبال التى يعيش فيها ، لكن تعبيراته كانت عملية ، وكان لا يحتاج إلى كلمات ضخمة توضح لك ما يعنيه ، ولم يكن يحس أن نقص تعليمه ذاك حطة لشأنه ، بل كان يرى نفسه كفؤا لكل من عداه .

وهناك قول لا يعدو الحق يقول : « أنزل راعى البقر عن جواده ، تجد أنه لا يعرف شيئا » وهذاالقول فيه تحية لمعرفته بالخيل والماشية ، فقد كان أبناؤه يركبون وسط التراب المنبعث من سنابك جواده ، يتعلمون الكثير عن الماشية ، ويحبون الخيل ، ويدرسون حبال شباك الصيد ، ويستحون أن يتعلموا من كتاب ، وكان بعضهم يرعى وليد الماشية مع أصولها .

كان تعليمهم يبدأ بمراقبتهم لآبائهم وللعمال أثناء عملهم ، ولا تمضى إلا سنوات قليلة حتى يبدأون استخدام حبالهم الصغيرة فوق قوائم الأسيجة ، وصغار الماشية حتى يتقنون مرانتهم ، فإذا شبوا مارسوا ركوب الخيل حتى يبرعوا فيه ، وهنا يبدأ تعليم الصحيح ، فيقومون بالأعمال الشاقة المطلوبة من راعى البقر ، ويتدرجون

(*) معجم من معاجم اللغة الإنجليزية — المترجم .

فى تقدمهم على مراحل حتى يحصلوا على فهم كامل لعادات الخيول والماشية ، ومعرفة صحيحة بالإنسان وبالطبيعة ، إلى أن يحفزهم طموحهم إلى رفقة زملائهم ، ويكونون حينئذ قد وصلوا إلى سن كبيرة يستحون معها أن يذهبوا إلى المدرسة إن حدث أن كانت واحدة على مقربة منهم ، وغالباً ما كانوا يتعلمون المبادىء من كبارهم ، وكانت تلك المبادىء عندهم هى الركوب والصيد بالحبال والتجوال .

كان كثير من أصحاب العربات فى جهة الغرب لا يعرفون القراءة والكتابة ، لكن ذلك لم يكن حجر عثرة فى طريقهم ، فقد كانوا يعرفون أخبار العالم الذى حولهم عن طريق سماعها ، ينقلها إليهم رعاة البقر فى جولاتهم ، أما فى الشتاء فكان العاملون فى عزق الأرض يتناثرون من أول الفلاة إلى آخرها ، ولم لم يكن السادة أصحاب العربات يكتبون الرسائل أو يوقعون الأوراق ، فإذا لم تكن كلمة الرجل هى رباطه الذى يرتبط به فليس للوثيقة أية قيمة ، لكن رعى البقر كان كتاباً مفتوحاً أمامهم ، يقرءون كل صفحة فيه .

ثم فيما بعد حين انتشرت المدارس وجاءوا بالمدرسين من الشرق لم يكن راعى البقر يحس احتراماً كثيراً لرسل الحكمة هؤلاء ، لأنه كان يرى فيهم غرباء مهاجرين ، وكان يرى أن من لا يعرف البقر غشيم لا يستطيع أن يعلم دجاجة كيف تصيح ، فكان على المعلم الذى يأتى للعمل فى إحدى هذه المدارس أن يكون محارباً ، لأن كبار التلاميذ من أبناء رعاة البقر ، كانوا يرتبون أمر معاكسته حتى تستبدل به معلمة .

كان الغالب ألا يتعدى التلميذ فى تعلمه جلدة كتاب مبادىء القراءة قبل أن ينهى دراسته ، وكان البعض يمضى فى كتابه إلى الكلمات ذات المقطعين ، وهنا يرون أنهم أصبحوا علماء ، وكان هناك قول قديم متداول فى تكساس يقول : « إن الرجل حين يستطيع أن يعد حتى المائة يصبح مستعداً لأن يعمل

معلماً » وفى هــذا القول نوع من المبالغة بطبيعة الحال ، لأن الـكثيرين منهم كانوا يبقون فى المدرسة حتى تضيق بهم المقاعد ، ولا يتعلمون إلا الـكلمات البسيطة ، وكان هذا كل ما هم فى حاجة إليه ، لأنهم على أى حال لم يكونوا فى حاجة إلى تعليم .

فإن كنت من المغرمين بالتعليم العالى ، صعقت فى كل مرة تسمع فيها الأخطاء الـكثيرة تنساب فى كلام راعى البقر ، وهو يرفض أن يسمع لنصحك . على أن راعى البقر حين لا يستخدم قواعد اللغة التى تعلمتها فى الجامعة لا يجوز أن يعطيك عنه فكرة أنه جاهل ، فإن دراسة البقر تتطلب أكواما من الـكتب ، وهو يعرف عن البقر كل شىء حتى ما تقوله لصغيرها ، وهو خبير محنك كذلك فى معرفته لشئون الحياة ، والطبيعة والأمانة ، والشرف ، وهى معان أعظم قيمة من كل الألقاب العلمية التى تتشرف بأن تكتبها إلى جانب اسمك .

وراعى البقر إن أعطيته قلماً فهو أبكم وأصم ، لـكنه يستطيع أن يواصل حديثه إلى حد أن أحدا من زملائه لا يأخذ عليه غلطة ، وهو بغير حاجة لأن يتصيد الـكلمات المنمقة حتى يوضح ما يعنيه ، بل يضيق بالمتعلم وهو يلف ويدور لينتقى كلماته الطنانة ، وحين كان يسمع أحد المتعلمين يستخدم الـكلمات الضخمة أو الألفاظ الناعمة التى ينزلق الإنسان عليها ، فإنه غالبا ما كان ينصح له بأن يعود إلى تلك الفلاة مرة أخرى حتى يستوعب ما فيها ، ويدرك معانيها .

وحتى لو تعلم أحد رعاة البقر بعض القراءة والـكتابة فإنه لا تتاح له فرصة استعماله ، فهو من ناحية لم تكن تتوافر له المادة التى يستخدمه فيها إلا بطاقات

العلب المحفوظة ، فـكان يحفظ ما عليها عن ظهر قلب ، ويرددها كالتراتيل ، وهو من ناحية أخرى كان حين يعمل فى عزبة ، يقضى كل ساعات النهار فى عمله ، فمنذ شروق الشمس يمسك بزمام فرسه لا يتركه إلا بعد العشاء حين يمد فراشه لينام ، وبذلك لا يتوفر له وقت للقراءة ، وكان من ناحية ثالثة حين يكون فى معسكر خارج المزرعة تثنيه عن القراءة مصابيح الغاز ودخانها المنبعث من زجاجاتها .

ثم إن شباب المعسكرات لا تتوفر لهم مواد مختلفة للقراءة ، فهم يقرءون فى وقت فراغهم ما تصل اليه أيديهم أحيانا ، وقد اعتاد « جون هندركس » ـ أحد أصدقائى من رعاة البقر الأقدمين ـ أن يروى لى كلما زرته فى « فورت ورث » بولاية تـكساس حيث مات ، قصة راعى بقر أعلن أن أفضل شتاء قضاه كان حين أرسل الى محلة قديمة يقيم فيها معسكرا أماميا ، وكان المـكان حجرة واحدة بطنت كلها بأوراق جرائد قديمة ، وكان الشاب يقول إنه قرأ فى خلال ذلك الشتاء الحائط الشمالى والجنوبى والشرقى والغربى ، وأنه بدأ يقرأ سقف الحجرة حين استدعوه إلى عمل آخر .

وكان يحدث مثلا أن مرافقا لبعض الثيران يقوم برحلة إلى مدينة كانساس أو إلى أية سوق أخرى من أسواق الماشية مع شحنة من الماشية ، ثم يعود على أحد قطارات الركاب ، وكان غالبـا ما يزيد حصيلة أخبارهم بما يحمله معه منها أو من القصص ذات الغلاف الأصفر ، أو أى كتب أخرى تباع له بثمن عال بعد أن يعد راعى البقر بألا يذكر من أين حصل عليها ، وألا يفتحها إلا بعد أن يعود إلى بيته ، وكان حين ينظر إلى أى كتاب يدهش لأسباب سريته ، وكان غريبا أنه حين عاد بالـكتب إلى المزرعة وجد أنها كتب قديمة بالية أكل عليها الدهر وشرب .

ثم بدأ صانعو السروج والأحذية يرسلون كتالوجاتهم ، وبدأت بذلك تنشأ مكتبة البيت ، وأصبحت مزايا وعيوب هذا النوع أو ذاك من السروج والأحـــذية والمهاميز والملابس التى يرد وصفها بالتفصيل فى الـكتالوجات ، موضع النقاش بين شباب الرعاة حتى لـكان يخيل إليك أنهم يقيمون حلقة المناظرات .

ولما بدأت بيوت إرسال الطلبات بالبريد ترسـل نسخاً من كتبها المصورة وكتالوجاتها التى انتشرت جدا فى الفلاة ، وجد رعاة البقر فيهـا مادة وفيرة للقراءة يمكن أن يستمتعوا بها شهوراً طويلة ، بل إن كثيرا من رعاة البقر تلقوا تعاليمهم من هذه الـكتب ، وعرفوا من دراسة الصور التى فيها كل شىء عن الدنيا المحيطة بهم قبل أن يرده رؤية العين ، واستطاعت نساؤهم أن يسرحن أبصارهن فى الصور كأنما كن يقمن بعملية تسويق من معارض المتاجر ، ويحدث هذا حين كن يحصلن على نسخ الـكتب قبل أن تلعب بها يد البلى من الرعاة الرجال ، فإن حصان عليها قضين الليل بطوله فى ضوء مصباح الزيت يقلبن فى صفحات هذه الـكتب الضخمة ويتفرجن على صورها ، ويدهشون لمـا تمثله من أشياء .

ويحكى عن راعى بقر غشيم أنه وقع على صورة فتاة تعرض ثوبا من الحرير المفهاف ، فجلس من فوره يطلبها زوجة له ، إن لم تـكن متزوجة فعلا ، وراح يطمئن نفسه بأنها لن تـكلفه شيئا ، لأن الشركة ترسلها له خالصة أجرة البريد .

وحين كان يصـل كتالوج جديد ، يأخذ القديم طريقه إلى مكان آخر ، ويذكرنى ذلك بقصـة راعى بقر عجوز طلب ذات مرة ورقاً لدورة الميـاه من أحد بيوت إرسال الطلبات بالبريد ، فطلب إليه أن يعيد نظره فى الـكتالوج ليكتب لهم رقم ما يطلب ، فرد عليهم من فوره قائلا : لو أن عنده كتالوجا لمـا كان بحاجة إلى ورق التواليت .

ثم لما انتشرت طرق البريد فيما بعد ، زادت مواد القراءة بما كان يأتى بالبريد من جرائد أسبوعية أو شهرية أو مجلات ، حتى أصبحت مكتبة البيت أشبه بحجرة عامة للقراءة ، وأصبح راعى البقر أكثر ثقافة ، لأن أباه أصبح يبيع من البقر ما يكفى لإرساله إلى كلية زراعية يتعلم فيها الطرق العلمية لتربية البقر وتغذيتها بعد أن غيرت السياج والأسلاك الشائكة طرق التربية القديمة .

(٣)

الكلام

هناك قول قديم فى الغرب يقول : « إن راعى البقر لا يكاد ينطق » ، ومن هذا القول ظن الناس جميعاً أن راعى البقر لا يتكلم فعلا ، وكثير من الناس لا يعرفون عن راعى البقر إلا ما يقرءونه عنه ، و يقال بحق إن معظم المعلومات التى كتبت عن راعى البقر إنما كتبها مؤلفون يعيشون فى مدن لم يتصلوا قط فيها ببقرة ، أما أولئك الكتاب الذين جاءوا إلى الغرب ووجدوا أن راعى البقر لا يفتح فمه بكلمة ، فسرّ ذلك أنهم لم يمكثوا وقتا يجعلهم يعرفونه .

صحيح إن امتداد الفلاة لا يخلق ثرثارين ، ووجود راعى البقر وحيداً فى الفلاة جعله يعتاد استعمال عينيه كثيرا ، وفمه قليلا ، ومما يروى أن اثنين من رعاة البقر قاما معاً برحلة طولها عشرة أميال :

فقال الأول منهما وهو يغمز جانب فرسه : « حين أصل إلى المدينة سأتخلص من هذا الجواد الأعجف ، وأشترى جواداً آخر » .

ولم يجبه رفيقه ، ولم يتبادلا كلمة واحدة طوال الطريق ، فلما وصلا إلى المدينة استأنف الأول حديثه من حيث بدأه وقال : « وسيكون جواداً طيباً سريعاً وفيه كل شىء حسن » .

وراعى البقر لم يكن يعتمد اعتمادا تاما على لغة الإشارات بطبيعة الحال ، ولم يكن الصمت طبيعة فيه ، لأنه يستطيع أن يتكلم لكنه كان موهوبا فى لباقته يستطيع أن يقول الكثير من المعانى فى كلمات قليلة ، فهو من سلالة لا تطلعك على ما تريد ولا ما تفعل إلا بعد أن يتحقق لها كل شىء ، خصوصا إذا عرف أنك تبحث عن واحد من أصدقائه لا يحترم قوانين سلالته .

إن قانونه هو أن تعرف عنه أقل القليل فى الوقت الذى يقف فيه على أقصى ما يستطيع عنك من ثنايا كلامك ، فلقد تعلم منذ حداثته أن طريق الحصول على المعلومات هو الأذنان والعينان وليس اللسان .

فحين يلتقى براعى البقر شخص آخر ، يطبق راعى البقر فكيه ، وبحكم أن الرجلين نشآ فى عالمين مختلفين ، فإنهما لا يتكلمان لغة واحدة ، وليست بينهما مسألة مشتركة يتحدثان عنها ، ولأن راعى البقر يستخدم تنفسه لمجرد التنفس لا ليخلطه بعصير لسانه ، يعتقد الشخص الآخر أنه متكبر أو متعجرف أو أصم ، وهكذا اشتهر عنه، مع أن راعى البقر لا يجد سبباً يجعله يحل عقدة لسانه سوى جهل الحدث منهم ، جهله الذى يحمله على أن يطبق شفتيه لأنه يعتقد أنه لو قال شيئاً لشخص من أهل المدن ، انهالت عليه الأسئلة التى تحيره فى تقدير من يسأله ، وهل هو شخص مكتمل العقل كما أنه مكتمل الجسم ؟ أم أنه غير ذلك ؟

وراعى البقر قليل التساؤل بالنسبة للآخرين ، فهو يرى أن المبالغة فى حب الاستطلاع لا تتفق مع الخلق الطيب ، وتلقى كثيراً من عدم الاكتراث ، هذا إلى جانب أن رعاة البقر الأقدمين من أهل الغرب قد وضعوا لأحفادهم قانون التزام الصمت ، فقد يتحرق راعى البقر شوقاً إلى معرفة شىء ما ، لكنه دائما ينتظر وقته ، ويفتح عينيه ، وسرعان ما يقف على ما يريد ، وهو إذا سأل سؤالا ، قاله فى كلمات غير مكترثة ، فلا تحس أنه يريد أن يعرف شيئا .

لكن حذار أن تجعل صمته حيال الغرباء عنه يخدعك ، فهو مع بنى جنسه يفتح باب الكلام على مصراعيه ، فاذا اجتمع بعض عجائزهم انطلقت ألسنتهم فى حديث طويل ، على أن الشخص الثرثار لم يكن يلقى ترحيباً كبيراً ، فمن فلسفتهم « أن

الفم كلما اتسع ، كان أجمل إذا ظل مطبقا » ، وكانوا يقولون عن الرجل الذى لا يطبق فكيه : « إن فكيه ترشحان » أو « أن عنده إسهالا فى عظام فكيه » .

وبعد رحلة يقوم بها راعى البقر وحده ، قد يقابل شخصاً من جنسه فى الطريق أو على طول سياج ، فينطلقان فى حديث طويل ، يتكلمان فيه عن الجو والحشائش وحالة المطر ، وتقدير نتاج الماشية ، والتنبؤ بأسعار الأغنام ، وهناك كذلك الحديث عن المخترعات الحديثة كالراديو والرقص يتبادلان فيه الرأى ، ثم ينتقل حديثهم إلى مزايا صانعى السروج والأحذية ، ولا يملون الكلام عن الخيل ، وأحيانا يتحدثون عن أطوال حبال الصيد ، وعن أحسن المهاميز .

وبمجرد أن يلتقيا يرخيان العنان لجواديهما ليلتقط الجوادان أنفاسهما ، وقد ينزلان عنهما ويجلسان إلى جوارهما ، يلفان سيجارة ، ويبحثان فيما حولهما عن قطعة حطب ينكشان بها الرمل ، فراعى البقر يعتقد أنه يحسن الكلام وهو ينقش الرمل كما تنقش الدجاجة أرض الجرن ، وكثيرا ما نراه يرسم شيئا على الرمل ، يصور رجلا له فتاة جميلة فى مكان معين ، والطرق التى تصل به إلى ذلك المكان ، ثم يمحو ما يرسم بصفحة يده ليرسم بدله درسا آخر فى جغرافية البقر ، فإذا امتطيا جواديهما مرة أخرى ، كان كل منهما مثقلا بحديث الفلاة ، فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه قد درب تدريبا كبيرا على استخدام قدر كبير من الكلمات .

كلا يا سيدى ! إنك فى الغرب لا تكون بحاجة لأن تستأجر قاعة للكلام ، فخير الكلام ما يقال فى ظل إحدى العربات الجائلة ، أو وهم جلوس على طول سياج ، أو فى اصطبلات الخيل حين يكونون فى المدينة ، وإن كانت أكثر أحاديثهم متعة هى ما يتبادلونه فى حانات الشراب حين يفك الشراب عقدة لسانهم فيطلقون لحديثهم العنان .

وعلى الرغم مما اشتهر به راعى البقر فى العالم الخارج عنه بقلة الكلام التى اشتهر بها الهنود الحمر ، فإن لبعضهم مواهب فى الكلام تجعلهم يشتهرون به ، ولست أعرف مكانا فى العالم يهتم فى انتظام بعقد مباريات فى الكلام كما يهتم بها رعاة البقر ، ففى العالم يعقد الناس حلقات المناظرة يتحدثون فيها عن موضوع بذاته ماله وما عليه ، كل فى دوره ، أما مناظرات أهل الغرب فتكون بين رجلين ينطلق لساناهما ، وقد جلسا متربعين ، ووجهاهما متقابلان ، يتكلمان معا فى سرعة كبيرة ليرى الناس أيهما أقدر على البقاء دون أن تعوزه الكلمات أو السرعة ، وكانت الكلمات تتتابع فى تدفق مستمر فلا تكاد ترى لها معنى على الإطلاق ، كل منهما يتكلم فى وقت واحد ، ويقول أى كلام يخطر على باله .

ولن أنسى ما حدث ذات مرة حين أرسل أحد رعاة البقر من قبيلة « بوتهوك » ليتحدى أحد شبابنا الموهوبين فى الكلام ، ويقول : « إن أحداً لن يقهره » وقبل بطلنا التحدى ، ورد على رجل « بوتهوك » يقول : إنه سيجعله يتمنى لو أنه لم يولد ، أو ولد اصم ، ويتحدث بعد ذلك بإشارات يديه « ورتب للأمر وحدد الموعد بعد قبض الأجور حتى يستطيع كل فريق أن يراهن على بطله ، وبدأ كل من الرجلين يدرب نفسه ويحاول أن يستظهر ما فى كتالوج الطالبات بالبريد ، ويحفظ ما هو مكتوب على آنية الطهى ، وفى كتالوجات السروج التى تصل إليهما يداه .

وجاء يوم المباراة ، وكان بطلنا موهوبا فى قول الشعر ، فبدأ كلامه بحديث مسجوع ، يقول : « إن الجواد يصهل ، فهل تعرف ما يريد أن يفعل (*) ؟

(*) بتصرف للدلالة على ما كان يجرى عليه الحديث من سجع — المترجم .

والبقرة تخور ، كما أن الثور يخور ، والكلب ينبح حتى يرى الصبح يصبح ، والسبع يزأر حتى تتورم حنجرته ، والقطة البرية تموء كما يصهل الجواد فى الأصطبل ، والأرنب يجرى لأنه يخشى بندقية الصيد » وهكذا يواصل الكلام حتى يغطى مملكة الحيوان كلها .

وفى الوقت نفسه لم يكن بطل « بوتهوك » أقل شاعرية من بطلنا ، فراح ينظم أسجاعا مماثلة ، فيقول : « إن البرق يبرق ، والرعد يصفق ، والمطريفور ، والريح تمور » حتى ليخيل إليك أنك فى سفينة نوح ، وكان بطلنا كثير الرغوة كالصابون الجيد ، لكن بطل « بوتهوك » كان أكثر سرعة من ثور فى حقل قمح أخضر ، فأخذ الغريمان يتراشقان الحديث كجوادين فى أرض عشب جديدة ، تتسابق الكلمات من لسانهما كالمطر المنهمر ، لكن بعد ساعة واحدة أو مثل ذلك هبط العدْو إلى الركض ، وقلت الكلمات والسرعة .

وكان كل من البطلين يستطيع الكلام إلى غير نهاية ، فكانوا يصيحون بهذا السخف فى سواد الليل ، وكل فريق يحاول أن يشجع بطله حتى النصر ، وعند شروق الشمس تكلم رجل « بوتهوك » عن حاجته إلى النوم ، وبطلنا يضغط عليه فى النهاية يروى له مزايا الخوخ المعلب ، ويهمس له بها فى أذنه ، لكن حباله الصوتية لم تكن تقوى على الكلام .

كلا يا سيدى ! لا يمكن أن تقول إنك شهدت مناظرة كلامية إلا بعد أن ترى مباراة من مباريات الكلام عند رعاة البقر الأقدمين ، فالعادة أن راعى البقر لا يحل عقدة لسانه لمثل هذا السخف من الحديث التافه ، لكن مباريات الكلام كانت تدريبا للمواهب يذهب إليها المتحدثون فى جد ، كما يذهب الصائد من المدينة لصيد فراء الظربان كانوا قادرين على الكلام كثيرا ، لكنهم

لم يكونوا يفعلون ذلك دائما ، إلا فى مناسبة المباريات فإذا انتهت المباراة انصرفوا إلى أعمالهم .

ولكى أدلل كذلك على أن راعى البقر لم يكن جاهلا بالموسيقى ، أذكر أن من رياضته المفضلة أن يروى قصة مسلسلة لأطفاله ، وقد نشأ هذا النوع من قصص الأطفال عند نومهم فى الغرب أصلا ، فخيال أهل الغرب خيال خصيب ، فكان الواحد منهم يؤلف القصة ويمضى فى تسلسلها يوما بعد يوم .

قد يكون بدأ الكلام عن ركوبه فى رحلة بدأتها ، وما فعله فيها ، لكن قصته لا تكون طويلة إلا إذا ركب فى رحلة دائرية ، فيصف لك الطريق والصخر والشجر ، وغير ذلك ، ويسمى لك الأنهار ، والجبال ، والمسالك ، ثم يعود من حيث بدأ رحلته ويعود إلى تكرار وصفه .

وهنا يحس الناس أنهم يسمعون قصة دائرية ، ويرقبون رجل المدينة لا المتحدث ، فإذا لم يكن واعيا ككلب الفلاة ، فيحس أنه سمع هذا الوصف من قبل ، ولم يقل : « إنك تصف نفس الطريق الذى ركبته من قبل » أو شيئاً من هذا القبيل ، عرف المتحدث أنه أجهد نفسه فى غير طائل . وكانت هذه القصص تباع فى الغالب لأهل المدن .

على أن بعض هذه القصص لم يكن جيداً ، وأذكر أن راعى بقر راح يقص قصة على رجل من أهل الشرق ، وبعد أن استرسل فى الرواية حتى تدلى لسانه كحبل العجل ، قال الرجل : « هل لك أن ترفع صوتك قليلا ؟ إن سمعى ثقيل بعض الشىء ، ولم أسمع مما قلت شيئا » .

وفى حالة كهذه يحس راعى البقر أنه عاجز كدمية قطعت يداها ، ويتمنى لو أن وحشا قد التهمه ، فهزيمته فى عمله تجعله يشعر كأنما يتحدث باللغة الصينية

لبغل من بغال الحمـل ، وبعدها يفقد كل مزاج للقصص الدائرة ، ويمضى فى الحديث إلى نفسه كما يفعل راعى الغنم .

إن القصة التى يرويها راعى البقـر تزرى بما يرويه اللاعبون على الطبل ، فهو فى رواية القصة لا يفوقه أحد ، وهو صادق فى حديثه بصفة عامة إلا إذا كان يحمى صديقاً ، ويقال إن راعى البقر الوفى لأهله يجب أن يكذب على معاون الصحة وجامع الضرائب ، وتاجر الماشية ، لكنه حين يبدأ كلامه بالقول بأنه « يتحدث حديث الفلاة » أو أنه « يعطى كلمة الفلاة » فعليك أن تعتبره إنجيلا ، وهو حين يكذب يجعلك تتصور أن « حنانيا » (*) هو مجرد هاو مجتهد من هواة الكذابين ، فهو يضفى على قصته ألواناً زاهية وليس هناك من يماثله فى براعة كذبه إلا رجل السياسة الحديث .

والرجل من أهل الشرق قد يكذب بصورة مبسطة ، لكنه حين ينتقل إلى الغرب ، يتلقى دروساً فى الكذب ، إذ يبدو أن الطبيعة نفسها تكذب بعض الشىء ، فكل شىء فى الغرب كبير بدرجة تدعو إلى التأمل ، وكبر حجم الفلاة يجعلها تزرى بالآراء الصغيرة ، والكتاب من أهل الشرق يبالغون فى وصف الفلاة فى الغرب بالوحشة والوعورة ، ولذلك يسر راعى البقر أن يروى لرجل المدينة بعض المبالغات .

والكذب نتيجة طبيعية من نتاج أرض البقر ، ولا يحتاج الأمر إلى كثير من الجهد ليجعل راعى البقر ينطلق فى هجوم من هجماته على الصدق ، ويشتهر كثير منهم برواية القصص الطويلة ، ويرحبون لذلك بأهل الشرق حين يفدون إلى أحد معسكرات رعاة البقر ، إذ يهيئون لهم تسلية طيبة تساعد على قضاء الوقت .

(*) رجل اشتهر بالكذب — المترجم .

ويستطيع راعى البقر أن يتبين إن كان صاحبه يكذب أم يقول الصدق ، لكنه لا يأبه كثيراً لذلك ، بل يصغى له بكامل سمعه ، فهو أولا : يستمتع بالقصة ، ثم إن من أصول معسكرات رعاة البقر ألا تعترض على نسج خيال أحد ، وثانياً : أنه يعرف أن الراوى يحاول أن يكسب شهرته كقصاص .

ويستطيع معظم رعاة البقر أن يرووا قصصاً جادة ، لا يشك الشباب فى صدقها ، فإن وجدوا مستمعاً لا يشك فى صدق قصصهم ، استرسلوا فيها إلى درجة كبيرة .

ورعاة البقر لا يعرفون كل الروايات التى تروى عن معسكراتهم ، على أنهم يعرفون منها ما يملأ كتاباً كبيراً ، فكل شىء فى الغرب رويت عنه الأكاذيب ، من الريح ، والجو ، والثعابين ، والحيوانات المتوحشة ، إلى الصيد والقنص ، والماشية والخيول .

وكان من رعاة البقر دائماً من هؤلاء القصاصين من اشتهر بالصفاقة ، فلم يكن يهم الرعاة أن يصغوا لقصصه ، لكن حين يبدأ فى روايتها يتركونه ليرويها لنفسه ، فإذا اعتاد منهم ذلك ، غادر المكان إلى حانة يشرب فيها .

(٤)

السباب عند رعاة البقر

ما دمنا بصدد الكلام عن أسلوب راعى البقر فى الكلام ، يحسن بنا أن نتناول ناحية السباب عنده ، فتجديفه وكفره ناشئان عن العادة والتقاليد ، لا رغبة فى أن يكون شريراً ، فقد كان الكفر جزءاً من طبيعته ، ولم يكن يرى فيه شيئاً غير طبيعى ، كان مجرد رغبة صبيانية فى التنفيس عن صدره ، وأكاد أصف حالته بما وصفه بها « فيليب رولنز » من « أنه يؤمن بأن التجديف ضار بالروح ، لكن السباب يخفف التوتر عن الكبد » .

وكان راعى البقر يسمى السباب « التنفيس عن الرئتين » وكان الراعى العادى منهم لا يحترم أية وصايا دينية حين يسب ، وكان هذا عادة عنده ، بل جزءاً طبيعياً من لغته ، وكان يحشر فيها الكثير من القواعد ، وكان حين يطلق العنان لهذه الموهبة ، لا يفوقه أحد ، بل لا يدانيه إلا القليلون ، وقد لا يكون هذا الأسلوب من الكلام قد تعلمه وهو فى حجر أمه ، لكنه كان يبدو أنه نشأ معه منذ طفولته ، والتصق بلسانه كما يلتصق ذباب الخيل بأذن البغل ، وأنت حين تسمعه يخيل إليك أن نصف كلامه من ألفاظ السباب ، لكن كلامه بغير ألفاظ السباب هذه ليس سوى مجموعة من الكلمات أقل قيمة .

ولكن نفهم قيمة السباب عند أهل الغرب يجب أن نلم به ، فهناك فرق كبير بين انتهاك الحرمات وبين الكفر ، فراعى البقر حين يظهر لك عواطفه وحبه قد تصدر عنه ألفاظ يقشعر لها البدن ، فإن قالها بصوت بارد كليالى نوفمبر ، كان يقصد بها الحرب ، ورجل المدينة حين ينزل الغرب لأول مرة لا يعرف لماذا يسب رعاة البقر بعضهم بعضاً بأوقح الألفاظ على سبيل الصداقة

والمزاح ، ومحاولة راعى البقر هذه توقعه فى مأزق لا خلاص منه ، لأنه لا يعرف كيف يضفى النغم الصحيح على سبابه ، كما أنه لا يعرف أن الابتسام قد يغير كثيراً من المعنى المقصود بالسباب .

وكلمات السباب القوى تتطلب شجاعة وقدرة على الاختراع ، وراعى البقر تتوفر له الصفتان ، فهو حين يطلق لنفسه العنان تحس فيه رائحة الكبريت ، وسبابه تقشعر له أسمك الجلود ، ويقف الشعر فى جلد الكلب المكسيكى .

ولكى تلاحظ سعة خيال راعى البقر فى سبابه عليك أن تثيره ، وهنا يلقى عليك من ألفاظ السباب كل ما يخطر على باله ، قد لا تكون الألفاظ صالحة للنشر ، لكنها تعطيك فكرة جديدة عن معنى الفجور ، وقد نأسف لعجزنا عن أن نسوق لك أمثلة من سبابه ، لكنها لا تكون صالحة لكتابتها ، لأنها لغة حديث ، وهى جزء من لغته التى نشأت معه ، لغة كالشوك الذى يسير فيه ، وصوت المتحدث وحالته فيهما الكثير من قوته .

على أن العدالة تقتضينا القول بأن راعى البقر لا ينفجر غضبه وسبابه بغير ما سبب ، ولهذا كانت له ألفاظ غاية فى الغرابة ، بعضها لا نعرف له أصلا فى لغة من اللغات ، وقد تكون من وحى اختراعه ، لكن أحداً لا يخطىء فى فهم معناها ، وهو يعرف أيضاً كثيراً من الألفاظ الإنجليزية يحورها للسباب فإن لم يجد فيها كفايته استعان ببعض الكلمات الأسبانية ومزجها بها .

ولكل راعى بقر ألفاظه الخاصة التى ينفرد بها فى سبابه ، وهناك عبارات من خلق كل راعى بقر وتأليفه تعتبر من حقه وحده ، وقد لا يكون من معانيها السباب ، لكن صاحبها حين ينطق بها يكون المقصود بها السباب ، وطريقة إلقائها تعنى إشارة الخطر عند من يعرفها .

وراعى البقر فى مجلس السيدات يحرص على ألا تصدر عنه كلمات نابية ، لكنه لا ينجح فى ذلك بحكم العادة .

ففى مناطق البقر القديمة لم يكن يخجل الناس من ألفاظ سبابهم ، فلم تكن هناك سيدات تجعلهم يحرصون على ألا يسبوا فى محضرهن ، وأصبح السباب من ثم عادة عندهم ، وبعضهم كان يسره أن يشتهر بخبرته فيه ، وكانوا بسبب انعدام التسلية يتراهنون على من يفوق زميله فى السباب ، وكانوا ينظمون لذلك حلقات خاصة ، ولعل مناطق الغرب كانت هى المكان الوحيد لهذا السباق فى العالم .

ومما يحكى أن راعى بقر اسمه « بريمستون والاس » كان ذا شهرة كبيرة فى السباب ، فأعدّ له بعض الرعاة حلقة سباب ينافس فيها رجلا من مدينة « تومستون » ، ويقال إن « بريمستون » خرج من تكساس يركب حصاناً سريعاً ، وأنه بدأ المعركة قبل أن يترجل عن جواده ، ولم يكن هناك من ينتصر عليه إلا زوجته .

وكانت زوجته لا تتحدث إلا بالدين ، وكانت تنصح له بألا يتبع وسائله الأثيمة فى السباب ، وأسوأ ما كان من أمرها أنها كانت تتزعم نساء الحى جميعاً ، وأنها مكنتهن من السيطرة على أزواجهن ، حتى أصبحت الحياة الزوجية بغيضة فى نظر الرجال واستنجدوا ببريمستون ليخرجهم من مأزقهم هذا ، لكنه أعلن لهم عجزه عن الكلام مع زوجته ، وأن كلامه معها لا يعدو أن يكون نباحاً على القمر .

وفى الوقت الذى كاد يتم فيه ترتيب حلقة السباب ، اجتمع نساء المنطقة وأعلنّ الحرب على الرجال ، وقررن أن الوقت قد حان لوقف الرجال عن تسلية

أنفسهم بمخالفة وصايا الله ، وكانت الأخت « والاس » (*) زعيمة الاجتماع هى التى تعهدت بأن تقوم بدور المصلح ، وكان هناك خلاف فى أول الأمر على مكان الاجتماع ، فقد أرادت كل سيدة أن يكون فى عزبتها ، لكن الأخت « والاس » استطاعت أن تؤكد أنها صاحبة الحق فى عقد الاجتماع فى عزبتها باعتبارها صاحبة الفكرة أصلا ، واحتجت الأخت « كامبل » بأن « بريمستون » هو الشيطان نفسه ، وأنه سيكون مصدر متاعب كثيرة إذا أقيم الاجتماع فى عزبته ، وعلى ذلك فإن عزبتها أفضل .

وقالت الأخت « جونز » إن السيد كامبل بدأ العمل فى تربية البقر عاملا أجيراً فليست له شهرة محترمة ، أما الرجال فكانوا يتبادلون كئوس الشراب فى مكان آخر ، وكان النساء فى البيت يتبادلن الكلمات الخشنة فى الوقت الذى كانت فيه الأخت « بريمستون » تقوم بدور حمامة السلام بينهن .

وأنهى « بريمستون » المسألة بأن قال : إنه يريد شخصيا أن يقيم الرعاة شجرة على شاطئ النهر تكون قريبة للتعميد ، وكان الرعاة يكرهون العمل الراجل ، لكنهم اضطروا أن يستجيبوا لأمر نسائهم بالعمل .

وسارت الأمور كلها على ما يرام ، ولم يمض وقت طويل حتى وجد بريمستون كامبل وعددا آخر من لصوص البقر يبكون عند المبكى ، ويصيحون هللويا ، وكان بريمستون يذهب إلى المبكى كل ليلة ، ويجلس فى مقعد خلفى ، ويبدو عليه القلق الذى يحسه الجمل فى صحراء « كلونديك » ، وكان الرعاة يرون أنه قد تورط فى حمأة الإثم لدرجة لن يجد معها الطريق المستقيم الضيق ، ولذلك لم يعبأوا بكونهم خسروا بطلهم فى السباب ، إلى أن بدأ يتقدم مقعدا أو مقعدين كل ليلة ، وأغراه بعض الرعاة بأن يبقى معهم خارج المبكى حيث يستطيع أن يرى ويسمع ، وأن يضع قبعته ويدخن ، وأحضر أحدهم زجاجة شراب وطلب إليه أن يشرب منها .

(*) زوجة بريمستون أحد البطلين المتصارعين — المترجم

ولكن الاخت والاس تدخلت فى الأمر ، وكانت فى كل ليلة بعد ذلك تأخذ بريمستون إلى مكان الاجتماع ، وتجلسه فى الصف الاول ليرقبها من حيث تغنى التراتيل ، وكان الواعظ يوجه الحديث والوعظ إليه بالذات ، وكانت العبرات تخنق صوته وهو يصور بألفاظه الملائكة وهم يلعبون على قيثاراتهم ، والنار الخالدة فى جهنم ، ويتحدث كثيرا عن ثمن الخطيئة ، وكان واضحا أنه يقصده بوعظه ، وكان بريمستون يحس فعلا كأنه دمل بارز فى أنف بارزة ، وكان الواعظ يطالب إلى الجوقة أن ترتل تراتيل لطيفة ، وهو يطالب إلى « بريمستون » أن يطرد الشيطان من روحه ، وأن يسلم ، وبريمستون يزيغ بعينيه وينتفخ كضفدعة فى مخمضة لبن ، وسرعان ما تقهقر إلى الصفوف الخلفية من المبكى ، وهو يصيح بصوت عال لابد أن الملائكة قد سمعوه ، ثم أخذ كل من الحاضرين فى الصياح والنحيب حتى انتهى الاجتماع .

وفى يوم الأحد التالى أقاموا الاحتفال بالتعميد ، فلما نزل المؤمنون جميعاً إلى النهر بدا كأنه فى فيضان ، وكان بريمستون واقفا فى وسط الماء كفرس صغير وضع عليه السرج لأول مرة ، وما أن وصل الواعظ إليهم حتى مد « بريمستون » يده إلى جيبه وأخرج منه مضغة من الدخان يهدئ بها أعصابه .

وصاح « يا للعنة ، لقد ابتل دخانى » ، وصاح الرعاة على الشاطىء صيحة تسمعها الولاية المجاورة .

ونادى راعى بقر على « بريمستون » قائلا له : « لا تدعهم ينزعوا ريش جناحيك أيها الملاك الصغير » .

وجن جنون الآثم القديم ، وفتح فمه ليطلق سيلا من الشتائم ، لكنه سرعان ما غاص فى المـاء قبل أن يقفل فمه ، فطفا فوق الماء يسعل و يبصق ،

لكن غضبه خف دون شك ، ويقول الناس إن هذه هى أول مرة يستحم فيها منذ سقوط « ألامو » على أى حال ، فإن المحقق أن غضبه قد زال عنه .

وبعد ذلك التعميد شمل المنطقة جفاف هو أسوأ ما حدث فى تلك السنين ، فقد جفت عيون الماء ، وأختفى الماء من النهر ، ولم تعد هناك أية حشائش تخفف من حدة المكان ، وانشغل الرعاة بتربية الماشية انشغالا جعلهم ينسون حلقات السباب ، ورأى بريمستون أبقاره تعجف ، ويموت الكثير منها ، فقرر أن الدين قد لا يكون علاجا ناجعا لذلك ، وأعلن استعداده للدخول فى مباراة سباب مع من يرى فى نفسه قدرة على منازلته ، وركب أحد الرعاة إلى « تومستون » واتفق مع تاجر البغال الذى ادعى القدرة على ذلك ، وفى ليلة المباراة قال « بريمستون » لزوجته : إنه سيركب ليعود ببعض الأبقار الضعيفة ، ثم سار إلى المدينة ، ولابد أنه أجهد نفسه فى تلك الليلة ، إذ كان بحاجة إلى أن يلعن الجو ، وجمع فى ذاكرته كل قديم وجديدمن ألفاظ السباب الخاصة به .

وما أن بدأ المباراة حتى انفجر فيها بصورة تعذرت معها تهدئته حتى أعلن فوزه ، وصدق أو لا تصدق أن المباراة لم تكد تنتهى حتى انهمر المطر ، وهناك من يقول إن دخان الشتائم المنبعثة من « بريمستون » هو الذى قضى على الجفاف .

(٥)

الغناء عند رعاة البقر

ما أكثر ما كتب عن أغانى رعاة البقر ، بعضه كتبه متخصصون من المثقفين ، لكن كل ما كتب يثير غبارا كثيفا يخفى الحقائق ويجعلها خلوا من الصدق كما تخلو سحلية الماء من الأجنحة ، ولقد أذاع الراديو قدرا من أغانى رعاة البقر فى الأيام السالفة ، وحتى إذا كان المذيعون يجهلون كل شىء عن هذه الأغانى فقد ساعدوا على أن تصبح أغانى رعاة البقر شيئاً محبوبا شائعا ، ومع ذلك فإن قليلا من الناس من سمع تلك الأغانى كما تغنى فى الفلاة ، لكنهم كانوا يسمعون بعضها مشوها كما ينشره الناشرون ابتغاء الكسب ، وأحب هنا أن أروى شيئاً عن هذه الأغانى كما يغنونها فى الفلاة .

لقد نشأت عند من يعملون فى الفلاة عادة الغناء أثناء العمل ، فهذا يخفف العبء عليهم ويسليهم ، وفى أول عهد رعاة البقر بحرفتهم تبينوا أن الصوت الآدمى يبعث فى الماشية الاطمئنان ، فلا تعود إلى الفرار من الناس كما كانت تفعل من قبل ، وأحسب أن ذلك بدأ بأن يأخذ صاحب القطيع يدندن لنفسه حتى لا يحس وحدته ، وانتشرت العادة حتى أصبح يقال عن رعاية الماشية بالليل إنه غناء لها ، ويقول البعض : إن مجرد الكلام لا يقل فى أثره عن الغناء ، لأن الصوت الآدمى هو الذى يجعل الماشية تحس الاطمئنان ، ويبعد عنها الاضطراب والخوف ، لكن حديثك إلى نفسك بصوت عال لا يمكن أن يقبل كعادة سليمة ، فإن أحدا لا يرضى أن يظنه الناس مجنونا ، يتكلم مع نفسه ساعة أو أكثر .

وكان معظم رعاة البقر القدامى يجيدون رواية القصص ، وكانوا حين يركبون معا يروون القصص بالشعر ، ثم يغنونها تبعا لنغم يكونون قد سمعوه

وكانوا كثيراً ما يتبعون الألحان الدينية التى كانت أمهاتهم تغنيها لهم فى طفولتهم ، لكن كلمات القصة التى يغنيها الراعى لم يسبق أن سمعها من أمه ، وكانوا يسمون الأغانى « تراتيل » ، لكن هذه التراتيل كانت لا بد تسبب لمرتلها صدمة شديدة لا يفيق منها إلا بعد زمن .

وأغانى رعاة البقر نوع من صياحهم ، وتختلف عن غيرها من أغانى أى قوم فى شعب آخر ، وقد تعلم راعى البقر صيحاته من أحد الوحوش الضارية ، فهو يصيح صيحات نافذة طويلة تجعل شعر رأسك يقف ، ويجعل نبضك يدق ، ودمك يغيض ، وأغانيه كذلك تختلف أيضاً بما فيها من دقات قلب حزينة كأنما يضع أسراره وبؤسه فى ألحان حزينة هى له وحده ، وما فى كلام راعى البقر وغنائه من سحر إنما هو فى تلك اللكنة التى يعطيها لحديثه ، فهى تضفى نوعا من الطعم الحلى للغته .

ويعتقد معظم الناس أن أغانى رعاة البقر هى ما يسمعونه يذاع فى الراديو من بعض رعاة البقر من نيوجيرسى ، ولو أنك حكمت على أغانيهم بما تسمعه من الراديو لتصورت أنهم يغنون طول الوقت ، لكنك فى الفلاة لا تسمع شيئاً من ذلك ، بل لتخيلت أن كل شخص يستطيع أن يمسك قيثارته وينطوى فى ثيابه يحاول أن يحصل على عمل فى الإذاعة لكى يخور كعجل صغير ضل طريقه إلى أمه ، فيظل يملأ الجو بضوضائه كأنه يغرغر حلقه بشحم مما يستخدم فى تشحيم محاور العربات ، وكثير من أهل المدن الذين يأتون إلى الفلاة يخيب أملهم حين لا يجدون بعض رعاة البقر يركبون ومعهم قيثارة مشدودة إلى كتفهم ، وما يغيظنى هو أن أسمع واحدا منهم يغنى : « سر إلى جانبى يا كلبى الصغير » .

ولم يكن فى الفلاة كثيرون يعزفون على القيثارة ، ثم إن الآلة نفسها يصعب حملها من وراء الراعى ، لكن هناك آلة صغيرة تجد عددا كبيرا منها فى معسكر

البقر ، وهى أرغول يلعب عليه بالفم ، ويحتفظ به كثيرون فى جيوبهم ، وقد يمتلىء ببقايا الدخان التى فى الجيب . لكن حين يستطيع الواحد منهم أن يجيد العزف عليه فإنه يصب كل روحه فيه ، وقد لا يغنى رجل المدينة بهذه الآلة كثيرا ، لكن راعى البقر المتعطش إلى الموسيقى ، البعيد عن الراديو والحاكى يجد فيها تسلية كبيرة .

وراعى البقر لا يسمع الكثير من الأغانى التى يذيعها الراديو منسوبة إليه ، وقد تكون من تأليف فنان كبير لم يزر البرارى وأهلها قط ، ثم إن بعض أغانى رعاة البقر تغيرت بشكل يجعل كبارهم فى السن لا يعرفونها ، كما أن الكلمات الأصلية قد طواها النسيان . ومن أسباب كره راعى البقر للمغنين فى الراديو والسيما أنهم يمثلون رعاة البقر مع أنهم ليسوا منهم ، وأستطيع أن أراهن أن واحدا منهم لا يستطيع أن ينقل بقرة من الشمس إلى الظل ، وقد يكون كرهه لهم سببه أن المغنى فى الراديو يستمتع بصوت أجمل من صوته ، وأن بعض الأغانى التى يغنيها جميلة فعلا ، لكن المشكلة هى أن الأغنية إن صادفت نجاحا ظلت تغنى دائما حتى يضيق بها راعى البقر ويتمنى لو استطاع أن يطلق النار على مغنيها .

ويخطىء الكثيرون ممن يظنون أن راعى البقر يغنى لأبقاره حتى تنام ، فالحقيقة أن راعى البقر يحاول أن يسلى نفسه ولا شىء غير ذلك ، فهو أولا ـ لا يكنّ لأبقاره حب الأم لوليدها ، وكل ما يعمل هو أن يمنع أبقاره أن تفر من مرابطها ، وثانياً ـ أن الأبقار ليست لها آذان موسيقية ، وهذا من حسن حظها لأن صوت راعى البقر وأغانيه ليس فيها ما ينعش ، أو لعل الطبيعة لم تنعم عليه بما يساعده فى هذه المحاولة ، لكنه حين يفتح فمه ليغنى ، ينبعث منه شىء كالضوضاء ، وصوته فى الغالب كحشرجة مريض بالبرد ، والصخب الذى يسميه غناء كفيل بأن يطارد الطيور كلها من الفلاة .

والكثير من أغانيه فيه اجتراء على النغم ، وفيه كثير من الصخب ، لكن الرجل ليس بحاجة لأن يكون عذب الصوت حتى يغنى لنفسه حين يكون وحده فى الظلام إذا كان له ضمير خالص ، وكان مختفياً عن الأنظار ، ونحن حين نقول إن صوته به صخب كثير فنحن لا نتكلم عن غنائه فى الليل ، وإذا صادف أن كان لراعى بقر صوت يصلح للغناء ، وبدأ يغنى ، لوحظ أن الآخرين يتجمعون حوله كما يتجمع قطيع العجول حول عربة ممتلئة بالحشيش ، فرعاة البقر مغرمون بأن يتسلوا بالغناء الطيب ، فقد ملوا سماع الغناء الردىء ، ومهما يكن راعى البقر متضايقاً فإنه سريع التأثر بأغنيات البرارى القديمة .

وما يضيق به معظم رعاة البقر هو أنهم فقدوا أصواتهم وهم يصيحون على الأبقار الشاردة ، وأنهم ينامون فى الطل ، أو حين كانوا يحاولون أن يبينوا للقاضى أن أحدا استولى عنوة على بعض أبقارهم ، وأن علامة أبقارهم مدموغة عليها ، وذات مرة بدأ راعى بقر الغناء ، فتصورت أنه ثور يخور فى أزمة بموسم خضرة ، وأنسانى غناؤه كل متاعبى ، فأنت لا تذكر المتاعب التافهة حين تسمع صوته يصك وجهك كله .

وأنت إذا أردت أن تحيى راعى بقر فيكفى أن تقول له : « إننى أحب تلك الأغنية أو « إن هذه أغنية طيبة » لا تقل له أبدا « إنك مغن مجيد ، فهو حتى إن عرف أنك تكذب يمتلىء بالزهو والغرور كقطة متوحشة .

وراعى البقر لا يعرف شيئاً عن القوافى والعروض ، لكن سجعه يتمشى مع حركات جواده ، وكلماته التى اعتاد أن يستخدمها يجب أن تكون مألوفة فى البرارى ، فإن سمع أغنية استخدمت فيها كلمات غير مألوفة ، كان على استعداد لأن يدخل فى شجار ، وهو حين يؤلف أغنية لا يهتم كثيرا بأن يكون

بيت منها طويل جدا وآخر قصير جدا ، فإذا سمعت أغنية راعى بقر ولاحظت أنها صحيحة فى وزنها وقافيتها فثق أن أحد المتعلمين قد صححها له .

ومعظم رعاة البقر يستطيعون أن يجعلوا الكلمات البسيطة تتوازن ، وإن كانت أوزانها غير دقيقة ، وهو أثناء ركوبه وحده يبدأ فى تأليف قصة عما حدث له فى يومه أو عن حادثة سابقة تذكرها ، وبعد تأليفها يلحنها تبعاً للحن سمعه ، ورغم كثرة من يستطيعون تأليف الأغانى منهم ، ليس بينهم من يؤلف لحناً ، وراعى البقر لايعرف أى لحن يوقع به أغنيته ، إلا إن كان لحناً قديماً عرفه منذ طفولته ، وغالباً ما يكون لحناً دينياً يجعل أغنيته حزينة ، لكن من كلماته التى يستعملها لا تتصور قط أنه كان لحناً مقدساً فيما مضى ، ويبدو أن معظمهم يريد أن يقنعك بأن شيئاً قد قشع فعلا تلك الغيوم التى تبطن سماءه ، وهو يريد منك أن تحس أنه جدير بعطفك ، وأن يصور نفسه بأنه أكثر ابتلاء من أيوب .

وبهذه الطريقة وضعت الأغانى الجديدة . وحين يضع راعى البقر أغنية ويرى أنها جيدة ، يغنيها لأصدقائه ، فيقومون بنقدها وتعديلها لتكون أحسن ، وقد يضيف أحدهم بعض سطور أخرى ، وسرعان ماينسى الذى ألف الأغنية كلها ، وهذا سبب ضياع اسم مؤلف الأغنية ، وعندما يلتقى رعاة بقر من مختلف المعسكرات فإنهم يتنافسون فى الأغانى ، وهم يحبون أن يحفظوا الجديد منها ، وأن يعلموا الآخرين ما حفظوه منها .

والرحل من الرعاة بين معسكر ومعسكر ينثرون الأغانى أثناء ركوبهم ، وتنتقل أغانيهم من فم إلى فم ، تضاف إليها فقرات أو تقتطع منها فقرات لتتمشى مع ذوق مغنيها الجديد وهو يوقعها ، ولهذا تجد نسخاً مختلفة للأغنية الواحدة مطبوعة .

ومعظم أغانى رعاة البقر مؤلمة ، بطيئة ، كئيبة ، يريد مغنيها أن تنفذ فيك ، وهو يستمتع ببؤسه ، فهو يريد أن يتغنى بتلك الأيام القاسية والعيشة الصعبة التى عاشها ، والمتاعب التى يعانى منها ، لكنه لا يرضى أن يستبدل حياة الحرمان بحياة المدنية ، لقد عاش فى أرض فسيحة منعزلة ، ولكنه أحبها ، وإلا لما عاش فيها ، وهو يحب أن يغنى المآسى والنكبات ، لأنه رأى حوله الكثير منها ، ويحب أن يغنى للموت لأنه يمتلىء بالحياة .

ويظن الكثيرون أن راعى البقر يقوم بالغناء كثيرا فى أثناء عمله بالليل ، فهو حين يكون سائقا لقطيع بقر بالليل ويلقى أحداً من بنى قومه فى طريق مضاد فالغالب أن تسمعه يدندن لحناً بغير كلمات ... شيئا يجعل القطيع يهدأ ، ويقتل الوقت به ، وحتى إذا غنى بالكلمات فهو يردد مقطعاً من هنا ومقطعاً من هناك ، أما ترديد أغنية بأكملها فإنما يقتصر على حفلات معسكرات النار فى مناسبة أو فى أخرى ، والموسيقى هى التى تفعل فعلها فى تهدئة الماشية ، وليست الكلمات ، فلو أن الماشية عرفت الكلمات لبارحت الارض ومن عليها بأسرع مايمكن .

فغناء الليل دندنة دائما ، لأن الغناء بصوت عال لا يهدىء القطيع ، ويمكن لأية أغنية أن يتغنى بها فى رحلات الليل إذا كان لحنها نافذا يسرى فى الليل ، بطيئا كجواد يخطر .

أما أغانى اقتفاء الأثر فهى جد مختلفة ، على أن معظمها يردد فى نعومة إلا ما كان منها لحث القطيع على السير ، فهذا يكون صيحات مدوية ، وهى لغة وضعها رعاة البقر ويفهمها البقر فهما كاملا ، فإذا سمعت أغنية من أغانى رعاة البقر تذاع بالراديو بشىء من القوة ، فتأكد أنها لا تغنى كما يغنيها راعى البقر فعلا .

فراعى البقر الأصيل يمتلىء دائما بالمرارة ، فهو حين يفتح فمه تماما ، ليصيح على

القطيع بستحثه على السير ، عرف القطيع ما يعنيه ، وقد وضعت هذه الصيحات فى ألحان ، وأضيفت إلى أغنيات الجماعة ، وكثيرا ماسمعت راعى بقر يخرج صيحات يفزع منها الذئب

والسيطرة على قطيع فى ليلة مظلمة عاصفة تتطلب رجلا خبيرا ، فإن كان الجو صحوا ، وكل بقرة لها نصيبها من الحشيش والماء ، كان كل شىء هادئا ، أما إن هبت العاصفة وساء الجو ، واستبد القلق والاضطراب بالبقر فقد يكون الظلام دامسا بحيث لا تكاد تجد أرنبة أنفك لو حاولت أن تقبض عليها بكلتا يديك ، وهذا هو أنسب وقت يغنى فيه الراعى غناء حقيقيا قد يستمر حتى تتعب ، وقد تلعن القطيع الذى تسوقه ، لكن إذا كنت تلحن شتائمك بنغم هادىء ، ففى ذلك مايهدىء قلق القطيع .

وفى رحلات الليل قد يكون غناء الراعى آليا بحتا ، لأن عينيه وعقله شغلت بمراقبة كل حركة فى العراء من حوله ، ليستطلع ما قد يهدد قطيعه وإحدى عينيه على أذن جواده ، فلو أن الأمور تجرى هادئة لنصب الجواد أذنيه كأنه يستمتع بالغناء ، أما إذا مدهما إلى الأمام فإن الراعى يحس أن أمامه خطرا ، وتأكد أن الجواد لا يكذب .

والحارس الذى يمضى فى طريقه ليحل محل حارس آخر يجب أن يقترب من القطيع وهو يغنى حتى يعرف أنه قادم ، حتى لا يدخل على القطيع وهو غير مهيأ لا ستقباله ، وكان « تشارلى راسل » يقول دائماً : « إن اطمئنان القطيع بالليل مسألة بالغة الأهمية » ، فدخولك على القطيع بغير غناء قد يجعله يفر فى جلبة وقرقعة أعلى من قرقعة عجلات عربة فارغة على أرض يغطيها الجليد .

و بعض رعاة البقر حين يذهبون إلى المدينة ، يعمدون بعد تناول كأسين

أو ثلاثة من الشراب إلى تدريب حناجرهم على الغناء إذا لم يكن صاحب الحانة يستمتع بأذن موسيقية ، لكنك لا تراهم أبدا يغنون على قارعة الطريق كطلبة المدارس والجامعات .

وكثير من رعاة البقر يغنون حين يكون الواحد منهم وحده ، وأعتقد أن أول عهد الراعى بالغناء كان وهو فى وحدته ، فهو حين يقوم بعمل فى عزلة يساعده الغناء على قضاء الوقت ، ولعل معظم الشعوب البدائية التى تعيش بمعزل عن المجتمعات لجأت إلى الغناء بقصد التسلية ، فهم يستخدمون لحناً قديماً مألوفا ، ويخلطون الجد بالهزل ليستعيدوا ذكريات أمهاتهم وأحبابهم ، وموطن آبائهم . وراعى البقر يعجب بالشجاعة ، ولايهمه إن كانت البطولة فى الخير أو فى الشر ، بل يحترم الشجاعة أيا كانت ، وهذا ماجعله يعجب ببطولة بعض الخارجين على القانون مثل « سام باس » و « جس جيمس » .

وهو يحب الذين يولعون بالمخاطرة والمغامرة ، وبطله فى الغالب شخص قاس عنيف مع خصومه . وراعى البقر يكره « ذلك الجبان الحقير القذر الذى أطلق النار على السيد هوارد » ، كما يكره الخونة من أمثال « جيم مورفى » الذى ضلل « سام باس » ولا يمكنه أن يتغنى بحوادث مخادع مثل « سوبى سمث » .

وأحياناً ما يلتقط من جريدة أو مجلة قصيدة كتبها شاعر مجيد مثل « بادجر كلارك » أو « لارى شتندن » أو « هربرت بنز » ويشكلها فى لحن مشهور وينشرها فى البرارى حتى تصبح أغنية من أغنيات رعاة البقر .

ويحدث أن يأتى بعض البحارة الفارين إلى البرارى ومعهم أغانيهم فيأخذها الرعاة منهم ويغيرون كلماتها بما يناسب حرفتهم ، وفيما يلى أغنية قديمة من أغانى الملاحين :

« كلا ، لا تدفنى فى أغوار هذا البحر العميق »

« تدرج من فوق تلك الأمواج الزرقاء الداكنة »

وقد أحالها الرعاة إلى أغنية من أشهر أغنياتهم بأن غيروا بعض كلماتها على الوجه الآتى :

« كلا لا تدفنى فى هذه البرارى الموحشة »

« تعوى من فوق تلك الذئاب الشرسة ».

وعلى الرغم من أن النساء كن أندر من الحشيش فى شوارع المدينة ، فقد كانت لراعى البقر أغانيه فى الحب ، وهى تعكس أيضا وحدته فى حياته ، فهو حين يغنى حبه الضائع يحاول دائماً أن يسقط عليه دموعه وعبراته ، كما كان له دينه كذلك ، فهو يعيش فى فضاء الله الواسع ، ويدرس النجوم ، وهو يرقد بالليل فى البرارى المكشوفة ، وهنا يجدر بنا أن نذكر أغنية الرعاة المشهورة المسماة : « حلم الراعى » :

« فى الليله الماضية ، كنت أرقد على الأرض فى البرارى » .

« وتطلعت إلى النجوم فى السماء » .

« وتحيرت إن كان راعى البقر »

« قد يصل إلى المراعى الجميلة القريبة منه ؟ ! »

وجمال أية أغنية يقاس بصلاحيتها للغناء ، وأغنيات رعاة البقر تتميز بذلك اللحن السهل المتماوج الذى يستهوى أمثالنا من العامة ، وقد ظلت هذه الأغانى زمنا طويلا يتوارثها الناس بالسماع ، حتى قام بعض المتعلمين بتدوينها ، غير أن

ما ينشر منها خلا من الكلمات التى يقفّ لها شعر الرأس ، فلم نعد نسمع إلا الأغانى التى شوهت بصورة تساعد على انتشار بيعها .

ويقولون الآن إن بعض العزب الحديثة يستأجر أصحابها بعض اللاعبين على القيثارة ، للترفيه عن زائريهم من أهل المدن ، وقد يكون اللاعب رائعاً ويستطيع الغناء لذوات القلوب الخالة من الفتيات السائحات ، لكنك إن وضعته فى البرارى ليغنى كما يغنى راعى البقر لقطيعه ، لما وجد سحرا فى حياة البقر ، ولوجدت صوته الجميل وغناءه الرائع لا يعنيان شيئاً .

وراعى البقر لم يعد بحاجة إلى رعاية قطعانه ، ولم يعد يحس الوحدة كما كان جده يفعل ، لكن الغناء ما يزال جزءا من حياته ، وكلما سمعت راعى غنم يغنى عرفت أن كل شىء على ما يرام ، حتى لو كان صوته كقرقعة عجلة نسى صاحبها أن يدهنها بالشحم .

ولا أتصور راعى بقر يغنى إلا تذكرت واحدا منهم لقيته فى مراعى تكساس ، ثم شاهدته بإحدى الحانات يعب الشراب حتى انبسطت أساريره وزاد مرحه فراح يغنى إحدى الأغانى القديمة .

ثم أبى الساقى أن يقدم لهذا الكاروزو(*) من رعاة البقر كئوساً أخرى وقال لى فيما بعد : إنه أراد أن يتخلص من هذا المغنى ، قبل أن يؤدى إلى حموضة باقى الشراب فى الحانة ، لكن هذا الراعى مع ذلك كان يستمتع بحياته ، فلم يضايقه منع الشراب عنه ، وكانت الحانة عالية البناء تقوم على قاعدة من الخشب ارتفاعها خمس أقدام من الأرض ، وبها درجات واسعة تؤدى إلى الشارع وفيما

(*) كاروزو : هو أحد مشاهير الغناء — المترجم .

كان يخرج من الباب الدائر إلى حانة أخرى ترحب باستقباله ، كان يرفع ساقيه فى مشقة ، ولم يكد يصل إلى خارج الباب حتى انطلق فى ترديد الأغنية التى بدأها من قبل :

« وسأضع ركبتى على السرج ، ومقعدى فى السماء »

« وأترك رعى البقر فى الأرض الخضراء القريبة » .

وفى ذلك الحين أخطأت قدماه الدرج فهوى على الأرض ، وقرقعت عظامه كما تقرقع حزمة حطب اصطدمت بالأرض ، لـكنه انتصب واقفاً ، وواصل أغنيته فى توازن صحيح كأن شيئاً لم يحدث .

« وأقسم بربى أنهم جعلوا هذا الدرج عالياً . . . عالياً »

(٦)

راعى البقر فى مرحه

هناك مرح خفىّ فى كل ما يصدر عن راعى البقر ، فالأرض التى يعيش فيها واسعة مكشوفة ، والحياة التى يحياها قاسية موحشة ، وهذه الوحشة إلى جانب نقص تعليمه ، وعدم ميله إلى احترام القانون ، لها أثرها عليه ، وكرهه الطبيعى لأى قيد ، وبغضه لأى سلطان عليه ، وإسرافه فى المرح ، وقدرته الفائقة على التعبير بالصور اللفظية — كل ذلك يشهد للغرب بروحه المعروفة ، ومن هذه الصفات استمدت لغة الغرب بعض حيويتها .

وعلى الرغم من أن راعى البقر يحيا حياة شاقة ، فهو يرى الجانب المرح فيها ، حتى ولو كان المقصود منه التندر والتنكيت ، فليس هناك من يتقبل التندر عليه بروح راعى البقر وتسامحه . ومرحه ينشأ مما يعرفه ويشاهده ، ويعبر عن نفســـه بكلام تصويرى حلو المذاق ، خصب ، قوى ، سواء فى مزاحه أو فى ألعاب جواده ، أو فى القصص الطويلة التى ينسجها حول معسكرات النار .

وراعى البقر من أعظم رواة القصص فى عصرنا ، فهو يلاحظ كل شىء من حوله ملاحظة دقيقة ، ثم يفكر فيه فى وقت متسع ، وقد طور رواية القصص إلى فن عال ، فالحياة التى يحياها والمشاهد التى يشهدها ، وموهبتــه فى التصوير اللفظى ، واتصاله الوثيق بالطبيعــة — جعلت منه كلها شخصاً ذكياً فصيحا .

وقد تتطلب لغة راعى البقر بعض التنقيح لاستخدامها فى الصالونات الأدبية ، غير أنه لم يكن يستخدم الألفاظ الخارجة فى رواية القصص ، كما يفعل بعض أهل المدن ، كما أنه لا يدخل الجنس فى موضوعاته التى يتناولها أو يتندر بها ، وكانت النساء فيما مضى قليلات ، لدرجة كان ينظر بهما إليهن بالاحترام والإعجاب ، وهن فى نظره فريقان : فريق صالح يجله ويحترمه ، وفريق شرير لا يثنى عليه .

ورعى البقر عمل شاق ، لكن معظم الرعاة كانوا يجدون فيه جانبا مرحا ، وكان من بين مسرات حياتهم رواية القصة الطويلة أو المضحكة التى تثير ضحكهم . وراعى البقر حين يضحك ويقهقه يكون كالقرد الذى يرقص على عصا ، وحتى حديث يومه العادى لا يخلو من مرح . وقدرته على رسم الصور المرحة لا ينافسه فيها أحد .

وكان يجد فى جلوسه إلى جوار عربة جائلة يستمع إلى تندر بعض العجائز متعة لا يعدلها فى نظره أى غرض هزلى ، وروحه المرحة كثيراً ما تخفف من حدة توتراته ، ومنعها من أن تستبد به .

على أن رعاة البقر فى مرحهم يختلفون عن غيرهم فى شتى مناحى الحياة ، وكثير من الناس يحب العمل معهم ، لأنهم يجيدون رواية القصص التى تشيع روح المرح فيهم ، فراعى البقر لديه موهبة تمكنه من رواية قصصه منسوبة إلى شخصه ، غير أن معظم قصص رعاة البقر تتناول الحديث عن البقر .

وليس هناك إلا القليل من الأمور التى يأخذها راعى البقر على محمل الجد ، فهو يعيش عيشة بسيطة ، ينغمس فيها ، وهو يتحمل متاعبه بشىء من التسلية المبتورة ، وهو — عن وعى منه أو عن غير وعى — يميل إلى أن يعيش ، فهو يستيقظ

فى الصباح ، ليواجه العالم من جديد ، ويطلب إلى كل من يقابله أن يذهب إلى جهنم — بطريقة هادئة ، مرحة ، وقد اتخذت لغته صفة الطبيعة فكلاهما جرىء لا يخاف ، وهو يستطيع أن يعبر عن أفكاره بمقارنات ومبالغات يقتبس لها صوراً من حرفته ، ومن الأشياء التى يألفها فى حياته .

وليس هناك قوم يستمتعون استمتاعه بروح مرح قوية يعتبرونها جزءاً من حيواتهم . ووحدة راعى البقر تهيىء له الوقت اللازم للتأمل وتدريب قوة ملاحظته ، وهو يرى الجد فى كل صغيرة وكبيرة ، ويجد جانباً مرحا فى كل حدث أو موقف من أحداث حياته ومواقفها .

وكل ما يحيط براعى البقر يجعل منه شخصاً قوى الملاحظة ، يقظا تتوفر فيه قدرة الاعتماد على النفس وحمايتها فى أرض شاسعة خواء يقضى فيها وقته وحيدا فى خطر ، وهذه اليقظة فيه تعتبر هى الضرورة التى لا بد منها للملاحظة الدقيقة ، ولهذا التعامل مع الحيوانات المتوحشة ، التى لا يمكن التنبؤ بها ، وهذا القرب من الطبيعة كلها جعلت من راعى البقر شخصا مرحاً غاية المرح .

ويميل مرحه فى الحديث إلى أن يكون ذكاء بحتا ، ومعظم حديثه ذو صور ممتعة ، ويتوقف الأثر المرح الذى يريده على حركات وجهه التى يحاول أن يعطيها صورة الجد . وقوة مرحه ترجع إلى شبابه ، وامتلائه بروح اللعب والمزاح ، فمن كان على شاكلته لا ينظر إلى مشكلات الحياة نظرة جادة ، وليس مرحه مجرد ومضة خاطفة فى ظلمات ضيقه ومتاعبه ، ولذلك كان المرح واضحا حتى فى حديثه اليومى العادى .

أما مع الغرباء فحديثه موجز ، وكلامه لا ينطلق فى العادة إلا إذا أحس

الألفة والمودة نحو المستمع إليه ، وتدل عباراته وكلماته العادية التى يحيلها بذكائه وفطنته إلى شىء جديد — على قدرته الكبيرة على الإيجاز ، وعلى استعداده الدائم للتعبير عما يريد ، وليس فى حياة راعى البقر ولا فى ضحكه إلا قليل من التهذيب ، فضحكه ضحك جماعة قست عليهم الحياة فى الفلاة ، لكنه على أية حال وسيلة طيبة لتقدير قيمتهم .

ورعاة البقر يتمثلون بالسخرية المرحة ممن يعجزون عن القيام بعمل ما ، لا تأخذهم بهم رحمة ولا إشفاق ، فإذا أخطأ رامى الحبل فى إلقائه على ثور بعد المحاولة الثالثة ، تقدم إليه آخر قائلا : « لماذا لا تضع طابع بريد على طرف الحبل وترسله إلى الثور بالبريد ؟ » .

وحدث أن أحدهم أراد أن يركب حصانا اشتهر بقدرته على أن يطوح براكبه إلى أعلى ، فقال له آخر : « هل تريد أن ألقى إليك بمعطفك ، فقد تجد الجو باردا هناك ؟ » .

ويروى « تشارلى راسل » فنان رعاة البقر العظيم قصة « بيل بولارد » وهو يربط ذئبين بحبل واحد ، وكانا شبه ميتين من السم ، وكان يحاول أن يحملهما على ظهر جواده ، كلا منهما فى طرف الحبل ، فقد ذعر الجواد حين رأى الذئبين قريبين منه ، فلم يتوقف عن الجرى حتى حين وصل إلى المعسكر ، فقوبل « بيل » بعاصفة من السخرية : فمن قائل : « لماذا تسرع يا بيل » ألا تبقى لتناول الطعام يا « بيل » ؟ لا تسرع يا « بيل » فالوقت متسع أمامك ! إن كنت تقصد « ميدسين هات » فاتجه قليلا إلى اليسار ، وقد يكون « بيل » قصد أن يصيد عصفورين بحجر واحد ، لكنه تعلم ألا يربط شيئين بحبل واحد .

وقد تأخذ سخرية راعى البقر شكلا غير الهزل ، فالمشهور عن صاحب

العربة الجائلة أنه رجل دبلوماسى لم يكن ينال بالسخرية العلنية أحدا من رعاة البقر ، لكنه حين كان يأخذه إلى داخل العربة يسخر منه سخرية لاذعة . يروى « جون هندركس » أن صاحب عربة جائلة رأى راعى بقر يحاول أن يغمز حصان العربة ، فقال له فى هدوء : « قد يكون من الأنسب لك أن تقترض سكين الجزار إذا أردت فعلا أن تبقر بطن الجواد » ، وكان لهذه السخرية أثر أقوى من أى كلام كان يمكن أن يوجهه إليه ، وقال ذات مرة لراعى بقر كان يشد اللجام بعنف فى فم أحد الخيول حتى أدماه : « إذا كنت تريد أن تقطع فم الحصان فلماذا لا تستخدم فأسا ؟! » فلم يعد هذا الراعى لمثل هذا العمل أبدا .

وذات مرة جاء شاب من شرق تكساس إلى مزرعة من مزارع تكساس الغربية وطلب عملا فى رعاية البقر ، واستخدمه صاحب المزرعة ليتسلى به مستخدموه من رعاة البقر ، لكن الشاب كان يطمع فى أن يصبح راعى بقر ، فعند أول فرصة واتته ربط حبلا حول جواد جديد وأسرجه ، وكان الجواد معدّا لتسليمه لرجل اشتراه ، وحاول « سابين » — وهذا هو اسم الشاب — لأنه قدم من شاطىء نهر «سابين» — حاول أن يركب الجواد دون أن يراه أحد ، وبعد أن أوقعه الجواد عن ظهره أربع مرات أو خمسا استدعت الحركة التفات بعض الرعاة فأسرعوا إليه وهو يتأهب لمحاولة جديدة .

ونظر « كيرلى ماليسون » إلى الأرض التى حرثها الشاب بجسمه فى وقعاته الكثيرة ، ثم قال مخاطباً الشاب فى جفاف : « ماذا تفعل يا بنى ؟ هل تزرع الأرض ؟ » .

وقال آخر : « إن صاحب المزرعة لا يرضى أن يزرع أرضاً لا يملكها ! » .

وقال ثالث من أصحاب النكتة : « يلزمك أن تتعلم كيف تحرث الخطوط مستقيمة ! » .

والفلاة لا تنفع فيها الشكوى ولا تناسبها ، لأنها لا تتفق مع نظامها وقوانينها . حدث أن كان صاحب مزرعة صغيرة فى تكساس يشكو بمرارة ذات يوم من سرقة بعض جلود البقر من مزرعته ، فرد عليه صاحب مزرعة كبيرة قائلا فى جمع من الناس : « أنت تشكو من أن بعض جلود قليلة ضاعت من مزرعتك ، فماذا أصنع أنا إذن وقد فقدت جلودا كثيرة فى داخلها أبقار أيضاً ؟ ! » .

وحدث أن طارت قبعة راعى بقر من فوق رأسه لأن آخر أطلق عليها الرصاص فأمسك بالقبعة ، ولما لم يكن له أعداء اعتقد أن الذى أطلق الرصاص عليه هو رجل يمزح معه ، لكنه عقب قائلا : « هذا مزاح ثقيل خطير ، إذ كيف يعرف كم من رأس داخل هذه القبعة ؟ ! » .

ويحكى أن «شارلى جودنايت» كان مرة فى رحلة استطلاعية هندية مع الجنرال « بيلور » — وهو أحد الرماة المشهورين فى تكساس — فرأيا من مخبئهما أحد الهنود الحمر قادما نحوهما ، فلما استدار فجأة إلى الشرق طلب الجنرال « بيلو » إلى « جود نايت » أن يسمح له بأن يقوم بالرماية ، فرفع بندقيته وأحكم «النشان» لكنه حين أطلق الرصاص ، لم ترتفع فى الهواء إلا حزمة من ريش النسر تطايرت من قبعة الهندى .

فقال « بيلور » فى مرحه الغربى الأصيل : « لعنة الله عليك ، إذا لم أستطع قتلك ، فلا أقل من أن ألتقطك » .

وروى « رولى بيرنز » قصة عن نفسه حين سقط ذات مرة عن فرسه

وهو يحاول أن يجربه أمام جماعة من تجار الخيول قال : إنه كان شابا فى ذلك الحين وكان يريد أن يترك أثرا فيمن يشاهدونه ، فلما قام من وقعته مشى إليه بعضهم ليرى « الأثر » الذى تركه ، فقال وهو يمزج الإهانة بالإصابة : « لو أحطت المكان بقوائم من الخشب لأصبحت المزرعة قانونا من ممتلكاتك ! » ، وقال آخر : « إذا كررت محاولتك وقصدت أن تقع فى المكان نفسه فستصل إلى شاطىء البحر ! » .

وراعى البقر لا يعدم ردا سريعاً . يروى أن سيدة شابة من أهل الشرق أعجبت بأحد رعاة البقر ، وكان وسيم الشكل ، يبدو عليه أنه أكثر ثقافة من رعاة البقر العاديين .

فسألته : « هل كنت دائما راعى بقر ؟ »

فأجابها : « كلا ، يا سيدتى » ثم أردف فى سرعة : « كنت طفلا أحيانا ! ! »

وكان بعض رعاة البقر فى الأيام السالفة إذا اشتدت بهم الحفيظة يعتقدون أنهم لا يكملون مرحهم إلا إذا ركبوا إلى إحدى الحانات وأطلقوا النار على أضوائها لإحالتها ظلاما ، لا بقصد سيىء ، بل لمجرد المرح ، ظنا منهم أنه بطبيعتهم كأحد الرماة لا بد أن يكون هزلهم عنيفاً حتى يقدروا قدرهم ، وهكذا اشتهر أهل الغرب بالعنف شهرة لا يمكن محوها .

وفى عزبة فى نيومكسيكو كان أحد رعاة البقر حديث عهد بها ، إذ لم يمض عليه فيها أكثر من أسبوع ، وكان زملاؤه القدامى يرتابون فيه ، لأنه دائم التطلع إلى الأفق كأنما ينتظر سيداً يبحث عنه ، وعرض أحد الزملاء عليهم رهاناً بأن هذا الراعى الجديد « جاء من تكساس وراء فرس مجهد يلهب ظهره » وهو تعبير معناه أنه ليس راعيا .

وسمعه الراعى الجديد فقال : « كلا ، يا صديقى ، ما كنت لأغادر تكساس غير أن السيد جاء إلىّ ورجانى أن أعود » .

وروى « تيدى بلو » قصة راعى بقر أصيب بأرق شديد بسبب اشتغاله برعاية قطيع متعب ، وعرف الناس جميعاً حاجته للنوم من قوله : « سأذهب إلى جرينلند حيث يطول الليل إلى ستة أشهر ، ولن أستيقظ إلا فى العاشرة من صباح اليوم التالى » .

وروى « تيدى » قصة أخرى ملخصها أنهم كانوا يجمعون مرة ماشية بعد شتاء قاس مات فيه بقر كثير ، ثم استحال الجو ساخنا ، فتعفنت الأبقار الميتة ، ولم يجدوا إلا بعض عجول صغيرة هزيلة ، وكان أحد شيوخ الرعاة يمتلك بعض الأبقار التى نفقت فأخذ يسب ويلعن ، والعرق يتقاطر من جبينه ، غير أنه رفع وجهه آخر الأمر إلى الشمس فى هدوء القاضى وقال : « أين بحق الشيطان شهر يناير الماضى ؟ » .

وذات مرة عاد أحد رعاة البقر من مزرعة كان يعمل بها ، وأراد زملاؤه أن يعرفوا منه : هل كان صاحب المزرعة التى قدم منها يقدم لهم طعاما طيبا أم لا ؟ فقال : « تقولون طعاما جيداً ؟ إنهم كانوا يقدمون العشاء مرتين كل ليلة ، إحداهما قبل حلول الظلام والأخرى عند شروق الشمس » .

وتذكرنى هذه القصة بأخرى رواها « فرانك هيستنجز » مدير مزرعة سونش ، وهى عن راعى بقر قضى ليلة فى مزرعته ، وكان قد وصل اليها فى العاشرة مساء ودعى إلى تناول طعام الإفطار فى الثالثة صباحا ، فعلق على ذلك قائلا : « إن الإنسان يستطيع أن يقضى الليل بسرعة فى هذه المزرعة » .

وكنت أعجب أحيانا وأقول : لماذا لا يمتنع راعى البقر عن استعمال المجاز والكناية

إذا كان الكلام العادى يفى بالغرض ؟ لكننى وجدت أن هذه لديهم محاولة طبيعية يرضون بها روح المرح فيهم ، وهى روح تطغى عليهم ولا بد لها من متنفس .
وقد عدت ذات مرة لزيارة مزرعة ، ونسيت أن أسأل عن أحد من الرعاة كنت قد أحببته ، فلما سألت عنه أحد زملائه ، لم يقل لى مباشرة : إنه عين نائب عمدة ، بل قال لى : « إنه يحمل بندقية بها ست طلقات ، ويضع شارة من الصفيح على قبعته كعلامة الدواء المسجل ! » .

ووصف راعى بقر تاجرا يهوديا بأنه : « أحد الذين لا يستطيعون السباب إذا كانت أيديهم مقيدة ، فقيد يديه يربط لسانه » .

ومعظم الرعاة يقبلون الأمور على علاتها ، ولا يحاولون أن يعللوا كيف أو لماذا حدثت . سئل أحد الرعاة ذات مرة : « ما عمق الجليد فى رأيك ؟ » فأجاب : « بحق الشيطان ما فائدة ذلك ، ما دمت لا ترى شيئا إلا سطح الجليد ؟ ! » .

ولقد أفاد المرح فى الفلاة أكثر مما أفادت القوة والبطش ، فكثيرا ما خفف مرح راع ذكى من موقف متوتر كان يمكن أن يؤدى إلى نتائج وخيمة ، ويروى « اليوت باركر » فى كتابه قصة توضح هذا الموقف ، قال :

« إن المرح اللطيف تقليد غالب عندهم ، والممتع فيه أنه فورى على البديهة ، وتزيد من لطفه لغة الفلاة . وذكاء الراعى يفيد فى كسر حدة بعض المواقف الخطيرة . حدث أن أحد الرعاة كان له كلب شرس ، وكان يحبه ، وكان يحرص دائما على مرافقته أينما ذهب ، وكنت أجلس إلى جانب صاحب الكلب عند مدخل بيته ذات مرة حين مر بنا أحد الرعاة ، وكان حديث عهد بالمزرعة ، فلم يكن يعرفه ولا يعرف كلبه ونزل الراعى عن جواده وتقدم إلينا ، فاندفع إليه الكلب يعوى بشراسة ، وكان واضحا أن الراعى خائف من الكلب ، فتراجع قليلا ، وتراجع الكلب

أيضاً حين ناداه صاحبه ، لكنه لم يعد ، ثم قفّ شعر بدنه وتقدم يزوم ويشخر بطريقة جعلت الراعى يرتاب فى نية الكلب ، واضطر أن يرفس الكلب بقوة فى ضلوعه رفسة جعلته يجرى إلى البيت وهو يعوى ، وهنا نهض صاحب الكلب وتقدم نحو الراعى فى جنون وقال : « ماذا أصابك ، عليك اللعنة » إن الكلب يلعب معك ولا يريد أن يعضك » فأجابه الراعى » لم أكن أخشى أن يعضنى ، لكنه حين تقدم نحوى ودار حولى ورفع رجليه الخلفيتين ، تأكدت أنه يريد أن يرفسنى » .

وضحكنا جميعاً ، وخفت حدة التوتر ، واختفت روح الشجار عند صاحب الكلب . ومثل هذا النوع من المرح يشتهر فى الفلاة كلها ، وهو قد لا يكون من الظرف بحيث يحملك على الضحك ، لكنه لا بد أن يجعلك تبتسم ، وتحس أنه مرح لطيف .

(٧)

الدين عند راعى البقر

إن معظم الذين كتبوا عن أهل الغرب يحاولون أن يحملونا على الاعتقاد بأن راعى البقر ليس إلا رجلا لا عمل له إلا شرب الخمر وإطلاق الشتائم والرصاص ، ومن ثم يندر أن نقف على شىء عن مدى إيمانه وتدينه ، على أن إلحاده ، وميله إلى المقامرة ، ومعاقرة الحان قد أصبحت تقاليداً من تقاليد حياته ، ولهذا لم يكن لرجال الدين دور يقومون به حياله ، وأصبحوا بذلك يعتبرون أنفسهم تعساء . لكنهم كانوا هناك على أى حال ، بل إن المبشرين سبقوا رعاة البقر إلى هناك وسبقوا الصيادين أيضاً .

وعلى الرغم من أن راعى البقر لم يكن يقطف عنبا فى كرمة الله ، وأن الراعى المتزوج قد يعترف بأن معظم ما يقوم به من شعائر الدين إنما كان باسم زوجته ، فإنه كان له دينه فعلا ، لا بذهابه إلى الكنيسة ، بل بأنه كان يعرف بطريقته الخاصة أن لله شأناً فى الطبيعة ، وأن الراعى كان دائماً وثيق الصلة بالطبيعة .

وعدم ذهابه كثيراً إلى الكنيسة ، وعدم قراءته للانجيل ليس دليلا على أنه لا دين له ولا عبادة ، فراعى البقر نشأ فى بيت مسيحى ، وتربى فى أحضان أم مسيحية ، فلما ترك بيته إلى دنيا الفلاة كان ينسى أحياناً تعاليمه الأولى ، لكنه لم يفقد قط إحساسه العميق بالدين ، وإن كان الدين بالنسبة إليه شيئاً لا يتعصب له مجرد التعصب ، بل كان شيئا يستخدمه عملياً ، شيئا يعيشه ، لا مجرد أن يعظ به .

لهذا فقد أحس أن القاعدة الذهبية هى أساس الدين العملى الصحيح ، وأن الدين

الصحيح أعمال لا أقوال ، كرم وأمانة وحسن جوار وسخاء ، وباتباع هذه القواعد أصبح كل زائر للمزرعة موضع الترحيب ، يقضى الليل فيها حتى لو لم يكن بها ما يكفى من غطاء ، ولم يكن فى البلاد كلها كرم ضيافة كالذى يوجد فى الفلاة .

وراعى البقر أمين ، فإذا صادف ماشية يملكها جار ، حتى ولو لم تكن تحمل علامته ، وحتى إن لم يكونا صديقين ، أعادها إلى صاحبها ، وهو كذلك من عشاق الطبيعة ، فكان من الصعب ألا يؤمن بأن قوة عليا تتدخل فى خلق كل شىء ، وكانت له مبادىء خلقية قوية ، وفلسفة واضحة نشأت من صلته الوثيقة بالطبيعة ، وكان الإخلاص والولاء والكرم والبساطة هى الأركان الأربعة لفلسفته .

لقد كان لكثير منهم مذهبه الخاص ، نذكر من بينهم « جيس شيشولم » الذى يقول : « لست أعرف شيئا عن الإنجيل ، وليست لى حاجة بالمبشرين والوعاظ ، فلم يأت إلىّ جائع إلا أطعمته ، ولا عار إلى كسوته ، ولقد قضيت حياتى أحرص على مسالمة الناس وإخائهم ، أما الباقى فأتركه فى يد الروح الأعظم الذى نشأنى هنا ، والذى أومن بأنه يفعل كل خير » .

وراعى البقر يفهم أثر عمل الخير ، ويدرك ضآلة الإنسان إذا قيس بحجم هذا الكون والطبيعة ، لقد نشأ مخلصاً ، فكان أكره ما يكرهه الخداع والغش ، ولم يكن يرى فائدة فى المنافق ذى الوجهين ، الذى يعيش على الحكم والأمثال ، ويأثم طوال الأسبوع ثم يحاول يوم الأحد أن يخرج من الهوة التى تردى فيها بترديد الأدعية والتضرع إلى الخالق .

وقد يحس راعى البقر أنه ظل يتمرغ فى حمأة الخطيئة زمناً طويلا ، لكنه فى النهاية يعترف بأنه إنما كان يفعل ذلك ليعيش فى الفلاة ، فلا يعقل أن الله

يرضى أن يتخلى عنه حتى يموت فيها ، وهو يمارس الإخلاص عن تأصل فيه لا عن تقليد ، فالتقليد والمحاكاة سلعة من صنع المجتمع المهذب .

وليست لديه أية فكرة عن المعتقدات ولا المذاهب ولا الثقافات التى فرقت بين إخوته المثقفين فجعلت منهم اللوثريين ، والكاثوليك ، ولعل عمله اليومى هو الذى صرفه عن شئون الدين ، فهو يشغله شطرا هاماً من حياته إلى حد لا يرى معه الذهاب إلى الكنيسة ، وحتى حين تتاح له فرصة الذهاب إلى المدينة ، كان لا يرضى أن يضيع هذه الفرصة التى يستمتع فيها بحريته فى الذهاب إلى الكنيسة لسماع المزامير والوعظ عن الرذيلة .

روى لى صديقى « ج ايفنس هالى » قصة اثنين من رعاة البقر ذهبا إلى المدينة يوم أحد للتسلية ، ولم يكونا يعرفان أن هناك مؤتمرا دينياً ينعقد فيها ويستغرق عدة أيام ، وأن ذلك جعل مختلف المتاجر والحانات تقفل أبوابها يوم الأحد على غير العادة المتبعة فى تلك الأيام ، فلما وصلا إلى المدينة يمنيان نفسيهما باحتساء بعض الكئوس ، وبالمقامرة — وجدا كل الأماكن مقفلة ، إلا كنيسة صغيرة عزما على دخولها ما داما لا يجدان مكاناً آخر ، وبعد أن سمعا وعظاً طال ساعة كاملة وكان حول طريقة صلب اليهود للمسيح ، ودقه بالمسامير فى الصليب ، أسرع الراعيان بالعودة إلى المزرعة .

وفى الطريق وجدا متجرا مفتوحا ، متجراً للملابس يديره تاجر يهودى ، فترجلا وابتسم لهما التاجر وصفق بيديه ، وسألهما : ماذا يستطيع أن يقدم لهما ، وقدر أنه يحقق منهما ربحاً طيباً :

فقال أحد الراعيين : « أظن أنه يحسن بنا أن نأخذك إلى خارج المدينة لنشنقك » .

فقال اليهودى : « تشنقاننى ؟ لماذا ؟ إننى لم أسىء إليكما بشىء »

فقال الراعى : « كلا ، لكن قومك صلبوا المسيح » .

فقال التاجر : « لكن هذا حدث من ألفى سنة » .

فأجابه الراعى : « إن هـذا لا يغير من الأمر شيئاً فإننا لم نسمع بالخبر إلا اليوم » . .

ولم يكن إلا قليل من الوعاظ يتبعون كنيسة محددة ، فقد كان الناس فى البرارى قليلين ومتفرقين ، بل كان معظم الوعاظ من الرحل الذين يدورون من مزرعة إلى مزرعة ومن حلة إلى حلة ، وكان بعض الوعاظ من المتعلمين المتخصصين فى عملهم ، لكن معظمهم كانوا من رعاة البقر الذين تلقوا بعض تعاليمهم الدينية ، وكرسوا حياتهم لخدمة عقيدتهم ، وكان هؤلاء أقرب إلى فهم الرعاة لأنهم كانوا يتكلمون بلغتهم ، وكانت تفسيراتهم وتشبيهاتهم مأخوذة من الفلاة ، وكان بعضهم لا يزيد فى ثقافته عن غيره من الرعاة ، غير أنه كان أكثرفهما لطريقة حياتهم ، ولم يكن يتحرج من دخول الحانات ، بل كان يعظ فيها ويلتمس العون المالى من أصحابها ، أو يتبادل وجباته فيها بغير مقابل ، وهكذا قدم لرواد الحانة نظرة عن الدين تختلف عن غيره ، وكان يحصل فى الغالب على المال الذى يلزمه للقيام بعمله .

وفى أثناء انتقاله من مزرعة إلى مزرعة ، ومن حلة إلى أخرى ، ينشر البهجة والمحبة والدين ، فبدأ الناس يتطلعون إلى زيارته ، وكانت زوجات الرعاة يحسسن بحاجتهن الدائمة إلى هـذه الزيارات ويفرحن بها لكى يشبعن ، ولعل مرجع هذا أنهن لم يكن يصبن مقادير كافية من الطعام يوميا ، وكانت زيارة الواعظ

يصحبها دائما إعداد وجبات من الدجاج ، لكن الأطفال لم يكونوا يرحبون بهذه الزيارات ، لأنهم لم يكونوا يصيبون من الدجاج غير الرقبة والأرجل .

ويقال إنه لا يموت فى تكساس مسيحى ، ومع ذلك فهناك حالات كثيرة كان السائقون فى طرق تكساس يرون فيها أنهم يدفنون زميلا مات دون صلاة عليه وهم وقوف عراة الرءوس يلتمسون لهذا التعيس أن يقف على أبواب الجنة ، ولا يدرك أحـد ما كان يتفاعل فى قلب راعى البقر وعقله ، وهو عائد من المقبرة بعد أن يكون قد دفن زميلا له مات .

وبعض رعاة البقر الأوائل ، ولا سيما المتزوجين منهم ، كانوا يتحملون المشاق المختلفة للوصول إلى الكنيسة إذا لم تكن بعيدة جدا ، وكان الواعظ حريصاً منه على أن يكون موجوداً دائما فى الحلة ينشىء مدرسة يعلم هو فيها ، فكان الناس على مختلف مستوياتهم يذهبون للاستماع لوعظه ، ويعتبرون كنيسته كنيستهم ، وكان معظم الكنائس الأولى ذات مقاعـد من كتل الخشب ، لكن الناس كانوا يجلسون فى سكون بصرف النظر عن تعبهم منها ، وينصتون إلى الوعظ ساعة أو ساعتين ، ولم يكونوا يجرءون أن يلتمسوا الراحة أو النوم على المقاعد الخلفية التى لا مسند بها ، ولم يكن الواعظ يأخذ أجرا على وعظه إلا الكساء والطعام ، لكنه كان يصب روحه كلها فى الرسالة التى يضطلع بها .

وكانت الاجتماعات التى يتطلع إليها الرعاة هى التى تقام فى الصيف حين يخف ضغط العمل ، وكانت تستمر أسبوعاً أو أكثر ، وكانت السيدات يقضين وقتاً طيباً فى إعداد الثياب الجميلة التى قد تسترعى التفات أحد الرعاة الذين يرجى وجودهم هناك .

وشباب الرعاة يتطلعون أيضاً لهذه الاجتماعات على أمل أن يلتقوا بأصدقاء لهم

من مزارع بعيـدة ، ثم إنها كانت تخلق تغييراً فى حياة المزرعة ، أما الشيوخ فكانوا يتشوقون إلى إقامة صداقات جديدة وإلى تجديد الصداقات القائمة ، وكانت السيدات يتبادلن آخر الأحاديث ، والفتيات أخبار أصدقائهن من الشباب ، أما الأطفال فكانوا قلة ، وكانوا يستمتعون بالألعاب التى يمارسـونها فيما بين المواعظ ، لكنهم لم يكونوا يهربون من أداء الصلوات ، بل يؤدونها تحت سمع آبائهم وبصرهم .

وكانت هذه الاجتماعات بعد ترتيبها مقدما ، فيختار موقع للمعسكر قريب من الماء تقام به مظلة ، وترص المقاعد . والرعاة يحبون الهواء الطلق ، ولا يميلون للنوافذ ذات الزجاج الملون أو للبقاء داخل الجدران .

وكانت تقام للواعظ شجرة ، وما يشبه منصة ، وفى اليوم الموعود يأتى الناس من كل مكان بعضهم فى عربات ، ومعظمهم على ظهور الخيل ، وأثناء الصلوات كان الرجال يجلسون إلى جانب النساء ، وكان الشبان والشابات يحملقون بعضهم فى بعض أكثر مما يحملقون فى الواعظ .

وكان أسلوب الوعظ القديم أن يصيح الواعظ بصوت عال يسمع على بعد ميل ، فإذا اشتد حماسة بدأ يحرك ذراعيه كمن يحارب ، وكان هذا كفيلا بأن يحرك عواطفهم ، فإذا استعاد شيوخ الرعاة حماسهم الدينى أخذوا يغنون بصوت عال نافذ ، وقد لا تكون لهم موهبة الغناء ، لكنهم يتحمسون فيسمع غناؤهم قوياً من بعيد أجمل مما يسمع منهم فى مكانهم .

وهذا الغناء كان فرصة يعبرون فيها عن العواطف التى حركها الواعظ ، وخصوصاً حـين يتكلم عن مسح خطاياهم ، إذ يحسون السعاده كبقرة أمام سياج جديد ، ويلقون بآثامهم على المذبح ، وقد يكون بعضهم قتل زميلا له

لأنه يملك جوادا أسرع من جواد العمدة ، لكنه إزاء الوعظ يصيح هللوا يا ، بصوت أعلى من صوت أى شخص آخر ، أما النساء فيتحولن من الصياح إلى إدرار الدموع ، ويدعون لرجالهم الآثمين بأن يغير الله من طرق حياتهم .

وطوال فترة الاجتماع يعسكر الناس حول الشجرة وبعض العائلات تعسكر معاً : يطهون الطعام ويأكلون كأنهم أسرة واحدة ، وكانت السيدات ينمن فى العربات المقفلة ، وينام الرجال فى العراء القريب منهن ، أما رعاة البقر فينتشرون فى الخلاء أما الأطفال فينامون فى الدريس المعدّ عند المذبح للباكين .

وكانت العادة أن تعقد عدة اجتماعات بالنهار وبالليل ، معظمها للوعظ ، وبعضها لعرض التجارب والخبرات ، وكانت صلاة الليل تطول بما يتخللها من عرض تجارب أهل الدين ، وقبل أن ينفض الاجتماع يكون الإجهاد قد استبد بالواعظ من كثرة ما تكلم ، وبالناس من كثرة ما صاحوا ، ويجد الأطفال فى هذه الاجتماعات متعة وبهجة ، وكانت العائلات تحضر معها طعاما كثيراً لإطعام الغرباء من رعاة البقر ، وكثيراً من الحبوب لإطعام الخيول .

وبعد أن ينفض الاجتماع يعود الناس إلى مزارعهم ، بعد تبادل كثير من التسليمات والتحيات بين الرجال ، وكثير من القبل والعبرات بين السيدات ، ويبدو الواعظ سعيدا بالغ السعادة ، لأنه جعل خلقاً كثيرين يرون النور ، ولأنه يرى الناس سعداء بما تهيأ لهم من سمو روحى .

(٨)

شريعة الأخلاق عند رعاة البقر

فى الأيام الخوالى التى بدأ فيها رعاة البقر ومواشيهم يكونون جبهة جديدة، لم يكن للفلاة قانون، وكان عدم وجود قانون مكتوب سببا فى أن يضع راعى البقر قانونا لنفسه، فوضع قاعدة للسلوك أصبحت نوعا من الشريعة فى الغرب، ولم تكن هذه الشريعة المحلية إلا اتفاق الجنتلمان على بعض قواعد السلوك اتفاقا يكفل البقاء، لم تكن شريعتهم مواد مكتوبة، ولكنها كانت تحترم فى كل مكان من الفلاة رغم ذلك.

ولما وصلت تشريعات القوانين إلى الجبهة لم تكن تفى بحاجات وظروف أولئك الموجودين على هامش المدنية، فلم يحترموا تلك القوانين لأنهم لم يستطيعوا طاعتها بما يكفل لهم البقاء، ولذلك اشتهر أهل الغرب بأنهم خارجون على القانون، مع أن تبعة هذه الحالة إنما يجب أن تقع على كاهل ذوى القمصان البيضاء من واضعى القوانين، لا على أولئك الذين يسمونهم خارجين عليها، وعلى الرغم من أن راعى البقر قد يكسر أى قانون فى البلاد أو فى الولاية أو فى الحكومة الفيدرالية فإنه يفخر بتمسكه بقانونه غير المكتوب الذى لا يؤدى عدم احترامه إلى عقوبة رسمية، ولكنه يجعله طريد مجتمعه.

وأول قواعد شريعته الشجاعة، فالذين يعيشون هذه المعيشة لا يحتملون أن يكون بينهم جبان، لأن جبانا واحدا يعرض الجماعة كلها للخطر، ومئات الحالات التى يتعرض لها الجبان فى حياته كفيلة بالقضاء عليه، ولو أن الرجل عنده قبس ضئيل من الشجاعة، فإن الحياة التى يحياها فى الفلاة تشعل هذا القبس وتنميه إلى درجة عالية، إن عليه أن يربى عظام عموده الفقرى جيدا، وأن يعرف كيف يموت وهو واقف على قدميه، حياته ممتلئة بالخطر من البقر الجامح والخيل المتمردة التى تنطلق فى أرض كلها فجوات بسرعة تكسر الرقاب، وتعبر البحار

الفائضة وكثبان الرمل وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر، وإلى جانب ذلك كله متاعب راعى البقر مع الهنود.

والمرح من قواعد السلوك كذلك هناك، فاتساع الفلاة والكفاح المرير مع الطبيعة الشرسة القاسية لا تدع له مجالا للاهتمام بنزوات الانسان الضعيف، والحرمان والمشاق يتحملهما دون أن يشكو، وليس هناك أحد غيره يعرف مدى تعبه، ومرضه أو إصابته. سره الخاص لا يعرفه سواه، إلا ما يستحيل إخفاؤه. ولا يعرف أحد عنه إلا أنه سعيد كما تسعد بالماء أرواح هائمة فى الهجير، وهو دائم التكشير بوجهه، ويبدو فى ذلك كحمار يأكل شوكا.

وراعى البقر يبتسم فى وجه الخطر، ويضحك فى الشدائد حين يصعب عليه الضحك، والمأساة واحتمالاتها هى كل ما حوله، ومرحه أو ابتهاجه هو المحاولة التى يحاول بها موازنة نفسه، وهو كرجل عمل لا يتسع وقته للبكاء على ما يوقعه به القدر.

ولا يستطيع راعى البقر بحكم طبيعة عمله أن يكون راجلا، لذلك فهو قلما يشكو، لأن الشكوى يصحبها الرحيل، وهو فخور بعمله، ويحاول دائما أن يفوق غيره مهما تكن درجة إجادته، ولا محل لتلمس الأعذار فى الفلاة، والشاكون المتزمتون لا عيش لهم بين معسكرات رعاة البقر.

ومن أبرز قواعد السلوك عند رعاة البقر الولاء، فهم طبقة من العمال لا حاجة إلى مراقبتهم للتحقق مما يعملون، وطبيعة عملهم تستلزم الثقة فيهم، وراعى البقر فخور بولائه لقومه، وبأنه يؤدى عمله جيدا، وهو ليس فى حاجة إلى رقابة رقيب أو نصح ناصح، فهو يعمل ساعات طويلة ولا يبخل بوقته على عمله، ولا يحب أن يكون عضوا فى أى اتحاد، ولا يرغب فى أن يتلقى أى أمر من أحد بالتوقف عن عمله، وهو

يبدأ أعماله قبل الفجر ويظل فيه حتى يقبل الليل أو بعد ذلك ، وولاؤه لرئيسه فى المحل الأول ، وقد يقوم برعاية الماشية بالليل كما يقوم بها فى النهار بنفس الإخلاص الذى اعتاده ، وسواء عنده رعايتها فى الليل للبهيم أو فى ضوء القمر .

وهو ينسى راحته الشخصية وسلامته فى سبيل راحة القطيع الذى يتولاه ، ويضحى بحياته إذا كان ذلك لازما لحمايته .

ومن قواعد سلوكه أنه يلتزم واجبات الصداقة أكثر مما يلتزمها غيره من البشر ، فهو طبقا للقانون غير المكتوب مستعد دائما لخدمة الغرباء ، بل الأعداء عند الحاجة ، وتتطلب قواعد السلوك منه أنه كلما رأى ما يستدعى مساعدته منه أوجب على نفسه أن يقدمها ، وهو يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه به ، وأكبر تحية له أن يوصف بأنه « على استعداد لخوض البحار مع صديقه » ، وقد نشأ هذا القول منذ الأيام الخالية حين كان الشجعان يضطرون إلى أن يعوموا مع قطعانهم فى أكثر المياه تضليلا ، وكان هذا عملا يتطلب شجاعة صامدة ، وبمضى الزمن أصبحت هذه العبارة وصفا للرجل الوفى الذى يعتمد عليه ، ويوثق به لشجاعته وتعقله .

ولقد وصف « جين رودس » حياة رعاة البقر فقال :

« إن قيامك من جانب مائدة رجل ومحاربته وطعم خبزه ما يزال حلوا فى فمك فضيحة لا تغتفر . . . . لا يصح أن تبتسم لشخص وتحاربه ، لا يصح أن تطلق الرصاص على أعزل ، ولا تطلق الرصاص على غافل ، لا تمكن لعدوك ، لكنك إن فررت وطاردك عدوك ، فلك أن تفاجئه دون ضير على شرفك ، لأن المفروض أنه متيقظ لك ومستعد للقائك ، هذا التشريع الثعبانى ، تشريع التحذير قبل الضرب ، هذا التشريع الغريب ، غير المتوازن المقلوب رأسا على عقب

هو قانون رغم كل شيء ، وجدير بالذكر أنه ليس هناك قانون التزمه قومه بمثل الإخلاص الذى حظى به هذا القانون البربرى للرجل المحارب » .

وليس على الأرض من هو أكثر فخرا من راعى البقر ، فهو فخور بعمله ، ويؤمن بأنه عمل يفخر به ، فالرجل الذى يركب جوادا يرى نفسه أعلى ممن يمشى على قدميه ، وقد تجد الكثيرين من أبناء الحرف الأخرى يحاولون أن يخفوا حرفهم ، لكن راعى البقر لا يفعل ذلك قط ، وهو لهذا يكره أن يضع فى قدمه مهمازا ، لأن هذا دليل على أنه راعى غنم ، وهو يتجنب أن يضع ميدعة ، لأنها من ثياب الزراع ، إنه فخور بكل ما يعمل فخر الثور بالربح فى وقت نضج الحب .

وهو يقوم بقدر ضخم من العمل باسم واجبه ، لكنه يفخر بأنه لا يخنع لأحد ، وهو لا يتلقى أمرا من أحد ، ولا يقبل ما يتصل بالأمر . وإلقاء العبء على الرئيس إثم لا يغتفر ، وهو يمارس عمله فى الصقيع والجليد ، فى كل طقس ، فى المطر وفى الثلج وفى الحرارة اللافحة إلى أن يؤدى واجبه كاملا مهما تأخر به اليوم ، لكنه رغم ولائه تأبى عليه كرامته أن يقوم بعمل لا يستطيع القيام به وهو على ظهر جواده ، وهو كما يقول المثل القديم « يأنف من أن يقطع الحشيش لكنه لا يأنف من أكله » .

وبسبب هذا الزهو بعمله يعتبر من أشد الإهانات له أن يطلب إليه « التخلى عن فرسه » فى حضرة زملائه الراكبين ، ومعنى ذلك أن يؤمر بتسليم الفرس الذى قد أعطاه له « صاحب العمل » ، وأن يضطر للسير على قدميه إذا لم يكن يملك فرسا خاصا ، وهذه إهانة بل عار غالبا ما ينتهى بأن يقتل نفسه بالرصاص .

ولراعى البقر الأصيل قلب كبير فى صدره ، فليس عنده مما يملك شيء يعز

عليه أن يقاسمه أى زميل له إذا كان بحاجة إليه ، وهو يسرع إلى نجدة زميله فى أشد الليالى سواداً مهما طالت الطريق ، وهو كريم بماله ، يستطيع أى غريب بقصة من نسج الخيال أن يستدر كرمه وماله ؛ ومهما كان فى حاجة إلى ما يملك من طعام فإنه لا يتردد فى أن يشاطره أى جائع ، وإذا سمع أن زميلا له مريض أو مفلس وفى حاجة إلى دواء أفرغ الرعاة كلهم ما فى جيوبهم له ، والراعى كريم حتى بحياته ، يضحى بكل شىء لينقذ ما يملك رب العمل الذى يعمل عنده ، حتى ولو كلفه ذلك إعلان الحرب .

وهو حين يكون فى الفلاة بعيداً عن شراء ما يشترى ، لا يرفض أن يعطى أحداً بعض طباقه (دخانه) إلا أن كان يقصد إهانته .

ويعجب بعض الناس من أمانة الراعى التى يشتهر بها ، ففى معاملاته مع غيره كلمته وثيقة عليه ، وقانونه غير المكتوب يفرض عليه الأمانة وحسن المعاملة ، والرواية السائدة أن نصف رعاة البقر فى الفلاة لصوص بقر ، وهى رواية صحيحة من ناحية أن رعاة البقر مع أمانتهم فى كل شىء لا يترددون فى أن يأخذوا العجول الوليدة دون أن يعرفوا صاحبها ، أما فيما عدا ذلك فكل شىء لديه فى أمان ، وهو أمين أمانة المرآة لوجه المرأة .

والملكية فى الغرب معظمها خيول وماشية ، وليس هناك ما يعرف بالسرقة الرخيصة ، وقد قال لى « تشارلى راسل » : « لقد عرفت أن كثيراً من رعاة البقر القدامى يسرقون عجلا وليداً ، لكنهم لم يكونوا لصوص بيوت » ولم تكن أقفال الأبواب معروفة إذ ذاك ، وكانت أكياس الذهب والفضة تلقى فى المعسكر لا يراها أحد ولا يفكر فى سرقتها أحد ، وكانت هناك سرقة الخيول وسرقة الماشية ، لكن قانون الغرب كان يفرق تفرقة غريبة بين السرقتين ، فسرقة الحصان التى تؤدى إلى أن يمشى صاحبه على قدميه جريمة عقوبتها الإعدام ، لأن حرمان رجل من

حصانه قد يسبب له الموت فى السهول والوديان ، أما سرقة البقر فكان الرأى العام ينظر إليها على أنها مجرد ممتلكات ، وسرقتها قضية تعرض على الحاكم .

ولراعى البقر قانون يحترمه بالنسبة لخيوله ، فمهما استبد به جوعه ، عليه أن يعنى بها قبل عنايته براحته ، وحين يتسلق جبلا على ظهر جواده ، عليه أن يختار أسهل السبل ، وحين يسير فى طريق وعر ، عليه أن يلتزم جانبه اللين .

وحين يقترب فى الطريق من شخص آخر ، تقتضيه المجاملة أن يبدأه بالكلام على مسافة مسموعة ، وأن يقرئه السلام قبل أن يغير طريقه ، إلا إذا كان هناك سبب قوى جداً يبرر هذا التغيير ، فأهل الغرب يكفلون لكل فرد حقه فى أن يعرف قصد كل من حوله ، وانتهاك هذا الحق يفسر عادة بأنه اعتراف بالذنب ، أو إهانة جارحة مقصودة .

وإذا تقابل رجلان ، وتحادثا ثم افترقا ، يعتبر انتهاكا لحرمة الغرب أن ينظر أحدهما من فوق كتفه ، فمثل هذه الحركة تفسر على أنها ارتياب وتشكك كأنما هو يخشى الغدر به من الخلف ، فإذا توقف للحديث فى الطريق كان عليه أن يترجل ليعطى جواده قسطا من الراحة ، وحين يحيى غريباً فى الطريق يجب أن يحرص على ألا يرفع يده إذا كان الغريب يركب حصاناً جامحاً ، لأن بعض الخيول تجمح إذا ارتفعت يد بالقرب منها ، ويكفى أن يقول له : « كيف حالك ؟ » فإذا نزل الغريب عن جواده ليريحه ، فلا يجوز له أن يواصل حديثه إليه وهو راكب ، بل يقتضيه الأدب أن يترجل ، ليتحدث إليه وجهاً لوجه ، فهذا دليل على أنه لا يتعالى عايه .

وإذا قابل راكباً ذا مقام ، وجب أن يأخذه إلى داخله ، حتى يستطيع الراعى دائماً أن يترجل دون أن يتقدم أو يتأخر أو يعترض الآخر ، عدا فى حالات هبوب الريح المحملة بالتراب ، وحينئذ يسير بحيث يتفادى الريح .

والراعى الذى يستأجر لتهذيب الخيل لا يسىء استعمالها ، فصاحب الخيـل لا يريد خيولا مدللة ، وإذا ألقى جواد بالراعى إلى الأرض ، عاد إلى ظهره مرة أخرى إلا إذا أصيب بالعرج ، والراعى الكفء لا يرهق جواده بالعمل ولا يرهقه بالجرى والركض إذا كان الطريق طويلا عليه .

وراعى البقر هو الذى يسرج جواده أو يرفع سرجه عنـه ، وأية مساعدة فى ذلك لا يرحب بهـا إلا إذا كان مصاباً إصابة بالغة ، وهو لا يعـير جواده لأحد إلا فى أخطر المواقف ، وهو يعرف إن كان الجواد قد دلل أو عرج بمجرد النظر إلى راكبه ، ومن أخطر مخالفات التقاليد فى الفلاة أن يركب أحد جواد آخر بغير أن يستأذنه ، مهما بلغت درجة الصداقة ؟ فليس هناك اثنان يدربان جوادين بأسلوب واحد ، وقد يفسد أحدهما الجواد على الآخر ، وركوب شخص ما الجواد الخـاص بشخص آخر ، إهانة دونها أن يصفع الرجل على وجهه .

وحين يكونون فى رحلة صيد أو فى الطريق ، يستيقظ راعى البقر من نومه على أول نداء عليه ، فإذا ذهب ليغسل عن عينيه آثار النوم إن لم تـكن هناك ترعة قريبة ، فهو لا يستخدم كل الماء الذى فى البرميل ، لأنه يعرف أن ماء الشرب لا يوجد فى كل مكان ، وأن الطاهى يجد مشقة فى ملء البرميل بالماء ، ويعرف أيضاً أن الطاهى لا بد أن يسبه إذا لم يضع الغطاء كاملا على البرميل ، أو إذا بعثر المـاء ، واذا ترك ماء قذراً فى وعاء الغسـيل ، فليس حرجا على من يأتى بعده أن يسبه ويلعنه .

ثم هو يعرف تضاريس المكان الذى يذهب إليه ، ويعرف من سيحل محله فى نوبة الحراسة التالية ، ويعرف أين سينام حتى لا يزعج أحداً بإيقاظه ليسأله عن ذلك ، فليس ما يجعل الراعى يثور فى جنون إلا أن توقظه من نومه الذى

يحس حاجة اليه ، ومن الخير أن يشارك زميلا له فى فراشه حتى لا يعترض طريق أحد ، ومن الخير أن ينام وهو لابس سراويله ، وأن يضع حذاءه تحت غطائه حين ينام خارج البيت ، يتوسده ثم يضع فوقه سترته .

ومن القواعد الطيبة ألا يترجل الراكب وهو على مسافة أقل من مائة ياردة من قطيع نائم ، لأن اهتزاز السرج الذى يحدثه الحصان حين يتحرر من راكبه يكفى لأن يجعل البقر يجفل ، ومن القواعد الطيبة أيضاً ألا يضرب الراعى جواده وهو ثائر منفعل ، فعلى الرجل أن يسيطر على نفسه قبل أن يسيطر على جواده .

وفى تربية الماشية ، يقضى قانون الفلاة من كل راع أن يضع علامة — لا على عجوله فحسب — بل على كل العجول التى يرعاها ، وكان الراعى الأمـين يضع على الولائد علامة الأم حتى إذا ضلت العجول الصغيرة كان واثقاً من استعادتها .

وفى رعاية الماشية إذا غفل الراعى عن واحدة منها فانسلخت عنه ، كان عليـه وحده أن يستعيدها ، ويكره أن يعاونه فى ذلك أحد .

ومن القوانين الصارمة فى الفلاة « ألا يأخذ الراعى شراباً معـه » ، فليس أسهل فى قتل الراعى وهو يمارس عمله من أن يكون مخموراً ، ولا يسمح بشرب الخمر أثناء الرعى إلا للطاهى لأنه لا يمارس رعياً .

ومن القواعد المتبعة أيضاً أن توقظ النائم بالنداء عليه لا بلمسه ، فإن مشاق العمل ومتاعبه تثير أعصابه ، فلا غرابة فى أن يفزع إلى بندقيته إذ ذاك ، ولا يصح إطلاق النار حول معسكر البقر إلا فى حالة الضرورة .

وقد يكون راعى البقر فظاً غير مهذب ، يعامل زملاءه معاملة فظة ، لكنه يكفل لجاره حقه فى أن يعيش العيشة التى ترضيه ، ويسلك الطريق الذى يريده لنفسه ،

وهو لا يتدخل فى حقوق غيره فى دنيـــا البقر ، كما لا يرضى أن يتدخل فى شئونه أحـــد ، وكل فرد من أهل الغرب يحس كرها خاصاً لتدخله فى شئون غيره ، فهو لا يتطوع بأية معونة لرجال القانون إلا فى المســـائل الخاصة بماشيته وخيوله ، ولم يكن التزامهم الصمت ، بدافع تأييدهم للجريمة ، بل لأنهم يخشون تدخل أحد ، وكانوا يحتقرون كل من يقوم بوشاية ضد قومه ، ومن القواعد الأولية لحياة رعاة البقر أن يقفل الرجل فمه ، وأن يلتزم شئونه هو .

ومن الانتهاك لحرمة القانون أن تسأل الرجل عن اسمه السابق فى الولاية ، حتى إن كنت تعرف أن هناك نقطاً سوداء فى ماضى حياته ، وأنه غيّر اسمه الصحيح حين جاء إلى الغرب ، فكثيرون يغيرون أسماءهم حين يأتون إلى الغرب ، ويكفى أن تعرف اسمه الحالى الذى يرضى به ، وقيمته ترتبط بما هو كائن لا بما كان ، ولا باسم أبيه ، وماضى الرجل إنما يخصه وحده ، ويجب أن يظل كتابا مغلقا ما دام هو يريد ذلك . فإذا أحس راعى البقر غرابة نحو ماضى شخص آخر ، فإحساسه لا يظهر ، لأن المبالغة فى هذا الإحساس ، ليست من السلوك الطيب وتقابل بالاستنكار ، فالغرب لا يهتم كثيراً بماضى الرجل ، ويرضى بأن يطلق على نفسه أى اسم يريد ما دام يحترم قوانين الفلاة ، وكثير من الناس عاشوا سنوات طويلة لا يعرفون إلا بأسماء مستعارة .

ويقول رعاة البقر : « إن خير تأمين لحياتك هو أن تنصرف إلى حالك » . فالغريب لا يسأله أحد ، فإن كان يتفرج على المكان فهذه مسألة تعنيه وحده ، وإن كانت لديه أسباب لا يريد ذكرها عن رحيله فى تلك المنطقة ، فاحترم صمته ، ليس هناك أحد أيضاً يسأل الراعى عن عدد أبقاره التى يملكها ، لأنه

سؤال سخيف يعدل فى سخافته أن تسأل رجل أعمال عن مقدار رصيده فى البنك .

وليس من حسن الخلق أن تظهر استغرابك لشىء ، والراعى حين يمر بمعسكر آخر أو يدخله ، لا يسمح لنفسه بأن ينظر إلى ثياب الآخر أو أمتعته ، والعادة تقضى كذلك بأنك إذا اقتربت إلى شخص من ورائه ، وجب عليك أن تنبهه إلى وجودك بالتحية قبل أن تصل إلى مرمى بندقيته ، وأن تقدم نفس التحية إذا اقتربت من معسكر . ويحسن أن يكون اقترابك من جانب تسهل ملاحظته لسكان المعسكر ، ومن السلوك الطيب الانحناء للتحية بين الغرباء ، ورفع القبعة أيضا ، أو رفع اليد اليمنى إلى حافة القبعة ، فإن ذلك يبعد اليد التى يفترض فيها الخطر من اقترابها من البندقية التى يحملها فى حزامه .

ومن أصرم قوانين الغرب احترام النساء ، وليس هناك شعب يحترم النساء كما يحترمهن أهل الغرب ، وكثرة الشىء تقلل من قيمته وشأنه ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للنساء فى الفلاة ، ولذلك كانت هناك قلة منهن ، وبصرف النظر عن مركزها العائلى ، فقد كان راعى البقر ، يضعها موضـــع الإجلال والاحترام .

وكانت آداب الفلاة تمنع الضيف من أن يبـــدى اهتماماً بسيدات صاحب البيت أو أن يطرى كرمهن وحسن ضيافتهن إلا بالاستمتاع بطعامهن ، وكان الطاهى ، إن حدث أن سيدة البيت هى التى تطهو ، يشار إليه على أنه السيدة التى تطهو .

وقد تعيش المرأة وحدها على مسافة أميال من أى إنسان ، لكنها لم تكن تخشى أى راعى بقر أصيل ، وكانت تأمن على نفسها كأنها فى كنيسة ، وكانت هى

واستثماراً ، وكان الانجليز ينحدرون من أسر نبيلة فلم يكونوا يفهمون للدولار قيمة ، وكان معظمهم قد جاء لأمريكا للبحث عن مناجم الذهب أو فى رحلات صيد ، فلما قيل لهم إن تجارة الماشـــية طريق سريع للثروة ، كون بعضهم شركات ، واشترى بعضهم لنفسه أكبر مزارع فى « ويومنج » و « مونتانا » وغيرها من الولايات الشهيرة بالماشية .

ومعظم هؤلاء الملاك الأجانب من طبقـــة النبلاء الذين اعتادوا الترف ، فكانوا يبنون المعسكرات الضخمة ، ويستخدمون الطهاة والخدم الذين يستوردونهم من لندن ، بل كانوا يحضرون الأثاث والرياش من أوربا ، وكانت الأشربة الروحية والأنبذة الأمريكية لا ترضى أمزجتهم فكانوا يستوردونها أيضاً ، وكانوا يقيمون الولائم الفخمة ويقومون برحلات صيد وقنص ، وكان معظم الأجانب يختارون ولاية « ويومنج » ويقيمون فيها مزارع ماشيتهم ، وكان بعضهم ينفق أموالا ضخمة عليها ، ولكن بعد سنتى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ وما أصابهم من خسائر مروعة ، وهبوط أسعار الماشية هبوطا متواليا ، وبدء انتشار اللصوص — تخلوا عن هذه التجارة .

وكانت الشركات تستأجر رعاة بقر محليـــين مدربين لإدارة مزارعها ، لكنها لم تكن تعنى بغير الربح والربح وحده ، وكان أسـلوب حياتهم ، ورغبتهم دائماً فى أن يكون فى معيشهم من يخدمهم ، ويقال إن الاستثمارات الأجنبية فى تربية الماشـــية بلغت أربعين أو خمسين مليوناً من الدولارات ، فساعدت بذلك على رواج تجارة البقر فى أوائل ١٨٠٠ ، كما أدت إلى بناء الطرق الحديدية وغيرها من التحسينات الكثيرة ، وقد كان أثر ذلك على تربية الماشية محسوسا من ناحيتين .

فمن الناحية الطيبة أنهم اهتموا باستيراد سلالات ممتازة ، كالهرفورد ، وساعدوا

فى إنشاء اتحاد تربية الماشية ، ومكاتب لرعاية الحيوان ، وغيرها من المنظمات ، لكن الكثير من أفكارهم كان غير عملى ، وأثرها الضار يكاد يقضى على أثرها الطيب ، ثم إن بذخهم وإسرافهم جعل رعاة البقر ، بما يحصلون عليه من أجر هزيل ، يتذمرون على طريقتهم ، فلم يكونوا يظهرون الولاء لمثل هؤلاء الملاك أو الشركات التى لم يأت رئيسها قط إلى أمريكا ، ولا إلى المزرعة بطبيعة الحال .

وسرعان ما أصبحت الماشية التى يملكها مالك يقيم فى لندن أقل شأنا من ماشية مزرعة مجاورة يملكها مواطن مقيم ، فقد كان رعاة البقر شديدى الولاء للمالك المواطن ، إذ كانوا يحسون أنه واحد منهم ، لا شخص غريب يملك مالا أكثر مما يملك عقلا . وهكذا أصبحت سرقة الماشية شائعة فى تلك المزارع حتى تطورت إلى حروب كبيرة من حروب الفلاة . وكان من العسير إثبات السرقة على اللص ، لأن القضاة أنفسهم كانوا ضد يملك الأجانب ، ومن ثم فإنه مهما يكن الدليل ثابتا ، كان اللص يبرأ ليعود إلى السرقة من جديد .

ولم يكن الانجليز يعرفون عن هـذه التجارة إلا القليل ، فكانوا يزحمون المزارع بالموظفين ذوى الأجور العالية ، دون أن يعبأوا كثيرا بخسائرهم . أما الأسكتلنديون فكانوا أكثر محافظة ورجال أعمال أفضل ، ولذلك كانوا مثالا طيبا لأصحاب مزارع الماشية فى كل مكان . وقد ترك رجال من أمثال « جون كلاى » و « ميردو ما كنزى » أثرا طيبا خالدا فى هذا المجال ، كما تركوا أثرا كبيرا فى تجارة الماشية .

أما النوع الثالث من أصحاب المزارع فهو المالك الذى يقيم فى مزرعته يكرس لها كل ما يحقق له نجاحه ، فإن كانت مزرعة كبيرة تتطلب تعيين رئيس عمال أو وكيل يقوم ببعض عمله كان يفعل ، وبذلك كان يكرس جهده للأعمال الأخيرة أو لتحسين نتاج الماشيته ، وغير ذلك .

ولم يكن وكيل المزرعة أو رئيس عمالها يضطلع بعمل قليل ، بل كان عمله كبير المسئولية ، وكان يعرف بأسماء مختلفة فهو « الرئيس » ، وهو « المقدم » وهو « زعيم الفلاة » إذا كان عمله يشمل ذلك ، فهو فى هذه الحالة يشرف على المراعى التى تملكها الشركة : يحميها ، ويديرها ، ويشرف على أن يستمر رجالها وعرباتها فى العمل ، وأن تظل الماشية فى نمو متواصل ، وأن المبانى والسياج كلها سليمة مستصلحة ومجارى الماء ممتلئة ، وكل ما من شأنه تحقيق أرباح للشركة .

ويجب قبل كل شىء أن يكون راعى الغنم ممتازا ، ومعنى ذلك أنه يفهم الماشية ، وطبائعها ، وأمراضها ، ويعرف كيف يعالجها ، وعليه أن يعرف مزرعته جيدا ، وكل حفرة ماء فيها ، وكل رميلة ، وكل مخاضة فى النهر ، وعليه أن يفهم العمال ، وحدودهم ، وأن يكسب احترامهم وطاعتهم ، وعليه أن يكون خبيرا بحيث يحسن اتخاذ القرارات ، ويصدق على الحكم ، لأنه هو الذى يسبب الكسب أو الخسارة لصاحب المزرعة ، وهو الذى يقوم بشراء ما يلزم للصيد أو للنقل أو لتموين البيت والثيران وغير ذلك ، فيجب أن يكون شجاعا ، وألا يطالب من أحد أن يفعل ما لا يرضى أن يفعله بنفسه .

وقبل القيام برحلة صيد الثيران يجتمع الرعاة ويختارون واحدا منهم خبيرا ليكون رئيسا للرحلة ، ويسمى بهذا الاسم ، ويعرفه كل العاملين معه من مظهره وموقفه الذى يوحى بالزعامة ، وهو غالبا ما يكون هادئا ، رزينا ، وأكثر ذكاء من الراعى العادى حتى يفهم طبيعة راعى البقر العادى .

وهو يختار لمعرفته للبقر وللناس ، ولأمانته ، وقدرته ، وزعامته ، وعدالته. وعليه أن يرتب لكل عامل عمله ، ومكانه ، بالليل وبالنهار دون أن يبدو منه أنه يعطى أمرا ، وكل ذلك يتطلب قدرا كبيرا من اللباقة وحسن الفهم .

وهو رئيس مطلق بلغة القانون ، وإن كان لا يملك رأس ماشية واحدة. وأصحاب الماشية أنفسهم يخضعون لأمره كالعمال سواء بسواء . ويجب أن يعرف كل علامات الماشية فى الفلاة ، وأن يكون دبلوماسيا حتى يعيش فى سلام مع الجماعات المتحاربة . ويجب أن يكون خبيرا بالناس يختار منهم الصالح للعمل . كما يعرف الأماكن الصالحة لرحلات الصيد ، وهو يختار من بين رعاة البقر من يعرف فيهم الحكمة وصدق الحكم ، يتخذ منهم مساعدين له يعهد إليهم بقطعان صغيرة من الماشية يرعونها فى المناطق الوعرة من الفلاة . ويصف أحد رعاة البقر رئيسه فيقول : « إنه الشخص الذى يبدو فى غير حاجة إلى النوم ، ويضايقه أن يرى أحداً ينام » .

وترتبط كفاية الرئيس فى المزرعة — بعد رحلة الصيد فى الخريف — بحالة الخيول التى تجر العربات ، فكثير من سائقى العربات يرفض العمل فيها ، أو يقبله تبعا لنوع الخيول التى تملكها المزرعة وحالتها ، والرئيس الحازم هو الذى يجعل رجاله يفهمون أنه سيقوم بالعمل الذى طلب إليهم القيام به ، وهو دائما لطيف وحازم فى أوامره ، ويجب أن يكون كل رئيس محبوبا من مرءوسيه حتى يحقق غرضه بجهودهم ، لأنه إذا كان قاسيا فلن يستطيع أن يكسب رضاهم وتنفيذ كل ما يطلبه .

والرئيس الكفء فى الفلاة يجب أن يعرف رجاله وماشيته كذلك ، وأن يكون واسع الحيلة ، حازماً فى هجومه ، سريع التصرف فى حالة الطوارىء ، ويجب أن يكون على خلق كريم ، سريعاً فى اتخاذ قراراته ، كما يجب أن يختار رجاله بعناية ، لأنه يعرف نوع العمل الذى هو مقبل عليه ، وأنه بحاجة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم فى كل الطوارىء ، رجال يطيعون أوامره دون نقاش أو تردد ويؤمنون بحكمته وخبرته .

ويجب أن يكون أميناً ، لأن صاحب الماشية وضع فيه ثقته ، وقد تكون الماشية ثروة كبيرة أحياناً ، كما يجب أن يكون دبلوماسياً فى فض المنازعات بين

المتنازعين فى الفلاة ، أو بينه وبين الهنود الذين يعتدون عليه وهو يجتاز أرضهم ، وفوق ذلك كله يجب أن يعرف ماشيته ، وطريقة معاملتها ، وطبيعتها ، وعيوبها ، وفى الفلاة يجب عليه أن يركب فى الصباح المبكر قبل غيره ليستطيع عيون الماء ، ومحال العشب ، واحتمالات الفيضان ، والكثبان الرملية الخطيرة ، وأى دلائل تدل على وجود الهنود الحمر الذين يهددون سائق العربة ، وهو عادة يسلك أكثر من حصان فى حبل واحد ، لأن عليه أن يرحل مسافات طويلة بحثاً عن الماء ومخاضات الأنهار ، ويقال : إن الرئيس الكفء فى الفلاة يطعم عماله من ماشيته ، فهو يفقد بعضها فى الطريق ، لكنه يصل إلى غايته بماشية أكثر عدداً من التى كانت معه حين عدها له صاحب المزرعة قبل أن يبدأ رحلته .

يجب عليه أن يستخدم عقله فى خوض الأنهار الفائضة ، ويختار المكان الصالح لعبور الماشية ، كما يختار أفضل الراكبين لبعض أعمال الحراسة الليلية وغيرها من الواجبات الأخرى ، وعليه أيضاً أن يكون يقظاً ، ساهراً على خيوله حتى لا تلتهب ظهورها ، كما يجب أن يرعى خيول عرباته . وحسن تصرفه يساعد دائماً الماشية على أن ترعى الحشائش فى طريقها نحو الشمال ، وتصل إلى الجهة المقصودة نامية ممتلئة باللحم والشحم ، ولا شك أن الرئيس يعتبر أهم عنصر فى نجاح الرحلة كلها .

الدليـــل :

إن راعى البقر الذى يختار للتعرف على ماشية أى مزرعة حين ترعى فى الفلاة يسمى « الدليل » ، وعليه أن يرشد أصحاب المزارع إلى استرداد ماشيتهم الضالة ، حتى لقد أصبح عنصرا مهما لنظام الرعى فى الفلاة أن يكون لكل مزرعة دليل يصاحب القطيع أثناء الرعى فى الفلاة والبرارى ، يلم بعلاماتها ويعود بالماشية إلى المزرعة ، ويدمغ بهذه العلامة العجول الوليدة ، ويساعد فى عملية الرعى ،

لكن واجبه الأول أن يعنى بالقطيع الذى يتولاه ، وهو قد يتولى أكثر من قطيع .

ويعتبر عمل الدليل أرقى عمل يقوم به راعى بقر ، ويحصل الدليل على أجر أعلى من غيره ، ويجب أن يكون الدليل دائرة معارف متنقلة ، ملماً بعلامات المزارع المختلفة ، وأن تكون له عينان مدربتان يرى بهما كل ماشية تتبع مزرعته من بين ملايين المواشى فى ضباب التراب الذى لا يستطيع الرجل العادى أن يرى فيه شيئاً ، فمسئوليته كبيرة ، ومع ذلك فهو يحب عمله ، لأنه يساعده على التجول والاختلاط بالأصدقاء القدامى ، وإقامة الصداقات الجديدة فى المزارع الأخرى .

وهو يركب أجود الخيول ، لأن صاحب المزرعة يريد له ذلك ، لتكون خيوله نموذجا طيباً لكل خيول المزرعة ، ويصطحب معه كذلك حصاناً يعتمد عليه فى حمل فراشه ، وعدة خيول أخرى بينها حصان يخصصه لركوبه بالليل .

وهو غالبا ما يبرح المزرعة مبكرا حتى لا يرهق خيوله بالجرى ، وليوفرها للعمل الشاق الذى ينتظرها فى فترة الرعى ، كما أنه يعرف كيف يحتفظ بجمال خيوله لأن عملا كثيرا منوطا بها ، وبعض الأدلاء يحملون كتاباً يبين علامات المزارع وأغنامهم فى المزارع المحيطة بهم على مســافة أميال يحفظون هـذه العلامات بدون كتاب .

والشركات الكبيرة تقتنى ماشية كثيرة تحمل مختلف العلامات ، ثم تطلقها فى الفلاة فتنتشر فى مساحة واسعة منها ، وأحياناً يظل الدليل مع خيوله طوال الشتاء بعيدا عن مزرعته للعناية بتلك القطعان الوفيرة التى تمتلكها الشركة أو صاحب العمل الذى يقوم بخدمته .

فإذا وصل إلى منطقة الرعى ، عرفه الناس بعلامة خيوله ، فإذا لم يكن معروفا لم يتقدم أحد ليسأله عن اسمه ، وهو يتصل فقط برئيس العزبة ثم ينصرف إلى

عمله ، والدليل يقوم بعمله دائماً بطريقة منتظمة ، وليس فى حاجة لأن يسأله أحد ماذا يعمل ، أو كيف يعمل ، ولكنه يعمل تحت إمرة رئيس العزبة وإن لم يكن يعرفه من قبل ، ويبدو كأنه كان يعمل معه فى المزرعة قبل أن يأتى إلى البرارى .

والدليل لا يستغرق وقتاً طويلا فى الاستعداد للعمل ، وكل ما يجب عليه أن يختار ثمانية خيول أو عشرة ، وأن يعد لنفسه بعض الثياب والطعام ، وقد يحمل بندقية من ذات الست طلقات ، ويربط هذا كله على حصان هادىء ثم يخرج إلى العمل ، ولا يكون الدليل بحاجة إلى نقود ، لأنه لا يجد ما يشتريه فى أى مكان ، كما أن المقامرة غير مسموح بها هناك .

ومن المجاملات التى يحظى بها الدليل أنه لا يكلف بعمل فى الرعى لأن مهمته هى أن يطمئن إلى أن الماشية ترعى كلها ، وقد لا يعرف الأدلاء الآخرون علاماته ، وهذا لا يهمهم فى شىء . وهو لا يقوم بعمل فى وردية الليل إلا عند الضرورة القصوى ، ولعل هذه الميزات هى التى ترغبه فى عمله ، وهو معروف بأنه الرجل « الخارج عن العمل » ، أو « رجل الماشية الضالة » .

فإذا وصل إلى الحدود الخارجية لمنطقة اختصاص شركته ، اختار — من بين قطيع اليوم ، وأحياناً يكون له قطيع خاص به يسمى « قطيع الدليل » — عددا من الماشية التى تحمل علامته أو علاماته ، وحمل فرسه أمتعته وفراشه ، وسحب القطيع إلى مزرعته يسوقه أمامه ، وفى أثناء عمله يستطيع أن يفعل بخيوله ما يشاء . ورئيس العزبة هو الذى يحق له وحده أن يكلفه بأن يختار ماشيته ، ويمنحه الوقت الكافى لذلك ، فإذا لم يكن كفئا لاختيار ماشيته فى الوقت المحدد لذلك ، كان الأفضل له أن يسحب خيوله ويعود إلى المزرعة ليطالب أجره ويغادر المزرعة ، وفى هذه الحالة يكون أضحوكة الفلاة كلها كراعى بقر وكدليل .

(١٠)

راعى البقر والأناقة

يعمد كتاب قصص أهل الغرب اليوم إلى تصوير البطل فى صورة شاب جميل ناعم رقيق كأنه إعلان عن متجر جلود ، غير أن راعى البقر الأصيل لم يكن يوما ما على هـذه الصورة التى يصورها الرواة ، ولو اقتفيت أثره يوما واحدا لعرفت أنه لم يكن يغشى أحد صالونات التجميل قط ، فساعاته كلها طويلة جادة ، وعمله شاق متعب ، وجلده مشبع بالتراب والدخان المنبعث من النار التى يدمغ بها الماشية ليوضح علامة مزرعته عليها ، كما أن رائحة الشعر المحترق ، والدم المهراق من آذان الماشية تترك آثارها فى ثيابه .

وراعى البقر لم يكن يعرف المرشة « الدش » ، ولم يكن يستطيع أن يحصل على ثياب نظيفة فى كل مرة ينتهى فيها من عملية وسم ماشيته ، لكنه مع ذلك لم يكن يخشى النظافة ، ولم تكن القذارة ترتبط لديه بالراحة أو بالعمل ، فكان يلتزم النظافة فى حدود إمكانياته ، فكلما وجد عين ماء غطس فيها بدون صابون ولا مناشف ، تاركا ثيابه الداخلية تجف وحدها أثناء وجوده فى الخليج ، وهذا يسميه رعاة البقر بلغتهم « إنه يأخذ حماما » .

وفى الأيام الأولى كان راعى البقر إذا رافق بعض الهنود تعرّض لأن تعلق به حشرات كثيرة ، لأن معظم الهنود الحمر مرعى خصيب لهذه الحشرات ، فإذا ما وجد الراعى أنه حمل هذه الحشرات علق ثيابه على جبل نمل وأعطى للنمل الفرصة الكاملة للتغذية من هذه الحشرات ، فإذا لم يجد جبل نمل ، ذهب إلى الخليج فغسل ثيابه ونشرها على حجر وراح بقطعة حجر صغيرة أخرى يعمل القتل فى الحشرات الكبيرة التى لم تغرق فى الماء .

فإذا كان الراعى كسولا ولم يعبأ بأن يكون غذاء وفراشاً للحشرات ، ذكر له رئيسه الوصايا العشر ، فإذا لم يفعل ما يغسل به خطاياه ، أمره بأن يحمل عصاه ويرحل إلى مزرعة أخرى .

وفى ولاية « مونتانا » إذا لم يحضر أحد الرعاة العشاء سأل عنه الرئيس ، فإذا أجاب أحدهم : « إنه فى عنبر النوم يقرأ قميصه فى ضوء المصباح » عرف الرعاة جميعاً أن زميلهم الغائب كان يحاول أن يخلص ثيابه من سرب من الحشرات الصغيرة .

وحدث مرة أن راعياً آخر فى « مونتانا » عاد إلى المزرعة بعد أسبوع قضاه فى معسكر للهنود ، فعلقت به مجموعة من الحشرات ، ولم يكن زملاؤه يحبون أن تقيم هذه الحشرات فى عنبر نومهم ، فنزعوا عنه ثيابه فى فناء المعسكر وكان به إناء ماء يغلى ، وسألهم عمن كان يتولى عملية الغلى قائلا : « أليس عليه ثياب أخرى ؟ : فأجاب الراعى » : إننى بحاجة إلى سكين أقطع بها جلدى فأنا عار كالحشرة » .

وجرت مناظرة ممتعة عن أيهما أكثر مضايقة : البق أم القمل ؟ فقال مؤيد القمل : « إننى أفضل القمل على البق ، لأن الفئران تقرض السراويل والفراش إلى أن تنتهى ، أما البق فلا يقنع بشىء ، لأنه بعد أن يمتص دم واحد يثب إلى آخر فيمتص دمه أيضاً ، وهو باحث دقيق جداً » .

وفى الأيام السالفة كان راعى البقر يقضى ثلاثة أشهر أو أربعة فى الفلاة فيصيب ملابسه قدر كبير من الشحم والطين ، فكان أول ما يفعله حين يعود إلى المدينة أن يذهب إلى دكان حلاق ليستحم بماء ساخن وصابون معطر ، وينشف جسمه بمناشف سميكة .

وبعد الحمام يستمتع بحياته ، ويشترى كل ما عند الحلاق من صابون وعطور ، فإذا غادر الحلاق لم يعرفه قومه بمنظره أو برائحته ، وبعد أن يتخذ ثياباً جديدة ، يعود إلى زملائه فيشاركهم مرحهم .

ولم يكن قص شعره يهمه فى الفلاة ، اذ كان يتركه ينمو حتى يعود إلى المدينة ، فإذا حدث أن طال وتدلى فوق ظهره ، واستدار حول أذنيه قبل أن يعود إلى المدينة ، طلب إلى أحد الرعاة أن يقصه له بمقص الماشية ، وكل ما كان يخشاه أن يقص شعره أحد الهنود الحمر ، لأنهم كانوا يخفون بعض الشعر ، وراعى البقر لايحب أن يرى شعره متدليا من حزام أحد الهنود الحمر .

وكان راعى البقر يترك سوالف شعره تنمو لتحميه من الشمس والريح ، وفى رحلاته للرعى لم يكن يحمل معه ثياباً كثيرة ، لكنه كان يحرص على أن تظل ثيابه نظيفة ، ففى كل مرة يخف فيها عبء العمل ، يغلى ثيابه الداخلية وجواربه ، فإذا لم يتسع الوقت لذلك اكتفى بأن يشطفها بالماء ويعلقها لتجف .

وإذا عرف الرعاة أن سيدة ستقدم لزيارة عربة من عربات رحلات الرعى أسرع الرعاة وفتشوا باحثين عن سراويلهم وقمصانهم النظيفة ، ولا يعودون إلا بعد أن يستحموا فى ماء أى جدول قريب ، فكانت وجوههم اللامعة وشعورهم المبللة تجعلهم غاية فى الرشاقة .

وراعى البقر حريص على قدميه لايترك فرصة تتاح له إلا غمسهما فى ماء حفرة ظليلة ، تاركا فيها حصانه ليستريح ، وقد تكون جواربه خرقاً بالية ، لكنه يحرص على أن تظل نظيفة ، لأن الحذاء الضيق ولبس جوارب القطن يجعلان القدمين تنضحان بالعرق ، والعرق يعنى البثور والأورام .

الشمس ، وحتى لايظهر اتساخها بسرعة ، والراعى الذى نسمع عنه فى الإذاعة الحديثة هو الذى يعلن عن ألوان قوس قزح ، ويجعل الشباب يعتقد أنها زى الموسم ، والراعى العادى يرتدى قميصاً من الصوف الرمادى أو الأسود مفتوحاً من حول رقبته ، ولا يكون راعى بقر حقاً إلا إذا تطاير ذيل قميصه معظم النهار . وفى الليل إذا كان النهار حاراً تظهر على ظهر القميص حافة بيضاء ملحية ، لكن هذه الملابس تفيد الرعاة فى أنهم لايبردون بسرعة . وثياب راعى البقر العادى تختلف عن ثياب أبطال السينما فى أنها لاتحمل ألوانا زاهية ، ولاتبدو مبرقشة منقوشة كخريطة المكسيك .

وراعى البقر فى الفلاة لايلبس معطفاً إلا إذا كان الطقس باردا ، بشرط ألا يكون قائماً بعملية صيد ، فهذه تقتضيه أن يكون حرا فى كل حركاته ، وقد يظل لا يملك معطفاً سنوات طويلة ، ولكنه يملك صديرية دائماً ، وغالباً تكون ممزقة من فوق ظهره ، مزقتها الأشواك ، وتظل معلقة فى رقبته برباطها ، وهو لايلبس صديريته للدفء الذى تبعثه فيه ، بل لاتخاذها مخزنا يدخر فيه الكبريت وقلمه الصغير ودفتره الصغير الذى يقيد فيه أجرته التى يستحقها وبعض أوراق الدخان أو كيس سجايره ، ووجود هذا الكيس متدليا من جيبه دليل على عمله كراعى بقر ، وهو لديه كشارة رجل الشرطة فى المدينة ، وهو يلبس هذه الصديرية مفتوحة حتى لايبرد جسمه بسرعة . وغالباً ماتكون الصديرية عادية ، إلا أن بعض الشباب الأنيق يحاول أن يحصل على بعض خرز الهنود يزين به صديريته أو يلبس أخرى من الصوف يخيل لناظرها أن مجموعة من الألوان قد انعكست عليها .

وفى البرارى الباردة يلبس الراعى معطفاً ، ولا تتدلى ثيابه عادة إلى أسفل

الركبة ، وتصنع الثياب من خيش ثقيل ذى لون رمادى فاتح ، يبطنها فراء أو قماش وبرى ، ولكى تكون الثياب حامية له من الريح تغطى بطبقة من الطلاء وغالباً ما يضع على ثوبه علامة المزرعة التى يعمل بها .

وسراويله تصنع غالباً من نسيج ثقيل يقاوم الاستعمال ، وهى فى نظاره ليست سوى سراويل ، فإن سميتها (بنطلونا) لم يعرف ماذا تقصد ، وهو يحشر أطرافها فى حذائه الطويل ، أما الراعى الحديث فينزلها فوق حذائه القصير ، ويرفع طرفها الخلفى حتى لا تصل إلى كعب حذائه .

والزى الحديث هو السترة الكاملة (الأوفرول) ، وهو يشتريها طويلة ثم يطويها طية أو طيتين فتهيىء له مكاناً يضع فيه بعض مسامير حدوة الحصان أو ما شابهها .

وراعى البقر يفخر بقفازاته ، وقد يبيعه التاجر فى المدينة أى ثياب بسعر مرتفع ، لكنه لا يرضى أن يشترى إلا أفخر الثياب والقفازات ، فإذا حاول أن يبيعه قفازات من جلد الغنم بدلا من جلد الثور ، عرض نفسه لشتائم لا توجد فى كتب مدارس الأحد ، فضلا عن أنه يذيع عنه إذاعات ضارة .

وراعى البقر يلبس قفازات من نوع جيد لا يتصلب إذا ابتل ، فالقفازات المتصلبة تعوقه عن إمساك الحبل حين يغوص فرسه فى الماء . ومعظم قفازات رعاة البقر الأقدمين فى الغرب كانت تصنع من جلد مزركش أعلاها بالحرير ، وقد شاعت عندهم فترة القفازات التى يزينها الخرز الهندى ، ومعظمها كانت له حافة طويلة ثقيلة على جانب الخنصر ، لكن هذا النوع سرعان ما اندثر ، ثم ظهرت بعد ذلك قفازات المعصم . وبعض رعاة البقر كانوا يلبسون أساور

من الجلد منفصلة لحماية المعصم حتى لا تضايقهم أكمام القميص ، وكان راعى البقر لا يشمر أكمام قميصه إذا هذه عادة رجل المدينة .

وكثير من رعاة البقر الأقدمين كانوا يفخرون بلبس القفازات حتى فى أوقات النوم ، ومعنى ذلك أنهم يعملون طول الوقت فى ركوب الخيل ورعى البقر ، وهم لا يعملون أعمالا يدوية ، وكان بعض أصحاب العزب يحتقر استخدام القفازات فلا يستأجرون راعى البقر الذى يلبسها ، ويرون أن الأفضل اقتصاديا أن يبلى الجلد فينمو غيره مكانه ولا يشترى جلد غيره ، ولذلك كان جلد أيديهم سميكا .

(١١)

ثياب راعى البقر

طاقة وقبعاته :

تختلف ثياب راعى البقر عن ثياب غيره من أصحاب الحرف الأخرى ، وهذا ما دعا الكثير من الناس إلا الاعتقاد بأن الراعى يقصد بذلك الإعلان عن نفسه ، وهو ادعاء بعيد عن الحقيقة كل البعد ، ويصف الكتاب الذين يعيشون فى المدينة هذه الثياب بأنها جميلة ، وقد تكون كذلك فى نظر هؤلاء الذين لا يعيشون فى البرارى ، أما فى نظر رعاة البقر فكل قطعة ثياب يلبسها الراعى إنما وضع تصميمها لاستخدامها للضرورة لا للزينة .

وقد يزين راعى البقر ثيابه ببعض قطع من الفضة أو الخرز الذى لا لزوم له ، لكنك لا تستطيع أن تؤاخذه على أنه يميل إلى التزين أو الزهو بثيابه فى الفلاة خصوصاً إذا كان يعيش فيها ، فرجل الشرطة فى المدينة يزين نفسه بكثير من الأشرطة الجلدية والحديدية التى لا لزوم لها لتنفيذ القانون ، وكل ما يعنيه أنه بحاجة إلى الظهور بزى خاص .

وراعى البقر لا يلبس شيئا لا فائدة منه ، كما يفعل ساكن المدينة حين يلبس ياقة مقواة ورباط عنق ، ولو ظهر رجل المدينة بياقته المقواة ورباط عنقه فى الفلاة لطرد منها بالتهليل والصياح ، إلا إذا قال ما قاله أحد رعاة البقر من أنه يلبسها « ليدفئ قدميه » ، وأقل ملابس الدنيا فائدة فى نظر راعى البقر هى

ثياب أهل المدينة المفتوحة من الصدر ، المقفلة عند الظهر بذيلها الذى يرفرف كذيل العصفور ، وهو يسمى رجل المدينة « كبش الهرفورد » بسبب الجزء الأبيض الظاهر من قميص صدره .

وكثير من أصحاب الحرف الأخرى يتمنون أن يلبسوا ثيابا كثياب رعاة البقر ، لكنهم لا ينجحون إلا كما ينجح الأرنب الصغير المشقوق الشفتين ، ولا يمكن أن تجد راعى بقر يحاول أن يخفى حرفته ، وتتعب إذا أردت منه أن يغير ثياب رعاة البقر بأى ثياب أخرى ، فهو يحس بأنه غريب عنها حتى أنه حين يسير على قدميه لابسا ثياب الإجازة ، لا يصعب أبداً معرفة أنه راعى بقر .

الطماق : (*)

أعتقد أن أظهر قطعة فى ثياب راعى البقر هى « طماقه » أو غطاء ساقيه كما يسمونه ، ورجل المدينة يرى أنها أكثر قطع ثياب الراعى أناقة ، مع أنها تحتمها ظروف معيشته لكى يتواءم مع العمل الذى يمارسه ، وقد جاء استعمالها من أهل المكسيك ، وكانت سروالا واسعاً طويلا يغطى الساقين ، وتصنع من جلد ثقيل ، ولها رباط رفيع يسمى « حبل الطماق » ، يربط رجلى الطماق من الوسط ، ولم يكن الحبل متيناً ، فكان كثيراً ما ينقطع إذا تعلق لابسه بحصانه .

ولو رأينا راعى البقر ماشياً وهو يرتدى طماقه لوجدناه أشبه بحيوان من

(*) الطماق أو الطوزلق هو غطاء من الجلد يغطى الساقين فوق الحذاء ـ المترجم

حيوانات ما قبل التاريخ يزحف على ساقيه الخلفيتين ، ولو رأيناه من الخلف لبدا منظره سخيفاً ، إذ أنك ترى مقعده مشقوقا على هذه الصورة ، ويذكرنى ذلك بقصة سمعتها من « جون هندركس » عن « طماق » طاهى إحدى المزارع ، فقد حدث بعد أن انتهى هذا الطاهى من إعداد طعام الغداء ، أن ذهب إلى ترعة قريبة ليستحم ، إذ كانت الشمس صاحية ، ورحلته عبر الفلاة فى ذلك الصباح كانت كثيرة الأتربة .

وفيما كان يسبح فى الماء جاءت بقرتان تتشممان ما حولها ، وتقدمتا إلى ثياب الطاهى لتأكلانها ، وكان قد علقها على صخرة ، وبعد برهة اتجه بنظره إلى الشاطىء ورأى ما حدث ، فأسرع خارجاً من الماء ، لكنه وصل متأخراً فلم يجد باقياً من سراويله وثيابه الداخلية ما يغطى شيئاً من جسمه ، وكل ما أمكنه إنقاذه هو قميصه ، وحتى هذا كان ذيله قد أتت عليه البقرتان .

وعاد إلى المعسكر يبحث عن بعض الثياب ، فلم يجد إلا زوجاً من الطماق تركه أحد الرعاة ، واستبد به الغضب فعاد إلى النار يدفىء جسده العارى ، فكان منظر ظهره وهو ينحنى كأنه القمر يبزغ من بين التلال .

وكان ما يزال غضبه شديدا حين نظر خلفه فرأى زوجة صاحب المزرعة قادمة مع جماعة من سيدات المدينة لتناول طعام الغداء .

وأدرك إذ ذاك أنه لن يستطيع البقاء بجوار النار بعد الوجبة المطلوبة دون أن يستدير للسيدات ، فرأى أن المنقذ الوحيد له هو أن يتظاهر بالجنون ، فأشار بمحراك النار إليهن مهدداً ، وضحك ضحكة الضبع فوق جثة أسد ميت ، واعتقد السيدات أنه أصيب بخبل فعلا .

ولم تضع سيدة المزرعة وقتاً ، بل انطلقت فى الفلاة مع ضيفاتها يثرن

غباراً ظل طوال اليوم لا يهدأ ، وهكذا أنقذ الطاهى نفسه من لحظة حرج مخجل وإن كان قد احتاج إلى شرح طويل — فيما بعد — ليقنع صاحب المزرعة بسبب ما حدث .

ولم يكن « الطاق » يحمى الساقين من الأشواك والحلفاء فحسب ، بل كان يحميهما حين يقع حصان على الراعى ، أو حين يدفعه إلى سياج ، أو يقع على حيوان آخر .

وهناك أنواع مختلفة من الطاقات ، والكلمة فى الانجليزية ذات أصل اسبانى معناه « التطويق » بأى شىء يزيد من القوة ، وكان الطاق فى أصله ميدعة تصنع فى العادة من جلد مدبوغ محلياً ، أو من جلد بعض البقر الهندى وتربط حول الوسط والركبتين برباط ، وما تزال مستعملة كذلك إلى حد ما فى كاليفورنيا .

وأول ما عرف « الطاق » فى تكساس كان يسحب فوق الحذاء ، وله حافة من الجلد تنحدر على جانبيه ، وكانت خياطة جزءيه تبدو كحافتى ماسورة البندقية ، ولها عقدة عند الزناد ، أما فى البرارى الشمالية فكانوا يلبسون سراويل من الشعر ، ثم صنعت الطاقات من جلد الماعز أو الدب أو الغزال أو غيرها ، على أن يكون الشعر من الخارج ، وكانت تحمى الرعاة من البرد ، أما فى أوقات الجليد أو المطر فكانت مصدر مضايقة شديدة لهم ، لأنها تبتل بالماء وتتشبع به ، وتصبح ثقيلة الحمل ، وأحياناً تكون رائحتها متعفنة كجحر الذئب ، فلم تكن شائعة فى الفلاة كما هى شائعة الآن فى السينما .

وكانت أكثر أنواع « الطاق » شيوعاً تصنع من جلد الثور على شكل أجنحة الوطواط ، ولها أرجل واسعة ترفرف وتربط بخيوط ، وكان كل راع

يسير وفى كعبيه مهمازان ، وكان يفضل أجنحة الوطواط لأنه لا يكون معها بحاجة إلى أن ينزع مهمازيه ليلبس طاقه كما كان الحال فى « الطاق » الضيق الذى كان يشبه ماسورة البندقية .

أما « طاقات » روديو فكانت من طراز آخر متين يحمى ساق الراكب من أشواك السياج ، ومن قرون الثيران وحوافرها ، وكانت كلها تزين بنقوش محفورة ورسوم ترضى ذوق لابسها فى التزين . وهناك أنواع أخرى منها تتخذ للزينة فقط ، ولكنها كانت غير متينة ، على أن أصحاب المزارع لم يكونوا يعتمدون فى عملهم إلا على رعاة البقر ، الذين يلبسون « طاقات » بسيطة لا زينة فيها ، فهؤلاء هم الذين يؤدون عمل يومهم بأمانة دون حاجة إلى وقت يضيعونه فى الزينة .

وما لم يكن راعى البقر شديد التأنق كى يحاول أن يغزو قلب فتاة ليست من أهل الفلاة فإنه كان حين يقصد المدينة يترك « طاقاته » معلقة بجوار فراشه فى مسمار ، فإذا اتفق أن لبسها ، فإنه يخلعها فور وصوله إلى المدينة ، أو يعلقها فوق سرجه أو يلقى بها فى أحد أركان الحانة إن كان معروفا فيها ، لأن السير بها يضايقه ، وقد تدهش وأنت تراقب جماعة من الممثلين يسيرون بطاقات رعاة البقر ، إذا علمت أن رعاة البقر أنفسهم يخجلون من أن يروا على هذه الصورة .

وبعض راكبى الخيول لا يثقون بقدرتهم على الركوب أو يخافون أن يفلت منهم الحصان فى الأدغال فيضطرون للعودة إلى المعسكر راجلين ، لذلك فإنهم يبللون باطن « الطاق » فوق كل ساق ، ليزيد ذلك من قبضة ساقيه على حصانه فلا يفلت منه ، والراكب الأصيل يعرف أنواع الخيول فلا تجوز عليه خديعة أى حصان .

و « الطاق » قد يستعمل أداة عقاب وتعذيب كذلك ، فإذا رأت إحدى المحاكم أنك متهم بمخالفة قانون الفلاة ، ربطوك فى يد عربة وجلدوك بالطاق ، وإذا لم يشفق عليك الجلاد استطاع أن يسلخ بالطاق جلدك .

القبعات :

كثير من الناس يدركون — لأول وهلة — إذا رأوا رجلا أنه من رعاة البقر ، لأن قبعة راعى البقر تتسع لعشر جالونات ، والقبعة الكبيرة هى العلامة المميزة لأهل البرارى ، وهى أول شىء يشتريه أهل المدينة حين يزورون الغرب . وهم يجهلون علامة الجودة تماما ، لكنهم فقط يدققون فى اتساع الحافة ، فإذا سقط عليها المطر أدركوا على الفور أنهم اشتروا قبعة رخيصة ، لأن الماء ينفذ منها كالغربال ، ويقطر على عينى لابسها .

صحيح إن قبعة راعى البقر تجعل من أى رجل يلبسها كرعاة البقر ، أكثر من أى شىء آخر ، لكن الفلاة تعرف راعى البقر بمجرد أن تراه بالطريقة التى يلبس بها قبعته ، وقد يحتاج الشاب إلى وقت طويل يقضيه فى الفلاة ، قبل أن يتعلم كيف يلبس هذه القبعة ويضعها فوق عينيه بالطريقة الصحيحة .

ولمختلف قطاعات الفلاة أزياء مختلفة من القبعات ، لكن مهما اختلف الطراز ، فإنه أليف لدى رعاة البقر ، فأهل الجنوب يلبسون قبعة ذات حافة واسعة للتظليل من الشمس ، أما أهل الشمال فيلبسون قبعات مرتفعة كالتاج ، وذات حافة ضيقة ، لأن الريح شديدة هناك ، ويستطيع الخبير فى الفلاة أن يقول إلى أى قطاع ينتسب هذا الراعى أو ذاك من حجم قبعته وشكلها ، ومن الطريقة التى يلبسها بها ، فالخيالة الذين يركبون فى السهول والصحارى يستخدمون قبعات ذات حافة أعرض ، وتاج أعلى ممن يعملون فى المناطق

الجبلية ، أما العمال فيلبسون قبعات لا يصدق رجل المدينة أبداً أن لابسها من رعاة البقر .

وراعى البقر إما أن يضع تاج قبعته بحسب ذوقه هو ، أو خضوعا لعادة قومه ، فبعضهم يتركونه منبسطا ، وبعضهم يطبقونه من جوانبه الأربعة . وبعضهم يطبقه من الأمام فقط . وفى البلاد الحارة تكون القبعة ذات التاج المطبق من نواحيه الأربع ألطف على الرأس ، أما فى البلاد الممطرة فالتاج المطبق من الأمام أكثر حماية من المطر .

ولا يعرف كثير من الناس لماذا يدفع راعى البقر ثمناً كبيرا فى شراء قبعة غالية ، فى حين أنه لا يرى أناقتها إلا القليل من الرعاة عدا البقر نفسه ، والواقع أنه لم يدفع هذا المال فى القبعة من أجل الزينة مع أنه بطبيعته إنسان يحب الزهو ويزهو كثيرا بجودة ثيابه ، لكن زهوه يزداد بقبعته ، فهو يعلم أن النوع الجيد منها يتحمل الاستخدام ، فهو يلقى بها على الأرض ، ويعلق مهمازيه على مسمار ، لكنه يعرف أن طيها لا يضرها ، أما طى المهاميز فمستحيل .

وراعى البقر حريص على جواده وبندقيته ، لأنه يعرف مدى اعتماد حياته عليهما ، كذلك تعتمد حياته على قبعته أحياناً ، والحافة العريضة لقبعة رخيصة قد تطرف عينيه فى وقت يريد فيه القضاء على حياته دون أن يحصل على جواز مرور إلى العالم الآخر من القديس بطرس .

وكل شىء يرتديه راعى البقر له منافع عدة إلى جانب أنه يستر عورته . والقبعة الجيدة أكثر منافع من كل شىء عداها ، فأنت حين تركب فى السهول صيفا والشمس تحاول أن تمتص كل ما فى عمودك الفقرى من حياة ، تفيدك القبعة ذات الحافة الواسعة فى الاستمتاع بركوبك كأنك فى غابة ، والتاج العالى

يتيح لك فراغا ويجعل رأسك بارداً ، وهى إذ تظال عينيك تجعلك ترى إلى مسافات بعيـدة دون أن تؤذى الشمس عينيك وأنت تعتمد على حدة الرؤية كثيراً ، فإذا كانت الشمس من ورائك استطعت أن ترخى الحافة الخلفية لتخفى رقبتك وتحميها ، والحافة العريضة كذلك وقايه هامة إذا حاولت أن تختلس سنة من النوم واتـكأت عليها فى ضوء النهار ، وهى فى الأيام الممطرة حائل ممتاز يحجب المطر فلا يسيل على عينيك أو على رقبتك .

وتاج القبعة وعاء طيب للماء ، وكثيراً ما يضع الحصان فمه فى تاج قبعـة ممتلىء بالمـاء فى وقت يتعذر فيه الوصول إلى المـاء ، وأحيانا يحتاج راعى البقر لأن يركب بركة ماء أو خزان ماء ليحصـــل على ماء يشربه لأنه لا يستطيع أن يرقد على بطنه ويمد فمه ، كما يفعل وهو على الشاطىء ، ولهذا يكتفى بأن يملأ وعاءه الطويل (القبعة) .

وقد يستخدمها كجردل للماء يطفىء به حريقاً اشتعل فى المعسكر ، وكم من قبعات استخدمت لإطفاء حريق شب فى الحشيش قبل أن يستفحل أمره ، كما أن النار يمكن أن تشتعل بمساعدتها حين تهوى عليها كالمنفاخ لإحياء شرارة ضعيفة ، وكان قدامى رعاة البقر يلبسون أ كثر من قبعة للتهوية بها على النار حين كانوا ينتجون فحما من عظام الثيران .

وفى الشتاء كثيراً ما أنقذت الحافات العريضة — وهى ترخى أو تربط حول الأذن — آذانا كان لا بد أن يهلـكها الصقيع ، وتفيد المعسكر فى سد النوافذ بدلا من الزجاج إذا اشـتد البرد والثلج ، وسائق البقر يستخدمها فى الفلاة فيلوح بها لراعى بقر آخر يقترب منه ، ليقول لهذا المتطفل إنه غير مرغوب فيه فى ذلك المـكان ، وأنه إذا أراد السلامة لنفسه فعليه أن يوسع دائرة جولته .

وهناك مثل قديم يقول : « إن الناس يرتدون ثيابهم من أسفل إلى أعلى ، أما راعى البقر فإنه يرتديها من أعلى إلى أسفل ، فقبعته آخر شىء يخلعه حين يذهب إلى فراشه ، وهى أول شىء يلبسه حين يستيقظ لتلبية نداء الطاهى وهو يدعوه إلى الطعام .

على أن راعى البقر قد يخلع قبعته فى ثنايا يوم عمله ، فيستخدمها بدلا من أداة ما ، فأحياناً كثيرة يكون التلويح بها كافياً لتوفير عمل شاق كبير ، أو ركوب طويل ، أو سقطة خطيرة ، أو موت مفاجىء ، وكثيراً ما أفادت فى تفريق جماعة من الخيول إلى فريقين إذا كان الراعى سائرا على قدميه فى الفلاة ، وقبعة أهل المدن عديمة القيمة فى هذا الشأن ، بل إنها تبدو مضحكة هزيلة فى هذه الأغراض .

وإذا كنت قد رأيت بعض ألعاب التوازن التى يستخدم فيها اللاعب قضيبا عرفت أن القبعة الـكبيرة فى يد الراكب الماهر يمكن استخدامها على هذا النحو ، فضياع القبعة فجأة من الراكب يفقده قدرته على التوازن ، وقد يكون سخيفا أن يقال إن قبعة الراكب لها أى أثر فى ركوبه ، لـكن الحقيقة هى أن الراكب يجيد الركوب بالتوازن ، فإذا فقد قبعته فجأة ، وجد نفسه كمن يقرض الزلط (الصخر) ، فإذا صادفه راعى بقر آخر وحاول أن يثبت له أنه فقد قبعته ، وأنه يبحث عنها ، فإنه مع ذلك لا يكاد يصدقه .

وقد يحدث أن يعمل أحد الرعاة وهو واقف على قدميه فى دمغ العجول الصغيرة بعلامة المزرعة ، وتسمع الأم خوار صغارها وهى تتوجع من ألم الـكى فتسرع لمساعدتها ، ومواجهة إحدى هذه الأمهات فى هـذه الحالة خطيرة على الراعى إذا كان راجلا ، فقد ترفسه أو تقتله ، فاستخدام القبعة فى هذه الحالة

لإرهاب البقرة الأم مفيد فى إبعادها عنه ، فإذا لم تغير طريقها وتتراجع فلا أقل من أن تتردد طويلا فى هجومها ، فيجد فرصة فى الوصول إلى فرسه أو يختفى داخل السياج ، وبدون ذلك يجب أن يجرى بسرعة الأرنب حتى لا تخدش سراويله إذا وثبت عليه .

والقبعة وإن كان اختيارها يتبع الذوق والشخص فإنها لكى توائم الجو يجب أن تكون من نوع جيد ، وكلما كانت أخف وزنا كانت أغلى قيمة وأكثر متانة ، وأحسن الأنواع فيها غالية جداً وتعمر مدى الحياة ، والصنف الجيد تستقر حافته على الوضع الذى يريده صاحبها ، أما الصنف الرخيص فيغمس فى الماء أحياناً ثم تشكل حافته بالوضع المطلوب ، والعادة أن تقوس الحافة الأمامية بحيث يمتد طرفها إلى الأمام ، لأن ذلك يسهل إمساكها ، ويكسب القبعة شكلا ظاهرا .

وكثير من رعاة البقر يزينون قبعاتهم بشريط يكسبها ذوقا من ناحية ، ويضبط وضعها على الرأس من ناحية أخرى ، وما يستخدمونه كشريط مرجعه إلى الذوق الشخصى ، فبعضهم يتخذ شريطا من الجلد بنقوش من الفضة ، وبعضهم يستخدم عقدا من الخرز الهندى ، وبعضهم يضع شريطا من جلد الثعبان أو فتيلا من شعر الخيل منسوجا ، على أن الشريط من أى نوع يستخدم أيضا مخزناً تحفظ فيه عيدان الكبريت جافة لتكون فى متناول يد الراعى دائما .

وبعض الرعاة يضع غطاء من الجلد يربطه بطرفى حافة القبعة عند التاج ، فإذا شد الرباط حول ذقنه جعل القبعة تستقر فوق رأسه أثناء الركوب السريع أو فى حالة الريح العاصف .

وهناك حالة واحدة كانت فيها القبعة ضارة ، فقد روى لى صديق قديم

من رعاة البقر اسمه « جاك بوتر » قصة عن راعى بقر اشتد زهوه بقبعة جميلة له ، وجاء إلى « كلايتون » بنيومكسيكو مع قطيع من البقر ، وبعد أن سلم القطيع تسلم أجره ، وكان ستة عشر دولارا ، ثم اشترى جوارب وملابس أخرى وأنفق الباقى وقدره خمسة عشر دولارا فى شراء قبعة غالية الثمن .

وفى ذلك الحين كانت هناك عصابة من الخارجين على القانون تقطع « طريق كلايتون » ، وكان مع باقى زملاء الراعى بعض المال ، وفى طريق عودتهم توقفوا قبل طريق كلايتون ، وعقدوا اجتماعا قرروا فيه أين يخفون مالهم إذا اعترضتهم هذه العصابة ، فاقترح عليهم صاحب القبعة أن يخفوه فى بطانة القبعة الجديدة ، ومضوا فى طريقهم ، وسرعان ما وقعوا فى قبضة اثنين أو ثلاثة من العصابة ، وبدأ أحد أفراد العصابة يفتش ثيابهم بحثا عن المال ، فلم يعثر معهم على شىء .

وسر الرعاة من حسن اختيارهم وحكمتهم فى اختيار مكان لإخفاء مالهم ، فى حين عثر رجل العصابة على صاحب القبعة الجديدة وهو يطوح قبعته من رباطها ، وجن جنون الرجل إذ لم يجد مع الرعاة مالا يذكر ، ورأى القبعة الجديدة فأخذها ، وهكذا حرم الراعى الفخور بقبعته من قبعته ، أما باقى زملائه فقد أصبحوا مفلسين بغير مال .

وبعض رعاة البقر لا يسمحون لأى رجل آخر غيرهم بأن يلبس قبعة أوسع من قبعاتهم ، فلو وجدوا واحدا بقبعة أوسع ولو ببوصة واحدة ، طلبوا قبعات أوسع منها ، ولو كلفتهم أجر شهر كامل ، وأرجو ألا تطول بى حياتى لأرى اليوم الذى لا نجد فيه قبعة واسعة فى البرارى ، فإنها رمز على رعاة البقر ، وعلامة على العمل نفسه ، ورعاة البقر ما يزالون قادرين على لبسها ، والبرارى ما تزال تتسع لرعاة البقر وعملهم .

ثياب راعى البقر : أحذيته ومهاميزة :

إن راعى البقر فخور بحذائه كما هو فخور بقبعته ، وحذاؤه أغلى قطع ثيابه جميعا ، فهو لو وجد المال الذى يتناسب مع زهوه وخيلائه لاشترى حذاء ترى منه كرمشة جواربه ، وإذا لم يستطع أن يضع فى قدميه زوجا جيدا من الأحذية فإنه لا يعتبر نفسه من رعاة البقر قط .

وفى الأيام الأولى كان الراعى يلبس حذاء من نوع « أذن البغل » وهو حذاء برقبة عالية وله رباط يربطه ، وما زال هذا النوع يستخدم فى البرارى ، وقلما يكون ارتفاع حذائه أقل من سبع عشرة بوصة ، وهو ارتفاع يمنع الحصى والشوك من الوصول إلى ساقيه ، وقد تغير هذا الطراز بعـد ذلك إلى طراز أقصر طولا وأخف وزنا ، لـكن هذا الطراز سرعان ما انتشر كذلك عنـد أهل المدن ، لأن راعى البقر كان يفضل طرازا أكثر ارتفاعا منه ، لاعتقاده بأن الحذاء القصير الرقبة يتسع لأشياء أخرى غير قدميه ، ثم إنه حين يضـع قدميه فى الركاب ويضغط كعبه إلى أسفل ، ينسحب الحذاء القصير الرقبة إلى أسفل السراويل من الخلف ، وبذلك يترك فراغا يمتلىء بالصخر والتراب وفروع الشجر المتطايرة من حوافر الخيول ، أما الحذاء الطويل الرقبـة فلا يسمح بهذا الفراغ ، فضلا عن أنه يلبس داخل السراويل وخارجها ، فالحذاء ذو الرقبـة العالية إذن فيه وقاية لساقى الراكب ، يقيهما جلد اللجام ، والخدوش والأشواك والصخور وما أشبه ذلك .

وسـواء أكان الحذاء طويل الرقبة أم قصيرها فإن عالى الـكعبين رقيق النعل صنع من جلد جيد ، وكانت رقبته تصنع من جلد خفيف لنوع ممتاز ،

وليست كل الخياطه التى تراها فى الحذاء لمجرد الزينه ، بل إن لها قيمة عملية ، فهى تساعد صلابة الجلد حتى لا تتثنى الرقبة . وحتى لا تتجعد عند الـكعب من الاحتكاك بالركاب . كما أنها تحمى الرقبة فلا تتمزق حين تبلى . وبعض الرعاة يجعل الخياطة عند أصابع القدم حتى تبدو القدم صغيرة .

وحذاء الراعى من أحدث الطرز ، لأنه يصنع حسب طلبه ، فهو لا يشترى أحذية جاهزة . والراعى الذى يلبس حذاء جاهزاً ليس محترما ، لأن المعروف أن الحذاء الجاهز يصنع لمن يعمل وهو واقف على قدميه لا لمن يركب الخيول . وهو حين يطلب حذاء جديدا يفرش ورقة بيضاء على الأرض ، ويرسم بها صورة قدمـه وهى فى الجورب على الورقة ، وبعد أن يأخذ كل مقاييس قدمه على الورقة ، والتوصيات الخاصة بطراز الحذاء والـكعب والأصابع وغير ذلك ينتظر إلى أن يجد زائرا إلى المدينة ليرسل معه البيانات داخل مظروف يلقى بصندوق البريد ، وقد يكون ذلك قبل شهر ، وهو يوصى على حذائه غالبا قبل حاجته إليه بستة أشهر ، ولا ينتظر حتى يبلى الحذاء الذى يستعمله ، لأنه يعتقد أن من المزرى للرجل أن يلبس حذاء باليا لا يستطيع أن يشعل فى نعله عود ثقاب واحد إلا إذا أحرق قدمه .

مظهر الراعى :

لقد بخلت الطبيعة على راعى البقر، فتركت الشمس والريح تحدث التجاعيد فى وجهه، كما أن التراب والنار أفسدا ملامحه . وإن كان الطعام الخشن والعمل الشاق أكسباه قوة فإنهما لم يهيئا له فوق عظامه شحما ولا لحما ، وهو من كثرة ركوبه الخيل تقوست ساقاه لدرجة تسمح بمرور طفل صغير بينهما دون أن يمس شعرة فيهما ، ولا أمل فى أن نرى فى الراعى أى رقة إلا إذا نظرنا إلى قدميه ، فهو لا يجد فرصة للسير بقدميه عاريتين ، حتى لا تطول قدماه ، وينحدر الرعاة من سـلالة من راكبى الخيل ورثوا عنهم صغر

الأقدام ، وآباؤهم كانوا يطلبون أحذية تصنع لهم خاصة منذ نعومة أظافرهم ، فلما شبوا وترعرعوا كانت لهم أقدام صغيرة لأنهم لم يدربوها حتى تنمو .

ومعظم الرعاة حريصون على جمال أقدامهم حرص النساء ، أذكر أن راعيا اعتدنا أن نسخر منه لأنه كان يفخر بقدميه كثيرا ، وقد يسخر الراعى من راع آخر لأن « معظم ثقله يتركز على طرف المهماز » .

فيجيبه الآخر : « إننى لا ألبس أكثر من مقاس ست بوصات ونصف » فيقول الساخر : « أوه ! ست بوصات ونصف من الجلد ونصف كيلو من المسامير ! »

وفى الوقت الذى نكون قد أثرناه بسخريتنا منه ، نتركه إلى حال سبيلنا ليحرق الأرّم من ورائنا ، وقد كنا نسخر منه بطبيعة الحال لأنه كغيره من الرعاة له قدمان صغيرتان ، كأنما قد صبتا فى الحذاء صبا وتركتا لتبقيا جامدتين !

وحين يعمل الراعى فى منطقة ممطرة ، يلبس حذاء يتناسب مع هذا الجو ، ويكلفه ذلك ثمنا غاليا ، لكنه مع ذلك يدفع ثمن تفاخره به ، فالأحذية المبتلة تجمد وتثقل ويصعب خلعها ولبسها ، فكان يرخى كعبيه ويسب دون نتيجة ، ثم يدهن داخل الحذاء بالصابون أو يرشه بالدقيق ويحاول مرة ثانية ، وقد لا ينجح إلا بعد جهد جهيد ، وطوال الوقت يسب الأحذية كلها ، والضيقة منها بصفة خاصة ، لكنه لا يسب صانع الأحذية أبدا ، لأنه ما كان ليدفع له مليما واحدا لو لم يكن الحذاء مضبوطا ، ورغم أنه كان يفضل اللباس الواسع فى باقى ملابسه ، فإنه كان يحب أن يكون حذاؤه مضبوطا .

وإذا وفق الراعى لصانع أحذية يصنع له حذاء مضبوطا فإنه لا يغيره قط ، وصانعو الأحذية يفخرون بعملهم ، ويتوارثون حرفتهم أبا عن جد . ولهذا يصنعون الأحذية للأجيال المتلاحقة . حتى أن الخبير بأهل البرارى يعرف من أول نظرة أن الكعب العالى جزء بالغ الأهمية فى الحذاء ، فهو يمنع قدميه من الانزلاق عن الركاب ، وهو يثبت قدمه

وهو يقود الماشية وغير ذلك من الأعمال ، وأحيانا تساعده على أن يثبت قدمه حين يكون راكبا حصانا سريع الجرى ، ولا يعرف الراعى متى يعتمد على كعب حذائه ، لكنه دائما تحت طلبه .

وإذا عاينت كعب حذاء الراعى وجدته عاليًا جداً ، وضيقا فى امتداده تحت القدم ، غير أنه يميل إلى الخلف ، وهذا ما يحقق للراعى الراحة والأمان ، فامتداد الكعب تحت القدم يسهل له وضعها فى الركاب باطمئنان ، مركزاً ثقله على القوس ، ومستقراً على الركاب بكعب الحذاء ، وفى الركوب الطويل يريحه ذلك أكثر مما يكون ثقله على أصابعه أو على تكوير قدمه .

والكعب الرفيع المنحدر يمنع الراكب من أن يظل معلقاً إذا طوّح به الحصان ووضع الركاب بقدمه فوق مقعد السرج ، فالراكب إذا طوّح فوق السرج وكان ظهره تجاه الأرض ، اتجهت أصابعه إلى ناحية الركاب المضادة ، فوضع الأصابع يثبت كعبه بالسرج بفعل ثقله ويبقى معلقاً . والكعب العالى بغير انحدار قد يثبت الراكب ، لكن الكعب المنحدر يتيح له فرصة الانطلاق ، كما أن هذا النوع من الكعوب يعطى فرصة للمهماز أن يسحب إذا شبك فى لحم الحصان ، وليس هناك ما يفزع راعى البقر من أن يسمع أن أحدا تعلق بجواده أو تصوّر نفسه فى هذا الوضع .

وقد لا تكون الكعوب العالية مصممة من أجل المشى ، لكن راعى البقر لا يمارس المشى كثيراً ، وإذا مشى فى المدينة وجب أن يدق أرصفة الشوارع بكعبيه العاليين ، وهو كذلك حين يرقص لا يفضل أى شىء على حذائه العالى الكعب الذى يوقع به توقيعاً رتيباً لطيفاً على أرض حلبة الرقص ، وكان الكعب العالى نوعاً من التقاليد ، أو علامة امتياز تدل على أن صاحبه فارس

اعتاد الركوب ، وقد سبق أن قلت إن راعى البقر يرى نفسه أعلى شأناً ممن يمشون على أقدامهم .

وراعى البقر بحاجة إلى أن تكون أصابع حذائه مدببة ليسهل عليه التقاط الركاب ، وبحاجة إلى نعل رفيع ليستطيع أن يتحسس الركاب ، على أن يكون الجلد صقيلا مشدوداً ، وواسعاً عند الساق حتى يسمح بمرور الهواء ومنع العرق .

وكان للراعى حذاء خاص يصنع من جلد الماعز يحضر به الاجتماعات ويزور به المدينة ، لكنه لم يكن يستعمله فى الفلاة ، فالأرض وعرة لا تجعل الحذاء يعيش طويلا ، ولا يمكن أن تجد راعياً يلبس حذاء جاهزاً أو رخيصاً مع أنه يركب أحياناً عارى القدمين ، ولم يكن يهمه ثمن الحذاء ، بل يجعل المتانة فى المكان الأول ، وكان حذاؤه يحدث صوتاً كأنما قد صنع من حنجرة أوزة ، ولم يكن يغير هذا الحذاء ما دام مضبوطاً وغالى الثمن .

المهاميز :

على الرغم مما يظنه الكثيرون من أن الراعى يلبس المهاميز للاستعراض لا بقصد الزينة ، فإنها لازمة له فى عمله ، ويستعملها أكثر مما يستعمل اللجام ، خصوصا إذا اتخذ طريقا أقصر فى قيادته لقطيع من البقر فإنه يكون فى حاجة لأن يستحث الجواد فى الطرق الوعرة التى قد لا يحب الحصان أن يسير فيها ، كما أنها تلزمه فى توجيه الحصان إلى السير السريع أو البطء أو الوقوف .

وزوج المهاميز كريه المنظر لدى الراعى ، ولو سار به لتعثر فى كل خطوة يخطوها ، لكنه نشأ وفى قدميه مهمازان كان يسير بهما راكبا وراجلا ، ولم يكن يخلعهما إلا حين يرسلهما للتلميع والصقل ، أو حين كان يزور بيت صديق له ،

وكثيراً ما بقيت المهاميز فوق الحذاء حتى يبلى ، وكان الراعى يستعين بها ليلا فى خلع حذائه ، وفى بعض مناطق الرعاة يحتقر الراعى إذا لم يكن يلبس مهمازيه ؛ لكن فى معظم مناطق الغرب جرى العرف على أن الراعى يخلع مهمازيه حين يزور بيت صديق له ؛ حتى لا تثقب الأرض أو الأثاث ؛ وكان المثل يقول : « إن السادة يلبسون المهماز فى الحانة ؛ لكنهم لا يلبسونه فى بيوت الأصدقاء » ولهذا فإن الراعى لم يكن يقوم بزيارات كثيرة لأصدقائه .

والراعى الأصيل لا يستخدم المهماز لعقاب الخيل ؛ بل للتذكرة فقط ، فهو يحب الخيل ولا يرضى أن يكون قاسيا عليها ؛ حتى إذا كان يركب جواداً عنيداً قد يعمل على أن يطيح بحياته . والراعى الذى يستخدم المهماز بدلا من السكين لا يبقى فى الفلاة طويلا ؛ إذ يرى الرعاة يحتقرونه فيفضل أن يترك الأرض ومن عليها إلى مكان آخر ؛ ولو أبقى عليه لنقص عدد الرعاة . والأفضل أن يركب الراعى جواداً هادئاً حتى لا يستخدم المهماز كثيراً فيقطع جلد الحصان ؛ وكان الرئيس إذا رأى أثر المهماز فى جلد الحصان ؛ لم يتردد فى طرد الراعى من العمل لديه .

والغرض من استخدام المهاميز مجرد الحصول على السرعة ؛ والواقع أنها لم تكن تستخدم فى الطرق الطويلة إلا نادراً ؛ وكان يكتفى بإطالة حبل اللجام ليخفف الراعى عن قدميه الضغط بالمهاميز ؛ وفى الركوب الطويل الذى يمتد إلى ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ؛ كان ينقلها من مكان إلى مكان آخر فى السرج ؛ وكان يحرص فى حالات مطاردة الأبقار على ألا يسبب ورماً فى ظهر الحصان .

والراعى لا يجوز أن يكون قاسياً وهو يضع المهاميز ؛ وإلا ما وضعها قط ؛ وطبيعى أن المهماز أداة عنيفة ؛ لكن الراعى يعرف كيف يستخدمها ؛ وقد

يتطلب الأمر منه أحيانا أن يكتفى بهز ساقيه ؛ ولكنه لا يحتاج فى الغالب إلى أكثر من مجرد لمس الحصان وهو يسير ، ولا يغرس المهماز فى لحم الحصان أبداً كما يظن بعض الناس ، ومن يفعل ذلك فليس راعى بقر .

وأول ما يفعله راعى البقر حين يشترى زوجا جديدا من المهاميز أن يبرد أسنانهما الحادة حتى تثلم ، لأنه يعلم أن الأسنان الحادة لا تفيده فى أداء عمله جيداً ؛ بل تجعل الحصان عصبيا مشاكسا وينكمش من لمستها ؛ وكان الراعى يشترى عادة مهاميز كبيرة — لا لأنها مخيفة ؛ بل لأنها أقل عنفاً . والمعروف أنه كلما كبر حجم المهماز وكثرت أسنانه كان أقل خطرا . والمهماز الصغير القليل الأسنان يغرز فى جلد الحصان . وكل ما يريد أن يحدثه الراعى من أذى هو أن يفرق شعر الحصان ، بل إن مهمازى راعى البقر المكسيكى لم يكونا عنيفين وهما فى كعبيه كما يبدو لأنه يعرف كيف يستخدمهما .

وقد أصبحت المهاميز شائعة بعد انتشار رياضة ركوب الخيل ، لكنها لم يتسع شيوعها اتساع غيرها من أدوات الراعى . وكانت مهاميز العمل بسيطة عادة وخفيفة ، وذات أسنان صغيرة ، وغير حادة ، ويربطها بالكعب رباط خفيف متوسط الحجم .

أما مهاميز الرياضة فكانت كبيرة ، جميلة ، ذات نقوش فضية ، وأسنان حادة كبيرة ، يربطها بالكعب رباط عريض يبعث بريقاً ، والرعاة فى الفلاة لا يسمح لهم بوضع المهاميز ، لأن غمزة منها فى غير المكان الصحيح والوقت المناسب يجعل مستحيلا عليه أن يجد رأس السرج ، وقد لا تصل إليه يداه أبداً .

ولا فرق بين راع وآخر فى مسألة المهاميز ، فهى لا تعدو أن تكون نوعا من ثلاثة : ذات القصبة الطويلة ، والقصبة المستقيمة ، والقصبة الساقطة ، ولكل قصبة من هذه القصبات الثلاث كثير من الخطافات ويتوقف طول الخطاف ورسمه على حجم الراكب وبناء جسمه ، وكذلك على جسم الجواد ونوعه ، كما يعرف فى المنطقة التى يعمل بها من مناطق البرارى .

فالراعى فى الجنوب الذى اعتاد أن يركب حصانا صغير الحجم وبخاصة إذا كانت له ساقان طويلتان ، قد يستخدم مهاميز ذات قصبة طويلة ، أما القدماء من رعاة كليفورنيا وأوريجون ونيفادا ومونتانا ، فكانوا يفضلون المهاميز ذات القصبة القصيرة ، والساقطة ، لأنهم كانوا يركبون جيادا أضخم من جياد تكساس ، وكلما قصرت ساقا الراكب أو كبر حجم الحصان زاد التصاق المهماز بجسم الحصان حتى تصبح اللمسة القصيرة كافية .

وراعى البقر فخور بمهاميزه كما هو فخور بكل شىء يلبسه ، فإذا لم يكن فقيرا بائسا فإنه لا يمكن أن يلبس مهاميز رخيصة ، وهو يسميها بأسماء مختلفة ، كما يسمى غيرها من الأشياء بأسماء مختلفة ، فهى : المغريات ، وهى الحديدة : وهى فاتحة العلب ، وهى الغازات ، وهى الخطاف ، إلى غير ذلك من الأسماء . وقصبة المهماز هى ذلك الجزء الذى به الخطافات وقصبة « رقبة الأوزة » قصبة طويلة تشبه رقبة الأوزة .

وجلد المهماز شريط عريض على شكل هلال ، يركب داخل السرج ليثبت المهماز على القدم . والمهماز الذى تثقب خطافاته الأرض حين يكون صاحبه ماشيا على قدميه يسمى « الخطاف السحاب » وكان النوع السائد فى كاليفورنيا هو النوع الأسبانى ذو الشريط المستقيم عند الكعب ، وله زرار صغير فى نهايته يشبك

به جلد المهماز ، وسلاسل الكعب تمر تحت السرج لتجعل القدم تأخذ وضعها الصحيح فى الحذاء .

وصوت المهماز حلو كالموسيقا فى أذن راعى البقر ، وكان بعض الرعاة يحب هذه الموسيقا ، فكانوا يضعون جلاجل على محور المهماز ، وهى عبارة عن معلقات صغيرة كل منها قطرها بوصة ، تتدلى من طرف الخطاف ، وكل عملها أنها تبعث صوتا موسيقيا ، وكانت هذه الموسيقا تجعل الراعى لا يحس الوحدة ، وكلما سمع هذا الصوت عرف أن كل شىء على ما يرام ، وكانت خطافات المهاميز تنثنى إلى أسفل فكان الراعى حين يسير على قدميه يعمل بها صوتا عاليا ، وكان إذا ذهب إلى المدينة يحدث قعقعة أعلى من تلك التى كانت تنبعث من الفرسان ذوى الدروع المصنوعة من الحديد ، لكنه كان يعيش بين جماعة لا تعترض على تلك الموسيقا ، لأنهم يعرفون أن صاحبها لا يقصد إزعاجهم بها .

ثياب رعاة البقر : المناشف والفراش :

هناك ثوب للرعاة قلما عنى كتاب الغرب بالكتابة عنه ، وقد يكون ذلك لأن الراعى لا يستخدمه كثيرا ، لأنه مع وجود السياج وقلة العمل فى الفلاة لا يحتاج إليه كما كان يحتاج إليه الرعاة الأقدمون ، وأقصد بهذا الثوب تلك المنشفة الصفراء التى كانوا يسمونها « السمكة » وقد كانت صورة الراعى القديم وهو راكب لا تدل على طبيعته إلا إذا كانت هذه السمكة مربوطة فى ظهر السرج .

وكان أحيانا يربطها فى ظهر السرج دون أن يحتاج إليها إلى أن تبلى وتتفتت ، لكنه كان إذا نسيها نصف يوم فى المعسكر ، تشبعت ثيابه بالماء ، وكان إذا اضطر إلى أن يترك جواده مسرجا فى المطر ، استخدم هذه السمكة ليغطى بها السرج وجزءا من الحصان ، وفى الفلاة إذا كان الجو مطيرا يلف السرج بالسمكة من أعلى ومن أسفل حتى يظل جافا .

وكان الراعى حين يركب جوادا غشيما يخشى أن يكون السرج لا يناسبه ، يضع السمكة على ظهر الجواد بدلا من السرج ويقعد عليها .

وقد لعبت السمكة دورا هاما فى مساعدة الراعى على تمرين جواده الغشيم ، فكان الراعى يربطها فوق ظهره ويتدلى طرفها إلى ما يقرب من الأرض خلف ظهر السرج بالجانب الأيسر ، وكان الحصان طبعا يحاول أن يمزق السمكة إربا إربا ، لكنه سرعان ما يعتاد عليها فلا يطؤها ، وبذلك يدرب عليها ولا يكون ركوبه خطيرا .

وكان المطر يضطر الرعاة إلى أن يلتحفوا بالسمكة ، ويضطر الحصان كذلك إلى أن يقوس ظهره ويرفع ذيله ، ولم يكن وضع السرج على الحصان فى هذه

الحالة عملا هينا . فالمطر يجعل الحصان مبللا ، وباردا . والحصان المبلل خطر ، وكان الرعاة وهم يسيرون فى مناطق البرارى ملتحفين بهذه السمكات الصفراء يبدون فى نظر الخيل كالشياطين ، وكانت الخيول تفزع من أشكالهم فتمزق كل شىء .

وكانت السمكة تعوق حركة الراكب أيضا ، إلى جانب حذائه المغطى بالطين ، ونعل حذائه الذى ينزلق على الأرض ، وكان الراكب المبلل والحذاء المغطى بالطين يجعل الحصان ثائرا ، فهو حين يحس بها على جسمه يفزع وينطلق انطلاقا مخيفا .

وكان الراعى فى هذه الحالة يلعن السمكة ويسبها ، لكن حين يكف المطر ينزعها عن جسده ويطويها بعناية بطرف السرج الخلفى ، ويحمد الله على أنه جاف لم يبال .

ولم تكن السمكة يوما صالحة لمنع البرد ، ولا للتدفئة ، وإنى أعرف راكبا حاصره المطر فجأة فى إحدى رحلاتنا بشمال تكساس ، ولم يكن معه معطف ، فجاء إلى المزرعة ملفـــوفا فى السمكة باعتبارها وقاية له ، لكنه حين ترجل عن جواده ودخل بيتـه رأيت لونه أزرق ، وانطلق يلعـن السمكة التى لبسها كمعطف وقال :

« لو كان عندى اثنتان من هذه السمكة لتجمدت تماما »

وقد عرف عن السمكة أنها مصدر إزعاج فى حالات كثيرة . حدث أن راعيا كان يسوق قطيعا من البقر ، وكان يضيق بثور منها لبلادته ، لأنه ضايقه طوال اليوم ، وكانت الدلائل تبشر بمطر ، فكان ومن معه يحرصون على الوصول إلى العراء قبل أن يحطوا رحالهم وماشيتهم لقضاء الليل ، فجذب هذا

الراعى سمكته من فوقه ، وواتته فكرة أن يستخدمها فى استحثاث الثور البليد على السير السريع .

وحدث ما توقعه . لكنه حين لوح بها للثور البليد تعلق أحد أزرارها بخصلة شعر فى ذيله ، وأفلتت السمكة من يد الراعى ، فانطلق الثور بأقصى سرعة جعلت ما خلفه من المواشى يجرى كأنما تسير إلى الخلف ، وقضى زملاؤه الرعاة طول الليل يجمعون الماشية المبعثرة . ويلعنون ذلك الراعى الذى استخدم السمكة كرباجا يلهب به الثور .

وحدث أن ركب راع آخر جواده إلى المدينة ليستمتع باحتفال اليوم الرابع من يوليه ، وكان يعد له العدة منذ شهر مضى ، فلما وصل إلى النهر وجده ممتلئا ولابد أن يسبحه ، وكان لا يريد أن يبلل ثيابه الأنيقة ، فوقف وخلع ثيابه ولف نفسه فى سمكته التى لا ينفذ منها الماء .

وبذلك استطاع أن يجتاز النهر إلى الجانب الآخر ، وارتدى ثيابه وعاد فركب حصانه وهو جاف كسـدادة الفلين ، لكن جواده كان له رأى آخر فإنه حين رأى أن شيئا يحاول ركوبه ولا يلبس إلا قبعة ، رفع ذيله وأطلق لسيقانه الريح ، وذعر الراعى ذعراً أنساه أن يلعن ويسب إلى أن أدرك أن ثيابه ومتاعه كله قد ترك فوق الجبل ، وتحول بينه وبين رؤيتها سحابة من التراب ، فانطلق فى إثر الجواد لا يدرى ماذا يفعل .

وظل يجرى على قدميه كسرب من القنفذ والشمس تذيب شحمه ، وفاته الاحتفال ، قبل أن يجد عربة تنقل غنما عاد بها إلى المزرعة ، وكانت قدماه وجسمه العارى ملفوفة فى فرو الغنم كالطماطم المهرأة ، ورائحته كرائحة الكبش .

ومع هذا فالسمكة ثوب قديم هام يحفظ الراعى جافا غير مبال إذا وضعها على كتفيه كلما لزم الأمر ؛ فلم يكن يلعب بها فى أى يوم من الأيام .

غطاء الرقبة :

إن أصغر قطع ثياب الراعى هو المنديل الذى يلفه حول رقبته أو المسحة كما يسميها هو ، ولها عنده فوائد أكثر مما لأى شىء آخر يلبسه ، ولا تستخدم كغطاء رقبة للزينة كما يعتقد كثير من الناس .

وهى لا يمكن أن تكون كبيرة ؛ وتكون إما حمراء أو زرقاء أو سوداء ، أما اللون الأبيض فلم يكن شائعا ؛ لأن القذارة تظهر فيه بسرعة ؛ ويعكس الضوء . وقد درج سكان المدن على اختيار الألوان الزاهية ؛ أما سكان الفلاة فيعملون على التخلص من نظرات الحيوانات والناس وانتباههم ؛ وكان هؤلاء يعلمون ما يحاولون إخفاءه .

والراعى يطوى منديل رقبته طيا عريضا بأن يضم طرفيه البعيدين ، ويعقدها عقدة مربعة ثم يلفه حول أسلم مشجب عرفه ، وهو رقبته ، وبذلك لا يغيب عن متناوله حين يريده ، وهو غالبا يحتاج إليه ، وكان يتركه يرفرف فوق شعره وعقدته من فوق ظهره ، فإذا كانت الشمس شديدة أداره ليحمى ظاهر رقبته من الشمس ، وإذا ركب وسحب قطيعا من الماشية رفعه ليغطى به فمه وأنفه حتى لا يتنفس التراب المنبعث من أقدامها ، كما أنه كان يقيه شر البرد ، وكان أيضا يضعه تحت عينيه فيحميه من التأثر ببياض الثلج الناصع .

وإذا ركب فى ريح عاصف ولم تكن لقبعته أربطة ، استخدم منديله لربطها .

وأحيانا يتخذ منه حين يشتد البرد وقاية لأذنيه ، فإن كان الجو حارا بلله ولفه حول قبعته لتظل رأسه باردة ، وإن صادف منطقة ليس بها ماء يجرى وكان ظامئا نشر منديله فوق نبع راكد ليستخدمه كمرشح يرشف الماء من خلال نسيجه .

وكان حين يغسل وجهه فى ماء نبع أو خليج فى الصباح ، يلف منديله حول رقبته ، ويستخدمه أيضا عندما يمسك به قطعة حديد ساخنة .

وكان يستعمل أحياناً عصابة يعصب بها عينى الحصان الغشيم إذا هم بأن يسرجه ، فبعض الفرسان لا يحب استخدام عصابة من الجلد ، كما أنه يستخدمه كلجام هندى ، فيربط طرفه بالفك السفلى لحصان هادىء أو يستخدمه جبيرة لذراعه المكسور ، أو ضماداً لجراحه ، وكان أحياناً يقيد به الأشخاص ، وبعض الناس قد شنق بمنديل حين لم يكن يتوفر حبل لذلك ، وكثيراً ما كان يستخدم كفناً للميت ، وكم من راع بقر دفن فى الفلاة مغطى وجهه بمنديل حتى لا تصل إليه الأوساخ .

فراش راعى البقر :

إننا لا نكون قد وفينا الكلام عن ثياب الراعى إلا إذا تناولنا لفافة فراشه أو فتحنا صوانه الذى يحفظ فيه كل متاع حياته .

فهذه المنامة أو الوسادة الحريرية — كما يسميها — تتكون من قطعة مشمع طولها ثمانية عشر قدماً وعرضها سبع أقدام ، صنعت من نسيج تزن الياردة المربعة منه ثمانى عشرة أوقية ولا ينفذ منه الماء ، وبه سلسلة من الثقوب والأطراف والحلقات لسحبه فوق رأسه وإقفاله ، ومن داخل المشمع ملحفتان ثقيلتان مطبقتان طبقتين ، وملاءة أو اثنتان يستخدمهما كمرتبة (حشية) ، وتزن الملحفة الواحدة نحو أربعة أرطال .

والملحفة فى نظر الراعى أفضل من « الحشية » لسهولة إخراجها ، وتنفيضها وتشميسها وتهويتها ، وبعض الرعاة يستخدم ملحفة من ريش الدجاج يسمونها « جلد الدجاجة » ، وكانوا يسمون وسادة الريش « شعر الأوزة » وكانت الحشيات تعلق وراء العربة حتى لا تشغل مكاناً كبيراً فى فراغ العربة الداخلى ، ومعظم الرعاة كانوا يجمعون متاعاً كثيراً من تجوالهم فى الأقاليم ، فكان حمل هذا المتاع يستلزم حصاناً قوياً إذا لم يكن الراعى مع العربة ، والحشية الوحيدة التى عرفها الراعى هى المحشوة بريش طيور البرارى ، والتى تعرف « بحشية الميسور » أو « إفطار البغل » ، وهو حين كان يزور المدينة يستخدم ملاءات نظيفة كان يسميها « التبن النظيف » .

ومع فراشه نجد « متاعه الحربى » أو ما يسميه « كد السنوات الثلاثين » لأنه يتألف من مدخراته طوال حياته . وفراش الراعى أهم ما يملكه بعد حصانه وسرجه ، وهو يستخدمه خزانة يحفظ فيها مقتنياته ، ولم يكن من دواعى الصحة أن ينام أحد فى فراش آخر ، لأن فراشه وظهر حصانه مناطق حساسة يدرك بعقله أنه لا يجوز لأحد سواه أن يستخدمها .

وفراش الراعى هو مسكنه ، بحيث يذهب يأخذه معه ، فإن كان يعمل فى المعسكر نشره فوق أرض المعسكر أو فوق سريره ، أما إن كان مع العربة فهو يلفه ويحمله عليها ، فإذا ذهب إلى المدينة أخذه معه وألقى به فى ركن حجرته بالفندق ، لأنه هو حقيبته ، فإذا أراد أن يمضى إلى الفلاة حمله على ظهر جواده وسار كطائر طليق لا يعبأ بشىء إذا حل الليل ، سواء بلغ مزرعته أو لم يبلغ ، ما دام معه فراشه ، وهو مأواه كبيت معفى من الضرائب والأجور .

ولا يسير فى الفلاة بدون فراشه إلا الخارج على القانون ، وكان الراعى

يحتاج إليه أكثر من أى شى آخر ، لكن الشرطة حين تجدّ فى أثره لا يجد وقتا لكى يحمل على حصانه ، وقد تدهش الخيول من السرعة التى يسير بها الراعى حتى أنه لا يجد فرصة لاستخدام « فراش تكسون » الذى يضطر إلى حمله فوق ظهره كحشية أو على بطنه كغطاء ، لكنه حين يكون على قيد خطوتين من رجل الشرطة لا يكون له اختيار ، وكثير من الرعاة ينامون فى العراء بغير غطاء .

أراد صاحب مزرعة فى « ديومنج » أن يستخدم راعياً أو اثنين للعمل فى الربيع ، واشتهر عن مزرعته أنها تستخدم عمالها فى الليل والنهار ، فركب صاحب المزرعة إلى « لا رامى » ووجد راعياً قد قدم على المنطقة لأول مرة ، فعرض عليه العمل ، وقبل وهو يقول : « سأكون مستعداً للعمل بمجرد أن اشترى فراشاً ! » .

فرد على هذا الراعى راع آخر يعمل فى تلك المزرعة قائلا له : « لسنا فى حاجة هنا إلى فراش ، كل ما يلزمك هو أن تشترى لنفسك فانوساً » .

وكان الراعى حين يفرش فراشه يختار أرضاً مرتفعة تجف بسرعة عند سقوط المطر ، ويتجنب سفوح الجبال ، حتى لا ينزلق إلى بطن الجبل ، وقبل أن ينشر فراشه على الأرض ينقى ما عليها من حشرات قد تشاركه فراشه ، فهو لا يحب أن تعربد الحشرات فى فراشه ، وقد يزحف أثناء النهار تحت العربة ليظفر بسنة قصيرة إذا كان العمل يسمح ، ولم يكن الطاهى سخيفاً يلقى بالماء القذر تحت العربة ليحرم الراعى من هذه المتعة ، أما فى الليل فهو يفضل النوم فى العراء ، لأنه إذا صحا فجأة من نومه تحت العربة فقد ترتطم رأسه بدنا كلها ، وقد علمته التجارب وجرح رأس غيره ألا ينام تحت العربة ليلا .

وهو إذا سقط المطر لا يتأثر به ما دام فى فراشه كحشرة تختفى تحت

ورقة من أوراق الكرنب ، فالماء لا ينفذ من الغطاء ، ثم إن الفتحات والشراريب تحكم إقفال الغطاء عليه ، فيكون بعيدا عن المطر كأنه تحت سقف متين ، وفى الليالى الممطرة يصحب الراعى معه إلى فراشه قبعته وحبله وحذاءه ومهمازه ، فالحذاء المبلل يصعب لبسه ، والحبل المبلل يتعذر معه أن يمسك به حصانه ، والفراش المبلل معناه اهتزاز الراعى من البرد وانتفاضه كثعبان غاضب ، لذلك كان الراعى الذى يجهز نفسه بفراش جيد دون أن يستطيع الاحتفاظ به جافا يجب أن يبحث له عن عمل غير الرعى كخدمة فى اصطبل ، لأنه لا يمكن أن ينتسب مثل هذا إلى رجال البرارى .

وفراش الراعى دافىء فى الشتاء ، لأن الغطاء يبعد عنه الثلج والتراب والريح وحتى إذا غطاه الثلج زاده ضغط الثلج ووزنه من الدفء داخل الفراش ، وحين يستيقظ فى الصباح ويجد الثلج من حوله ، لا يرفع عن نفسه ملاءاته الدفيئة ، وكثير من الرعاة يصحبون اللجام معهم فى فراشهم فى الليالى الباردة حتى لا يكون لجام الحصان باردا فى اليوم التالى عند لبسه .

والراعى حين ينام فى الليل ، يرقد بين متاعه كله فيما عدا سرجه ، فهو يضع حقيبته تحت رأسه كوسادة ، وهو يضع فيها كل ما يجمعه فى حياته ، سجائره ودخانه ، ومهمازه الجديد ، وقد تكون بين متاعه صورة فتاة ، أو خطابات قديمة تحمل له أخبارا من بعيد ، وعلبة من الطلقات ، ومجموعة من ورق اللعب قديمة بالية ، ووثيقة شراء الحصان .

وتحت وسادته يضع بندقيته ذات الست طلقات ليزيد من صلابتها ، وأحيانا يبرز المهماز عند أذنه فيقلب الوسادة بحثا عن نقطة لينة ، لكنه يجد ذلك مستحيلا كمحاولة للحصول على شعرة فى جلد ضفدعة ، وقد تجد كذلك قمصانه وثيابه التى يلبسها حين يصاحب فتاته نظيفة ومكوية أيضا .

وعند موطىء قدميه تجد حبله ، وخفه ، وبعض السيور الجلدية ، وثيابه التى تحتاج إلى الغسل وباقى أمتعته الأخرى ، فأنت حين تنظر بداخل فراش الراعى تكون كمن يزور مخزنا للثياب تعرض الأدوات الخرفية والسروج فيه كلها معاً .

وأحيانا يشرك الراعى زميلا له فى فراشه أو يقتسم معه ملاءاته ، إما اتقاء لشر البرد فى الجو القارس أو ليوفر له مكاناً إذا كانت العربة مثقلة بالمتاع ، والراعى لا يستخدم عربة خاصة بالفراش .

ولم يكن أفضل عند الراعى من أن يمتد بطوله فى فراشه بعد سفر يوم حتى إذا لم يكن متعباً ، وهو يسرع إلى فراشه مبكراً إذا كان الليل قصيرا ، لكنه قبل أن يستغرق فى النوم يحلو له أن يرقب النجوم الكبيرة التى تبدو قريبة منه ، وحوله غيره من الرعاة منتشرين فى فراشهم كشرانق متناثرة فى البرارى .

ولا يفزعه أن يسمع وهو نائم صوت ضبع يزأر أو بومة تنعق ، وقد يسمع وقع حوافر حصان واحد أو أكثر فيعرف أن رعاة قادمون نحوه ، ويحس فى صوت مهاميز القادمين ووقع حوافر خيولهم موسيقى هادئة تبعث النوم إلى جفنيه .

وهو يصحو قبل بزوغ الفجر على موسيقا يلذ له سماعها ، موسيقا قادمة صادرة من العربة هى صوت طحن بن الصباح الذى يطحنه الطاهى ، فيعرف أنه ما زال باقيا له نصف ساعة ينامه ويحلم فيه ، وأنه حين يبدأ الرحلة فى الصباح على نداء الطاهى ، يكون مطمئنا إلى أنه سيجد قهوة جيدة يبدأ بها يومه .

وأول ما يعمله حين يصحو أن يرتب فراشه ويحزمه ، وأن ينقله إلى العربة فى مكان يتناوله لوضعه فوقها عند بدء السير ، ثم يتجه إلى حوض الغسيل ليغسل وجهه ويستعد للافطار الذى تكون رائحته قد أثارت شهيته ،

وما أن يملأ كوبه وطبقه بالطعام والشراب الساخنين حتى يلتمس مكانا يجلس فيه القرفصاء على الأرض أو فوق فراشه ليتناول إفطاره ، فإذا بدأ السير وجب عليه أن يربط فراشه جيداً حتى لا يسقط فى الطريق إذا صادفت عربة الأمتعة طريقا وعرة .

وكان مما يخالف آداب اللياقة والتقاليد ألا يتقن الراعى ربط فراشه قبل حمله على العربة عند السير ، فإذا حدث هـذا لم يتردد الطاهى فى سبه وشتمه ، فإذا كرر خطأه اضطر الطاهى إلى طرده من العربة وتركه .

وقد كان أحد الطهاة يتبع خطة ناجعة لعلاج هذا الإهمال ، فقد حدث أن راعيا أهمل للمرة الثالثة ووضع فراشه فى العربة غير ملفوف ولا مربوط فما كان من الطاهى إلا أن علق الفراش الممـدود فى « الدنـكل » الخلفى للعربة وسار بأقصى سرعة ، فلما وصلت العربة إلى مكان المعسـكر كان الفراش قـد بلى وصار عديم الفائدة .

فلما عاد الراعى إلى المعسكر عند الظهر ورأى ما حدث لفراشـه كاد يتميز غيظا ، وراح يفتش فى محتويات فراشه بحثا عن بندقيته ، فلم يجدها ، ولم يضع الطاهى وقتا فأمسك ببندقيته هو ، وكان يخفيها تحت مقعد العربة ، ولو كان الراعى وجد بندقيته لانقلب المعسكر أشبه بيوم اللحم فى أية وكالة هندية .

وتبين للراعى أن بقايا فراشه لم تعد تستحق إعادة لفها ، فأنقذ ما أمكن إنقاذه من باقى متاعه ، دون أن ينبس بحرف ، ووضعه فى حقيبته ، وأسرج جواده ومضى به يهدر كحصان جن من المطر ، وأخذ يتعقب آثار العربة لعـله يعثر على بندقيته التى سقطت من فراشه ، وأعتقد أنه لم يوفق للعثور عليها ، كما أننى أعتقد أيضا أنه لن يعود إلى الوقوع فى مثل هذا الخطأ إلى الأبد .

(١٤)

زينة الخيل ـ السروج

سرج راعى البقر هو منضدة عمله وعرشه الذى يتربع عليه ، بل هو أغلى متاعه ، وحبه له تقليد من تقاليد الفلاة ، وكان السرج فيما مضى أغلى ثمنا من الحصان الذى يسرج به ، وكان الراعى إذا باع حصانه الذى يركبه فى إثر قطيع الماشية يحتفظ بسرجه ويعود به فى حقيبة متينة ، أما بيع السرج فمعناه الإفلاس المزرى ، والراعى حتى إذا مات دفن سرجه معه ، فإذا كبرت سنه وعجز عن الركوب ، علق سرجه فوق سياج بيته .

وأول سرج عرف فى البرارى كان فى المكسيك ، لـكن الرعاة الأمريكيين أدخلوا عليه عدة تغييرات وتطورات وتحسينات تتطلبها حاجاتهم ، وبغير سرج أهل الغرب لم يكن يستطيع أحد أن يركب خيول الفلاة ، ولما وجد رعاة ولا مزارع .

وبمضى السنين وجدت عدة نماذج من السروج ، لـكن الراعى إذا وفق إلى النموذج الذى يرضيه لا يتخلى عنه ، فإذا كان السرج مصنوعا من خشب جيد ومن جلد متين عاش زمنا طويلا ، فإذا تحطم فى حادث وألقى الحصان راكبه من فوقه وولى مسرعا سمعت الراعى يصيح : « أمسك بسرجى » ، ذلك أن الجواد يكون ملك الشركة التى يعمل فيها ، أما السرج فإنه ملك له هو .

ولما بدأ الراعى يستخدم السرج المكسيكى أطلق عليه أسماء مختلفة ، فيسمى « الفوست » ، وهى كلمة أسبانية معناها الخشب ، وكان المكسيكيون يستخدمون فى صنع السرج جلدا أقل قيمة مما يتخذه الأمريكيون ، وكان السرج يتكون من رأس منبسطة ومؤخرة منخفضة ، وكان معروفا أن هذا السرج يجعل ظهر الجواد ملتهبا ، أما السرج المكسيكى ذو الرأس العريضـة فيسمى « طبق العشاء » لأن رأسه أى « مقدمته » واسعة ، وكان قالب السرج كله من الخشب ، وكان السرج

يتركب من هذا القالب ، ومن غطاء الظهر ، ومن السيور الجلدية التى تصل إلى الركاب الواسع ، ولم تكن بالسرج شراريب ولا حواجز .

وكان هناك نوع آخر من السروج يستخدم فى العهود الأولى يقال إنه أول تحسين أدخل على السرج المكسيكى ، وكان يتكون من القالب الخشبى وسيور الركاب الجلدية ، وكان يشتمل على قطعة مربعة من الجلد على رأس السرج وعلى مؤخرته ، ويمكن فصلهما ، ثم اعتبرت فيما بعد جزءاً من السرج ، وصممت بحيث توفر الراحة للراكب وللحصان معا ، وكان الراعى فى هذه المرحلة يطلق على السرج أسماء مختلفة كذلك .

وكان الراعى يطلق أيضا على السروج القادمة من الشرق أسماء تدل على احتقاره لها ، فهو « سرج كتكوت » أو « جلد الدجاجة » أو « كيس المرارة » أو « طابع البريد » ، وكان الراعى رغم ما لديه من كلمات مزرية لا يجد من بينها ما يعبر عن احتقاره لنوع السروج القادمة من الشرق .

والخشب أساس السرج ، فهو الإطار الخشبى الذى يغطيه الجلد ، فلما أخذ السرج يتطور ، وضع صناع السروج تصميمات مختلفة أخذ كل منها اسم صانعه . وللسرج ثلاثة أجزاء : « الشوكة » أو الرأس الذى يربط به الجلد ، و « المؤخرة » أو القاعدة الخلفية ، و « القضيبان الجانبيان» اللذان يربطان بين الشوكة والمؤخرة ، وكل هذه الأجزاء تغرّى بالغراء وتسمر بالمسامير المحوّاة «المقلوظة» ، على أن المسامير كان يقتصد فى استعمالها حتى لا تصدأ أولا تتفكك من الاستعمال العنيف ، وكان الهيكل الخشبى يغطى كله بجلد خام مبلل ، فكان إذا جف انكمش وربط أجزاء الهيكل ربطا قويا متينا ، ولم يكن الخشب الرقيق يصلح لصنع السروج .

وكان السرج يطلق عليه غالبا اسم الخشب الذى يصنع منه ، أو اسم صانعه ، حتى

أن السرج الغشيم أخذ اسمه من كون هيكله مصمما بحيث يناسب ركوب راع غشيم ، فهو مصمم برأس عريضة ذات شوكة منخفضة ، وبه مؤخرة عميقة كالطابق محفورة فى نفس الخشب ، ولم يكن هناك ما يسمى الآن « حق الاختراع » فى السروج ، فكان الكثيرون يقلدونها خصوصا إذا ثبت صلاحية التصميم . ومن أشهر انواع السروج سرج « اللنبرج » الذى كثيرا ما قلد بعد إدخال بعض التعديلات عليه .

« والشوكة » هى الجزء الأمامى من السرج ، وتعتمد عليها الرأس ، وقد سميت بهذا الاسم من عهد رعاة البقر المكسيكيين الذين صنعوا أول سرج لهم فى شكل فرع الشجرة ليناسب كاهل الفرس ، ولأنه كان يستحيل تطويع الخشب فى ذلك الحين وكانت السروج كلها مستقيمة ، فلما اخترعت الشوكة المقببة أصبحت المستقيمة تعرف بالقديمة . وللشوكة المقببة أجزاء بارزة فى كل من جانبيها ، ويستطيع الراكب أن يعلق ركبتيه فى هذه الأجزاء البارزة حين يركب حصانا جامحا فيظل مستقرا على السرج ، وكان بعض الرعاة يسمون هذا السرج « السرج الغشيم » ، فإذا كانت الأجزاء البارزة شديدة البروز سميت : « فاتات » .

ويسمى الجزء المقوس من الجانب السفلى للسرج « القناة أو البلعوم » ، وكلما زاد انتفاخ التقوس فى الشوكة وارتفعت الرأس ، كلما طالت القناة . والأصل فى التقوس هو ما يعرف « بلفائف السرج » ، وهى مجموعة من اللفائف تربط عبر السرج ، خلف الشوكة تماما لتسمح للراكب بالاهتزاز فى السرج ، وتجعل من الصعب على الحصان أن يزعزعه من مقعده ، وقد تكون أحيانا وسادة من الجلد مملوءة بالشعر بارتفاع ثلاث بوصات أو أربع ، وتربط من جانبيها تحت الشوكة وخلف الرأس .

والمؤخرة هى الجزء الخلفى لقاعدة السرج ، وقد تختلف فى اتساعها وارتفاعها وانحدارها تبعا لاختيار صاحب السرج ، أو تبعا لعادة قومه الذين يعمل معهم ، فالرعاة

فى المناطق المستوية يفضلون المؤخرة المنخفضة ، لأنها تسهل لهم الركوب والنزول ، والرعاة فى المناطق الجبلية يحبون مؤخرة عالية الانحدار قد تكون مستديرة أو بيضاوية أو ذات شفة ، ويسمى الجزء الخارجى من المؤخرة « المسقط » .

وبعض الرعاة كانت لهم طريقة فى ركوب الحصان وهو يجرى دون ربط سرجه ، وكان هذا يسمى « إطلاق المؤخرة » ، ومع ذلك فإنه لم يكن دليلا على أن الراكب بارع فى الركوب .

وكان بعض المكسيكيين يستخدمون سروجا لها مؤخرة منحدرة فيها فتحة لليد فى الوسط ، وأحيانا فتحتان ، وقد أراد « فرانك مينيا » أحد صانعى السروج فى « شيين » بولاية « ويومنج » أن يخترع نوعا جديدا من السروج المعروفة فى أيامه ، فصنع سرجا له شفة من الجلد تمتد حتى نهاية طرف المؤخرة ، وسمى هذا السرج بالسرج « الشييني » . وبدأ استخدامه فى سنة ١٨٧٠ واشتهر استعماله طوال السبعينيات والثمانينات وبخاصة شرق جبال روكى .

ولا شك أن فتحة اليد فى السرج المكسيكى هى أصل صناعة السرج « الشييني » ، فهى تتيح للراكب القبض بيده فى حالة الطوارىء ، على أن الراكب الحديث لا يتسع وقته للبحث عن ثقب فى المؤخرة ، فلو أنه أراد أن يمسك بشىء لأمسك بالمقدمة أو بالرأس ، فالوصول إلى هذه أيسر .

ثم نأتى إلى مقعد السرج ، وهو الجزء الذى يقال إنه أسهل ما يعثر عليه وأصعب ما يحتفظ به ، والقضيبان الجانبيان من الخشب اللذان يسيران من الشوكة إلى المؤخرة هما اللذان يكونان المقعد ، وتوضع قطعة من الحديد المجلفن تسمى « الشدادة » فوق وسط خشب السرج عند صنعه ليغطى الفرجة الموجودة بين القضيبين ، ثم إن هذه الحديدة تقوى الهيكل وتمنع المقعد من الانهيار أو السقوط ، وفوق الحديدة كانت

توضع قطعة من الجلد السميك الناعم تناسب شكل الراكب .

وطول المقعد هو المسافة بين وسط الشوكة ، ومقداره بوصة تقريبا من قاعدة الرأس إلى الحافة الداخلية الوسطى من المؤخرة ، ويتوقف طول المقعد المناسب لكل راكب على طول الراكب ووزنه ، ورغبته فى أن يكون المقعد مضبوطا عليه أو واسعا بعض الشىء ، فإن جزءا كبيرا من راحته يرتبط بالمقعد ، ويسمى المقعد عادة « الطبق » فإذا كان عميقا أو مرتفعا سمى كذلك ، ولغطائه الجلدى دخل فى شكله ، فهو مقعد كامل إذا كان مغطى كله بالجلد ، وهو نصف كامل إذا كان مغطى بثلث من الجلد ، وهو ثلاثة أرباع مقعد إذا كان غطاؤه يمتد فقط إلى الحافة الخلفية من مجرى الدرع .

والرأس هو الجزء من السرج الذى يكون فوق الشوكة ، واسمه الفنى « القربوس » ، وإن كان الراعى لا يستخدم هذا الاسم ، وإنما يطلق عليه أسماء مختلفة فهو : « التفاحة » و « البسكويتة » و « المقبض » وغير ذلك ، والراكب الذى يجيد الركوب يتجنب الإمساك بالقربوس ، فإذا فعل قيل إنه « يصيد الجلة » أو « يشد الجلة » أو « يمسك التفاحة » أو « يسلم على جدته » أو « ينفخ فى البوق » أو « يعصر البسكويتة » وغير ذلك . ولمختلف السروج ميول مختلفة من القربوس تبعا للنموذج الذى يفضله الراكب .

والقربوس من أهم أجزاء السرج ، وبغيره لا يمكن إجراء عملية الربط بالحبال ، ثم هو عامل هام فى الركوب ، والمعروف أنه يمنع الراكب من أن يسحق إذا ألقاه الحصان من فوق ظهره ، لأنه يمسك به قبل أن ينزاح عن السرج ، وفى أثناء عملية ربط الحبال إما أن يربط الراكب حباله حول القربوس ربطا متينا أو يلفه حوله مرة واحدة ، ولهذا فإنه حين يشد الحيوان المربوط الحبل يجد الحبل مربوطا جيدا لا فضفاضا .

ويغطى خشب السرج بالجلد ، ولهذا الجلد أسماء مختلفة ، وهو يتألف من

قطعتين مخيطتين معا ، بينهما فى الوسط فتحة للشوكة وأخرى للمؤخرة ، والجلدة تعد لتركب على خشب السرج ، وبعد تركيبها تربط بشريط أو تقفل بزرار . وقد كانت السروج الأولى تصنع بهذه الطريقة ، ومع أنها كانت توفر راحة للراكب وللحصان أكثر من النموذج المكسيكى فإنها كانت طرازا جافا ، وقد أدخل عليها تحسين فيما بعد .

والجلدة التى تغطى السرج لها أسماء مختلفة ، فتسمى «الجوكى» ، أما الجوكى الأمامية فهى الجلدة التى تغطى أعلى مؤخرة السرج ، وتغطى الرأس تماما . والجوكى « الخلفية » أو « الورانية » هى التى فى أعلى مؤخرة السرج باعتبار أنها أعلى جلدة عريضة تربط خلف المؤخرة ، والجوكى « الجانبية » هى الجلدة الممتدة من المقعد ، أما « جوكى المقعد » فهى الجلدة المنبسطة فوق جلود السرج ، وتسمى أيضا « المنديل » بالأسبانية .

والوسادة » كلمة فنية يطلقها الأمريكيون على أهداب السرج ، والوسادة الكاليفورنية قصيرة مستديرة ، أما وسادة تكساس فإنها طويلة مربعة كالتى تستخدم فى سرج تكساس ، وتسمى قطع الجلود الأخرى التى على السرج «السيور» ، وتستخدم فى ربط جلود السرج معا ، وتربط أطرافها معا ثم تترك معلقة ، كزينة للسرج. والسرج ذوالسيور الستة هو السرج الذى تستخدم فيه ستة أشرطة لربط مختلف السيور مكانها ، وسرج الراعى من هذا النوع عادة ، أما سروج الشغل ففيها ثمانية أشرطة ، و « سير الغزال » شريط جلدى ضيق يربط عند منزل السرج تحت قاعدة الرأس تماما ، وكبار الفرسان يحتقرون هذه الجلدة ، لأنها تستخدم فى الاعتماد عليها بمسكها ، وشريط الرأس هو شريط جلدى يربط بالرأس لوضع الحبل فيه .

والسرج ذو الحزام الواحد الموضوع قرب الوسط يسمى « سرج كاليفورنيا »

أو « ذو الحزام الواحـد » أو « ذو الماسورة الواحدة » فإذا وضع الحزام عند المقدمة سمى « السرج الأسبانى » ، أما السرج ذو الحزامين فيعرف بهذا الاسم ، والسرج ذوالحزام الواحد بين المقدمة والمؤخرة يسمى « ثلاثة أرباع » وهو سرج شائع الاستعمال ، لكن السرج ذا الحزام الواحد لا يصلح فى المناطق الجبلية ، ولا فى ربط الماشية بالحبال ، ولذلك يستخدم أهل تكساس السرج ذا الحزامين ويربطون الحزامين ربطا جيدا عند ربط الماشية بالحبـــال .

والحزام هو شريط قصير عريض يتخذ من شعر الخيل الخشن ، أو من الخيش أو القنب، وفى كل من طرفيه حلقة من المعدن تسمى حلقة الحزام ، وفى كل جانب من جوانب السرج « حلقات » ، ومن خلال هذه الحلقات يثبت السرج فى ظهر الحصان باستخدام شريط طويل من الجلد ، يمرر على التتابع من حلقة الحزام ، ويربط كربطة العنق .

والركاب هو الجزء الذى تعتمد عايه القدم عند الركوب ، ويصنع عادة من الخشب المكسو بالحديد ، أو بالنحاس أو بالجلد أحيانا ، وإن كان الغالب فيه أن يكسى بالحديد أو بالنحاس . ومعظم الركابات القديـمة كانت تصنع من خشب واسع مقوس الشكل ، مدقوق بالمسمار من أعلى ، متين حتى لا يتحطم عند سقوط الحصان ، والركاب مكانه فى طرف الجلود العريضة المدلاة من قضيب السرج وتسمى « جلدة الركاب » ويسمى درع الجلد الثقيل الذى يخاط خارج الركاب « الوقاية » لأنه يحمى أقدام الراكب ويقيها .

والركاب الخشبى الواسع الذى كان يستخدم فيما مضى يسمى « ركاب بيت الكلب » أو « كرب الثور » ، وقد تطور الركاب فأصبح ضيقا يساعد على الركوب والترجل ، وكل هذه الأنواع تحتمل الصدام .

وإذا ربط بين الركابين بجلدة أو بحبل تحت بطن الحصان سميت « ركابات

معكمة » أو « مقيدة » ، وهى مفيدة فى ركوب الجواد الجامح ، وإن كان الفرسان يحتقرونها ، لأنها وإن كانت تثبت الراكب فوق الجواد إلا أنها خطيرة ، لأن الحصان إذا كبا لا يجد الراكب فرصة يتخلص فيها بسرعة ، والرجل فى منطقة البقر إذا ركب حصاناً ذا ركابات معكمة يعتبر غشيما ، وهو بالتالى ليس راكباً ممتازاً .

وتغطى الركاب من الأمام والجانبين قطعة من الجلد على شكل خابور ، ولكنها مفتوحة من الخلف ، وهى وقاية للأصابع ، وتصنع عادة من جلد البقر ويحيط بها إطار من الخشب لتحمى أقدام الراكب فى المناطق الشوكية ، كما أنها تمنع قدم الراكب أن تنفذ فى الركاب ، أو يعضها حصان شرس ، وتسمى بأسماء مختلفة : منها « أنف القرد » أو « منقار النسر » . والركاب الذى ليست به هذه الجلدة يسمى « الركاب المفتوح » .

وبعض السروج لا يثبت فوق الحصان تماما ، ولهذا يسبب له الالتهابات والبثور ، ويصاب ظهر الحصان بالتسلخ .

وإذا وجد على ظهر حصان سرج بدون راكب كان موضع اهتمام وتفكير ، لأن السرج الخالى يثير النفوس فى البرارى ويشغل الخواطر ، ويحدث قلقا على حياة الراكب ، لأن السرج الخالى معناه أن الراكب قد مات أو أصيب ، أو ترك يمشى على قدميه بعيداً عن بيته ، وهذا فى ذاته مأساة جسيمة .

ولقد ذكرت كل شىء عن السرج ، لكننى لم أقل شيئاً عن غطاء السرج ، وهو الغطاء الذى يوضع مباشرة بين ظهر الحصان وبين السرج ، وهو قطعة مهمة ، لأنها تجعل ظهر الحصان فى حالة صالحة ، على أن نوع قماشها لا يهم كثيرا إذا كان السرج قديمـا غير منتظم الشكل ، فالغطاء فى هذه الحالة لا يحمى ظهر الحصان من التقرح .

وإذا ظل الراكب ينقل ثقله من قدم إلى أخرى فى الركاب كان ذلك معناه ، أن السرج غير محكم ، وأن بظهر الجواد قروحا .

وأشهر غطاء للحصان هو المعروف باسم « نفاجو » ، لأن وبره يمتص العرق ويحمى ظهر الحصان ، فضلا عن أنه متين ، وألوانه وتصميماته جذابة ، ويجب أن يكون الغطاء خلوا من التجعدات ، ومن خصل الشعر التى تتعقد تحت الغطاء وغير ذلك من الأجسام الغريبة .

والغطاء الجيد من أهم ما يحتاج إليه الحصان ، والسميك منه يجعل الحصان يعرق ، والظهر الساخن يكون رقيقا لينا ، فيجب بعد وضع السرج على ظهر الحصان أن تمرر الأصابع تحت الغطاء حتى تسوى أية تجعدات فيه ، فمن المهم جدا تجنب وجود أى تجعدات قبل ركوب الحصان ، لأن وجود التجعدات فيه تهديد حقيقى للحصان يعوق الإفادة منه .

(١٥)

زينة الحصان

اللجام والقرطمة والرسن :

يقصد باللجام كساء رأس الحصان ، وهو يتكون من غطاء الرأس ورأس اللجام وقطعة التاج ، وشريط الجبهة ، وشريط الزور ، وقطعة الوجنتين على الجانبين . ولما كان الغرض من هذه القطع كلها أن تظل القرطمة فى فم الحصان فإنها لا تعتبر لجاما كاملا إلا إذا اجتمعت معها القرطمة والسرع .

وغطاء الرأس هو أساس اللجام ، وهو جزء اللجام الذى يحيط بالرأس ، وهناك نوعان رئيسيان من غطاء الرأس : أحدهما له « أذن واحدة » أو « أذن مقسومة » مفتوح الوجه ، والآخر له شريط عند الأنف وآخر عند الجبهة ، وشريط الزور . وغطاء الرأس يصنع من جلد منقوش باليد أو يؤخذ من جلد خام ويزين أحيانا بمسامير ، لكن رعاة البقر العاملين يفضلون الجلد السادة غير المنقوش ولا المزخرف حتى لا يعوقهم فى عملية الربط بالحبال .

ولكل قطعة من قطع اللجام اسمها وعملها : فشريط الجبهة هو الجزء الأمامى من اللجام الذى يساعد على تثبيت اللجام فى مكانه ، وقطعة التاج هى الجزء العلوى الذى يمر فوق جبهة الحصان وراء الأذنين ، وهى فى الحقيقة امتداد لقطع الخدين، وهذه هى الأجزاء الجانبية ، أما شريط الزور فيصنع من سير جلدى يربط باللجام الذى يمر تحت الزور لحمايته ، ولبعض اللجم شريط للأذن ، وآخر للذقن لإحكام توجيه الحصان ، وفى بعض مناطق الفلاة لا يستخدم اللجام مطلقا وإنما يسيطر الراكب على الحصان بالرسن ، فإذا استخدم اللجام كان استخدامه بالتدريج ومع الرسن فى ابتداء الأمر .

واللجام « ذو الأذن » يتألف من قطعتين وبه فتحة الأذن اليمنى فقط ، وعقدة على الصدغ الأيسر ، وليس له شريط على الأنف ، ولا الزور ولا الجبهة ، وتربط قرطمته بسير يتخذ من جلد الغزال ، ولا يستخدم هذا الشكل من اللجم إلا مع الحصان المدرب ، ويمكن أن تكون له فتحتان ، واحدة لكل أذن ، وتكون الفتحة محكمة على الأذن تماماً ، فإذا كان الحصان متعودا على افظ اللجام ، استخدم غطاء الرأس دائماً ، أما إذا كان الراكب يفضل اللجام ذا الأذن ، فإنه يضاف إليه شريط الزور ، وقد يصنع اللجام من قطعة جلد واحدة لها محبك « أبزيم » على الجانب الأيسر أو على الجانبين حتى يمكن إحكام الرأس تبعا لطول كل حصان .

وشريط الذقن أصله « أسبانى » ، وهو قطعة من جلد توضع تحت ذقن الحصان ، وقد تكون أحيانا سلسلة من الحديد إذا كان الحصان ذا فم صلب ، وتكون سلسلة صغيرة تغطى بالجلد أحياناً ، وقد يلصق بالقرطمة شريط جلدى شفقة بالحصان ، لأنه لا يتحمل السلسلة ، ومع ذلك فإنها سرعان ما تصبح جافة صلبة تجرح حافتها الحادة الحصان ، وتمكن معالجة ذلك بغمسها فى الزيت حتى تعود لينة وتظل كذلك ، لأنها إن فقدت أثرها لم تعد لها السيطرة على الحصان .

وهناك نوع من اللجام يستحى الراعى من استعماله ، وهو لجام يغطى العينين كالذى يستعمله عمال المزارع .

القرطمة :

أول العهد بالقرطمة كان النوع المأخوذ عن أسبانيا ومراكش ، وقد حاول الصناع الأوائل أن يبزوا بعضهم البعض فى تشكيل تصميماته المنقوشة

دون نظر إلى ما يعانيه الحصان من قسوتها ، على أن العقل الأمريكى عدلها ملاحظاً أن وظيفة القرطمة هى الإيماء بالعقوبة البدنية لا تطبيقها ، والقرطمة لا أهمية لها بدون أن تتدخل فيها طبيعة الراكب ومشاعره وخفة يده ، فالقرطمات القاسية لا لزوم لها ، فإذا لزمت كان معناها أن الحصان دلل وأفسد بهذه القرطمات ، والراكب البارع يسيطر على حصانه بخفة يده ، فلا يحس الحصان أبداً بعقابه بالقرطمة فى فمه .

والقرطمة هى القضيب المعدنى الذى يركب فى فم الحصان ، وهو أنواع ونماذج ، بعضها شديد القسوة إذا أسىء استعماله ، ومن النادر أن يستخدم الراعى القرطمة ليقسو على الحصان ، ولكنه يستخدمها لتحدث أثرها فى نفسه فقط ، فهو حين يدور إلى اليمين مثلا لا يشد السرع الأيمن ، بل يحرك مقبض اللجام نحو بوصتين إلى اليمين ليقرب السرع الأيسر من رقبة الحصان ، كمجرد إشارة تدل على أن الحصان المدرب يستدير من نفسه دون حاجة لأحد ، وهناك ثلاثة أنواع أساسية من القرطمات : القضيب ، والمعقد ، والشكيمة . وكل تصميم للقرطمة لا بد أن يقع تحت واحد من هذه الأنواع أو أن يكون خليطاً منها .

وقضيب القرطمة مستدير أو مقوس تقوساً خفيفاً ، ويوضع فى فم الحصان ، وله كغيره حلقة فى كل طرف تسمى « حلقة القرطمة » أو حلقة السرع ، لأن اللجام يربط فيها ، وهذا النوع غير شائع بين رعاة البقر ، لكنه يناسب خيول الشد والسحب ، وتستقر القرطمة على لسان الحصان الذى لا يتميز بحساسية خاصة ، فيحس قوة الشد بلسانه عن طريق اللثة الرقيقة ، ورعاة البقر لا يفضلون هذا النوع ، لأنه ليس قاسياً حتى يجعل الحصان يطيع فى حالة الكر والفر السريع فى مطاردة القطيع أو وقفه ، فضلا عن أنه يشجع الحصان «الشداد» الذى يمضى فى السير بلا اكتراث برغبة راكبه .

و «المعقد» يشبه القضيب ، ولكنه مصنوع من قطعتين يرتبطان بعينين متداخلتين فى الوسط ، ويسميه البعض « القضيب المكرر » أو « القضيب المعقد السلسلة » والمفصلة الوسطى تعمل عمل القابض عند استخدام الضغط ، وتسبب ألما شديداً إذا لم تستخدم استخداماً صحيحاً . وبعض رعاة البقر يستعمل هذا النوع فى الخيول الصغيرة ، لكنهم يربطونها فى سير جلدى على الفك بين حلقات السرع حتى يثبت المعقد مكانه ، فإذا لم يحدث شدّ على السرع كان مكان القرطمة بحيث تلمس مجرد اللامس جوانب الفم ، والقرطمة « المعقد » كالقرطمة القضيب كلاهما لا يستعملان فى البرارى .

« والقرطمة الشكيمة » هى قرطمة مقوسة إلى أعلى بوسط قطعة الفم ، وهى شائعة الاستعمال فى البرارى ، وتعتبر أشد قسوة من المعقد والقضيب ، لكن الراكب الجيد يستطيع استخدامها دون أذى ، ويجب أن يكون الجزء الحامل لها منخفضاً لا مرتفعاً حتى لا يجرح الفم ، كما يجب أن تنطبق انطباقا تاما على أركان الفم ، فلا تكون عالية بحيث تقاص الفم ولا منخفضة فتترك فراغا ، إذ أن وجود ارتخاء يجعل الفم ينقرص كلما شد السرع .

والقرطمة « المولدة » لها سنام فى وسط قضيب الفم ، وبه عجلة رأسية لها حافة عريضة تثبت بها ، وقد تكون هذه العجلة من النحاس وتسمى « الذواقة » ، لأن لها طعما يحبه الحصان ويساعده على تقبل السرع فى فمه ، والحصان الذى يلفظ قرطمته يكون ذا « فم ملتهب » ، والعجلة النحاسية تجعله أكثر تحملا وقبولا .

والقرطمة « المفرقة » تكون على شكل الفك فوق قضيب الفم ، وطولها ثلاث بوصات أو أربع ، وهى مقوسة عند القمة ، وأكثر المناطق حساسية فى فم الحصان هو سقف الحلق ، فإذا مست « المفرقة » هذه المنطقة منه أدرك

ما تعنيه ، على أن الراكب الجيد لا ينسى أبداً ما تسببه المفرقة من ضرر ، ولذلك يعالج السرع بخفة ، وهـذه القطعة من الصاب التى تتقوس إلى أعلى تسمى « مضخة المعدة » وتزود المفرقة غالباً بعجلة ، وأحيانا بسلكين مشدودين جنباً إلى جنب وبهما أنبوبتان على كل جانب من جانبى المفرقة تمتدان إلى قطع الشكيمة ، وقد تكون الأسلاك من النحاس أيضاً لتقوم بعمل « الذواقة » . وللتأكد من أن المفرقة مستقرة فوق سقف الفم ، تعقد فى السرع عقد صغيرة لتحديد الضغط الواقع على القرطمه .

والقرطمة « الحلقة » ذات دائرة من المعدن تنزلق فوق الفك السفلى للحصان ، وهى نوع أسبانى عنيف ، ورعاة البقر الأمريكيون لا يحبذون استعماله ، لأنه قاس جداً مالم يستخدم بعناية ، وقد يكسر فك الحصان ، والحصان ذو الفك البارد هو الحصان الذى أسىء استخدام اللجام فى فمه حتى ماتت أعصاب حنكه ، والقرطمة هى أقسى قطعة توضع فى فم الحصان ، وقد اختفى استعمالها فى المكسيك فعلا ، وقد يستخدم حبل فى فم الحصان من تحت الفك السفلى له تكون له نفس القسوة ، ويسمى « سرع الحرب » ، وقد يضيف الراكب إلى هذا الحبل أى شىء يزيد من قسوته ، لكن مثل هذا الراعى سرعان ما يختفى عن البرارى بطارده .

السرع :

السرع يتألف من سيرين من الجلد المدبوغ أو الخام أو شعر الحصان ، يمتدان من حلقة القرطمة إلى يد الراكب ، ويستخدمان لإرشاد الحصان والسيطرة عليه ، وهو نوعان : ولكل نوع منهما نماذج مختلفة :

أحدهما الجلد السادة الذى يربط بأبزيم القرطمة ، أما الآخر فهو جلد مضفور يربط فى القرطمة بسلسلة ، وهناك قطعتان صغيرتان من السلاسل تربطان بحلقة القرطمة من طرف ، وبالسرع من الطرف الآخر ، وبعض الفرسان يحبون السلسلة ، لأن السرع المصنوع منها لا يبتل حين شرب الحصان ، كما أنها تمنع الحصان عن مضغ السرع ، والراكب الجيد يستخدم سرعه بخفة وبخاصة فيما يتصل بالمفرقة أو الشكيمة ذات القضيب الطويل ، فإذا وقف الحصان حدث توتر فى السرع .

و « السرع المطاق » لا يربط سيراه معا ، بل يبقى كل سير مستقلا عن الآخر ، وطول كل منهما يبلغ سبع أقدام تقريبا ، ومعظم الرعاة يفضلون السرع المطاق ، لأن الحصان إذا كبا أو ارتمى الراكب سقط السرع على الأرض ، وخطا الحصان عليه فيتيح ذلك للراكب الإمساك به . والسرع المربوط غالبا ما يعاق برقبة الحصان وهو يسير ، والترجل فى السرعة يكفى أن تنزل السرع المطاق بدلا من أن تقف للفه حول رأس الحصان . ومعظم الخيول مدربة على الوقوف حين يسقط السرع ، وعثرة الحصان فى السرع الساقط يشد القرطمة بعنف يؤذى فم الحصان ، وبعض الخيول مدربة تدريبا جيدا حتى أنها « تقف تماما » ولا تتحرك حتى يلتقط الراكب السرع .

والسرع « المربوط » أو المقفل ، أو الكاليفورنى — كما يسمى أحيانا — هو السرع الذى يربط سيراه من أطرافهما أو يتكون من قطعة واحدة ، وهو غالبا يصنع من جلد مضفور ، وإذا ترك السرع المربوط فوق رأس السرج ، منع الحصان من أن يخفض رأسه للرعى ، لكنه لا يمنعه من السير ، وإذا وضع فوق الرأس لكى يسقط على الأرض فقد يعثر فيه الحصان ويؤذى نفسه ، و « السرع المربوط » غير شائع عند رعاة البقر خصوصا فى السهول ، ولكنه يستخدم فى كاليفورنيا غالبا ، لأنه انحدر إليهم من الأسبانيين الأوائل .

وسيرا السرع إذا ربطا معا كونا كرباجا مرنا ، والأصل فى معنى الكلمة أسبانى

هو « فرع الطريق » فحين يربط السيران معا داخل حلقة يصبحان شيئا واحدا ، يستخدم كسوط أو كرباج دون خوف من سقوطه .

والسوط كرباج مرن صنع من الجلد المضفور ، فى طرفه كرة من الجلد ، وطوله قدم واحدة تقريبا ، وقد تملأ كرته بالرصاص ليضرب بها الحصان المتقهقر الذى يهدد راكبه بالسقوط إلى الوراء ، وهناك حلقة تمتد من الرأس إلى معصم الراكب أو رأس السرج . ورعاة البقر فى الركوب العادى لا يحملون السوط مطلقا ، ولا يربطه الراعى فى معصمه قط ، عند سحب الماشية ، بل يكتفى باستخدام الطرف الطويل من السرع ككرباج ، وأصل الكلمة فى الأسبانية معناها الخيط . والإفادة من الحصان المتعب ممكنة باستخدام السوط أكثر مما هى ممكنة باستخدام المهماز ، فهو يوقظه ولا يخدش جلده ، ولكنه فعال فى سرعة دفعه .

الرسن :

الرسن : جزء من جهاز راعى البقر فى المناطق التى لا تستخدم اللجام ولا القرطمة ، وأصل الكلمة أسبانى ومعناها « أداة الوقوف » ، ويرى بعض الناس أن الرسن مجرد أداة لوقف الحصان ، ولكنه أكثر من ذلك ، إذ يعتبره الفرسان فى غربى جبال روكى أداة ضرورية لتدريب الخيول والسيطرة عليها ، وقد يسهل استخدام القرطمة فى السيطرة على الحصان من الرسن ، ولكنهم يرون أن الرسن يساعد فى الحصول على خيول أفضل فى مناطق رعى البقر ، وعمل الرسن فن ، لأن كل جزء منه يتطلب مواد خاصة ومواصفات معينة .

ويتكون الرسن من قطعة أصلية تشبه السرع بها كامة تستخدم بدلا من القرطمة ، وشريط جبهة عرضه ثلاث بوصات يمكن أن ينزلق على الصدغين ليغطى عينى الحصان . ولكى يستخدم الرسن استخداما صحيحاً يجب أن يكون ثابتا ، أما المتأرجح فلا فائدة منه . والغرض من صلابته أن يتوازن مع زرار الأنف وعقدة الكعب ، ويتوقف التوازن

الضرورى فى الرسن الجيد على طريقة صنع زرار الأنف وعقدة الكعب ، والوضع الصحيح للرسن هو أن يكون على مسافة بوصة من التقاء الغضروف بالعظام ، والرسن كالقرطمة يستطيع أن يوقع العقوبة بالحصان ، لكن ذلك لا يتم عن طريق الفم الرقيق .

وقطع الصدغ هى أجزاء الرسن التى تثبت حول جوانب أنف الحصان ، وتمتد على طول الوجه تحت بروز العين ، وترتبط عند مؤخرة الرأس ، وبعض أنواع الرسن له أبزيم على الجانب الأيسر لإحكام وضعه وسهولته ، ويجب ألا يكون الرسن شديد الصلابة ، أو شديد الليونة ، فإذا كان شديد الصلابة صعب تشكيله على شكل أنف الحيوان ، كما أنه قد يضغط عليه بشدة ، فيؤذى الحصان مبتدئا من زوايا فمه إلى أطراف عظام الفك ، والأصداغ اللينة كذلك لا تقرص الحصان ، لكنها كذلك لا تثبت وضع زرار الأنف وعقدة الكعب فى مكانهما الصحيح ليؤديا عملهما كاملا .

والأصل فى كلمة « الكامة » أسبانى ، وهى شريط مجدول للأنف يؤدى دوراً هاما فى السيطرة على الحصان ، فإذا كانت عالية بطل عملها ، ويجب أن تكون قصبتها طويلة تسمح لعقدة الكعب بأن تتأرجح فى انطلاق عن عظم الفك حين يستريح الحصان ، وقصيرة بحيث تشد العظم فتجعل القبضة تحك أعصاب الوجه على الجانبين عند شد السرع ، وإذا أحكم وضع الكامة كانت كالقرطمة تماما فى مفعولها ، غير أنها فى الجو البارد لا خطر منها على فم الحصان ، وهى مفيدة كذلك للحصان ذى الفك البارد أو الفم المدلل .

وعند قمة الكامة توجد زيادة فى الاتساع تمتد بين بوصتين وثلاث بوصات من كل جانب فى المركز ، وتسمى هذه الزيادة زرار الأنف ، وطوله سبع بوصات ،

ويجب أن يتوازن طوله مع الرسن ، وأسفل زرار الأنف بقليل يوجد زرار منزلق على الجانبين يمسك بقطعتى الصدغين فى مكان أعلى من قصبة الكمامة ، فالأنف نقطة حساسة ، وليس الغرض من زرار الأنف الإساءة إلى هذه النقطة حتى تصبح يابسة ، بل أن تظل حساسة للسيطرة على الحصان سيطرة أكثر .

و « عقدة الكعب » هى العقده المجدولة الكبيرة فى طرف قضيب الكمامة الذى يجرى تحت الذقن تماما ، فشد السرع يسقط عقدة الكعب فى الفك ، ولهذا يلتهب الفك ، فإذا استمر هذا الالتهاب صار الفك يابسا عديم الحساسية ، ويستلزم إذ ذاك مزيدا من الضغط أو الأدوات الحادة ، وهو ما يجب تجنبه بقدر الإمكان . وعقدة الكعب هى ميزان عجلة الكمامة ، فإذا كانت ضيقة لم تستقر على الأنف جيدا ، بل ترتفع وتنخفض إذا سار الحصان ، وبهذا تسبب اضطرابا لا داعى له ، ويجب لهذا استخدام كل « الأبزمة » على طرفى الكمامة لربط عقدة الكعب .

وبعض الفرسان يستخدم فى تعمية الحصان بالرسن غطاء على العينين يصنع من شريط جلدى عرضه ثلاث بوصات تقريبا ، وهو مربوط فى الرسن بقطعة الرأس ، وطويل بدرجة تسمح له بأن يمتد عبر جبهة الحيوان ، وينزلق فوق قطعتى الصدغين ، وهكذا يستخدم كغطاء للعينين أو كشريط للجبهة ، وإذا استخدم كغطاء لعينى فرس غشيم ، أمكن رفعه بعد أن يركب الراكب . واستخدامه على هذه الصورة قديم يرجع إلى أول عهد دخول الخيول فى أمريكا .

ومعظم من يستخدمون الرسن ، يستخدمون خيطا مغزولا فى التدريب المتقدم ، لأنه يخفف من حدة عقدة الكعب ، وميزة هذا الخيط المغزول أنه يقبض على رأس الحصان ، والرسن بغير هذا الخيط المغزول قد ينسلخ عن الأذن إذا اشتد ضغط الأمام ، فإذا كان الخيط من شعر الذيل الخشن كان شائكا ، وبذلك

يؤذى الحصان الرقيق الجلد . والفارس الإنسان يدخل هذا فى اعتباره ، فلا يستخدم خيطا من شعر الذيل ، لأن إحساس الحصان بالخيط الشائك يصرف ذهنه عن التدريب .

وقد يستخدم مع الرسن سرع من حبل الشعر طوله عشرون قدما تقريبا ، ثمان منها للسرع ، واثنتان للثنى والباقى يتخذ حبل قيادة . وأفضل أنواعه ما كان من شعر الذيل ، لأنه خشن يجعل الحصان يشعر شعوراً خاصا فى رقبته ، ويساعد على تدريبه أول الأمر ، ثم يستبدل به غيره من شعر « المعرّفة » . والحبل يبلغ سمكه بوصة واحدة تقريبا ، ويتكون من ست إلى ثمانى ضفرات ، وإذا استخدم الحبل بدل السرع وجب أن يسحب السرع نحو ركبة الراكب فلا يرفع إلى أعلى ولا ينزل إلى أسفل .

(١٦)

الحبال

الحبل شىء بسيط ، لكنه أهم أدوات راعى البقر ، ولولاه لما كانت هناك حرفة رعى . وكان فى الأيام الخوالى أهم أداة لصيد الخيول والماشية ، والوسيلة الوحيدة لإلقاء القبض على الحيوان لوسمه أو تطبيبه ، وما زال حتى الآن مع وجود الأسيجة والحظائر يعتبر أداة هامة ، فكل راعى بقر محتفظ بحبل يلفه فوق رأس سرجه ، لا للزينة طبعا ، وهو بصرف النظر عما يريد عمله ، يجب أن يفكر فيما إذا كان يمكنه أن يعمله بالحبل أم لا ، والجواد المسرج ، والرعى بالحبل فن ، بل هو من أصعب الفنون على الراعى وإن كان يمارسه منذ نعومة أظافره إلى أن يحذق الركوب فوق السرج .

ويستخدم رعاة البقر ألفاظا كثيرة للتعبير عن الحبل ، معظمها أسبانى ، وكلها تعنى الحبل المضفور من الجلد .

ويستخدم المكسيكيون كلمة يقصد بها الحبل الذى ينتهى بخطاف ، وأصلها أيضا برتغالى لا أسبانى كما يتوقع ، ومعناها « الفخ » أو « الصيد بالفخ » .

وأول حبل للراعى كان هو حبل الجلد ، وكان يطلق عليه « خيط الجلد » ، ويصنع من أشرطة جلد مجدولة ، وكان أول استعمالها فى أسبانيا والمكسيك من جلد الثور ، وذلك غير شائع الآن ، كما أن ضفر الجلد بطل استعماله .

وكان استعماله قبلا سهلا لخفة وزنه ومتانته وإن كان أقل فيهما عن غيره من المواد ، وهو بطىء السير فى الهواء ولا يناسب إلا الجو الجاف ، ويصلح أيضا للمداعبة أكثر مما يصلح للربط المحكم .

والحبال تصنع من مواد مختلفة سأحاول أن أصف لك بعضها : فهناك حبل يتكون من أربع ضفرات سمكها ثلاثة أرباع بوصة ، يصنع من وبر نبات القرن ، وهو بالغ الصلابة ، وبه أنشوطة واسعة ، ويمكن إلقاؤه بسرعة ، وهو الحبل المفضل عند الصيادين ، لأن أنشوطته يسهل التحكم فيها ، وفى الجو الرطب يصير صلبا فيتعذر إلقاؤه حتى فى بتر ، كما أنه صالح لتدليل الحيوان ، لأنه ينقطع بسهولة حين يربط بشدة ، ولا يفضله حبل غيره فى ربط الماشية وصيد الخيول فى الحظيرة .

وأكثر الحبال شيوعا اليوم هو « المانيلا » الذى يستخدم فى البرارى لرخص ثمنه ، ويحصل عليه بأى طول وبأى سمك من أى متجر . ويصنع من وبر المانيلا ، ويتألف من ثلاث ضفائر ، ومزيته أنه صلب جدا رغم متانته ونعومته ، وبعض الصيادين يحميه من الرطوبة بدهنه بزبد البقر أو الفازلين مع البارافين الذائب حتى لا ينقطع عند سقوط المطر ، والحبال سموك مختلفة ، كلها ممتاز فى الصيد الخفيف ، وأسمكها يصلح لصيد الثيران والأعمال الثقيلة .

والحبل الذى أخذ ينتشر استعماله هو الحبل المصنوع من الخيط الكتان الملفوف ، وهو كغيره من الحبال الوبر ، يصنع من ثلاث ضفائر ويغطى بطبقة من الشمع ليكون أمتن ، ويعيش مدة أطول ، لأنه إذا لم يغط بالشمع ينعم ويتقصف ، فيسبب ذلك ضرراً للصياد ، وهو متين وسريع فى العمل ، ولذلك يصلح للصيد الثقيل إذا كان بحالة جيدة ، وثمنه أغلى من غيره ، ولهذا يفضل رعاة البقر عليه « حبل المانيلا » .

وحبال القطن قد تستخدم فى البرارى ، لكن قل أن تستعمل فى الصيد .

وهى رغم نعومتها وأنشوطتها المتينة ، سريعة القفز والامتداد ، ولهـذا لاتسقط على الحيوان بسهولة ، كما أنها لا تربط فى رأس السرج ، وليست متينة كغيرها .

وحبل الشعر يصنع من شعر ذيل الحصان أو معرّفته أو كلاهما . وشعر الذيل ينتج حبالا أمتن ، لـكنها لا تستخدم كثيرا ، لأن فتلها سهل فوق أنها خفيفة فى الرمى ، ولهذا تصنع قصيرة وتستخدم كالسرع ، وفى تدريب الأمهار الصغيرة يفضل الفرسان استعمال حبل شعر ذيل الفرس ، لأن أطرافه اليابسة تسقط على رقبة المهر وتجعله يحس بضغطها ، وإذا صنع الحبل من شعر أبيض وأسود على التوالى سمى « ملاحة » .

و «الهوندا» هى «عين» معقودة فى طرف حبل الصيد لتكون « أنشوطة » . وهى كلمة أسبانية معناها قاعدة المقلاع التى يوضع فيها الحجر لرميه ، ويتكون «الهوندا» من أنشوطة صغيرة مربوطة فى طرف الحبل نفسه ، والحبل هنا تحميه قطعة من الجلد مخيطة فى الطرف العلوى من الأنشوطة . والهوندا أيسر وسيلة للامساك بالحيوان بعد صيده ، وبعض الرعاة يستخدم « الهوندا » من الحديد لأن الحبل ينزلق فيها بسهولة أكبر ، لـكنها لا تشد الأنشوطة شدا محكما يمنع الحيوان من التخلص منها بكفاحه ، وإذا استخدمت لصيد الحصان من رأسه ربما آذت عينيه .

وقـد يربط الحبل المطاق بطرق مختلفـة حتى لا ينسل ، كما تربط أحيانا « أخية » لعمل أنشوطة للقرن إذا كان الحبل يربط ربطة قوية محكمة . والصياد الماهر يعتنى بحبله ، لأن قدرته على الصيد به تحددها متانته ، فهو يصطحبه معه فى فراشه ليحميه من الجو ، وإذا لم يكن يستعمله فإنه يلفه بطريقة منتظمة ويربطه بخيط رأس سرجه ، وأول ما يتعلمه الصياد هو كيف يلف حبله ، إذ يجب أن يلفه لفا محكما حتى ينطاق دون أن يتعثر أو يتعقد عند إطلاقه .

والحبل على أطوال مختلفة ، تبعا للمنطقة التى يستعمل فيها ، والعمل الذى يقوم به ، كما أنها ذات أحجام تتراوح بين ٣/٨ و ١/٢ بوصة ، أما الحبل الذى يستخدم فى عمل خفيف فسمكه ٣/٨ بوصة ، وأما ما يستخدم فى عمل ثقيل فسمكه ٧/١٦ بوصة وفى المناطق التى يكر فيها الصياد ويفر كمنطقة كاليفورنيا يصل الحبل إلى ستين قدما ، أما الصياد فى « تكساس » فيستخدم حبلا أقصر من ذلك يتراوح طوله بين ثلاثين وخمس وثلاثين قدما ، والمهرة منهم يستعملون حبلا أقصر من ذلك ، لأنه يكفى فى عملهم ويقصر المسافة بينه وبين الحيوان ليحكم ربطـه ، ويفضل صيادو الثيران الصغيرة الحبل القصير الذى لا يزيد طـوله على اثنين وعشرين قدما تقريبا .

والحبل إذا لم يكن لينا فإنه لا يسهل رميه ولا لفه ، ولـكى يلين الراعى حبله يربط طرفه بسلسلة ، ويربط الحبل والسلسلة بشجرتين أو بعمودى سياج ، ويلف بقضيب فى إحدى حلقات السلسلة حتى يصبح الحبل متينا ، ثم يتركه ممتدا على هـذا النحو طوال يومين ، وقـد يربط أحد طرفيه فى شجرة والطرف الآخر فى مقدمة سرجه ، ويركب حصانا هادئا ويسحب الحبل فترة ما ، وقد يسحبه أحيانا فوق شرر نار ليحرق الوبرات المنبعثة منه ، وبعد أن يتمدد الحبل ويلين ، يصبح أداة نافعة فى يد الصياد المـاهر .

وراعى البقر يطاق أسماء مختلفة على الحبل ، فهو : « خط الجلد » و« خيط الجلد » و الحلفاية » و « المـانيلا » و « الخيط الطائر » و «حبل البنت» و « خط الحوت » و « اللفة » وغير ذلك ، ويسمى حبل الصيد « حبل المسك» تمييزا له عن غيره من الحبال ، وهو حين يلقى أنشوطة بقصد الصيد سمى « الأنشوطة الجائعة » فإذا أخطأت الأنشوطة الصيد سميت « الأنشوطة الضائعة » .

والراعى يستخدم الحبل فى كل شىء : فى الحزم ، وفى الرمى ، وفى القيادة ، وحبل القيادة قصير ، ويستخدم كذلك فى الربط ، وهناك « حبل الخنق » وحالته تكون حين يخفض الحصان رأسه فينزلق الحبل إلى قرب فكه ، وبذلك يستطيع الراكب أن يوازن نفسه كما أنه يخنق الحصان .

وللحبل استخدامات كثيرة فى البرارى ، وأول عمل له هو ربط الحيوانات التى تسرح فى ذلك اليوم ، وفى أثناء الرعى إذا لم تكن للماشية حظائر تكون الحبال « أسلاكا » تحيط بالماشية فى الوقت الذى يعمل الرعاة فيه على ربطها . والحبل يستخدم فى ربط الحصان إلى عمود سياج لإمكان إسراجه ، ويرفع الماشية من الحفر التى قد تتردى فيها ، وإذا غرزت العربة فى رمال كثيبة أو فى الطين وهى تعبر نهراً لفها الرعاة بالحبال إلى سروجهم وشدوها . والراعى الماهر يستخدم حبله كالسوط يصوت به ، كما أنه يستطيع أن يقتل به ثعبانا وهو على بعد منه .

وكم من كومة خشب وردت إلى المعسكر ملفوفة بحبل ، ومربوطة بمقدمة السرج . والراعى يستطيع أن يصيد بحبله القطط المتوحشة والذئاب وأسود الجبال والدببة ، كما أنه يستخدمه فى ربط فراشه ، وفى إطفاء حرائق الحشائش بنزعها بواسطته من الأرض ، وفى العواصف يسترشد به بمده بين عنبر نومه والاصطبل أو كومة الخشب ، وكان الحبل يستخدم لتحقيق العدالة عند غياب القاضى والمحلفين ، وكانت نتيجة ذلك تحذيرا منظورا للصوص الخيول والماشية .

(١٧)

العكامات وحبال الأوتاد

لا تستخدم العكامات فى هذه الأيام إلا نادرا ، وكانت فيما مضى جزءا ضروريا من أجهزة راعى البقر القديم ، وهناك فرق كبير بين العمل فى المزرعة والعمل فى الفلاة ، فالراعى الحالى فى المزرعة يركب فى نطاق محدود من الأرض المستأجرة أو المملوكة ، أما الراعى القديم فى الفلاة قبل إقامة الأسيجة فكان يركب وراء الماشية إلى غير حدود ، والراعى القديم لم يكن بحاجة إلى عكامات إذا عمل فى مزرعته ، لأن حصانه إذا لم يكن موضوعا فى حظيرته ينطلق ولا يسعى أحد إليه إلا عند الحاجة ، فإذا كان فى الفلاة أو ارتحل كان بحاجة إلى عكامات يقيد بها حصانه عندما يعسكر حتى يضمن وجود حصان يركبه فى اليوم التالى ، وهو فى الوقت نفسه لا يعوق حرية الحصان فى رعى العشب ، والراعى إذا لم يستعمل العكامة يحزمها فوق سرجه أو يلفها أنشوطة حول رقبة الحصان لتكون فى متناول يده عند الحاجة . وحين يمارس الصيد يلقى بها فى العربة .

وهناك أنواع مختلفة من العكامات ، بعضها يصنعه الراعى بنفسه ، وبعضها يصنعها الصنع ، وكان الهنود فى السهول يستخدمون نوعا صنع من قطعة واحدة من الجلد الملفوف ، ثم كان هناك نوع العكامات المجدولة والمزينة بعقد أو أزرار ، وبعضه يكون على شكل حلقتين متصلتين على هيئة (الرقم ثمانية باللغة الانجليزية) ويسمى كذلك ، على أن أرخص الأنواع وأسهلها لدى الحصان هى « عكامة الخيش الخشن » .

وكثير من الرعاة يستخدمون النوع الذى تستخدمه الحكومة ، وهو قيد جلدى يشبك حول كل من الساقين الأماميتين فوق المفصل ، والقيدان تربطهما سلسلة

قصيرة تعمل على هيئة خطاف ، فيتيح بذلك فرصة طيبة للرعى . لكن بعض الخيول استطاعت بفطرتها أن تسير مسافات طويلة على رجليها الخلفيتين ، وذلك بأن تثب وثبات قصيرة بالأماميتين ، ومثل هذه الخيول يستطيع أن يسير عدة أميال فى الليلة ، فيقلل هذا من قيمه القيد إلى حد ما . ولمنع الحصان عن هذه العادة يربط حبل من أحد طرفيه بالعكامة ، ويربط الطرف الآخر بذيله .

وثمة طريقة أخرى لمنع الحصان من التوغل بسرعة ، هى تقييد قدميه المتجاوتين الأمامية والخلفية بحبل واحد ، وبذلك لا يستطيع الحصان المعتاد على الوثب وهو مقيد القدمين الأماميتين أن يتحرك بسهولة ، وهناك طريقة أخرى هى ربط إحدى القدمين الأماميتين بإحدى الحلقتين على خاف ، لكن هذه الطريقه خطيرة إذا كان الحصان عصبيا ، لأنها تفزعه وتثيره ، فإن حدث ذلك صارع القيود وألقى بنفسه إلى الأرض ، وقد يصاب بأذى ، والراعى البعيد النظر يفضل أن يعود إلى المعسكر وهو ممسك برسن حصانه ، على أن يعود به مصابا أو مغتاظا .

وكان الراعى القديم يصنع العكامات لنفسه من جلد البقر أو الغزال الطازج ، وكانت تتألف من عصابات من الجلد تربط فى شكل قيد من أطرافها و بينهما مسافة ملفوفة فى شكل حبل بدل السلسلة الحالية ، وكانت تستخدم عروة وزرار من الخشب ، وأحيانا عصية مستعرضة لإحكام العقدة الأخيرة ، ومعظم الرعاة كانوا يفضلون العكامات على الأوتاد ، لأن الحصان المربوط إلى وتد يرعى فى دائرة محدودة ، وإذا ترك بعض الوقت قد لا يجد الحشيش الذى يأكله ، أما الحصان المقيد بعكامة فإنه يستطيع أن يجد حشيشا جديدا ، والحصان الذى يعتاد العكامة لا يحاول أن يقطع عكامته إذا صادف شوكا أو سلكا ، وهذا لا يمنع من وجود مؤيدين لاستخدام حبال الأوتاد ، والمرجع كله للخبرة والرأى .

وفى الحشائش الطويلة تساعد العكامة القصيرة فى الساق الأمامية الحصان على أن يأكل كثيراً ، أما إذا كانت الحشائش قليلة ، فإنه يستخدم قيد جانبى طويل ، وفى حالة المطر كان الحصان يخرج عن قيده إذا كان من الجلد لأنه حين يبتل يتسع ويتمدد .

وبعض الرعاة يرفضون استخدام القيود الثقيلة ، فإذا أرادوا تقييد الحصان استخدموا حبلا سمكه ثلاثة أرباع البوصة ، وطوله خمس أقدام ، وكانوا يعتبرون الطول المناسب هو مقدار ما يلف وسطهم ويزيدون عليه قدمين ، وهم يأخذون حبلا واحداً يطوونه طيتين ويعقدون طرفيه ، ويلفون الطرف المعقود حول رجل الحصان ثم يلفون الحبل حول رجله الأخرى أربع مرات أو خمساً ويربطونه .

وبعض الرعاة يستخدمون قيداً من السلاسل لسهولة وضعه ، وهو سلسلة قصيرة طولها قدمان تربط بالرجل الأمامية ويترك الطرف الآخر منها طليقاً ، غير أن هذه الطريقة لم تكن شائعة ، لأن الطرف الطليق كان يضرب رجل الحصان إذا حاول الجرى ويسبب له الألم ، وقد يؤذيه ، فإذا كان فى الحقل يرعى جعلته يسير سيراً عاديا بهدوء مسافة طويلة ، فإذا حاول أن يجرى أو يسرع فى سيره أمسكت السلسلة بساقه وقيدته عن الحركة ووقفه الألم ، وقد تجرح السلسلة جلده أحياناً وتمكن الذباب ونحوه من الجرح ، فمزاياه أقل من أضراره كثيراً .

وهناك نوع من العكامات اسمه « القبقاب » ، وهو قيد فعال وإن كان عنيفاً ، ويتخذ من عصا ذات شعب طولها قدمان وسمكها بوصة ونصف أو بوصتان وتغطى بسير من الجلد ، ويستعمل فى المناطق التى تكثر فيها الأشواك وإن كان من ألد أعداء راعى البقر إلا أنه يعرف كيف يفيد منه .

ومن أبسط العكامات ثمناً وصنعاً وأكثرها فائدة عكامة الخيش التى تصنع

على شكل مثلث ، وتقسم بالتساوى ، ثم تلف حول نفسها ثلاث مرات لتحدث فراغا بينها ، ويوضع أحد أطرافها حول رجل الحصان ، ويلف الطرفان الآخران معاً ، ثم يربط الطرف الأول بعقدتين مربعتين ، وهذا القيد قوى الأثر سهل الصنع ، لأنه لا يسلخ جلد الحصان ولا يلهبه كما تفعل الحبال أو السيور الأخرى ، مهما وثب الحصان أو جرى حواليه .

« والعكامة الأسكتلندية » نوع آخر لا يمت لما سبق من العكامات بصلة ، فهى مختلفة عنها وتستخدم لغرض آخر ، وتصنع من حبل كبير لين ، فتعمل أنشوطة حول رقبة الحصان لتربط بين الكتفين ، وتتكون من ذلك عقدة مقوسة ترجع إلى الكتف ، ثم يوضع الطرف الطويل من الحبل حول الرجل الخلفية تحت مفصل الكعب تماما ، والطرف الآخر ينفذ من الأنشوطة ويربط ، ويكون قصيراً فيرتفع عن الأرض بمقدار ثلاث أو أربع بوصات إذا كان الحصان واقفا . ولكن لكى يمنع الحصان من التخلص من الحبل ، كان لا بد من إضافة لفة أخرى حول الكعب أو لف الحبل حول نفسه ، وتسمى هذه « العكامة » عند أهل الشمال « عكامة الغراب » .

و « حبل الوتد » من أقدم الطرق لربط الحصان ومنعه من الفرار ، وكثير من الرعاة يفضلونه على العكامة ، لأنه أسلم وأقل ألماً للحصان وأكثر حرية له ، فالحصان لا يستريح ويلف ويدور وهو معكّم ، وإذا سمح له بالرعى فإنه قد يتعلم السير بالعكامة بعد فترة قصيرة ، أما إذا ربط بالوتد فإنه يستطيع أن يلف ويدور ويرعى دون أن يخشى الراعى أن يأخذه أحد من مكانه .

وربط الحبل بالوتد تدريب نافع للحصان سرعان ما يتعلم بعده ألا يخاف من حبل المطاردة ، كما يتعلم كيف يتجنب العثرة . ويسمى الحبل عند أهل الشمال

« حبل الوتد » أما أهل الجنوب فيسمونه « الخازوق » وطول الحبل خمس وعشرون أو ثلاثون قدما ، وهذا الطول يسمح للحصان بحرية فى الحركة أوسع ، ولا يشده إذا بدأ الجرى .

ويستخدم لقيد الحصان حبل خاص ، يربط غالبا حول رقبته وتعقد به عقدة فى الأنشوطة حتى لا يختنق الحصان ، والراعى حين يكون فى الصيد يقيد فرسه فى الليل مسرجا ، وإذا لم تكن هناك طوارىء قيده بغير سرجه ليزداد راحة ، أما إذا كان يتوقع ركوبا مفاجئا فإنه يترك عليه السرج استعداداً لسرعة التصرف .

وهناك عدة طرق لقيد الحصان : فبعض الرعاة يستخدم لذلك رسنا ، وبعضهم يربط الحصان من رقبته ، والبعض يربطه من رجله الأمامية ، والطريقة الأخيرة ليست شائعة ، والبعض يربطونه بحبل حول صخرة ثقيلة أو كتلة خشب ، وما دامت الصخرة أو الكتلة تتحرك فإنها تعطى الحصان حرية أكثر ، وتمنع عثاره ، كما تمنع الأخطار التى تترتب على شدة القيد ، ولا يحسن ربطه إلى شجرة صغيرة خشية أن يقتلعها الحصان من جذورها ويفر بها ، ويفضل البعض ربط الحصان فى جذع شجرة مقطوعة بكامل فروعها حتى إذا فر بها الحصان أحدثت صوتا ينبه الراعى ، كما أنها لثقلها عايه لا يمكنه أن يجرها إلى مسافة طويلة .

وأكثر الطرق شيوعا فى قيد الحصان استخدام الوتد أو الخازوق ، وكلاهما يصنع من الحديد أو من الخشب ويدق فى الأرض ، وقد أصبح الوتد من لوازم راعى البقر وأدواته ، بل من الألفاظ المتداولة لديه ، فهو يقول : « رفع الوتد » ويعنى بذلك أنه رحل عن المكان ، وأصبحت عبارة : « دق الوتد » يعنى بها أن المرأة ارتبطت بحب رجل .

وإذا وجد الراعى فى منطقة لا خشب فيها ولا شجر ولم يكن معه وتد ، واضطر أن يعسكر فيها لقضاء الليل ، حفر حفرة عميقة ، وعقد عقدة كبيرة فى طرف حبله وألقاها فى الحفرة وهال عليها التراب ، فيظل حصانه مربوطا بها إلا إذا سقط المطر واتسعت الحفرة . . . أما إذا كان جواده من نوع لا يمكن الاطمئنان إليه فإنه يشق خندقا على شكل زاوية قائمة ويدفن فيها مقدار قدمين من طرف الحبل ، ثم يهيل عليه التراب ، وقد يبدو ذلك إجراء مدهشا ، ولكن الحقيقة أن الفرس الرزين لا يشد حبل رسنه كثيرا .

القطيع :

يقصد راعى البقر بكلمة « القطيع » مجموعة الخيول التى تحت رعايته لا تحت سرجه ، وهى كذلك تدل على الخيول التى تدربها مزرعة من المزارع .

ويختلف القطيع المخصص لكل راع باختلاف المنطقة التى يعمل فيها ؟ وحجم المزرعة ، ونوع العمل الذى يطلب منه أداؤه ، ففى الجبال يكون عدد القطيع أكبر مما فى السهول ، ومتوسط القطيع يتراوح بين سبعة خيول وعشرة ، منها خيول للصباح ، وخيول لما بعد الظهر يكون أحدها مدربا على شد الحبل ، وحصان لليل ، وحصان للمطاردة يجيد السير فى مياه النهر ، ولهذا نجد لكل راع عدة خيول نصف مدربة فى قطيعه ، استخدمها فى ركوبه فدربت تدريجيا ، ففى رعى البقر لا قيمة للحصان الغشيم . وصاحب المزرعة إذا لاحظ حصانا يبدو منه ما يبشر بالنجاح فى رعاية البقر عهد به إلى راع يعرف كيف يدربه ، فالمعروف أن الراعى يعتبر أكبر إدراكا من الحصان إذا عرف كيف يدربه على رعاية البقر ، والحصان الغشيم إذا كان فى عامه الثانى سمى « غشيم العام السابق » .

وفى تخصيص الخيول للعمل يركب الرعاة الخيول التى اعتادوا عليها كل سنة ، ولا توجد قاعدة ثابتة لذلك ، فصاحب المزرعة هو الذى يعرف أن الرعاة يفضلون ذلك ويؤدون العمل بصورة أحسن وأسهل بنفس الخيول ، وهو يقدر عمل كل راع بقدرته على استخدام خيوله وبخاصة فى الصيف ، وبعض المزارع تختار الراعى المناسب لكل قطيع ، وبعضها يوزعها تبعا لأقدمية الرعاة العاملين فى المزرعة ، أو يترك لكل راع أن يختار ما يشاء من الخيول ، واختيار الراعى نهائى لا مرد له ، والرعاة الجدد هم الذين يبدءون الاختيار ، ويليهم الرعاة القدامى بالمزرعة : الأقدم فالأقدم ، والقطيع الذى يختاره الراعى يصبح كأنه ملك له ، له القول الفصل فيه ، واسترداد حصان منه يؤدى إلى أن يغادر المزرعة فورا ويرحل ، والراعى الذى يعمل فى مزرعة منذ سنوات طويلة قد يضطر إلى مغادرة مزرعته ويرحل ، لأن شخصا كبيرا جاء إلى المزرعة وركب أحد خيوله .

وكل راع يدرك أن الحصان هو قوته المحركة ، وأن عمله يتعطل إذا لم تكن خيوله فى حالة جيدة ، والراعى باعتباره يعرف كل صفات قطيعه فإنه لا يتركه أبدا إلا إذا ترك المزرعة أو فصل من العمل ، ولا يتعرض للقطيع أحد إلا إذا عاد الراعى إلى المزرعة أو استخدم لها راع جديد . وفى هذه الحالة يحدد صاحب المزرعة للراعى الجديد القطيع الذى يتولى رعايته ، لكنه لا يصدر له عن القطيع أية تعليمات ، بل يعتبر إعطاء المعلومات مخالفا للعرف ، لأن معناه انعدام الثقة فى قدرته وعدم كفايته . وأى تدخل من راع فى شئون قطيع غيره يسبب له كثيرا من المتاعب .

والقاعدة فى القطيع أن يكون كله ذكورا ، فالذكور هى أفضل الخيول لرعاية البقر ، لأن الفحول تتصارع وتثير الاضطراب بين صفوف القطيع الهادىء ، والإناث تنفصل عن القطيع ولا تحتمل وضع السروج ، فهى عنصر

شغب دائم ، وأحيانا تستخدم فرس أنثى فى القطيع ، فإذا حدث أن أثارت القطيع كان ذلك تحذيرا لحارس الليل فى الفلاة أو فى المعسكر ، وكانت الأنثى تستخدم فى القطيع لاستهواء باقى الخيول ، لكن ذلك رغم ما فيه من عون للراعى ، يعترض عليه من معظم الرعاة ، إذ أنها تصدر صيحات كثيرة زائفة تقلق نوم الرعاة فى الليل . ومعظم الخيول المدربة يستقر حالها دائما بعد فترة قصيرة .

ولم يعد الرعاة يضمون إلى القطيع أى أنثى خيل أخرى ، فأنثى الخيل كأنثى الإنسان لا تميل إلى الاستقرار ، بل تسعى وراء الذكر ، أو كما يقول « تشارلى راسل : « هناك دائما ذكر يسعى إليها » والأنثى مهمتها إثارة الخيول لا العمل مع القطيع ، ثم إن الذكور يتنافسون فيما بينهم عليها ويتصارعون ، وبعض الرعاة الحدثيين يركبون أنثى الخيل ليروا مدى صلاحيتها لرعاية البقر ، فإذا لم تتوفر لها الصلاحية استغنوا عن تربيتها .

والراعى وإن كان لا يملك قطيعه يعتبره كأملاك له ، فهو يحبه ويعامله معاملة طيبة ، ويدافع عن خيوله كما يدافع عن صديق له ، وأشق ما يلقاه الراعى القديم أن يركب حصانه ويرعى قطيعه ثم يتبين له بعد ذلك أن صاحب المزرعة باع القطيع مع الماشية بعد انتهاء فصل المطاردة .

وحين ينتهى العمل فى الخريف ، تترك الخيول للجرى فى الفلاة طوال الشتاء لتستريح وتلتئم جروحها ، وهى تنسى فى تلك الفترة الراعى الذى كان يطاردها كل صباح ، وتنسى الحبل والحظيرة ، وأيام المطاردة العنيفة ، فإذا عاد فصل المطاردة وإطلاق سراح الخيول إلى الفلاة راجع صاحب المزرعة سن كل حصان وحالته وأقدامه ، وكيف قام بعمله طوال العام ، فإذا وجد أن أحدها قد تأثر بكبر

سنه ، وأن ركبتيه أو أقدامه قد ضعفت من العمل فى مطاردة الأبقار ، فإما أن يطلق سراحه أو يحيله إلى المعاش ، فرعاة البقر لا يحبون أن يركبوا حصانا يتعثر أو يسقط بسبب كبر سنه أو تصلب مفاصله .

وتستبدل بالخيول الشائخة خيول صغيرة دربت على الركوب ، ولكنها ما تزال فى حاجة إلى تدريب كبير كى تصلح لمطاردة الخيول ، فإذا لم تظهر بعد سنة من التدريب أنها صالحة للمطاردة وقابلة للتعليم تخلص منها صاحب المزرعة ، ومعظم خيول الفلاة سرعان ما تثبت قدرتها على المطاردة بعد ثلاث سنوات .

إن معظم رعاة البقر يفضلون الخيول ذات اللون الواحد ، لا الكثيرة الألوان ، فهذه لا مكان لها بين القطيع كالإناث ، وهى وإن كان يرحب بها عند كتاب القصص من أهل الغرب ، فإنها لا تلقى استحسانا فى مناطق رعى البقر ، وقلما وجد من بينها من يصلح لأعمال المطاردة أو الرعى ، بل كلها خيول استعراض ، ولهذا كسبت شهرتها لدى أهل المدن ، أما راعى البقر فليس يهمه أن يكون بين قطيعه مثل هذا الحصان ليستخدمه فى نزهة يوم الأحد أو للترقيص أو لا يكون ، أما بالنسبة للقطيع العامل فإن الخيول ذات اللون الواحد هى المفضلة بشرط أن تكون مدربة ، وكما يقول المثل : « إن الحصان الملون لا يصلح إلا للركوب فى طرقات المدينة »

وعند ما ترسل الخيول إلى الفلاة فى الخريف ، يحجز بعضها أحيانا لاستخدامه كخيول الشتاء ، تطعم الحبوب ، وبهذا تكون هناك خيول معدة للركوب عند الحاجة . والخيول إذ تخرج للرعى فى الشتاء يطول شعرها ويتحسن شكلها عما كانت ، أما فى الربيع فتكون ضعيفة تحتاج إلى تقديم الدريس حتى يمكن ركوبها ساعات قليلة ، وطول شعرها يسبب لها الضيق وارتفاع الحرارة ، لكنها إذا عرقت تستريح . والرعاة يقصون بعض شعر ذيل الحصان ومعرفته فى كل مرة يركبونه إلى أن يذهب الشعر كله ، وبذلك يتهيأ لعمل الربيع من جديد .

وفى بعض الحالات يأتى الربيع على الحصان بعد شتاء لم يستمتع فيه بمزاج طيب ، فلا يكون فى حالة جيدة للعمل ، وقد لا يصيبه ذلك بضرر ، لكنه يصبح بعده ضامرا طويل الشعر ، ينزف الماء من عينيه وأنفه ، ويسعل ولا يقوى على العمل ، ويؤدى ذلك فى الغالب إلى التهاب فى فكه السفلى وما تحته ، فإذا شفى هذا الالتهاب تحسنت حالة الحصان ، وإذا انتشر هذا المرض بين الخيول منعت من العمل فى الربيع ، ورعاة البقر وأصحاب المزارع يخشون حدوث هذه الحالة .

ويوم تخرج الخيول للعمل فى الربيع تخرج معها العربة وصاحب المزرعة للمراقبة ، لأنها أدوات تجارته ورأس ماله ، وهو يعرف أن عمله لا يكون جيداً إلا إذا كانت خيوله فى حالة طيبة ، كما يعرف أيضا أن كفاءته فى الخريف كصاحب عربة إنما ترتبط بحالة الخيول ، وهو لا يقرر إن كان يقبل رعاية قطيع أو يرفضها إلا إذا اطمأن إلى نوع خيول هذا القطيع .

ولكل حصان فى القطيع اسمه الذى يعرفه كل راع فى المزرعة ، وغالبا ما يكون الاسم مقتبسا من علامة مميزة له أو من شكله ، أو من حادث وقع له فى حياته ، ولكل حصان تاريخ ينفرد به ، وقد ينسى الراعى بعض أحداث الحياة فى الفلاة أما أسماء خيوله وتاريخها الذى يربطه بها فتعيش فى ذاكرته دائما ، وراعى البقر يعرف كل حصان فى القطيع باسمه ، ويستطيع أن يناديه به بمجرد أن يراه .

ورعاة البقر الذين يحترفون المطاردة يغيرون الحصان كل بضع ساعات ، لأن العمل الدائم فيها شاق على الخيل ، كما أن الاستبدال يريح الراعى ، وتغيير « الحصان الذى يركبه » هو روتين متبع كتغيير حصانه فى أثناء حراسة الليل أو تبعا لنوع العمل الذى يقوم به ، وهو غالبا يضم إلى قطيعه بعض الخيول الغشيمة التى يستخدمها ليريح بها خيوله الأخرى ، كما أنه يستخدم خيوله بالدور ، والراعى حين يضع السرج على ظهر الحصان الغشيم يجد متعة فى ذلك ، إذ أن الخيول فى الصباح

الباكر غالبا ما يكون بظهر كل منها ما يشبه السنام ، فإذا ركب أحد الرعاة الخيول الأولى فى الصباح أخذت تتواثب فى المكان حتى تكاد تقع . حدث فى إحدى المطاردات أن قال أحد الرعاة : « إن الخيول تتساقط كالتفاح الذى تنخره الدود فى يوم ريح » والعادة أن يخشى الرعاة تدريب خيولهم الغشيمة فى الصباح الباكر ، بل ينتظرون إلى الظهر ، حتى ترتفع حماسة الخيل بدفء الشمس ، ثم يبدءون تدريبها ، وبعد أن يتم يعودون بها لمساعدة القطيع .

وتدريب خيول القطيع على ركوبها أثناء الصيد بالحبل عمل تتعلمه هى بالخبرة ، ويتم بحرص شديد ، لأن الحصان العادى جبان يخاف من اهتزاز الحبل وبخاصة إذا استخدمه الراعى وهو واقف على قدميه ، فإذا حاول راع أن يهز حبلا حول رأسه ، فالغالب أن بعض الخيل تجفل وتجرى فيفزع القطيع كله .

والصائد بالحبل يجب أن يتعلم أشياء لا يمكن أن يتعلمها فى مدرسة ، فعليه أن يتعلم : اتجاه الريح ، ومعدل سرعته ، ومدى سير الحبل إذا أطلقه فى الهواء ، والمسافة بينه وبين الحصان ، وعليه أن يعرف أيضا مدى ارتفاع الأنشوطة فى الهواء قبل أن تفقد قوتها وتسقط على رأس الحصان ، وعليه أن يقدر حركة الحصان ، وأن يحدد وضع رأس الحصان فى الوقت الذى تكون الأنشوطة فيه محلقة فى الهواء ، ومع هذا الحساب كله يجب أن يلقى الحبل بذراعه الأيمن بحركة سريعة .

والراعى إذا غيّر حصانه أثناء المطاردة ، والأغلب أن يكون ثلاثة رعاة أو أربعة معا ، يمسك كل واحد منهم بطرف حبل ويصنعون دائرة حول الخيول ، والراعى الغشيم هو الذى لا يفهم السبب فى أن الخيول لا تحاول الإفلات من الحبل ، وهو سبب فى غاية البساطة ، لأن الخيل تتعلم من أول درس أن تحترم الحبل ، فالحصان الصغير يعرف احترام الحبل منذ لحظة وسمه ، وحين يبدأ الحصان المسن تلقين العادات الطيبة لحصان حدث ، فإنه يعلمه كذلك كل شىء عن الحبل ، وتجنب الإفلات منه .

فإذا فشل حصان صغير فى احترام الحبل بأن داس عليه ، فقد استعجل بذلك سقوطه ، فصاحب المزرعة يكلف أحد الرعاة الذين يجيدون الصيد بالحبل ويسلمه حصانا جيدا ، فإذا هرب الحصان الصغير من القطيع ، ربطه الراعى بالحبل من قدمه الأمامية ، وسقوط الحصان قد يكون سقطة شنيعة تتكسر فيها رقبته ، وهذا يمكن احتماله ، لكن أن يكون لصاحب المزرعة حصان اعتاد الفرار من القطيع عندما يكون الصيادون يغيرون خيولهم فهذا لا يحتمل .

وصاحب المزرعة ينتقى واحدا أو اثنين من خيار الذين يحسنون الصيد بالحبال للقيام بالصيد ، ويختار كل منهما الحصان الذى يرضى أهدافه ، وبعد أن يعرف كل حصان باسمه ، يتقدم الصياد فيضعه فى مكانه بين خيول القطيع الدائرة ، ويقوم الصيادون بإثارة الخيول فتكاد الحبال إذ ذاك تضطرب . ومعظم الخيول تدرك معنى الحبل وتتحاشاه ، لأنها تعرف أنها مطلوبة للركوب ، فتندفع بين القطيع وتضع رءوسها بين أرجلها الأمامية فلا يجد الصائدون لهم هدفا ، وهذا العمل فى ذاته يتطلب الصبر والجلد ، ولكن الحصان إذا وقع فى الفخ كان وديعاً وهادئا .

ومن المناظر المتعة أن ترى صياداً ماهرا يلقى بأنشوطته على عشرات من الرءوس المتأرجحة ، والظهور الكثيرة ، فتسقط على رقبة حصان بعينه فى وسط الخيول ، ومن الممتع كذلك أن ترى أنه إذا فشل الحبل انتفض الحصان المطلوب ، وأخذ يلف ويدور لكى يهرب من محاولة ثانية ، إذ يعرف بالبديهة أنه هو المطلوب ، أما الخيول التى معه فتعرف أنها غير مطلوبة فتدفع نفسها بين الصياد وفريسته ، وتعمل ما فى وسعها لحماية زميلها .

وبعض الخيول تتخلص من سرجها مهما طالت مدة تدريبها وبخاصة فى الربيع والحشيش أخضر ، أو فى الصباح البارد ، وأحيانا يسمح للخيل بالتخلص من سرجها لتستمتع ببعض الهواء المنعش ، لتنسى متاعبها . لكن الراعى إذا ركب

حصانه دون إرادته قلبه الحصان على ظهره ، وقد يودى بحياته ، وبعض الرعاة يسيرون إلى جانب خيولهم إذا وجدوا على ظهورها سناما، مع أن ذلك يجرح كبرياءهم ويعرضهم لسخرية الآخرين .

والراعى منذ أول عهده بالمزرعة يعتمد على الحصان فى عمله ، وفى نقله ، إنه قد يهمل سرجه أو حذاءه أو مهاميزه ، ولكن حصانه يظل دائما موضع فخره ، هو جوهرته ، ورفيقه الدائم الذى يتحدث إليه كما يتحدث إلى إنسان يقضى معه وحده ساعات أثناء المطاردة الصامتة ، فلا عجب إذا كان الجواد موضع فخر الراعى ، وكان موضع أحاديثه فى معسكرات النار ، يروى عنه قصص مهارته وقوته ، وإدراكه العجيب الذى يشبه إدراك الإنسان .

والعادة أن يطلق راعى البقر على حصانه كلمة « الحصان » أو « حصان البقر » ، وهذا هو الاسم الشائع ، فهولا يسميه مهرا أبداً ، والحصان الجيد يملك القوة والذكاء المصقولين ، وله غريزة يحس بها مكان الخطر سواء أكان بالليل أم بالنهار ، وهو لا يتردد فى أن يضحى بحياته فى سبيل أداء عمله إذا اقتضى الحال ، وهو مدرب على عمله ، وعلى تحمل متاعب حياته ، وخفة قدمه وسرعة حركته تجعلانه ملائما للعمل الذى يقوم به بصورة أفضل من أى حصان سواه .

وهو بالضرورة لابد أن يكون قصير الخطو ، تقع عيناه بفطرتها على الصيد المنشود ، وله أقدام سليمة ، وأطراف قوية ، ورئة وقلب سليمان ، حتى يقوى على الاحتمال . وهو فضلا عن ذلك لا بد أن يكون إدراكه سليما ، والحصان الصالح يصوب إحدى عينيه على البقرة التى أمامه ، والأخرى على الأرض ، وقد ورث هذه الموهبة عن أصله وجنسه ، فإذا تعثر كان فى ذلك القضاء على حياته ، وليس فى الفلاة أخطر من سقوط الحصان ، ولا يخشى الراعى شيئا غيره .

وهناك فروق كبيرة بين خيول رعاة البقر كما بين رعاة البقر أنفسهم . وقد يرى

الشخص الغريب أن هناك حصانا شبيها بآخر، أما الراعى فيعرف لكل حصان شخصيته . والخيول الممتازة نادرة فى الفلاة ، كما أن الراعى الممتاز نادر أيضا ، وقلما تجد راعيا ممتازا بلا حصان ممتاز ، والعمل الذى يبين الراعى الممتاز والحصان الممتاز هو الصيد بالحبال واقتطاع البقر .

وحين يبدأ حصان الاقتطاع عمله ، يدرب على معرفة البقر الذى يراد اقتطاعه ، فيعمل فى هدوء إلى أن يشاهد البقرة قد اقتربت من حافة القطيع ، ومن الطبيعى أن كل بقرة تحاول البقاء مع قطيعها ، وفى هذا الموقف تظهر قيمة حصان الاقتطاع ، فالحصان الجيد له وعى جسمانى وعقلى ، ويملك السرعة والحركة ، ويعرف كيف يستخدمهما ، فهو يلف ويدور بسرعة تفوق سرعة البقرة ، وهذا يوجب على الراكب الخبير أن يدرك كل ذلك ، يجب أن يتوقع من الحصان أنه لا بد أن يدور ويلف ليقتطع البقرة ، ويجب أن يعمل من جانبه على ألا يفزع باقى القطيع فزعا ملحوظا ، فإذا وصل إلى حافة القطيع لزم أن يفزع البقرة المتطرفة حتى يبعدها عن القطيع ، والحصان والراعى يجب ألا يبتعدا عن القطيع ابتعادا يضيع الوقت والجهد .

لقد كانت الفلاة بغير أسيجة ، وكانت خيول الاقتطاع تعمل سنوات طويلة فى المزارع قبل أن تشتهر بأنها خيول اقتطاع ممتازة ، لكن فى اليوم الذى ينال الحصان شهرته فى هذا المجال فإنه لا يقوم فى المزرعة بأى عمل ، بل يدخر لعمله الهام وهو اقتطاع البقر من القطيع .

والراعى الممتاز فوق أحد خيول الاقتطاع يستطيع التغلغل داخل القطيع ليقتطع البقرة التى يريدها دون أن يفزع القطيع ، لأن الفزع يقلل لحم القطيع ، فيخسر صاحب المزرعة خسارة كبيرة ، ومن أهم ما يجب لحصان الاقتطاع الممتاز أن يعمل بسرع مطلق حتى لا يستعمل إلا عند شده أو وقوعه ، ومعظم خيول الاقتطاع لا تحتاج إلى توجيه . وإذا أراد الراعى أن يوجه الحصان وجهه بكلمات

أو بحركة ساقه أو بحركة السرع الخفيفة .

وحصان الاقتطاع الذى تتوفر فيه موهبة الوقوف السريع فى العدو نحو اتجاه ما ، وفى تغيير حركته والاتجاه بها فى طريق آخر يسمى « المسعف » ، ولهذا النوع قيمة عظيمة عند راعى البقر ، لأنه يستطيع به أن يدور فى نقطة صغيرة دون أن يمسها حين يكون للدوران العاجل قيمته .

ومن أجود أنواع الخيول حصان الصيد بالحبل ، وراعى البقر يستطيع أن يتعلم الركوب وأداء عمله مع الأبقار فى وقت قصير ، أما الصيد بالحبل فيتطلب منه مرانة سنوات عديدة ، على أنه مهما تكن خبرة الصائد فإنه لا يحقق إلا نجاحا قليلا إذا لم يتح له حصان جيد للصيد بالحبل ، فإن أى تعثر ولو استغرق لحظة واحدة من الزمن قد يؤدى إلى أحداث خطيرة .

وحين نتحدث عن خيول الصيد بالحبل لا نعنى الحصان الذى يحسن الكر وراء البقرة ، أو يكف عن إمساكها ويسير وراءها ، بل نعنى هذه الخيول التى تحذق هذا العمل كما يحذقه راكبها ، وتتلقى تدريبا عاليا لهذا الغرض .

والنظرة إلى حصان الصيد بالحبل لا تكشف عن شىء غريب فيه ، فهو يعيش عيشة رتيبة مملة ، يتعقب الثيران فى الحظيرة طوال اليوم ، أو يجرها لوسمها بالنار ، أو لعلاجها ، ويؤدى هذا العمل بجهد كأنما هو كل ما يجب عليه أن يؤديه .

ويعتقد الكثيرون أن الإمساك بالبقرة هو كل هدف الصيد بالحبل ، وهو نهاية العمل كله ، وفاتهم أن الصيد بالحبل يتطلب أكبر مهارة ، لأنه أشق عمل وأخطره ، فالبقرة أو الثور حين يحيط بها الحبل تجب المحافظة عليها بحذر للقضاء على أى محاولة تبذلها ، وحصان الصيد بالحبل إذا كان جيدا يعرف متى يرخى الصياد حبله ، ويعرف هدفه من إرخائه ، فهو ينطلق كالقذيفة إلى يسار

الفريسة فلا يتجاوزها أبدا ، بل يبقى بجوارها حتى يرسل الراكب أنشوطته ، ثم يقوم بواجبه ، وهو يعرف متى تخطىء الأنشوطة ، وأقل ضغط على سرعه يجعله يتراجع حاملا جسمه على قدميه الخلفيتين ، أما الأماميتان فيرفعهما إلى الأمام ليتلقى الصدمة ، وأقل ضغط على جانب من رقبته بالسرع يجعله ينبرى على الفور ليواجه الصيد .

والحصان الجيد فى الصيد بالحبل لا يسمح للبقرة بأن تفاجئه من الجنب ، ولا بأن يرخى الحبل فايتف حوله ، وقد علمته التجارب نتائج هذه الأخطاء ، وفى اللحظة التى تسقط فيها الفريسة يشد الحصان الحبل عليه ، ويسحب ثقل الفريسة على الأرض ، وفى المطاردة التى يشترك فيها عدد كبير من الصيادين يتقدم الصيادون الممتازون والخيول الممتازة الصفوف ، وبعض الخيول تخشى الحبل ، وهذه لا تصلح للاصطياد بها .

وفى كل قطيع خيول تعرف بخيول الليل ، ولا تكون وقفا على راع بذاته . هذا وحصان الليل عظيم القيمة ، ومن أهم خصائصه حدة نظره فى الليل ، لذلك يعنى الراعى باختيار حصان الليل عناية كبيرة ، لأنه يعتمد عليه فى كثير من عمله أكثر مما يعتمد على أى حصان آخر فى قطيعه ، ومن صفاته أن يكون هادئا ، يطمأن إليه ، ثابت القدم ، حاد النظر ، له ماسكة التوجيه . وهو يكون موضع اختبار أثناء السير بالليل : فى المطر ، والرعد ، والبرق وغير ذلك مما يتطلب منه أن يكشف عن كل مواهبه ، وفى مثل هذه الحالات يعتمد الراكب عليه وعلى أحاسيسه ليخرجه من مأزقه .

ويجب أن يكون حصان الليل شديد التوتر ، كما يجب أن يكون ذكيا هادئا ، لا يفزع ، فهو لا يستخدم إلا فى عمل الليل ، وفى أثناء الفرار يعتمد أكثر العمل عليه ، وحياة راكبه مرتبطة بقدرته على النظر والجرى وثبات أقدامه ، وموهبته التى بها يعرف أى حيوان آخر فى الليل لها قيمتها ، فقد

يرى ثورا ضالا عن قطيعه فيعيده إليه ، وفضلا عن ذلك فهو يستطيع العودة إلى العربة فى أحلك الليالى سوادا .

وحصان الليل الماهر يعرف بسرعة متى يغادر راكبه زملاءه فإذا عرف حاول أن ينقل معرّفته فيشد القرطمة ويهز رأسه ، وبعض الخيول يعرف ذلك بدقة يعتمد عليها كأنه يقرأ النجوم ، وفى الجولة الباكرة إذا كان فى قطيع الراعى حصان ليل جيد عرف قيمته فوق غيره ، لأنه الحصان الذى تتوقف عليه حياته ، فالحصان يعرف ما يجب عمله فى أشد الأجواء عصفا ، والغالب أنه حين يبدأ الصيادون فى الفرار يتقدم حصان الليل صفوفهم بسرعة فائقة ، ويعرف كيف يعالج موقفه وقت الفرار ، ويعرف ما كان ينتظر الراعى من مصير محتوم لولا ثبات أقدامه ، ولهذا يمتلىء قلب الراعى بحب هذا الحصان ، ولا ينسى أبدا اسم حصان ليل ركبه فى أى سنة من سنواته الخالية فى الفلاة ، وقد لا يكون الحصان أجمل القطيع منظراً ، لكنه يكون هو الوحيد الذى يعتمدعليه أكثر من غيره .

وإذا كان العمل قليلا فى الليل رفع الراعى السرج عن حصانه ليحصل على أقصى ما يستطيع من الراحة ، إلا فى الجو الذى يبشر بمطر أو اضطراب ، فإنه يتركه مسرجا ليوفر له الوقت فى حالة الفرار ، وقد يعجب الراعى بحصان ليله إعجابا يجعله يطلق عليه اسم حبيبته .

وفى أيام المطاردة يكون حصان النهر أو الحصان السباح من أهم الضروريات. قد يكون حصان الاقتطاع أو حصان الحبل أو الليل مهماً ، لكن الحصان الذى يحسن السباحة ويعرف ماذا يفعل فى التيار العميق السريع لا يتقدم عليه حصان آخر ، فمكانته تضعه فى مقام على حدة ، إذ ليست كل الخيول تجيد العوم ، وفى تلك الأيام كانت الأنهار كثيرة ولا بد من عبورها ، فكان الحال يتوقف على الحصان الذى يجيد السباحة .

ولهذه الخيول صلاحية خاصة للعمل فى الأنهار : عبورها ، وعودتها ، وقيادة القطيع فى الماء ، وكل ما يستلزمه العمل فى الماء إذا كان عاليا أو عميقا أو خطيرا ، فهى تعرف متى يكون الماء صالحا للعوم ، ومتى يكون القاع ثابتا أمينا ، وإلى جانب قوته يجب على الحصان السابح أن يكون هادئا لا يفزعه التعرض لحادث خطير فى الماء .

وإذا كان للراعى فى قطيعه حصان يجيد السباحة وجب أن يسرع إلى ركوبه قبل عبور النهر ، فكثير من الرعاة لقوا حتفهم فى النهر لأنه لم يكن فى قطعانهم حصان سباح .

وفى كل مزرعة حصان يتميز بالإدراك وقوة بنيـــان جسمه ، ويتصف بالهدوء واللطف ، ويمكن الاعتماد عليه ، ويستطيع الراعى أن يعتمد عليه فى المرعى ويضع له السرج بمجرد أن يكتشف أن حصان الليل قد فر من الحظيرة ، وترك الرعاة فى حاجة إلى خيل يركبونها ، وتستخدمه سيدة المزرعة إذا أرادت أن تذهب مع زوجها إلى مكان بعيد عن المزرعة كمعسكر أمامى أو زيارة جار ، ولا تخشى أن يسرع فى الجرى أو أن يتعثر ، فإن مثله يستخدم فى حالة الطوارىء ، والأطفال حين يشبون قليلا يركبون مثل هذه الخيول الهادئة .

وهناك الحصان « المتكلم » ، والحديث عنه لا ينتهى بين رعاة البقر ، فأنت إذا أصغيت إلى حديث جماعة منهم وجدت أكثر من ثلثيه يدور حول الخيول ، والخيول الجامحة تستولى على النصيب الأكبر من الحديث ، لكن الخيول التى يعتمد عليها هى التى تفوز بأجلى الذكريات ، والرعاة يتكلمون عن مزايا الخيول فى قطعانهم وعن نواحى نقصها ، وقد يتجرون فى بعضها أو يبادلونها بغيرها ، وهناك خيول لا يمكن أن تشترى بالمال . وذكاء الحصان ورقته ينموان بقدر اتصاله بالإنسان ، وفى الزمن القديم كان الحصان

يصاد ويسرج ويركب ثم يطلق سراحه مرة أخرى بدون قيد ، وكان طبيعيا أن هاتين الموهبتين غير ظاهرتين ، كما كان سوء معاملة الحصان لا سلوكه هو سبب شهرته السيئة .

وحصان المناطق الغربية له شخصية خاصة وثقة فى نفسه لا تتوافر فى غيره ولا داعى للمسير به حول الحفر الخادعة عند ركوبه فى مدن البرارى ، ولا البحث عن الطرق الصخرية للسير به فيها ، فقد كان إذ يساق إلى مكان مائى غريب كان لا يخطىء فيضع رجله فى الطين ، بل كان قبل أن يسير عليه يستوثق من أنه لن ينغرس فى الطين بأن يختبر التربة بإحدى قدميه الأماميتين .

إن دراسة مواهب الخيول ومعرفتها والعناية بها ، والاحتفاظ بجمال شكلها ، واستخدامها إلى أقصى الحدود الممكنة ، عمـل ضرورى ، بل هو أهم شىء للراعى القدير .

(١٩)

سايس الخيـــل

سايس الخيل لا يتمتع بمركز عال فى معسكر البقر ، وقد يكون عاملا هاما فى رعيها ، لـكنه لا يعتمد عليه فى أكثر من أن يكون مساعــدا للطاهى ، ذلك لأنه غالبا ما يكون شابا غريبا يريد أن يدرب ليـكون راعى بقر . وتطمير الخيل هو أول مراحل تعليمه ، أما شباب المزرعة فيعرفون الخيل قبل أن يعرفوا البقر ، لأنهم أقرب صلة بالخيل من البقر ، ولأن السايس يكون شابا حدثا لا يقوى على العمل الثقيل ، فقد كان عليه أن يعمل فى « طمر » الخيل ، أما البقر فلا عمل له فيها .

على أن السايس لم يكن حدثا دائماً ، بل قد يكون رجلا مسنا يعجز عن الركوب الشاق ، لـكنه لا بد أن يعمل ، وماضيه الطويل فى الخدمة المخلصة للمزرعة يجعل صاحبها يحتفظ به ، فيعهد إليه « بطمر » الخيل . غير أن « طمر » الخيل كان يقوم به الشباب الحدث الذى يريد أن يعمل فى حرفة رعى البقر واختير للعمل لصدق حكمه على الخيل وحبه لها ، ويهتم صاحب المزرعة وكبار العمال بتعليمه بعناية كبيرة .

وهو دائما موضع هزل راعى البقر وسخريته ، وهذا جزء من تعليمه يجعله دائما لا يغتر بنفسه ، والعادة أن يعهد إليه صاحب المزرعة بالحصان المنحرف المزاج ، فإذا حدث أن عهد إليه بحصان جميل الشـكل فلابد أن تـكون به علة أخرى من

العلل . ودخوله فى حرفة رعى البقر يحمله عناء شديدا ، لـكن إن استهوته الحرفة كان ذلك بشيرا بإجادته لعمله مستقبلا .

واحتقار الراعى للسايس ونسيانه أنه هو بدأ حياته بنفس الطريقة ، لا يجعل صاحب المزرعة أو رئيس العمال يغفل أهميته ، فالسايس يستطيع أن يدرب قطيعا بأكمله وأن يجعل الخيول فى حالة جيدة أو أن يجعل الفرسان يمشون على أقدامهم ، وأول درس يتعلمه السايس هو أن الفرسان ليسوا أفضل من الخيل .

عليــه أولا : أن يحب الخيول ويفهمها ، وهو يدرس الخيول التى فى عهدته ليعرفها كما تعرف البقرة وليدها ، وحين ينتقل بها من معسكر إلى معسكر يكوّن لنفسه صـورة عقلية عن خصائص كل حصان وعادته ، وبذلك يمـكنه السيطرة عليه بعقله لا بالسرعة التى يجرى بها الحصان الذى يركبه .

وفى أثناء رحـــلات الربيع ينضم للركب كثير من الضالين الذين يضيفون خيولهم للقطيع ، وبهذا تـكون أمام السايس خيول غريبة تجب عليه دراستها فضلا عن متاعبه ومشاغله ، وهذا يضاعف متاعبه ، وهو مهما وصل إلى المعسكر بالقطيع كله سالما فإنه لا يجد من أحد تقديرا ، فإذا نقص من القطيع واحد لم يسلم من تأنيب صاحب العمل وتوبيخه .

وصاحب العمل يعد عليه الخيول كل يوم ، وأكثر من ذلك عليه أن يراقب كل راكب ، وطريقة رعايته لكل حصان ، فهو يعرف أن عمل رجاله مرتبط بحالة رباط السرج ، وكل سـايس مسئول عن حالة قطيعه ، ومع أن رب العمل لا يتدخل فى شأن القطيع أبدا فإنه إذا رأى حصانا به آثار مهماز كثيرة ، طرد السايس إلا إذا لم يكن لديه من يكفيه من العمال .

إن بعض الناس يعتقدون أن عمل السايس إنما يناسب الرجل الـكسول ،

وأنه لا يتعدى ركوب عدد من الخيول للرعى ، والحقيقة أن عمله ليس من السهولة بمقدار ما يتصور الناس أنه جلوس فى الظل يأكل فيه علبة من الخوخ المحفوظ ، بل إن عليه عملا كثيراً فإذا أصيبت الخيول بتوتر فى الأعصاب أو بقلق ، كان هناك كثير من الأعمال يجب أن يعملها ، ثم هو فى أوقات فراغه يجمع الخشب ويحمل الماء للطاهى ويساعد فى غسل الصحون وتجفيفها ، ويطحن البن ، إنه لا يقطع الخشب من الشجر ، لكن يجمع الفروع المتساقطة ويؤلف منها كومة يلف حولها أنشوطته ويحملها إلى عربة المطبخ .

وحين يناديه الطاهى فى الصباح يراوغ ويماطل ، ويمشى فى بطء يمدد أطرافه ويهرش فى جسمه إلى أن يعرف أن القهوة قد أعدت ، فإن لم تكن قد أعدت أشعل سيجارة من نار المطبخ وظل يدخن حتى يرى القهوة تفور من جوانب الوعاء ، وهو يحب دائما أن يأخذ أول كوب من القهوة قبل أن يذهب لإدخال الخيول فى الحظائر .

وعندما ينتقل المعسكر ، يساعد فى حزم حاجاته و « تحميل » العربة ، وليس هذا العمل ذا شأن ، وهو الذى جعل السايس لا يعتبر عاملا مهما فإذا ساعد فى المطبخ مساعدة طيبة ، بدأ الطاهى يعتمد عليه ، وكبر فى عين الآخرين ، وقدم له قدراً أكبر من الطعام باعتبار أنه يساعده فى الحصول على قدر طيب من النوم .

وإذا أتقن السايس عمله اهتم به صاحب العمل شخصياً ، شأنه فى ذلك شأن كل من يقوم بعمله ويتقنه فى جد ، والسايس المجيد يدرس طباع كل حصان فى عهدته ليعرف الناحية التى يضيق بها ، وهو يتقدم خيوله فى نفس الاتجاه حين مبارحة المعسكر ، وينطلق فى الفلاة بعيدا عن الغابات ، لأن الخيول ترى أشباحا فى الغابات فتضطرب ، كما أن الغابات يكثر فيها الذباب والحشرات .

والسايس يدرب خيوله على سلوك القطيع ، كأن تقف وسط سياج من الحبال حتى إذا صارت الحبال تصفر فى الهواء ، وقد يكون حبلا واحدا يمسك به ثلاثة رجال أو أربعة ليبدو فى شكل حظيرة ، لأن أول ما يتعلمه خيول الفلاة هو احترام الحبل ، والحصان لا ينسى الكى الذى تلقاه أول مرة حين ربط بالحبال وألقى به من أجل ذلك أرضا ، فإذا كان الحصان لم يتعلم هذا الدرس ، تعاون صاحب المزرعة أو رئيسها مع أحد من يحسنون لفه بالحبل وأمسك بقدمه الأمامية وأوقعه على الأرض ، وقد تنكسر فى ذلك رقبة الحصان ، لكن صاحب المزرعة يفضل ذلك عن إفساد الخيول الأخرى .

إن بعض الصيادين بالحبل يثيرون الخيول ، ولهذا يقوم واحد أو اثنان من الممتازين منهم بصيد الخيول التى يتطلبها الرعاة ، فلا يرسلون الحبال تئز من فوق رأس الحصان ، بل يلقى كل صياد أنشوطة واسعة منبسطة ، ويبقى كل سايس على حصانه قريباً من الخيول ينتظر وصول الحبل إليه ليدفع خيوله إلى المرعى . والسايس يعرف كيف يحب خيوله كلها ، ولا يرضى بمساعدة أحد فى شأنها حتى لا يسىء معاملتها ، وحين ينتقل من معسكر إلى معسكر يفضل أن يتولى أمر خيوله بنفسه ، لأن مساعدة الآخرين له قد تضايق الخيول .

وكل حظيرة لا تستخدم إلا سايساً واحداً ، وهو مسئول عن الخيول فى كل وقت ، وكانت الحظيرة الكبيرة فيما مضى تستخدم اثنين : أحدهما للعمل بالنهار ويسمى السايس ، والآخر للعمل بالليل ويسمى « صقر الليل » ، والأول مسئول عن القطيع من شروق الشمس إلى غروبها ، أما صقر الليل فيظل مع القطيع طوال الليل حتى لا يضل أو يختلط بخيول الحظائر الأخرى التى ترعى فى الفلاة ، و « صقر الليل » هو الذى يتولى قيادة العربة عند الانتقال من

معسكر إلى معسكر أثناء النهار ، وذلك لا يمنعه من أن تأخذه سنة من النوم أثناء سير قطيعه .

وإذا حذق صقر الليل عمله ، استطاع أن يطلق خيوله من قيودها فلا يبيت ممسكا بها طول الليل ، يلف ويدور حولها ، لأن ذلك يضايق قطيعه ولا يدع لديه فرصة للطعام والراحة . والخيول تكون فى حالة أحسن وهى فى الفلاة تنتقل بين المرتفعات ، أما فى الأرض المستوية فإنها تضيق بالمكان ، فى حين أنها عند ما تكون فى أرض مرتفعة ، لا يجعلها تنتشر إلى مسافات بعيدة إلا إذا كان معه من يساعده فى التلويح للخيل بالعودة إلى القطيع ، وبعض الخيول الواعية حين تطلق من قيودها لا تترك أقدامها آثاراً على الأرض يمكن تتبعها ، فتصعب استعادتها إلى القطيع وبخاصة فى المناطق الكثيرة المصاعب والمرتفعات ، والقطيع الذى تتجمع خيوله بعضها إلى بعض لا يسبب المتاعب التى يسببها القطيع المتفرق .

وليس من السهل فى الليالى الساكنة الحالكة الظلمة التى لا تضيئها النجوم ، العثور على الخيول الضالة ، وبخاصة إذا كانت الحشائش قصيرة واضطرت الخيول أن ترعى فى نطاق واسع لتحصل على شبع أوفر ، فإذا كانت الليلة شديدة السواد لا يرى فيها أثر ولا علامة ، بلل السايس أصبعه بفمه ثم أمسك به ، فالجانب البارد يدل على الجهة التى يأتى منها النسيم الخفيف ، وهى الجهة التى يحصر بحثه فيها عن الخيول ، فالخيول دائماً ترعى فى الجو الدافىء المضاد للنسيم .

وإذا كان المرعى أرضا لينة وسخية امتلأ الحصان منها بعد ساعتين ونام مستلقيا فترة ، أما إذا كانت الأرض صلبة فإنه ينام واقفا ، اذ هو لا يرقد أبداً فوق الجبل ، والخيول لا تنام كلها فى وقت واحد ، وهناك خيول ترعى وهى تركض .

والخيول لا تسبب للراعى متاعب قبل منتصف الليل ، لأنها تقضى هذا الوقت كله فى هدوء ثم تنام بعد الرابعة صباحا وتستريح إلى أن تعد للمعسكر .

وعند ما يضل حصان طريقه عن قطيعه ، يركب السايس للبحث عنه وإثارته للعودة ، والحصان يستطيع الرؤية فى الليل أكثر من الراعى الذى يقوم بالبحث عن الحصان الضال إذا كان مدربا ، وغالبا ما يكون الحصان مجهزاً بالسرج حتى يكون على استعداد دائم للعمل دون إزعاج باقى القطيع .

والسايس يطمر خيوله فى الصباح ويسرح بها ، ثم يعود بها عند الظهر لتستريح استعداداً لعمل ما بعد الظهر بعد الغداء ، وقبل غروب الشمس تماما يعود بها ليتمكن فرسان الليل من اختيار الخيول التى يأخذونها معهم ، ثم يخرج بها بعد ذلك للشرب والرعى ، فإذا كان هناك « صقر ليل » تسلم منه العمل .

وحين يعود بخيوله إلى المعسكر يقلب عينيه فيها ليتأكد من أن أحد أفرادها ليس غائباً ، فإن حدث أن حصاناً كان غير موجود حاول أن يتذكر مكانه ، وأن يلتمس لنفسه عذراً فى غيابه ، لكن عذره مهما كان لا يشفع له لدى صاحب المزرعة ، والقطيع قلما تتزاحم خيوله وهى عائدة إلى المعسكر ، فهو لهذا لا يجهده ، ولا يسرع به فى العودة ، وغالباً ما يتولى أحد الخيول قيادة القطيع تتبعه صغار الخيل ركضاً ولعباً ، أما كبارها فتسير بهدوء وتعقل دون إجهاد أو سرعة .

وقد يحدث أن ينذر الليل بمطر وسايس النهار عائد بالقطيع ، فى الوقت الذى يكون به « صقر الليل » يعدّ حصانه ويزيل ما عليه من طين قبل أن يسرجه . وهو يلاقى فى ذلك كثيراً من المشقة ، فاذا فرغ عمد إلى ركوب جواده وذهب إلى عمله ليقضى ثمانى ساعات فوق سرج مبالل من سقوط المطر الغزير — دون

أن تتاح له فرصة تدخين سيجارة واحـدة ، وفى أثناء ذلك يتمنى ألا يحدث ما يضطره إلى الإسراع فى السير ، فإذا طلع النهار استطاع أن يقود قطيعه إلى المعسكر فى أمان .

وإذا تم للراعى صيد خيول جديدة فى صباح اليوم التـالى أخذ الخيول الأخرى إلى المراعى لترعى ، فإذا كان هو السايس الوحيد ، عاد بها ثانية إلى المعسكر ليتناول إفطاره ويدردش مع الطاهى ، وعند ما يتعين نقل المعسكر إلى مكان آخر ، يقوم السايس بحزم الأمتعة و « تحميل » العربات فى الوقت الذى يكون فيه الطاهى مشغولا بغسل الأطباق ووضع الماء على النار ، ثم يقود الخيول إلى المعسكر الآخر ، وقد تكون معه صفارة يسلى بها نفسه وهو راكب واضعاً ركبتيه فوق رأس السرج ، يحلم باليوم الذى يصبح فيه راعى بقر رسمى .

(٢٠)

البقـر

لعل أمتع ما يمكن أن أرويه لك عن الماشية فى السهول تلك الأسماء المختلفة التى يطلقها عليها أهل الغرب ، فقد وضع راعى البقر مميزات فنية كثيرة حين يتكلم عن الماشية ، فالوليد من الماشية بصرف النظر عن جنسه اسمه « فلو » أو عجل ، فإن كان ذكرا واحتفظ به لأغراض التربية سمى محولا (عمره سنة) أو « ابن سنتين » أو « ابن ثلاثة » وهكذا ، فاذا كان الغرض منه غير التناسل خصى ، وسمى « الجؤذر » إذا كان فى أول سنى عمره ، فإذا اكتمل نموه سمى « البيف » (العجل) ، والأنثى بعد سنتها الأولى تسمى « الشبه » « والبقرة بنت السنتين » وهكذا حتى يطلق عليها (البيف) ، والعجـلة « المثلثة » التى عمرها ثلاث سنوات إذا استؤصل مبيضها تسمى « عجلة خالية » وأى بقرة يزيد عمرها على أربع سـنوات تسمى « بيف » والراعى يستخدم الكلمة كفعل فيقول « بيف » البقرة بمعنى ذبحها للأكل ، والبقر دون الثالثة من العمر يسمى عجولا ، وهو حين يبدأ فى السمن يسمى « أمهارا » أما إذا استكمل نموه فهو « بيف » .

وراعى البقر رغم كل هذه الأوصاف يتحدث عن الماشية عادة على أنها « بقرة » وهو بذلك يعنى كل شىء من « العجل الرضيع إلى الثور الذى يبلغ عشر سنوات من عمره » فإذا تحدث عن الأنثى قال « بقرة » فإن قصد

واحدة بالذات ذكرها بعمرها أو بوصفها ، وهو يستخدم كلمة « البقر » ويطلقها على كل ما فى الفلاة من هذا النوع ثيراناً وعجولا وأبقارا ، ويفرق بين أمكنة وجود البقر فيقول : « مزرعة بقر » ولا يقول « فلاة بقر » قط .

وصاحب المزرعة أو رئيسها يتحدث عن البقر باستخدام كلمة « رأس » فيقول : عندى فى هذه الفلاة « ثلاثة آلاف رأس » فإذا تحدث عن عدة رءوس معاً استخدم كلمة « القطيع » ، أما اصطلاحات الخيول فتستخدم فيها كلمة « فرقة » ، وحين يتكلم عن الماشية من البقر يقول « القطيع » ومن الخطأ أن يقول عنها « الفرقة » .

والبقرة الحامل تسمى عنده « بقرة مثقلة » ، والعجول التى تولد أثناء الموسم تسمى « المحصول » ، فإذا كان العجل أقل من سنة سمى « القصير » فإن زاد عن سنة ونصف سمى « الطويل » ، والعجل الذى يتربى على لبن منزوعة قشدته يسمى « المخضوض » فإذا تجاوز سن الفطام سمى « فطيما » .

ولرؤساء المزارع طريقة فى « فطام » العجول إذا وجدوا أنها مستمرة فى الرضاع ، وكان الأفضل أن تفطم ، فهم يربطون فى أنف العجل خشبة رقيقة طولها ثمانى بوصات ، وعرضها ست بوصات بوسط أحد الجانبين الطويلين ، والعجل مع هذا يستطيع أن يرعى العشب ، لكنه لا يستطيع أن يرضع ، وتسمى هذه الخشبة خشبة الفطام ، كما تستخدم كذلك « شوكة الفطام » وهى دائرة من السلك الشائك تلف حول أنف العجل .

والعجل الهزيل الذى لم يستمتع بمراعى الشتاء حتى أصيب بفقر فى الدم يسمى « الكلبى » أو « الروح الشريرة » ولا يعرف أحد سر هذه التسمية على وجه التحديد ، فمن قائل إنها تسمية تقصد بها التفرقة بين ماشية المزارع

السمينة وماشية الفلاة ، ومن قائل إن الكلمة نشأت بعد السنوات الثمانينيات حين قضى شتاء قارس البرد على حياة كثير من أمهات البقر وترك الكثير من العجول يتامى بغير أمهات ، وكان الماء والحشيش أكثر مما تحتاج إليه هذه العجول الصغيرة ، فكبرت بطونها كالعجين المختمر الملفوف فى قطعة من الخيش ولم تكن لها علامة تدل على صاحبها بعد موت أمهاتها ، فاعتبرت ملكا لمن يشاء أن يملكها بصرف النظر عن المكان الذى توجد فيه . وقد حدث أيضاً أثناء رحلة رعى أن راعى بقر كان يحاول أن يبنى حظيرة لقطيعه ، فأمسك بخمسة من هذه العجول اليتيمة من شاطىء النهر وقال : « أيها الرفاق ، ها هى ذى خمسة من العجول ذات البطن الطرية كالعجين ، وإننى أعتبرها ملكا خالصاً لى » .

وقد أطلقت على مثل هذه العجول فيما بعد « البطنية » واشتهرت الكلمة بين أغانى أهل الغرب ، وإن كان بعض المغنين يذكرون الكلمة فى أغانيهم بمعنى « جرو الكلب » ، ويطلق المكسيكيون على هذه العجول كلمة « سانكو » ، ويستعمل بعض الرعاة الأمريكيين هذه التسمية كذلك .

وبعض أصحاب المزارع يشترون العجول من منطقة القمح أو من الفلاحين ويشحنونها إلى مزارعهم ، ويسمون العجل اليتيم الهزيل « شماسا » ، وغالباً ما يكون سميناً من وسطه نحيلا من أطرافه ، أما العجل النحيف فكانوا يسمونه « كرة الشعر » أو « ذو الضلوع المنبسطة » .

ومنذ أول العهد بحرفة الماشية فى أمريكا كان راعى البقر يستخدم مواهبه فى تسمية الحيوانات التى يرعاها بأسماء مستعارة وألقاب دارجة .

فالثور الطويل القرنين الذى يكثر فى تكساس يسمى « القنفر » ، وأبقار

الساحل فى تكساس تسمى « الساحلية » أو « سبع البحر » ، والثور الذى يبلغ عمره ست سنوات يسمونه فى المكسيك « القرن الملفوف » أو « المجعد » أو « الجحش » .

والأبقار الضالة فى الفلاة تسمى « العاقلة » ، أما أبقار الفلاة فتطلق عليها « الأبقار الوحشية » ، ولكى تؤخذ الأبقار إلى حظائر الشحن أو أماكن التسمين ، لا بد من الالتجاء إلى التعنيق » . ولهذه الكلمة فى الفلاة معنى يختلف عما هو معروف عند ساكنى المدينة : فالثور المتمرد فى الفلاة أو الذى يفضل الأماكن البعيدة كان « يعنق » أو يربط مع ثور هادىء ، ويسمى الثور الذى يستخدم لهذا الغرض « الهادى » ، وكان هذا إجراء يلجأ إليه فى أيام الثيران الطويلة القرون ، وبعد أن يجهد الثوران نفسيهما ، يحاول كل منهما أن يسير فى اتجاه مضاد للآخر ، وفى نفس الوقت يضطر الثور الوحشى أن يخضع لرفيقه ، فيتحرك فى اتجاه زملائه ، وهناك طريقة أخرى هى : « الفصد » بأن يقطع جلد الثور بطول بوصة ونصف فيما بين الركبة والكعب ، فإذا انطلق الثور بعد ذلك كان قادرا على المشى بنفسه ، لكنه يعجز عن الجرى .

والثور الذى ليست به علامة ولا صاحب له يسمى « مافريك » وأصل هذه التسمية معروف ، ولكنه غير صحيح ، فقد سمى هذا الثور بهذا الاسم نسبة إلى « صامويل آ . مافريك » وهو محام من تكساس وضع يده على قطيع من الماشية مقابل دين له قبل الحرب الأهلية ، ووضعه فى عهدة زنجى يقيم قرب شاطىء نهر سان أنطونيو على مسافة خمسين ميلا جنوبى مدينة تسمى سان أنطونيو ، وكان الزنجى لا يعرف شيئاً عن حرفة البقر ، وكان مدمناً على الشراب ، فلم يكن يضع أية علامة على نتاج البقر الذى يرعاه ، وتركه يتجول فى الفلاة ، وفى سنة ١٨٥٥ باع مافريك قطيعه كله وعلامته وأرضه وكل ممتلكاته لصاحب مزرعة مجاورة له

هو « توتانت دى بورجارد » ، وكانت هذه صفقة مفتوحة ، يستولى بورجارد بمقتضاها على كل ماشية « مافريك » سواء أكانت موسومة أم غير موسومة ، ويقال إن « بورجارد » كان حريصاً ، فبدأ بحثاً دقيقاً شمل إلى جانب فلاة « مافريك » عدة فلوات أخرى ، فكان حيثما وجد رجاله بقراً غير موسوم ادعوا أنه ملك « لمافريك » ووسموه بعلامة بورجارد ، وساقوه إلى مزرعته .

ومن هنا جاءت تسمية البقر غير الموسوم باسم « مافريك » ، وانتشرت هذه التسمية فى كل مناطق البقر ، وانتقلت إلى القواميس ، واستخدمت كذلك كلمة « طويل الأذن » للدلالة على الأبقار غير الموسومة ، وإن اقتصر استعمالها على كاليفورنيا ، وأريجون ، ونيفادا .

وكلمة « خير » أيضاً كانت تطلق على كل بقرة أو عجل لا يمتلكه أحد ، لأنها غير موسومة بعلامة مزرعة بذاتها ، أو موسومة بعلامة غير موجودة فى دليل العلامات .

ومن قصص سرقات هذا النوع ما حدث فى « سبرنجر » بنيومكسيكو فى سنة ١٨٩٥ ، إذ قام ثلاثة رجال بشحن حمولة قطار كامل من هذا « الخير » إلى شيين ، ويومنج ، وأكد ذلك استخدام الاصطلاح ، فقد كانت نيو مكسيكو مستعمرة فى ذلك الحين ، وكان القضاة من أهل الشرق ، وحلف الشهود على أن المتهم — على حد علمهم — اشترى ذلك « الخير » من جماعة بذاتها . ولما كان القاضى غير عليم بهذه التسمية ، فقد استدعى خبيراً يسأله فى معنى الاصطلاح ، وعرف منه أن كل حيوان لا يحمل علامة مزرعة معروفة يسمى « خيرا » ، وكانت العلامات المشهورة فى الغرب معروفة لدرجة كبيرة ، حتى أن الأبقار إذا ضلت طريقها على بعد ألف ميل أمكنت معرفة أصحابها

فورا ، وبذلك لا تكون الأبقار ضالة ولا تعتبر من « الخير » . ولم يكن يعتبر من « الخير » إلا الأبقار التى تحمل علامة غير معروفة فى تلك الناحية .

وكانت الأبقار التى لا قرون لها تسمى « البغال » أو « رأس الثور » وكانت بسبب ذلك تعجز عن الدفاع عن نفسها ضد غيرها ، فكانت فى الليل تظل خارج دائرة القطيع بعيدا عن ذوات القرون لتظل تحت الملاحظة الشخصية لراعى البقر وهو يدور حول القطيع ، فكان يلعنها أحيانا أو يدللها بكلماته ، والراعى لا يحب أن يسوق « البغال » لأنها تميل إلى التزاحم ، وتعانى من الحر ، وينقص وزنها عن غيرها من ذوات القرون ، ثم إنها تتطلب منه مجهودا وصبرا طويلا .

والأبقار التى كانت تساق قبل شحنها إلى مناطق الرعى حتى تسمن كانت تسمى « الهزيلة » أما الأبقار الضعيفة التى لا تستمتع جيدا برعى الشتاء فكانت تسمى » « أبقار المستشفى » ، والبقرة الضعيفة جدا تسمى « الجلدة » أو « الصدفة » والبقرة « الحطيطة » هى البقرة التى تعجز بسبب ضعفها عن الوقوف على أرجلها بعد موسم الجفاف أو الشتاء القارس ، فهى فى كل مرة تحاول أن تسرع فى مشيتها أكثر من المشى العادى تسقط إعياء ، ويتعين رفعها من ذيلها ، وتسمى فى هذه الحالة « المرفوعة » وحين تبدأ البقرة فى السمنة واكتناز اللحم تسمى « المشحمة » أو « الدسمة » ، والبقرة ذات الأرجل الطويلة الرفيعة كانت تسمى « ذات السيقان » .

والبقرة العاقر التى تولد توأما لثور وتصبح عاقرا فعلا تسمى « العصفور الطليق » ، والأبقار غير الأصيلة تسمى « ذات الدم البارد » أما الأبقار الأصيلة فتسمى « ذات الدم الحار » أو « النقية » و « تنقية دم البقر » معناه وضع ثيران أصيلة مع أبقار غير أصيلة لإنتاج بقر أصيل . وتربية السلالة معناه تربية

أبقار أصيلة من نوع واحد لضمان الحصول على سلالة من أسرة معينة خصوصا فى الأنثى .

وللثيران أسماؤها المستعارة أيضا ، فراعى البقر يستخدم أى كلمة حتى يتجنب أن يسمى الشىء باسمه فى حضرة السيدات ، فقد كانت كلمة « الثور » لا تناسب مجالس السيدات ، فكان الراعى فى حضرة السيدات يشير إلى الثور فيقول : « الحيوان » والثور الذى كسر قرناه من كثرة العراك مع غيره يسمى « العنيد » وهو دائما يقضى وقته بحك قرنيه بالصخور أو بالأشجار استعداداً للمعركة القادمة .

والثور الذى يثب فوق السياج يسمى « النطاط » ، ومثل هذا الثور غالبا ما تربط برقبته عابة حتى لا يكسر السياج .

وربط قطيع من البقر فى فلاة جديدة حتى يألفها يسمى « توطين البقر » ، وإطلاق سراح البقر ثم إعادة جمعه يسمى « تسريح البقر » والبقر يميل إلى البقاء فى مكان يألفه ، ويسمى هذا المكان فلاته أو وطنه ، على أن بعض البقر قد ينتقل إلى مكان بعيد سعيا وراء العشب والماء ، ويسمى فى هذه الحالة « الضال » وإن كان اللفظ يستخدم للخيول والبقر على سواء ، فيقال « خيول ضالة » و « أبقار ضالة » وهكذا لا يستخدم اللفظ وحده .

وقد تضل الماشية فى العواصف الثلجية حتى تنتهى العاصفة ، إذ لا تمكن السيطرة عليها ، فإما أن يضل الراعى معها أو يبقى حتى تنتهى العاصفة ثم يلحق بها ، فإذا حدث ذلك فى أعداد كبيرة سمى « القطيع الضال » أو « ضلال الشتاء » فإذا طال أمد العاصفة نجمت عنها مأساة من مآسى الفلاة ، ويحدث الضلال عادة فى الشتاء للفرار من الرياح الشديدة البرد ، وقد تحدث فى الصيف بسبب انعدام

الماء أو العشب لشدة الجفاف أو بعد جنول ، ولا يحدث الضلال عادة إلا للبقر ، أما الخيول فالغالب أن تتجنبه بشعورها وتجد ملجأ منه .

وقد يحدث الموت جملة فى القطيع بسبب العواصف الثلجية أو بسبب الجفاف الذى يشمل مناطق واسعة من الفلاة ، وفى هذه الحالة يتوفر محصول من الجلود ، ويصبح أصحاب المراعى بحاجة إلى سكاكين للجلود بدلا من علامات الوسم ، وتسمى الأبقار النافقة « المخنوقة » من العاصفة الثلجية ، أى أنها حبست فى ركن أو وقفها السياج أثناء العاصفة ، وتسمى الأبقار التى تموت فى الشتاء « ضحية الشتاء » وإذا وقفت الماشية فى الشتاء وتقوس ظهرها سميت « مقوسة » . ويستخدم الراعى هذه العبارة فى وصف الرجل الذى يستعد للعراك ، فيقول عنه : « إنه يقوس ظهره كالبقرة فى العاصفة » والماشية التى ترسل إلى فلوات الشمال لقضاء الشتاء حتى تنضج وتصبح كثيرة اللحم تسمى « شتوتين » .

والماشية التى يؤتى بها من بعيد تسمى « المهاجرة » ، وقد استخدمت هذه الكلمة لأول مرة فى وصف الماشية ذات الدم الحار ثم عم استعمالها بعد ذلك ، وتسمى أبقار هيرفورد : « الوجوه البيضاء » أو « الوجوه المفتوحة » وأبقار « هولستين » ليست كثيرة اللحم ، ولذلك لا تربى فى المزارع كثيرا ، إلا بسبب لبنها ، ويسميها راعى البقر « الغربان » . والقطيع « المبال » هو القطيع الذى يتكون كله من إناث البقر ، كما تستخدم هذه العبارة للأبقار التى تمنح اللبن ، ويسمى راعى البقر : البقرة الحلوب « وعاء اللبن » ، والبقرة التى لا تفرز لبناً تسمى « المجردة » واستخدام كلمة « البقرة الحلوب » قد يختلط أمره فتطلق الكلمة أيضاً على الأبقار التى سرقت من أصحابها الشرعيين ، وعبر بها اللصوص نهر ريو جراند . و « القطيع المختلط » يقصد به القطيع من الذكور والإناث . أما

القطيع المستقيم فيتكون من الذكور فقط ، وقد يطلق راعى البقر (القطيع المختلط) على الأبقار من مختلف الأنواع والأعمار والجنس .

وحين تطلق الماشية من حظائرها إلى العشب فى الربيع يقال : إن هذا هو وقت « التعشيب » ، وهش الماشية وحملها على الجرى يسمى « الإلهاب » وبعد انتهاء عملية التعشيب ترد الأبقار الضالة عن أملاك أصحابها إلى حظائرها ، ويسمى ذلك « طرد الغريب » .

والبقرة تنهض من الأرض بمؤخرتها أولا ، وفى الوقت الذى تقف فيه على أجزائها الخلفية وتكون ركباها على الأرض فى وضع الصلاة تسمى فى هذه الحالة « بقرة مصلية » ، وتسمى وهى ترعى العشب « على رأسها » و « على حافرها » إذا كانت تسعى ، وشحن الماشية بالقطار يسمى « ترحيل الماشية » وتسمى الأبقار التى ترعى العشب « العشبية » تمييزا لها عن غيرها .

ويقول راعى البقر إنه « يترب » البقرة بمعنى أنه يلقى التراب فى عينيها ، فالبقرة تختلف عن الثور أو العجل فى أنها تجعل عينيها مفتوحة وعقلها يفكر فى الهجوم ، والبقرة التى تتهيأ للهجوم موضع خوف الراعى أكثر من كل حيوان آخر .

ويسمى الهنود لحم البقر « الوهاو » ، وقد استخدم قدامى الرعاة هذا اللفظ أيضا نقلا عن الهنود ، وأول قطيع رآه الهنود تحت إشراف الرجل الأبيض كان قطيع الثيران الذى يجر العربات ، وكان الهنود يدهشون من نداءات سائقى العربات على الثيران ، ويعتبرون نداءاتهم أسماء للثيران .

و « التذييل » هو عملية جر الثور من ذيله بدلا من استخدام الحبل فكل حيوان يمكن تعطيله إذا كان يجرى مسرعا بعملية بسيطة هى مسك

ذيله وسحبه إلى أحد الجانبين ، فذلك يجعل توازنه يختل ويسقط على رأسه وكتفه ، وأصغر الرعاة يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة بنجاح كبير ، وقد يزيد الراعى على هذه الحركة وضع قدم الركاب بثقل على الذيل المتوتر ، وهو يلجأ إلى هـــذه الطريقة مع الأبقار الطويلة القرون ، ولو أحسن استخدامها لتحسن سلوكها طوال اليوم ، لـكن ذلك يتطلب حصانا سريعا وراكبا جريئا . ولما كانت قيمة الماشية ترتفع يقطب صاحب المزرعة جبينه ويكف عن استخدام هذه الطريقة ، حين يمر الرئيس على الأقل .

و « تذييل الثيران » لعبة مألوفة عند رعاة البقر المـكسيكيين فى تـكساس ، فيها يطلق ثورة متوحش من حظيرته ، ومن ورائه راعى بقر يصيح بصوت عال ، ثم يمسك بذيله ويدفع فرسه إلى الأمام وإلى الجنب قليلا فيختل توازن الثور ، ويهوى بشدة على الأرض .

وتستخدم الألوان فى تسمية الماشية ، فهناك : المرقط ، والمخطط ، والأبيض والأصفر ، والبنى الذى يجرى فيه خط بنى اللون من رقبته حتى ذيله . وهذه خاصة تختص بها ماشية أسبانيا : وبقرة « الميلينوز » هى بقرة ذات قرون طويلة تتميز بخطوط ونقط ذات لون أنصع من باقى جسمها . أما « السابيناس » فتطلق على البقرة ذات اللون المختلط من الأحمر والأبيض ، ويسمى راعى البقر المـكسيكى فى المنـاطق الشمالية « سنورا الحمراء » كما أنه يسمى كل الماشية القادمة من المـكسيك « الياك » لأنها تأتى من بـــلاد « الياكى » الهندية ، وبالقرب من الحدود الجنوبية يطلق اسم « الزويلا » على الأبقار الطويلة القرون ذات الظهر الأسود المخطط ، وهى كلمة أسبانية معناها « القط القطبى » والماشية ذات اللون الفاقع أو العلامات الواضحة التى يستطيع صاحبها أو راكبوها أن يتبينوها بها بسهولة تسمى « المعلمة » .

وعدّ كل قطيع فى مكانه بالفلاة ثم إعادته إلى حظيرته حتى لا يختلط بغيره من الماشية غير المعدودة يسمى « حساب الفلاة » أما عد الماشية فى المرعى دون إعادتها إلى حظائرها فيسمى : « حساب المرعى » ويقوم العداوان بالركوب إلى المرعى لعد كل قطيع فيه وفصله حتى لا يختلط بالقطعان التى لم تعدّ ، وهذه الطريقة فى العد تجرى عادة بناء على طلب أحد البنوك وبحضور مندوب منه إذا كان القطيع مرهونا له ، وتسمى أوراق هذا الرهن « مستندات الماشية » .

وبيع الماشية حسب السجل يسمى « البيع بالسجل » وهو اصطلاح استخدم من زمن بعيد ويكون لصالح البائع ، وهو الذى أدى إلى قول مشهور انتشر فى الشمال الغربى معناه : « أن السجل لا يتجمد » وقد أصبح مشهورا فى سنوات الرواج عندما جاء رأس المال الأجنبى والشرقى وتحمس أصحابه لشراء مزارع الماشية . والأصل لهذه العبارة منسوب إلى صاحب حانة اسمه « لوك مورين » كانت حانته مكان ملتقى كبار رجال الماشية فى « ويومنج » وحدثت ذات يوم عاصفة ثلجية قاسية استاء لها زبائنه ، فقال لهم : « سروا عن أنفسكم فمهما يحدث فلن تتجمد السجلات » وبهذه العبارة مجمل لعملية الشراء بالسجل ، وقد ابتدع القول الذى ظل باقيا على الأيام وهو « التسليم فى الفلاة » ومعنى ذلك أن المشترى بعد أن يفحص سجلات مزرعة البائع ، ويقف على مدى شهرته بالصدق يدفع ثمن كل ما يقول البائع إنه يملـكه ، ثم يذهب إلى الفلاة ليرى ما اشتراه .

وحين يصف راعى البقر شخصاً ما بأن « عنده حاسة طيبة بالبقر » يكون بذلك يحييه تحية كبيرة ، ومهما تـكن أسماء البقر فلا مجال للشك فى أنه هو الذى أنقذ تـكساس من الخراب المالى ، فضلا عن أنه خلق من الفلوات ممتلـكات واسعة فى الشمال الغربى .

(٢١)

إلقاء أنشوطة واسعة

أول مرة استخدمت فيها كلمة « لص البقر » كان يقصد بها معنى « النشيط » بعد أن أصبح معروفا أن استخدام هذا اللفظ شائع فى وصف كل شخص نشيط يدخل ميداناً من ميادين المغامرة ، ثم استخدمت الكلمة بعد ذلك فى وصف كل من يحترف تجارة الخيول ، ثم أطلقت بعد ذلك على لصوص البقر حين كان صاحب المزرعة التى يعملون بها يدفع لهم أجراً مقابل خروجهم إلى الفلاة لسرقة البقر ، وكانت عملية الشد بالحبل والوسم بالنار لكل عجل لا يتبع أمه لا تعتبر سرقة ، بل تعتبر عملا مشروعا ، فالعجول التى من هذا النوع كانت تعتبر ملكا لكل إنسان .

وأصبح الرعاة أنفسهم حريصون على أن يسموا بالنار كل عجل لا يتبع أمه ، باعتباره ملكا لهم ، ويرون أنهم بذلك « يستطيعون السرقة » إذا وجههم إليها صاحب مزرعتهم ، لكن بمجرد أن يبدأ راعى البقر فى الاستيلاء على بعض العجول لنفسه يرى صاحب المزرعة أن هذا العمل سرقة ، وكان بعض أصحاب المزارع ممن لا يستطيعون السرقة يكلفون رعاة بقرهم القيام بهذا العمل مقابل مبلغ معين لكل رأس .

ولما رأى راعى البقر أن من اليسير عليه تكوين قطيع لرئيسه بدأ يفكر فى عجب : لماذا لايجوز له أن يسرق هذا البقر لنفسه ، لكن خطأه أنه كان

إذ ذاك فى عجلة من أمره ، فحين بدأ « إدارة مصنع السرقة » قتل الأمهات ليأخذ أولادها .

وفى الأيام الخالية بتكساس كانت المواشى الكثيرة تتجول فى أراض واسعة حتى أن السرقة كانت صيداً مشروعا إلى حد كبير أو صغير ، وكان عملا لا غبار عليه ولا يمس ناحية أمانته ، على أن كثيراً من الأشخاص كانوا بطبيعتهم يكرهون أن يروا ماشية لا وسم عليها سواء أكانت ملكا لهم أو لغيرهم ، فكانوا يضعون سمتهم عليها ، وكان وجود أى سمة عليها أحياناً لا يمنعهم من وضع علامتهم عليها أيضاً .

ومن الأقوال القديمة المتداولة عن الفلاة فى الأزمنة السالفة أنه كلما كان يحتاج إليه الرجل ليقيم قطيعاً لنفسه ، كان هو : « حبله ، وحديدة الوشم ، وقدرته على عملية الوشم » ، وكان الصراع على البقاء فى تلك المنطقة يثير التوتر والانفعال ، وكانت الحبال وحديدة الوشم رخيصة الثمن ، فانتشر لصوص البقر حتى أصبحت سرقة البقر صناعة ، وكان لص البقر يطلق عليه اسم « حارق الوشم » أو « فنان الوشم » أو « ذو الحبل الطويل » أو صاحب « الحلقة والحبل » ، وكان المتهم بسرقة البقر يوصف بأنه « مهمل فى استخدام حديدة وشمه » أو « أن عجوله لا ترضع من أمها » أو « إن لعجوله توأم » أو « إنه يجيد رمى الحبل » إلى آخره .

وكانت سرقة العجول غير الموشومة أسهل عملية وأقلها خطراً ، ومن ثم كانت أكثرها انتشاراً ، وكان تغيير الوشم لا يتم بإتقان ، لأنه كان يتطلب قدراً كبيراً من المهارة حتى يتم بنجاح ، ولم يكن راعى البقر العادى له من الخبرة ما يخدع به راعى البقر الممتاز وقتاً طويلا .

ولما كان أصحاب القطعان يعرفون كل حيل لصوص البقر ، فقد كان لا بد للص أن يتفوق بذكائه عليهم ، كان يعرف أن بقاء رقبته يتوقف على بالغ مكره ، فكان الخوف الدائم الذى يعيش فيه يلهب ذكاءه ، وبحكم أنه المعتدى دائماً كان يفكر تفكيرا طويلا فى أصحاب القطعـــان ، أكثر مما يفكر فيه هؤلاء ، وكان جريئاً بطبيعة الحال ، وكان يجد متعة فى مغامراته ، وكان أميناً فى أيامه الأخرى ، وبدأ فى أول عهده يسرق عجول من يعتقد أن السرقة لا تضرهم كثيرا .

وعملية « طمس الوشم » بصورة تجعل الوشم القديم والجديد يكوّنان وشماً كاملا مختلفاً أصبحت فنا يمارسه الخبراء ، ويجب أن يكون الخبير من المهارة بحيث لا يخدع صاحب القطيع فحسب ، بل يخدع أمهر خبراء الرعاة ، وكان أكبر أعداء سارق البقر « مخبر البقر » ، وهو رجل على معرفة واسعة بالبقر ، وتستخدمه شركات الماشية للقبض على لصوص البقر وإثبات التهمة عليهم .

على أن الراعى بمجرد أن يتذوق المال السهل الذى يحصل عليه من سرقة الماشية ، يصعب عليه أن يكف عنها ، ويكون بذلك كالخاسر فى لعب القمار يصعب عليه أن يكف عنه ، وهو لا يعرف متى يقع فى وشم يكون فيه القضاء عليه ، فإذا قبض عليه فى سرقة عجل موشوم بوشم معروف ، قدم إلى المحاكمة العرفية ونفذ فيه حكم الإعدام فورا .

وكانت معظم السرقات من المزارع الكبيرة ، وكان معظم المواطنين يعطفون على السارق ، وبخاصة إذا كانت سرقاته من ملاك أجانب أو من أهل الشرق ، ومن أسباب الالتجاء إلى السرقة باعتبارها عملا مربحا أن منطقة الرعى لم تكن تخضع لقانون ، وكان من الصعب تكوين محلفين للمتهم ، لأن معظم

الناس كانوا لصوص أبقار من زمن قريب أو بعيد ، فلما تولى صناعة البقر كبار الملاك قامت حروب فيما بينهم أذكر منها حرب مقاطعة « جونسون فى ويومنج » وكانت صعوبة اتهام اللصوص لدى المحاكم سبباً فى أن كثيراً من اللصوص أعدموا قبل أن يوكلوا محامياً يدافع عنهم .

ومعظم اللصوص بدأوا بعمليات صغيرة ، فقد كان اللص عادة شخصاً كره العمل مقابل ثلاثين دولارا فى الشهر ، فى حين أنه يرى صاحب المزرعة يثرى بسرعة ، أولعله كان فى أول أمره قد استقر على قطعة صغيرة من الأرض واشترى عجلين أو ثلاثة كسبب يستقر به فى الأرض ، وأثناء طوافه بالفلاة لم يجد ما يمنع من أن يضع وشمه على عدد من عجول غيره ، لأنه عرف أن كثيرين غيره بدأوا حياتهم على هذه الصـــورة ، ثم أصبح ينظر إليهم باعتبار أنهم مواطنون كرماء ، وبعد أن ارتكب سرقاته الأولى استمرأ السرقة ، وطمع فى أن يكون مالكا لقطيع كبير ، فارتكب أكبر أخطائه ، فقد كان يندر أن يرضى السارق بالثراء التدريجى ، وما أن يشتبه فى أمره حتى تبدأ مراقبته ويقع فى الكمين الذى ينصب له .

لقد فتح نمو صناعة رعى البقر أبواب الفرص والثراء أمام كثير من المغامرين من أهـل الغرب الذين لا يعرفون حقوق الملكية ، وكانت شروط الاشتغال بالرعى فى أول أمرها مجزية لأولئك الذين آمنوا بأن بعض الوصايا العشر ألا تشتهى ثور جارك ! ! وفى السنوات الخالية كان عدد العاملين بانتظام فى سرقة البقر من الكثرة بحيث صارت السرقة صناعة مشروعة .

وكان الشتاء هو موسم اللصوص ، فكان يشتد نشاطهم فيه ، وكان اللص يختلط بالراكبين فى الفلاة وسط الماشية أثناء الرعى ، فيختار العجول السمان التى لم

توشم فى الصيف ، وكانت هناك طرق عديدة لسرقة الماشية ، منها أن يجنب اللص بعض العجول عن القطيع حتى تتهيأ له فرصة الفرار بها ويضع وشمه عليها ، فإذا كان اللص من القانعين بسرقة عجول غير موشومة اختار وشماً يشبه وشم مالك أو اثنين من جيرانه وسجله .

ومن طرق السرقة استخدام « الوشم البطىء » الذى كان مخالفاً للقانون ، ويتم بتشويه أى وشم ، وكان القانون يتطلب تسجيل كل وشم فى المقاطعة التى تقوم بها المزرعة ، وكان الرجل الذى يمحو وشماً ليضع غيره مكانه ، يخشى أن يضع وشمه الجديد ، فكان يكتفى بأن يمحو الوشم ، معتزما أن يخرج بالقطيع من المقاطعة فى أول فرصة تسنح له ، وتسمى هذه الطريقة بالوشم البطىء ، وكان الوشم غير المسجل يسمى « وشماً مسروقا » ، وكان اللص يستطيع أن يحتفظ بأى حيوان فى الفلاة ليس عليه وشم مسجل إلى أن تتهيأ له فرصة إخراجه من المقاطعة ، فإذا ثارت حوله الشبهة لم يوجد فى السجلات ما يؤيد اتهامه بالسرقة .

وكان لصوص البقر يعرفون غرائزها ، وكان يؤخذ ذلك فى اعتبارهم ، فالبقرة الأم ووليدها إذا انفصلا استطاعا أن يعودا أميالا عديدة إلى آخر مكان رأى كل منهما الآخر فيه ، واعتمادا على هذه الغريزة كان اللص يفطم العجول التى يسرقها قبل أن يشمها بوشمه ، وكان يتبع فى ذلك وسائل عدة ، من ذلك أن يقذف بالرمل فى عين العجل حتى لا يرى الطريق وراء أمه ، ثم يساق إلى مسافة بعيدة ، فإذا بلغ آخر المرحلة كان قد حان فطامه .

ومن الطرق التى كانت تستعمل فى ذلك أيضاً حرق قدم البقرة من بين أصابعها حتى يتعذر عليها المشى ، فلا تستطيع متابعة وليدها .

وأحيانا يقطع اللص العصب الذى يمسك بجفنى عينى العجل لكى يسقطا ويستحيل عليه النظر ، ويمكن بعد ذلك فصله عن أمه ، فهو يدلى رأسه أياما عديدة ويعجز عن الوصول إلى ضرعها ، ثم يتحول إلى طعام آخر غير اللبن ، ويشفى العصب المقطوع بعد وقت ، ولكن جفن العجل يظل سريع السقوط ، ويسمى العجل فى هذه الحالة « ساقط العين » . ومعظم اللصوص كان يتجنب هذه الطريقة ، لأن العجل الساقط العينين يثير الشبهة فى الراعى .

وبعض اللصوص كانوا يشقون لسان العجل حتى لا يستطيع الرضاع فإذا فطم وضعوا وشمهم على لسانه .

وكان بعض اللصوص يذبحون الأم ، وهذه كانت أسهل الطرق وأسرعها ، فقد كان اللص يأخذ الأم إلى الغابة ، ويمحو وشمها بعد أن يطلق الرصاص عليها ثم يمضى بوليدها .

وكان أصحاب المزارع يحاولون اصطياد مهرة اللصوص ، فينصبون لهم الفخاخ بأن يضعوا وشما على بطن عجل ثم يطلقونه فى الفلاة لإغراء أحدهم ، لكن اللص كان لا يقل مهارة عادة عن صاحب المزرعة ، فكان صاحب المزرعة يتفنن فى وشم لا يمكن محوه ، ومع ذلك لم يوفق أحد من اللصوص فى ذلك ، لأنه لا يوجد وشم يستحيل تغييره بطريقة أو بأخرى بيد اللص الماهر .

وكانت تقام حظائر لأصحاب المزارع الصغيرة أو الكبيرة بعيدة عن المزارع نفسها ولا تستعمل إلا فى مواسم الرعى ، فكان اللصوص يستخدمونها مؤقتا لإخفاء الماشية المسروقة إلى أن يتم تهريبها إلى خارج المنطقة ، وكانت هذه الحظائر تسمى « بيوت الطريق » .

وكان اللص الماهر يستطيع إحداث وشم جديد بدل وشم قديم جدا وشديد

الاختلاف بإضافة خطوط أو أرقام أو أقواس أو رموز بواسطة قطعة محماة من سلك التلغراف أو حديد الخاتم أو المكواة ، أو بوضع قماش مبلول على الوشم القديم ووضع مكواة محماة فوق القماش ، وكانت هذه العملية تسمى « تغيير الوشم » ولكنها كانت شاقة الإجراء على اللص .

وكانت المكواة تصنع على شكل قضيب مستقيم مقوس عند طرفه ، وتستخدم كما يستخدم الطباشير فى الكتابة على السبورة ، وفى السبعينات صدر قانون بحظر استخدام المكواة ، وكان صدوره ضربة لأولئك الذين يمحون بها الوشم ، وكانت قبل تحريمها تصدّ عن مستخدمها سيف الاتهام ، فجاء القانون بتحريم استخدامها والنص على تقديم من تضبط معه هذه المكواة المحاكمة .

ووجد اللصوص بعد ذلك أنهم يستطيعون استخدام خاتم يمسكونه وهو محمى فى النار بعصوين من فروع الشجر ، وكان يسيرا إخفاء هذا الخاتم فى بطانة السرج أو فى أى مكان آخر ، ثم اتضح أن اللص يستطيع استخدام قطعة من أسلاك التلغراف فى وضع وشم أفضل ، بتقويسها فى أى شكل أو ثنيها بسرعة وإخفائها فى أى مكان ، ويمكن أيضا إحداث وشم يتلاشى بسرعة فى الجروح القديمة التى خلفها الوشم فى البقر ، لكن اللص الماهر عرف فيما بعد أن أى وشم جديد لا بد أن يظهر أثره على الوشم القديم ، فصنع وشما جديدا لا يختلف عن القديم إلا فى إضافة بعض الخطوط الجديدة إلى الخطوط القديمة ، وكانت بعض أنواع الوشم من المهارة بحيث لا يمكن تمييزها إلا بسلخ جلد البقرة وقراءة الوشم الذى تحته .

وإذا رأى اللص وهو يقوم بتغيير الوشم على مرأى النظر راكبا فى الفلاة لوح له بأن يمضى فى سبيله ، وهذا فى لغة رعاة البقر معناه أن يمضى فى سبيله

ولا يقترب إذا أراد ألا يطلق عليه الرصاص ، وكان منظر رجل وحده ومعه بقرة مستلقية أرضا وأمامه نار لا يعنى غير شىء واحد هو « الوشم » ، وكان الفضول شديد الخطر على من يتصف به ، لأن اللص كان يسرع فى استخدام بندقيته ضد الفضولى الراكب فوراً ، أما الراكب فإنه لا يستطيع استخدام السلاح غالبا .

وبعض النساء احترفن سرقة الماشية ، وكان هؤلاء يسمين باسم « كيث » نسبة إلى امرأة تسمى « كيث ما كسويل » أعدمت شنقا مع « جيم افيريل » لسرقتهما الماشية فى ويومنج سنة ١٨٨٩ فى بدء حرب لصوص البقر ، ومع أن التاريخ لم يؤيد ارتكابها السرقة ، فإن اسمها اشتهر بذلك ، وكانت دون شك ضالعة فى هذا العمل .

وفى الأيام الخالية التى كانت فيها الفلاة لا سياج لها ، وكانت المزارع الكبيرة يديرها أصحاب رأس المال الأوربى أو الشرقى وأصحابها لا يقيمون فيها وكانت البلاد ممتلئة باللصوص ، كان من الميسور أن يدمج أى شخص نفسه فى صناعة سرقة الماشية ، فلما ازدحمت الفلاة ، وأنشئت الشركات الكبيرة التى استخدمت المفتشين أصبح العمل فى هذه الصناعة صعبا ، وكان هناك مع ذلك من يرى أنه يستطيع رغم ذلك ممارستها ، وما تزال سرقة الماشية صناعة قائمة كرعى الماشية .

ولص البقر الحديث يستخدم عربة ، ويقوم جاسوسه باختيار المكان الذى يسرق منه ، كما يقوم بدراسة المنطقة والمراعى ، وفى الليل يقود عربته حتى يقترب من السياج ثم يفتح باب العربة ويهدم السياج ، ويختار المواشى التى تراد سرقتها ويكون عددها غالبا نحو عشرة من أحسن العجول ثم يهشها نحو الفجوة المفتوحة فى السياج وتساق فى هدوء نحو داخل العربة ، وتسير العربة إذ ذاك بدون أضواء ، إلى أن تبتعد عن المنطقة بأسرها .

ومعظم لصوص الماشية المحدثين يسرقونها لبيع لحمها ، فهم يسرقون ثورا أو اثنين ليذبحوه ويبيعوا لحمه لجزار من جزارى المدينة لا يسألهم عن مصدره ، وفى ذلك يحرص اللصوص على إعدام جلد الذبيحة بحرقه فى مكان بعيد ، ولكى يحمى اللص نفسه يقطع الأذن والوشم من الجلد لإخفاء كل علامة به ، ويسمى الجلد فى هذه الحالة « ثقب مدخنة الموقد » لأنه يشبه خيمة ثقب فيها ثقب لمدخنة الموقد . واللص يبذل كل حيلة لكى يمنع تعرف صاحب المزرعة على جلد أى عجل من عجوله إذا وجد ، والرجل الذى يذبح حيوانا يملكه غيره سواء ذبحه لأكله أو لبيعه ، يقال فيه إنه « اغتصبه » ، وتسمى الذبيحة التى تذبح بهذه الوسيلة « الغصب » أو « التيتل الكبير » .

(٢٣)

رحيل الراعى فى الليل

يعتقد بعض الناس أن الرجل إذا لبس زوجا من الأحذية ذات الرقبة وقبعة كبيرة أصبح راعى بقر ، وهذا النوع من التصور هو الذى يكسب راعى البقر هذا الاسم الغريب . وفى الأيام الخالية كان هناك كثير ممن يديرون مزارع البقر دون أن يكونوا من رعاتها ، فقد كان الغرب كذلك منطقة رعى يلجأ إليها الرماة بالبنادق وقطاع الطرق ، لأنهم كانوا يستمتعون بحرية المناطق الجديدة . ولو درسنا تاريخ أحد من قطاع الطرق الأقدمين لوجدنا أن قليلا منهم كان من رعاة البقر ، وإن كان رعاة البقر لم يسلموا من أذاهم .

بل إن كثيراً منهم لا ينتمون إلى الغرب فى شىء ، فقد نشأوا فى دروب المدن الشرقية وأزقتها ، أو كانوا نزلاء فى السجون أو من جنود الحرب الأهلية ، وتدفقوا على الغرب لأنه كان بعيدا عن متناول حماة القانون ، ومعظمهم كان من المحكوم عليهم الفارين من وجه العدالة إلى منطقة أخرى من البلاد .

لقد كان هؤلاء من رعايا المدينة ، لا من رعايا الفلاة ، ولو أنك قرأت مجلة فيها قصص عن الغرب أو رأيت فيلما سينمائيا أو رأيت التليفزيون لظننت أن اللصوص والسفاكين كانوا ينتشرون بكثرة فى البرارى ، مع أن المواطنين الصالحين كانوا لا يحبون هذا النوع من الناس ، بل كان معظمهم يموت فى سن صغيرة ، وقليل منهم من مات موتا طبيعيا فى فراشه ، يلقنه الصلاة قسيس

أو يسهر على تمريضه طبيب ، وكان الواحد منهم لا يسرع إلى فراشه إلا محمولا على الأعناق وفى جسمه رصاصة لا تعالج ، ثم يوسد الثرى دون أن يشيعه أحد أو يبكى على قبره إنسان .

ومعظم الرماة بالبنادق كانوا يحيون حياة تجعل من القصص التى تروى عنهم شيئا بسيطا تافها ، فقد كانت حياتهم حالكة السواد ، كانوا يقضون عمرهم فى التدرب على كل ما يجعل الغرب موحشا مخيفا عنيفاً ، وكنت لا تراهم يلقون حمالة بنادقهم أبدا ، ولم تكن الحمالة توضع فى أكتافهم للزينة ، ولا كانوا يحملون البنادق لمجرد التفاخر أو الأبهة أو التباهى .

والرجل الذى يخفض وضع بندقيته لا يتكلم كثيرا بلسانه ، كان قليل الحديث ، لأنه يعرف أن علو الصوت قد ينتهى برصاصة تصيبه ، فكان يتحدث بصوت خفيض ، وأعصابه كانت دائما ملكا له يتحكم فيها ، وكان يلتزم التحكم فيها ، وقد يخطىء أصبعه فيضغط على الزناد ، وقد يموت ضميره فيصبح كبقرة جبستها عاصفة ، لكنه كان دائما يلتزم الحكمة ، وكان يرى أن يبدأ هجومه فى الظلام ، وأن يأخذ فريسته على غرة إذا استطاع ، غير أن قانون الفلاة الذى يقضى بتكافؤ الفرص كان يحول بينه وبين ارتكاب ذلك ، وما يزال بالغرب رجاله ذوو الإحساس المرهف الذين يحسنون الرماية ، أما أولئك الذين يغدرون بالناس فكانوا فى الماضى المظلم المخيف لا يرفع أحدهم إصبعه عن الزناد قط .

وكان الرماة بالبنادق حين يرون بعض أهل المدن يرخون حبالهم أخرجوا المنديل فجأة لاستنشاق عبير نسيم الخليج ، ثم ينقلبون على أعقابهم إلى الجنوب أو يتجهون إلى حيث يشير عليهم السيد « جريلى » فإذا وصلوا إلى الجنوب لم

يستقروا على حال ، فإذا استقروا فى المدينة بعض أيام ، لم يكفوا بصرهم عن النظر إلى الأفق كأنما يتوقع كل منهم أن تقع عين أحد رجال الشرطة عليه ، وقد يكون كل ما فى الأمر أنه لم يجد فى المدينة ملجأ أمينا ما دام رجال الشرطة ينتشرون فيها ، كان الواحد منهم يرخى قبعته فوق عينيه إلى أن يتبين وجه القادم عليه : هل هو رجل الشرطة الذى رآه من قبل أم لا .

وكان اللص كثيراً ما يحتفظ بمنظارات مكبرة ، فإذا رأى أن أحد رجال الشرطة يجدّ فى أثره ، انطلق بحصانه إلى الفلاة ، فإذا رأى وهو راكب فى الفلاة أن شرطيا يتبعه ، أسرع فى سيره ، وكان يحدث أحيانا أن يلحق به الشرطى ، وهنا يحدث سباق رائع بين الخيل يثير عاصفة من التراب تتضاءل إلى جانبها العاصفة التى أثارها فيضان نوح ، وإذ ذاك لا يكترث أحد منهما بالمسافة التى تقطع ، ولا بالتعب الذى يبذل .

وكان رجل الفلاة لا يحس أنه استكمل ملابسه ، إلا إذا علق بندقيته بجانبه ، وكان يعلق واحدة دائما ، لأنه كان يرى أنه بدونها يكون كالعارى ، وأنه لا بد سيصاب ببرد ، لكنه لم يكن يعلقها لقتل أحد — كما يخطر لبعض الناس اليوم — فقد كانت هناك ذئاب وثعابين يقتلها ، كما كانت هناك أبقار مسعورة لا بد من التخلص منها إذا كان حريصا على حياته ، وكانت هناك ظروف تتطلب استخدامها إذا وقع فى ورطة وأحس معها أنه بحاجة إلى مساعدة أحد ، وكان الغرض الوحيد الذى يكره استعمالها فيه هو أن يطلقها على جواده رحمة به حين تزل ساقه وتنكسر ، وكان الراعى القديم بحاجة إلى بندقية فى أيام هجمات الهنود ، ولما زادت جرأة قطاع الطرق ولصوص البقر صار حملها ضروريا ، وقد يحملها الراعى طوال حياته دون أن يستخدمها ، وهو يخجل إذا شوهد بغير بندقية .

ولما تقدمت الأيام وجد الراعى أن البندقية ليست ذات أهمية له ، فلم يعد يخشى أن يتعقبه أحد ، سواء أكان من الشرطة أم من قطاع الطريق .

على أن حياة الراعى — كما تراها المجلات التى تكتب عنه — كانت أشبه بمعركة طويلة ، ولا شك أنه كان يتقاضى أجراً ضخما ، ولهذا يشترى هذا القدر الضخم من الرصاص الذى كان يطلقه ، ولو كانت حوادث القتل التى نسبت إلى رعاة البقر صحيحة لكان عدد من بقى منهم على ظهر الأرض الآن أقل ممن يحضرون الصلاة فى الكنيسة .

ولا أحب أن أصرف الخيال عن صورة راعى البقر ، فالراعى لم يكن أبداً يحمل بندقيتين معاً ، كما يصوره التلفزيون والسينما والصحف ، إنه كان يحمل بندقية واحدة ، وكانت هى كل ما يحتاج إليه . وكان بعضهم يحمل كثيراً من الرصاص والذخيرة ، لكن هذا كان يعتبر أكبر الجبناء ، ونادراً ما كان لحمل بندقيتين ميزة على حمل بندقية واحدة ، وكان الراعى إذا وقع بين غرباء حرص على أن يستخدم كلتا يديه ، وميزة استخدام بندقيتين هى فقط تهديد لمن قد يتربص به ، أو مظهر من مظاهر القوة حين يكون وحيدا بين جماعة ، وقد يستطيع الرجل العادى أن يحمل هذا العبء إذا كان «يبحث» عن خصم له ، أما راعى البقر فإنه يقوم بعمليات أخرى من إلقاء الحبال والمطاردة ، وهو لهذا يفضل أن يكون حمله خفيفا إلا إذا استشعر حربا ، وكان مضطرا أن يخوضها .

وراعى البقر فى حياته الحقيقية ليس سريع الجرى ، محبا المتاعب ، ولكنه إذا وقع فى يد ثلة من رجال الشرطة فإنه ينطلق فى الجرى بسرعة ، وإذا بدأ ينطلق لا يقف فى طريقه شىء ، وقد يضطر أحيانا إلى أن يسرع فى جريه بصورة تثير الجواد من تحته وتفزعه ، وفى المناطق الوعرة ليس من اليسير تهدئة الجواد الثائر بعصا .

وكثير من رعاة البقر لا يزايلون ظهور جيادهم أياما طوالا حتى يستقر مطافهم فى العراء ، ويظلون فى الفلاة حتى يشتد بهم العناء ، وليس ذلك اختيارا منهم ، بل إن راعى البقر يأبى أن يقترب منك إلا إذا عرف أنك صديق ، وعلى الرغم من أن أكثر الناس يميل الى الاستقرار فى مكان ما فإن هذا النوع من الرعاة اعتاد أن يظل راكبا جواده ، ولا يعرف له مكانا يستطيع الاستقرار فيه ويسميه وطنه .

أما الصحفيون فإنهم يحاولون إقناعنا بأن رعاة البقر يقضون يوما على ظهور الجياد ، وبقية أيام الشهر فى الصالونات والمشارب ، ويملأون المدينة بأحاديثهم وأحداثهم ، حتى أصبح القارىء الشرقى يعتقد أن الراعى يطلق النار بلاحساب ، ويحمل روحه على كفه ، وأنه يخضب المدينة بالدم ، وأنه رجل يسرق الماشية من سيده ، ويعتدى على الأبرياء ، وجرىء ، وشرير ، ومفزع دائما .

لكن رعاة البقر ليسوا من الخارجين على القانون بالصورة التى يصورونهم بها . صحيح إنهم أقوياء ، شجعان ، يتصفون بالجرأة من أثر فعل البيئة التى تحيط بهم ، ولكنهم ليسوا أشراراً ، إن حياتهم قاسية ، منعزلة ، فيها إنكار للذات ، ولكنهم مع ذلك مخلصون لمصالح من يخدمونهم ، أوفياء لهم ، ومهما كانت متاعب عملهم فإنهم يتحملونها بغير شكاة .

وكثيراً ما يقال عن الغرب إن راعى البقر يحمل بندقية مطلية بالنيكل ، ذات مقبض من العاج مزخرف ، لكنه فى الحقيقة لا يحمل إلا بندقية عادية ، وإن كانت لامعة أيضا ، غير أن ضوء الشمس الساقط عليها يجعله يبدو فى الفلاة كانة فى وسط منطقة كنائس ، وهو يحمل عادة غدارة ذات ماسورة واحدة ، ولها علبة من الصلب ومقبض من الخشب .

إنه لا يمثل بجثث ضحاياه كما تصوره الروايات ، وإن كان بعض الأشرار فعلا يفعلون ذلك ، وهؤلاء عاقبتهم وخيمة ، لأنهم لا بد أن يقعوا فى يد من يقضى عليهم ، ويمثل بهم جزاء ما اقترفوه من أعمال .

تروى القصص أن بطلا « أطلق ست رصاصات متوالية فى سرعة خارقة جعلت التفجر يمتد فى خط واحد » وعلى هذا النمط يكون خيال القصص ! والحقيقة أن رجال الغرب لا يضعون فى غداراتهم إلا خمس رصاصات فى عين واحدة منها ، وهذا يطمئنهم إلى عدم انطلاقها فجأة دون ضرورة ، ويقفلون العين الثانية ويتركونها خالية ، والراعى شديد الحرص على ألا تنفجر الغدارة أو البندقية بلا ضرورة ، والذى يضع ست رصاصات فى غدارته لا يعرف الفرق بين الخل والعسل كما يقولون ، وإذا لم يستطع أن يتغلب على فريسته بخمس طلقات فلن تغنيه السادسة ، أما الانفجار فى خط واحد ، فالإدراك السليم لا يقبله بداهة ، إذ الإنسان لا يستطيع الضغط على الزناد بهذه السرعة الزائدة المتلاحقة .

إن أرجحة البندقية تساعد على انفلات الطلقات بسرعة ، ولكن ذلك لا يحدث فى الحقيقة ، وتحدث الأرجحة بأن يمسك الراعى بالبندقية فى إحدى اليدين بالطريقة العادية ثم يسحبها إلى الوراء ببطن اليد الأخرى حتى تأخذ وضع الاستعداد للضرب ، فإذا رفعنا الزناد أو وقفناه أو ربطناه لم يبق معطلا ، فاستمرار اليد فى حركة دائرية سريعة تسحب الزناد مرة أخرى ، يجعل الزناد يسقط والرصاصة تنطلق ، ولعل الأرجحة محببة عند القراء ، حتى أن من يقومون بها تروى عنهم قصص كثيرة ، لكن حياة الفرد حين تتعرض للخطر لا يعتمد بها على عدم دقة هذه الطريقة ، ولأنها وإن كانت ممتعة فى تصويرها ، ولكنها من ناحيتها العملية عديمة القيمة ، فإنه إذا انفجرت بندقية ذات عيار كبير جعلها التذبذب المنبعث بعد كل طلقة تتأرجح ، وقد يمكن أرجحة بندقية غير معبأة بهذه الطريقة ، لكنها

عند انطلاقها فعلا لا تبقى ساكنة فى انتظار الأرجحة ، لتكون القذيفة دقيقة فى إصابة الهدف .

وقد تقرأ أيضا أن راعيا استخدم « كرنافة » بندقيته كعصا فى إحدى الحانات ، وأنا أدهش من أنه يضيع كل وقته هذا فى قلب البندقية إلى عصا يضرب بها شخصاً ما ، مع أنه يستطيع أن يمشط له شعر رأسه بماسورة بندقيته أو يطلق النار على جمجمته إذا كان رأسه أصلع ، فالراعى لا يستخدم قط « كرنافة » بندقيته كعصا لأن الماسورة أقوى وأسرع وآمن .

والراعى لا يسقط على خصم يطالب منه أن يسلم له بندقيته بالكرنافة أولا كما يصوره بعض القصاصين ، لأنه يعرف أن تسليم البندقية من ناحية كرنافتها يعنى وضع الأصبع على الزناد ، وأى حركة سريعة من المعصم قد تلف البندقية وذبابتها فى اتجاه إلى الأمام فتنفذ فيه الرصاصة ، إن راعى البقر القديم يطلب من عدوه فقط أن يلقى سلاحه الى الأرض مع حزامه ، وأن يتراجع فورا الى الخلف .

ومن الآراء الصحيحة لدى القصاصين أن الراعى يسرع فى رفع بندقيته . والحقيقة أن الراعى الذى يعيش من ممارسة استعمال بندقيته سريع فى رفعها وإعدادها للعمل ، ويتخذ كافة الوسائل لذلك ، لكن معظم الرعاة لا يهتمون بذلك إطلاقا ، لأنهم ليسوا مطالبا بحاجة إلى هذه السرعة . إنه لا يطلق النار على كل شخص ، ولا يطلق أى شخص النار عليه ، وهو من ثم لديه وقت يستطيع أن يعد فيه بندقيته ليطلقها كيف يشاء فى الفلاة .

إن القليل من الرعاة هم الذين يميلون إلى المباراة فى استخدام البنادق ، وهؤلاء قلما يمارسون سرعة رفع البندقية وإطلاقها أو القيام بألعاب المهارة التى

يقوم بها الرماة ، فإذا قاموا بها كان ذلك على سبيل المرانة ، أما الرامى المحترف فلا يفعل ذلك ، لأنه أتم تدريبه من قبل . وإذا كان كتاب القصة والمؤرخون يقولون ذلك فهدفهم القول بأن الرعاة يحسنون الرماية ويتبادرون فيها .

والرماة يحتقرون احتقاراً شديدا من يؤرجحون بنادقهم ، وقلما يجد هؤلاء مجال عيش إلى جانب الرماة الذين يدبرون أمرهم قبل أن يطلقوا أى طلقة واحدة ، وإذا لم يكن الرامى سريعا فى استخدام بندقيته ، كان خليقاً به أن يبتعد عن هذا المجال لضعفه ، فالبطء قد يؤدى إلى حتفه ، أو كما يقول المثل القديم : « إن إطلاقك النار بهذه الطريقة يعتبر انتحاراً » .

إن الراعى يعتبر رامياً إذا أحسن الرماية ، أما الموهوب الذى ما زال يدرب فقد يكون مع ذلك رامياً ممتازا ، وحتى يكون كذلك فإنه لا يشبه أبدا هؤلاء الرماة الذين يروى عنهم أنهم يستطيعون أن يصيبوا بطلقاتهم بندقية خصمهم وهى فى يده ، دون حاجة إلى تصويب ، مع أن ماسورة البندقيـة لا تحدد إلا هدفا صغيرا ، فإذا حاولت أن تصيب حبلا معلقاً رأيت أنك ستخطىء الهدف . إنك إذا كنت قريباً من جماعة تستطيع أن تصيب رجلا بينها إذا بدا كبيراً دون أن تصوب نحوه ، لكنك إذا كنت بعيداً عنه فالأصوب أن تصوب عليه إن أردت أن يطول عمرك حتى تطلق رصاصة أخرى .

إن جروح الراعى تبدو فى جسمه كخريطة حرب اشترك فيها ، فإذا كانت كل الرصاصات التى نفذت فى جسده ظلت فيه لما استطاع أن يتحرك من ثقلها ، لكنه يبدو أمام الناس هادئاً ، ولا يخشى إلا الجبان الذى يحمل بندقيـة ، وهكذا يعرف أن الشخص الذى تجب مراقبته إنما هو الذى يضطرب أصبعه على الزناد .

وإذا وجد فى المدينة الراعى الذى يطلق النار فيها دون حساب اعتبر مجنونا ، وكثير من متاعب رعاة البقر لا تظهر إلا فى إحدى الحانات بعد أن يشربوا من الخمر ما يشربون ، فإذا حدث أن أطلقت النار فى الحانة كان ذلك خير مادة لمن ينسجون الروايات والقصص ، هؤلاء الذين يطاوعهم خيالهم فى القول بأن رجال الأمن طاردوا الراعى فى الفلاة .

والكلام فى قصص الغرب قل أن يروى قصة لا تمتلىء بالدم ومعارك الحانات ، ومعظم هذه القصص يجعلك تتصور أن تاريخ حياة راعى البقر يجب أن يكتب على ورق من نار ، ويبدو أن القصاصين ينسون أن فى الغرب مادة شيقة للقصص الخلاب ، والحوادث المحببة للقراء دون حاجة إلى أن يملأوا قصصهم بالدم والرصاص والشر والأشرار .

إن راعى البقر العادى إذا استخدم البندقية فعلا فى معركة وكان على مدى قريب فإنه يفضل ضرب خصمه بماسورتها . وتصفيف شعر هذا الخصم بماسورة بندقية من ذات الست طلقات يترك عليها دائرة كبيرة يتعب الفأر فى الدوران حولها ، وقد لا يفيق هذا الخصم من حالته إلا بعد أن ينطلق الراعى نحو الفلاة ليلا ، وإن كان راعى البقر لا يحب السفر فى الظلام . كالبوم . ويقول المثل القديم : « إن قتل رجل فى آخر الليل لا يجعلك تنام هذه الليلة هادئا ، والراعى يعرف أن الذين يركبون بالليل يفقدون متعة السفر فى الفلاة .

وكثير ممن قتلوا فى الغرب قتلوا غيلة ، لا لأنهم لم يكونوا يحملون بنادقهم ، إذ أن قانون الغرب يحظر إطلاق الرصاص على أعزل ، لأن هذا ينافى العدالة ، ومن ثم كان الرجل الذى يحمل بندقية للزينة أو مجاراة للعادة دون أن يحسن استعمالها إنما يشرع فى طريقة يائسة من طرق الانتحار ، وبعض الناس يحسبون أن الرامى الجيد هو الذى يسرع الرماية ، لكن الذى يكسب معركة الرماية هو الذى يتأنى ، ويرسم خططه ، ويجيد تصويبه ، والرجل الذى يترك جواده حرا فى حركاته هو أدق الرماة .

(٢٣)

الفشـارون

فى الأيام الخالية كان بعض الرعاة يكذبون ويبالغون فى الكذب لكى يسلوا سامعيهم من أهل المدينة ، فيروون كثيرا من قصص جرأتهم وأعمالهم الشريرة ، ويصفون أنفسهم بأنهم أخطر شياطين الفلاة ، وكانوا بذلك يسيئون إلى سمعة أهل الغرب وإلى وصمهم بالوحشية والإجرام .

وقد وجد بعض هؤلاء الكذابين طريقهم إلى الغناء والقصص ، وأصبحوا جزءا من موسيقا الغرب ، حتى المحدثين منهم حين يشربون قليلا من الخمر كانوا يثورون ويتهوسون وينطلق كل منهم فيقول : « إننى ذئب ، وهذه ليلتى التى أعوى فيها » لكن عينيه كانتا تومضان وميضا يؤكد لك أنه ليس من الشر بالحالة التى يصف نفسه بها .

ولسنا بحاجة لأن نسوق لذلك الأمثلة ، فإنهم جميعا هكذا على هذا النمط حتى إذا كانوا من فلوات مختلفة .

إن أحدهم يحلو له أن يقول : « إننى أب لكل الأشرار الذين قدموا من « بازارد هول » ، فقد رضعت كل الخمر ، وخلعت أسنانى بمنشار ، وكانت الثعابين أتراب طفولتى ، وكثيرا ما تباريت معها فى العض لنرى أينا الأقوى ، وكنت أنتصر عليها دائما » .

فى حين يقول آخر : « إننى شيطان من شياطين الموت أصلى من « ديدمانزجالسن » ، وإذا توغلت فى فلاتنا وجدتنا أصلب عودا ، وأنا أقيم على مسافة ميل بعد آخر معسكر من معسكراتنا ، لقد طعمت على نخاع الآخرين ،

وكانت الثعابين أتراب طفولتى ، وأنا أجيد الرماية إلى درجة أنى أطلق بندقيتى بأصبع قدمى العارية ، وأضع الخل والعلقم فى شرابى فأجعل له طعما ، وأخلطه بالاستركنين وسم الذئب فأكسبه مذاقا ، فإذا جئت إلى المدينة اختفى القتلة والسفاكون تحت ثياب أمهاتهم ، أيها السفاكون الجبناء : من الخير لكم أن تتواروا فهذه ليلتى أسرح فيها وأمرح » .

أو يقول آخر : « لقد ولدت فى ليلة تفجر فيها بركان ، ورضعت ثدى لبؤة ، فنبتت لى تسعة صفوف من الأنياب كالحديد ، وفى فمى فجوات لأنياب أخرى ، إننى متوحش مسعور ، لم أركع على ركبتى قط ، وقد نشأت مدمرا ، سفاكا ، رضعت الدم ، وتلك ليلتى لألتهم المزيد » .

لكن هذا النوع لا يفزع أحداً ، وهو ذو لون أصفر كالخردل ، ولكن ليست له مرارة ، وتستطيع أن ترهبه بأقل شىء فتجعله يجرى أمامك حتى يتدلى لسانه ويجف حلقه .

ولا أسمع عن أحد من هؤلاء الفشارين إلا ذكرت قصة رواها « باتش إيكارد » عن « راتنسيك جاك » .

قال باتش : « إن هذا الأفعى راع قضى وقته كله يضايق السائحين ويرتكب أحط حماقاته حتى ظن الناس أنه شرير صعب المراس ، وتمادى فى حماقاته حتى اعتقد المواطنون الأثرياء فى « ميولشو » أنه يسىء بذلك إلى مدينتهم ، لأنه يطارد السائحين بهذه الطريقة ، ولهذا حاولوا بطرقهم المهذبة طرده من مدينتهم .

وأحب أن أذكر أولا أن « ميولشو » ورثت « راتنسيك » من مدينة بيرنتفورك حين طارده أهل هذه المدينة نحو الفلاة ، وودعوه وداعا مثيرا ، فأطلقوا فى أثره الرصاص احتقاراً له ولأعماله ، فلما جاء إلى ميولشو كان يحمل

حملا من التبن على رأسه ، ومثقلا بالسلاح والذخيرة ، وكان يبدو عليه من الشر والإجرام ما يجعل منه أهلا لما هو أشد من جهنم قاطبة ، وكان يروى لنا عن سكان ميولشو : كيف أنه كان أبا للأشرار الذين قدموا من بازارد هول ، وكان يبدو كذلك فعلا ، إذ كان يقول إنه رضع الخمر ، وخلع أسنانه بمنشار دائرى ، وأن الثعابين كانت رفاق لعبه ، وهو فى الواقع مجرم من المجرمين الذين نقرأ عنهم فى الروايات ، ولا نراهم .

لكننا سرعان ما خبرناه ولم نعر كلامه اهتماما ، عرفنا أن فى ظهره خطا أصفر واسعا ، يمتد حتى عظام صدره ، وقدرنا أنه ليس أهلا لأن تطلق عليه الرصاص وتكلف نفسك مئونة تنظيف بندقيتك بعد ذلك ، وهو قد يشرب خمرا ويركب فى الشوارع ويطلق النار ، ولكن لا خطر منه ، فهو كوصيفة من الوصيفات ، وإن كانت تصرفاته السيئة وشغبه هى التى ستؤدى به إلى الجحيم بجلده المملوء بالثقوب والجروح .

لقد كان مع ضحاياه من أهل المدينة يصمم على أن يريهم وحشيته وشره ، أما أهل الفلاة فقد كانوا يعتبرونه أحقر من حشرة ولو تقدم إلى فلاتهم لحطموا رأسه .

وذات يوم جاء إلى المدينة رجل مريض يلتمس علاجا ، وكانت رئتاه أضعف من رئتى ذبابة ، وكان هزيلا لا يستطيع أن يرفع قبعته عن رأسه ، وكان يرد التحية وهو يلهث ، فلما رآه راتنسيك سال لعابه وبدأ يحيك شباكه من حوله ، فيسىء إليه ويتحرش به ، حتى ضاق به الشاب وأصبح كقطة متوحشة تسير فى الطين .

وبعد ذلك بأيام قابلت هذا الشاب وسألته : كيف سمحت لهذا الرجل «راتنسيك» أن يفعل بك ما فعل ؟ ألا تعرف أن البيضة النيئة صفراء من داخلها دائما ؟ إنه أصفر كقلب البيضة تماما ، لا يخشى منه ، فانصب قوامك أمامه

وأظهر له أنك لست مصنوعا من زبد ، إننى لا أسمح لرجل أن يفعل بى ما فعل بك .

ونظر الشاب إلىَّ بعينيه الكبيرتين لحظة ، ثم لمعت عيناه بالأمل ، وسرعان ما هز رأسه فعرفت أن نصيحتى لم تعجبه ولم تؤثر فيه إلا كما يؤثر إلقاء الماء على فأر غارق .

وذات يوم كان فى المدينة رجل يسير ويشترى حاجياته، وكان ممن يركبون كثيرا إلى التلال المجاورة للمدينة ، ولم يقل أحد شيئاً عن سن هذا الرجل ، وكل ما قيل إنه كان مجعد الوجه كحذاء محروق ، وقال عجائز المدينة إنهم رأوه كذلك منذ سنوات طويلة لا يذكرون عددها ، وكان يركب حصانا قويا ، ويضع فى قدمه مهمازا كما يفعل رعاة الغنم .

وسمع ــ أول ما سمع ــ قصة المريض مع « راتنسيك » وبحث عن الشاب حتى اهتدى إليه ، وعرض عليه أن يأخذه إلى الجبل حيث الهواء أنقى ، والثعابين تزحف على بطونها ، تحذرك كما تحذرك ساعة المنبه قبل أن تدق ، ولم يمض وقت حتى خرج الرجلان إلى الجبل ، فلما خرجا عض « راتنسيك » على أنيابه، ونفخ صدره وأقسم أن ينتقم من هذا العجوز الجرىء الذى سلبه لعبته.

ومضى الوقت بطيئاً حتى استولى عليه اليأس من عودة لعبته الحبيبة إليه ، فأمسك ذات يوم براعى غنم جاء إلى المدينة ليشترى حاجياته . إننا لسنا ندرى من أين تهب العاصفة !! ، فقد سخر هذا الراعى من « راتنسيك » سخرية جعلته فى مكانة الخيل ، وقال له : من الخير لك أن تبحث عن شىء تستند إليه بدلا من عمودك الفقرى ، وقد هدأ ذلك من انفعاله ولكنه لم يشفه .

وقد حاول « راتنسيك » بعد ذلك أن يسخر من مكسيكى ، ولكن

المكسيكي بادر فاستل سكينا من حزامه ، وحاول أن يدور حول «راتنسيك» الذى اعتقد أن جهنم قد لفظت أشرارها ومنحتهم إجازة ، وأدرك أن حديثه وفشره لا يجوز إلا على الشباب لحصر تسليته فيمن كانوا يفدون إلى المدينة منهم بين الحين والحين ، ولم يكن يكف قط عن الحديث فيما كان ينوى عمله مع ذلك العجوز الذى سلبه لعبته ولو أنه نفذ ما وعد ، لكان ذلك العجوز يشوى الآن فى نار جهنم .

وبعد شهرين عاد العجوز بالشاب إلى المدينة ، ويبدو أن الشاب لم يتحسن كثيرا فضايق ذلك العجوز ، وطبيعى أنهما سمعا عن حديث « راتنسيك » ولم يسر العجوز بالخبر ، لأنه رجل مسالم يتجنب مواضع الشر . لم يكن جبانا ، ولكنه كان عجوزا لا يريد تحمل أى متاعب فى أخريات أيامه .

واصطحب الشاب إلى مكتب الميناء بعد أن أخبره أنه سيتناول عشاءه فى الفترة التى يمكثها بالمكتب ، وبعد أن يفرغ من الكشف عليه يغادران المدينة مبكرين ، ثم ترك الشاب وعاد إلى الحانه ، ولما رأى الطبيب الشاب هز رأسه فى حيرة مما يقوله له ، وأخيرا قال له : إنه لن يعيش أكثر من شهر واحد .

واضطرب الشاب لذلك فى أول الأمر لأن هذا الخبر لا يسر أحدا ، ولكنه سرعان ما تماسك وتلاصقت أنيابه ، فدفع أجر الطبيب ، وأسرع إلى صديقه العجوز فى الحانة ، وإذ مر بحانوت يبيع البنادق ، فقد اشترى غدارة لعلها أول غدارة أمسكها فى حياته ، وطلب إلى البائع أن يعبئها له ، ويشرح له كيف يستخدمها ، وحاول أن يرفع الزناد ، ولكنه كان ضعيفا ، فطلب إلى البائع أن يفعل ذلك عنه ، وأن يسلمه الغدارة ، لأنه رأى ثعبانا فى الشارع ، ويريد أن يحاول قتله لأنه هو الذى عض صديقا له .

ولما رأى « راتنسيك » العجوز يدخل الحانة ليأكل سلط عليه لسانه كامرأة

لوط ، فقد رآه لا يحمل بندقيته ، وأخذ يسخر من العجائز ، ويردد ألفاظا لا يقبلها الرجل من أحد ، وقال إن الوقت قد حان لكى ينقش إحدى الجماجم ببندقيته ، وأدرك العجوز أنه لن يمر وقت طويل حتى يقهره هذا الخصم الوقح ، لكنه مع ذلك قوس ظهره كالقطة حين ترى كلبا ، وكان «راتنسيك» يمزح بطبيعة الحال ، لأنه يعرف ماذا يحدث لو أطلق الرصاص على أعزل ، ولم يكن يفكر أبدا فى الشاب المريض ، ولم يكن يعرف أن هذا المريض قد استقر رأيه على أن الموت قد اختاره لنفسه وأن عليه أن يموت ميتة جليلة ، فلما وصل الشاب إلى الحانة وقف لدى باب جانبى رأى منه « راتنسيك » وهو يخرج ، وسمع تهديداته فلم ينتظر مزيدا ، وانقض عليه انقضاض الصقر ، ورفع غدارته بكلتا يديه ، وبأصبعيه الأماميين ضغط على الزناد .

ومزقت الرصاصة أمعاء هذا الرجل الرهيب . ونفذت إلى زجاجة كانت أمامه ، ونثرت ما فيها ، وأصبح « راتنسيك » كلما نظر إلى قميصه ورآه مغطى بالدم زأر زئيرا يهز من حوله الذئاب ، لكنه سرعان ما ينسى الحادث ويطوف بالأطباء يلتمس عندهم العلاج ، وانبعث من صدر العجوز تنهد كان يثقل عليه أما « راتنسيك » فقد أصبح أضحوكة المدينة فانصرف إلى الفلاة ، وقد سمعت فيما بعد أن المدينة التى نزل بها بعد ذلك لم تسترح للون عينيه ، فأخرج منها وعلق مشنوقا .

ومعظم هؤلاء الفشارين كانوا يحاولون أن يجعلوك تعتقد أنهم أقوياء ، وأن أعوادهم صلبة بدرجة خارقة ، وكان بعضهم لين المعركة كضرس متقيح .

وقد جاء على الغرب وقت كان الحبل يستخدم لديهم فى الشنق باعتبار ذلك حكما أخيرا من أحكام العدالة ، لكن لم يكن أحد ممن عاشوا فى الفلاة يتحدث عن ذلك إلا حديثا عابرا ، فقد كانت هذه أمور جادة لا يتعرض لها الناس بالحديث العابر .

ومعظم رعاة البقر كانوا حريصين على رقابهم وحياتهم ، وإن كان لابد بين الحين والحين أن يوجد من لا يستطيع أن يقاوم رغبته فى أن يلتقط حبلا ربط طرفه الآخر بحصان ، وكان الواحد منهم إذا أعجب بحصان آخر وسرقه كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه ، إنه سرعان ما يؤخذ إلى غابة من الغابات ويشنق فيها ، وكان يقال فى هذه الحالة إنه « يعانى من حلقومه » أو « إنهم جعلوا شجرة تزهر من دمه » وكم لص من لصوص الخيل صعد سلم المشنقة إلى آخرته على حبل .

(٢٤)

الراعى فى الأزمات

من القواعد العامة عند رعاة البقر أن الراعى يستطيع أن يملك أعصابه ، فهو يعرف أن الكلمات الثائرة كثيرا ما تؤدى إلى نتائج سيئة إذا وجدت البنادق . لقد كان الرعاة فى الزمن الخالى يحمل كل منهم بندقية ، لكنه لم يكن يسرع فى استعمالها كما يصورهم كتاب القصص ، وكنت تجد راعى البقر هادىء الكلمات حين يقع فى أزمة ، إنه لم يكن جبانا ، ولكنه كذلك لم يكن يتعطش للدماء بدرجة يقضى فيها على أحد لمجرد الدفاع عن كبرياء تافه ، إنه قد يطلق النار دفاعا عن حياته ، لكنه قد ينتظر شوطا طويلا قبل أن يضطر إلى إطلاق النار فى صراع ما ، ثم إنه لا يميل كثيرا إلى ركوب متن الفلاة ، فإذا أراد أن يستخدم بندقيته استخدمها فى غرض هام ، فكل إحساسه ينحصر فى إطلاقها بدقة حتى تكون أول قذيفة هى فيصل المعركة ، والراعى الحقيق لم يكن يحب إطلاق النار بلا سبب أبدا ، فإذا خاض معركة فإن وطيسها يشتد إلى درجة تتضاءل أمامها كل المعارك ، وإذا نشب عراك بين راعيين ممن يعيشون حياة قاسية فى الفلاة ، فالأغلب أن ينتهى بطرح جثة أحدهما فى العراء أو تعليقها فى مهب الريح .

والراعى كان إذا قصد إلى المدينة ، فإنما يكون ذلك للمتعة أو لشراء بعض حاجياته ، أو للتدريب على إطلاق النار ، وكثيرا ما كان يصادف بعض من يحسنون الرماية ممن لا يرهبهم ، فهو لم يكن يخشى إلا أحد اثنين : المرأة اللطيفة ، وخلو يده من الجواد .

فإذا حدث أن التقى راعيان متخاصمان فى المدينة فى وقت واحد ، وكان

كل منهما يحمل ضغنا قديما للآخر ، فإن أحدهما لا يتحدث إلى الآخر ، ولا يحفل به مهما حدث له .

فإذا حضرا ولم يلتقيا فسرعان مايعرف كل منهما نبأ قدوم الآخر إلى المدينة ويبحث عنه ، وهنا تحس المدينة كلها بتوتر لحظة اللقاء ، لحظة الأزمة ، والأعصاب الثائرة ، والنكسة المتوقعة ، ويكون هناك السكون الذى يسبق العاصفة ، فترى من النوافذ والأبواب وعلى طول الطريق وجوها تتطلع إلى ما ينتظر وقوعه ، وقد لا تكون فى الوجوه تعبيرات كاملة ، لكنك تدرك أنها قلقة متوفزة ، ولم يكن من المحبب إليهم أن يصرح أحدهم علنا بتبادل إطلاق النار ، فإن لكل رام أصدقاء ، وهو يجتهد أمامهم فى المحافظة على قواعد الاتيكيت ولا يخرج عليها ، ومن القواعد الصارمة عند أهل الغرب أن المعارك تعتبر أمورا خاصة ، لا يجوز لأحد غير المتعاركين أن يتدخل فيها .

ونظراً لأن كل راع تمر به فى حياته أوقات يضطر فيها إلى التشاجر حتى لا يفقد كرامته واحترامه ،فقد كان المتخاصمان إذا التقى أحدهما بالآخر التزما الوضع الذى يلتزمه كل من يتأهب لإطلاق النار ، فيميل الواحد بجسمه إلى الأمام ويحنى ركبتيه قليلا ، ويقرب يده من كرنافة بندقيته ، وينشر أصابعه كمخالب القط ، ثم يظل واعيا متيقظا ، كل عصب فيه متوتر ، وكل نظراته متحفزة خطيرة ، فى انتظار الحركة الأولى لخصمه !!

وتمر ثانية من سكون عميق ، ثقيل ، متوتر ، مؤلم ، وفجأة يحدث الانطلاق وتدوى الطلقات ويقدح الشرر ، وقد تطول حياة أحدهما فى المدينة على حساب الآخر ، فيظل يستمتع بالموسيقا ، وقد يلجأ المتخاصمان كليهما إلى الفرار نحو الفلاة فى وقت واحد .

وقليل من الرعاة من يرضى بأن يقتل أحدا ، فإذا اضطر إلى الأذى اكتفى بأن يضرب خصمه فوق رأسه بماسورة بندقيته ضربات تكفى لإزعاجه .

صحيح إن بينهم من تثور مرارة نفسه كالثعبان فى شهر أغسطس فيبحث دائما عن معركة يشتبك فيها، لكن هناك دائما أيضا من يتغلب عليه ويصرعه ولو بعد جهد جهيد حتى يسيل

دمه ، وينسلخ جلده ، فإذا أفاق من أوجاعه ، وجد أنه فقد طوقه وحزامه ، وأن الرجل الذى صرعه يعده بأنه سيمزق جسده بالرصاص فى المرة التالية .

ولما صدرت القوانين التى حظرت على رعاة البقر دخول المدينة بأسلحتهم كانوا يتشاجرون بأيديهم ، وكان الرعاة الأوائل يرون فى ذلك حطا من كرامتهم ، وكانوا يسمون هذه المشاجرة « حرب كلاب » ، ويقول أحدهم : « لو أن الله أراد لى أن أحارب حرب الكلاب هذه لكان قد منحنى مخالب وأسنانا طويلة كالكلب » .

وكان الراعى إذا ثار عوج قبعته فى وضع يدل على الحرب وحارب بيديه حربا لاهوادة فيها ، لأنه كان قويا صلبا ، وكان سريعا ، يظل فى عراك مع خصمه حتى يحدث به خدوشا أو كدمات فى عينه . وصف أحد الرعاة معركة رآها فى مزرعة إذ كان يمر بمعسكر النوم قال : « سمعت على أثر معركة صوت دق فظننت أن أحدهم يضرب جواده بحذاءه ، فلما خرجت من معسكر النوم تبين لى أن أحد المتعاركين كان يمشى فوق جسم خصمه ويدق على عموده الفقرى كأنه يصعد سلما .

ولا أذكر معركة استخدمت فيها البنادق إلا حضرتنى قصة سمعتها من « بوجى لوسون » عن رجل يدعى « سونجنج ايل » قال :

كان الفرسان من الرعاة ينبشون أرض الفلاة بحثا عن ماشية مسروقة ، ويظهر أن هذه الماشية كانت غير عادية ، بل من النوع الثائر حتى أن أكثر المعارك التى نشبت بين الثيران حدثت قبل عودة هذه الماشية إلى مزرعتها ، وكان من بين هذه المعارك معركة مضحكة ، هى أعجب ما رأينا من المعارك :

كان من بين القطيع ثور نستخدمه كتميمة ، وكان ثورا طويل الساق والقرنين ، منبسط الجانب ، إذا قورن بالكباش الكبيرة الحجم بدا فى حجم أحد الكباش التى كانت عندنا فى المزرعة ، لم يكن أحد منا يعرف مصدره ولا من أين جاب ، وكنا

ندهش كلما رأيناه يقبل تحدى أى ثور آخر قادر على أن يشطره نصفين ، وبقينا فى عملنا نرقبه واثقين من أنه لن يمضى وقت طويل حتى نستريح منه إلى الأبد ، وكثير من الرعاة كان يراهن رهانا باهظا فى المعركة ، ولم يكن أحد يكسب منه ، إذ أن هذا النوع الطويل القرن ، كان خطيرا ومتفوقاً دائما ، ولكن « بوجى لوسون » كان هو الذى يكسب الرهان دائما .

كان الثوران يصارع أحدهما الآخر ، فيوقع الكبير الآخر على الأرض ، ويرفسه ، ويظن الثور الكبير أن القوى غير متكافئة وينهض الثور الآخر بجانبه وسرعان ما يدخل قرونه التى تشبه السيف فى لحم خصمه ، وفى كل هجوم جديد يبادر الخصم الكبير بطعنة جديدة فيزداد الثور الآخر ثورة ويكرر إدخال قرونه فى جسم الثور الكبير . ولوحظ أن المعركة لم تطل ، واتضح للثور الكبير أن خصمه قوى لا تلين قناته ، فأسرع يجرى رافعاً ذيله ، وشوهد أنه لم يسلم من طعنات قرنى خصمه التى دفعته إلى الإسراع فى الجرى ، وآخر مرة شاهدناه فيها ينطلق مسرعاً ويختفى فوق الجبل ، بعد أن خسرنا كل نقودنا التى كان قد كسبها « بوجى لوسون » .

وكان طبيعياً بعد العشاء — حين ينتهى عمل اليوم — أن يكون هناك ضحك وصخب حول تلك المعركة المضحكة ومناظرها ، لكن الترفيه كان يختلط بالأسف ، لأن المنتصر كان لابد أن يذبح ذبيحة ، لأنه كسب إعجابنا ولو كان ذلك على حساب خسارتنا ، وأعلن صاحب عربة المطعم أن أصحاب المزرعة بحاجة إلى زيادة اللحم ، لا العظم والقرون ، وأنهم كانوا يربون اللحم لزيادته لا لنقصانه .

فقال أحد الرعاة : « هناك شىء واحد أحب أن أعرفه مقابل خسارة نقودى كيف كسبت يا « بوجى لوسون » كل أموالنا بهذه الثقة الكبيرة ، لقد

تصرفت كما لو كنت واثقاً من النتيجة ، فأجابه « بوجى لوسون » لقد ذكرنى هذان الثوران المتعاركان بمعركة رأيتها بين رجلين منذ زمن بعيد ، لم يكن بين الرجلين إلا ما كان بين الثورين من فوارق ، وقد خطر لى الآن على الفور أن أتجه فى رهانى على ضوء ما رأيت من معركة الرجلين .

وأقول لك الآن إنك لا تستطيع أن تحكم على الرجل من بناء جسمه ، فإننى رأيت رجالا يمتلئون بالشحم واللحم ، وخيل إلىّ أن الواحد منهم يستطيع بضربة واحدة أن يقتل بغلا ، لكنه اتضح لى أنه لا يستطيع أن يلعق شفته العليا ، لأنه لا يسيطر على أعصابه ، وقد ترون أيضاً رجلا أعجف ، جلده فوق عظمه فتتوهمون أنه لا يستطيع العراك فلا يخدعنكم هذا ، إن المعركة بالأيدى تتطلب عادة أن يكون المتعاركان متساويين فى الوزن ، أما فى معركة البنادق ـ وهى كالمعركة التى أقصها عليكم الآن ـ فإننى أعتقد أن الغلبة فيها تكون للأعجف .

لقد كنت أعمل فى ذلك الحين مساعد راع فى مزرعة « شيروكى ستريب » وكان الرجل الطويل الساقين قد قدم من « سكيليت » ، لقد كان طويلا جداً إلى حد أنه كان يقصر اللجام ، ويستغنى عن كعب حذائه ، وكان زملاؤه يسمون خيوله العصىّ التى يمشى عليها ، لأن قدميه كانتا تحتكان بالأرض تقريباً ، وكان نحيلا لدرجة أنه أقسم أنه يستطيع الاستحمام فى ماسورة بندقية ، ولو أقفل عينيه لبدا كأنه إبرة ، ولهذا كان الرعاة يسمونه « إبرة » .

كان منظره وهو راكب أغرب منظر رأيته فى حياتى ، وكان يحب خيوله حباً جماً كمعظم الرعاة الذين يحبون خيولهم ، وكان يطمرها ويتحدث إليها ، ويربت عليها كأنها عشيقات له ، ولا يقضى وقتاً طويلا مع زملائه الرعاة ، ولكنهم كانوا يرونه كلما كان خلوا من العمل يطوق رقبة جواده بذراعيه الطويلتين .

ولما عينه صاحب المزرعة راعياً لم يكن قد ألف الخيول الغشيمة ، وتوقع صاحب المزرعة أنه سيرى أجمل تسلية حين يرقب ناطح القمر هذا وهو يحاول ركوب المهور ، فلما ربط « إبرة » جسمه بساقيه الطويلتين فوق ظهر المهر وعقد ساقيه حول جسده ، لم يوجد مهر يستطيع أن يلف ظهره بحيث يستطيع فك عقدة الساقين ، فقد أمسك « إبرة » بجسد الحصان كأنه « لزقة » ألصقت به ، ولم يمض وقت طويل حتى ألفته الخيول وصارت تأكل من يديه ، وتسير وراءه كالكلب الأليف ، على أنه أفسد شهيتها فبرمت بالحشيش ، لأنه كان يطعمها الفطائر ، حتى أن الخيول كانت تحوم حول المطبخ تتشمم رائحة الطعام المطبوخ .

وقد يكون طبيعياً أن نتوقع أن الرجل الأعجف لا خشونة فيه ، وأنه يتقبل أى إهانة ، وكان « إبرة » كذلك فعلا ، حتى أنه أصبح محور كل فكاهة وسخرية فى المعسكر ، فى وقت كان فيه يعتبر فارساً بارعاً ، ومرجع ذلك حبه للخيل ، لكنه كان مع الناس شيئاً آخر . كان يتقبل كل شيء بسماحة ، وسرعان ما رأى الرعاة أنه صعب المراس .

وكان يعمل معنا فى المزرعة رجل آخر بعكسه تماماً . كان اسمه « بات » وكان كبير الحجم إلى درجة كبيرة ، وكان يحاول أن يزعم أنه أصلب الناس عودا ، وأنه يستطيع أن يقذف بك إلى حيث لا يقف على أثرك أحد ، وكان قد عمل سنوات طويلة فى المكسيك ، واعتاد أن يسىء معاملة الخيل ، حتى ترك فى كل جواد بدائرة اختصاصه أثراً من قسوته .

ولم يستطع رئيس المزرعة أن يفعل شيئاً معه ، لأن الشركة كانت ، تدفع له أجره ، فلما شاهد « إبرة » ما فى ظهور الخيل ، ورأى القسوة التى كان

« بات » يعاملها بها جن جنونه فأنب « إبرة » « بات » على قسوته بالبهائم ولم نكن نعتقد أن الموقف يتجاوز هذا الحد ، لأن « بات » ضخم وصلب ، و« إبرة » وبخه ولم يفكر فى العواقب ، فقال له « بات » : « اسكت وإلا قطعت رقبتك » :

فقال له : « إبرة » نفذ ذلك أيها السفاك ، فليس هنا من يشهد على ما تفعل » .

وحاول « بات » أن ينال من « إبرة » ، ولكنه حين نظر إلى ما حوله ورأى بقية الرعاة متجمعين عدل ، وكان « إبرة » قد كسب صداقة الجميع فى المزرعة ، أما « بات » فقد كان بينه وبينهم عداء سافر .

ويظهر أن « بات » راح يسىء معاملة خيوله أكثر من ذى قبل ، وكان ينظر إلى « إبرة » شزراً ، لأنه كان يراقبه بوجه شاحب ، ومع أنه لم يحدث بينهما اشتباك آخر فقد حدث فى آخر يوم فى الطواف أن ربط « بات » حبله برقبة جواده ليعده للعمل بعد الظهيرة ، ثم ربط الجواد فى العربة ومضى يبحث عن شيء ، وكان قد شرب خمراً كثيراً ، وسرعان ما وجد عصا غليظة ، فلما رأى « إبرة » ما حدث ذهب إلى الجانب الآخر من العربة ، وتسلق عجلتها وأخذ من فراشه ، بندقيته ، وقبل أن يضرب « بات » ضربته الأولى كان « إبرة » قد ضربه على رأسه بماسورة البندقية ضربة قوية .

وقبل أن يفيق « بات » من الضربة ، كان رئيس العمال قد وصل إلى مكان المعركة فقال للراعى « بات » : خذ حاجاتك وارحل من هنا قبل أن أترك « إبرة » يمزق لحمك برصاصه ، اذهب من مزرعتى فوراً ، وكان كلما صرخ فيه اشتد غضبه .

ونظر « بات » إلى الرئيس نظرة تذيب الجليد ، ثم استدار إلى « إبرة »

وقال له : « سأراك مرة أخرى ، وأعتقد أن من الخير لك أن أقطع ساقيك » .

وظل « إبرة » واقفاً إلى جوار العربة يرقبه وهو ذاهب ، كرجل فى دوامة ، ولا بد أنه كان مغيظاً ، وركب الرئيس العجلة ، ووضع يده حول كتفى « إبرة » وقال له : « يابنى : إننى فخور بك ، فكن على حذر من هذا الشقى ، إن فى غيظه سماً زعافاً ، ولو كنت مكانك لراقبته بحرص شديد » .

وبعد سنة تقريباً غادر « إبرة » المزرعة ، ووجد لنفسه عملا فى شرطة المدينة ، وكانت شاراته تكاد تغطى نصف صدره ، وفى الوقت نفسه كان « بات » يعمل عملا حراً ، فقد رأى مخدومه الجديد أنه لا يحسن العمل فاستغنى عنه ، وأصبح شريرا مجرماً فكون عصابة تقوم بقتل أمهات الأبقار وسرقة عجولها الوليدة .

وكان عمل « إبرة » هو جمع الضرائب واستيفاء الأوراق بالشرطة ، وذات يوم سلمه رئيس الشرطة تصريحاً بمراقبة « بات » ، فعجب منه غاية العجب ، وقال له بعض زملائه : إن رئيس الشرطة لم يكن يستطيع ذلك بنفسه ، واختار أن يقتلك بهذه العملية ، لكن إبرة كان حريصاً على أداء واجبه ، وكان يمثل القانون بدقة ، فنسى كل شىء يتصل بمشاعره الشخصية ، وخرج فى إثر « بات » وأرسل إليه « بات » من يقول له : إن العصابة ستطلق كلها النار عليه ، وكان « إبرة » صلب المراس ، فلم يكن يثنيه عذاب جهنم كلها عن القيام بواجبه .

وتوافرت الروايات هنا وهناك ، وكانت كلها تزيد النار اشتعالا حتى جاء « بات » وعصابته ذات يوم إلى المدينة وعيونهم تقدح شرراً . وكان « إبرة » يوماً فى « لوبوسبرنجز » لاستيفاء بعض الأوراق ، فلما سمع « بات » بذلك

قرر العودة ، واهتمت المدينة كلها بذلك ، وتراهن كبار المقامرين على « بات » وكان أصدقاء « إبرة » لا يعرفون عن أعصابه شيئاً كافياً ، فلم يسبق أن حدث له مثل هذا الموقف من قبل ، فهزوا رءوسهم عجباً وتحيروا فيما سيكون حال زميلهم مع هذا الرجل القوى « بات » ، وقدروا أنه لن يكون أكثر من دجاجة بين أنياب ثعلب ، ورأى بعضهم أن الغدارة قد تخلق بينهما تكافؤاً ، وأن الحجم ليس ذا قيمة كبيرة ، إذا التزمت العصابة الحياد .

واستقر أمر المدينة كلها على أن تنتظر ، ولكن نفد الصبر ، وتوترت الأعصاب ، وخلت الشوارع تدريجياً من الناس ، وانصرف الآخرون بخيولهم إلى الشوارع الجانبية ، وأقفلت أبواب البيوت ، وأشرفت الأعناق من النوافذ العليا فى انتظار ما تسفر عنه المعركة ، وكان الأهالى كأنما يجلسون فى مقصورة من مقاصير إحدى دور الأوبرا ، فقد باتوا ينتظرون مجىء « إبرة » فى أى وقت ، وقال أحد أصدقائه إنه لن يحتمل كثيراً ، ومن ثم وجب عليه أن يحذّر « إبرة » من خصمه ، وانسل من أحد الطرق الخلفية ، ووخز جواده ومضى إلى حيث يجد « إبرة » ليحذره ، فلما لم يعد ، « إبرة » إلى المدينة قدر أهلها أن صديقه قد حذره ، وأنه لا بد فر إلى الفلاة .

لكن ما لبث « إبرة » أن عاد على ظهر جواده ، ثم ترك جواده فى آخر الشارع ، وبعد أن استوثق من أن بندقيته بخير ، سار فى طريقه إلى داخل المدينة ، وعرف كل ما يدبر له ، فسار فى بطء وحذر ، كان كأنه يثب أحياناً ، ويسير على بطن قدميه أحياناً أخرى ، إذ كان يعرف أن المدينة كلها ترقبه من وراء النوافذ ، ويدرك أن الجمهور يعتبره ضعيفاً ، لأنه اضطر إلى الفرار فى مناسبتين سابقتين ، لكن هاتين المناسبتين كانتا شخصيتين ، أما الآن فهو يمثل القانون ، ولو كان رئيس الشرطة فى المدينة لاستطاع أن يعتمد عليه فى الإيقاع بعصابة كاملة ، ودهش لأن رئيس الشرطة عهد إليه بالأوراق لهذا السبب .

وقدر أنه لن يطول به هـذا الحال مع خصمه ، وواصل طريقه إليه بطيئاً بطيئاً ينظر بين الحين والحين من فوق كتفيه ، أو يختبىء وراء ركن من إحدى العمارات ، وواصل السير . وكان يحس أن العيون من خلف النوافذ تكاد تثقبها ، ولم يكن يدرى هل هى عيون أصـدقائه أو أعدائه ، وكان شاحب اللون كعجل صغير شارد فقد أمه ، إنه لأليم جداً أن تتعقب عدوا يتربص بك ، وأنت فى العراء لا تعرف أين يكمن هذا العدو لك ، ولا من أية زاوية يطلق عليك رصاصاته الحامية فى أية دقيقة .

وما أن اقترب من حانة « سلفر سبير » حتى برز له « بات » وفى يده بندقية وقال له : « هل تبحث عنى يا « إبرة » ؟ وقالها بصوت كرنين الحديد على الثلج الجامد فقال « إبرة » نعم ، عندى أمر بالقبض عليك ، ولم يرد ، لأن « بات » أمطره بوابل من رصاصه .

وهنا أعيد ما قصدت إليه من أن الرجل الأعجف قد يكسب المعركة من السمين المكتنز اللحم ، فقد انحرف « إبرة » على أحد جوانبه ، ولم يتح « لبات » فرصة إصابته ، إذ كان « بات » كمن يحاول أن يصيب برصاصه حبلا يتأرجح ، فقد أخذ « إبرة » يتأرجح هنا وهناك ، فيجعل من نفسه هدفاً صعباً على « بات » وفى كل مرة يسحب فيها الزناد إلى الخلف ، كان يجعل من « بات » شيئا كزجاج النافذة فى ضوء الشمس ، وكان « إبرة » يجيد الرماية كما يجيد ركوب الخيل ، فلما وقع « بات » كان أفراد عصابته يتقاطرون خارج الحانة كالنمل الأحمر حين يخرج من كتلة خشب تحترق ، وكانوا يدخنون وهم خارجون .

وانطلق الرصاص أسراباً كذباب الخيل فى مايو ، لـكن « إبرة » ظل مكانه يفتح فى جماجمهم نوافذ ، ويعاجل كلا منهم بتحية قبل أن ينتقل إلى آخرته ،

حتى قضى عليهم جميعاً ، وأصبح « إبرة » أشهر رجل فى المدينة ، وكان يستطيع بعد ذلك فى سهولة أن يفوز بانتخابه رئيساً للشرطة .

لـكن بعد أن انتهى الأمر ، مضى « إبرة » يسير نحو مكتبه وألقى شارته على مكتب رئيسـه ، ثم كتب استقالته ، مقتنعاً بقضائه على « بات » حتى لا تقاسى منه الخيول مرة أخرى ، وخرج من المـكتب إلى الحانة ، يعب من الخمر ما يفقده كل وعى ، أما أصدقاؤه فقد أسفوا لأنهم لم ينتهزوا فرصة الرهان على المعركة التى خاضها ببطولة وكسبها .

(٢)

فى العمـــــــل

(٢٥)

ركوب الفــلاة

حين يركب راعى البقر متن الفلاة سواء أكان للاعتساس أم للذهاب إلى أى مكان ، كان بحكم العادة يركز عينيه فى كل ما يدور حوله ، فإذا كان فى طريقه إلى المدينة وأراد أن يصل إليها بسرعة ، ورأى فى الطريق شيئاً غير عادى ، خرج عن طريقه ليرعى مصالح رئيسه أو مخدومه .

وقد علمته تدريباته أن يرى من مسافات بعيدة ، وأن يفسر الإشارات التى تصدر عن كل ما يحيط به ، وبحكم العادة تدور عيناه فى كل منبسط ومرتفع يقع فى مدارها ، فإذا سمع خوار بقرة فى مكان بعيد ركب إليها لاستطلاع الأمر ، وقــد يرى أنها فقدت وليدها ، وقد يربطها ويحلبها حتى لا يتأذى ضرعها من اختزان اللبن ، وقد يجد حيواناً تورم فــكه ، وأرخى رأسه ، فيعرف أن ثعباناً لدغه ، وقد يجد جلد الحيوان متقيحاً تنبعث منه رائحة كريهة ، فيعرف أن به قروحا ، فيعالجها بإمكانياته المحدودة .

والقروح دائماً تسبب للراعى المتاعب ، وبخاصة بالجنوب الغربى فى الشهور الحارة ، فأى حيوان فى جلده جروح معرض للذباب ، والقروح تبدأ عملها منذ اليوم الأول لجرحها ، وحرارة جسم الحيوان سرعان ما تساعد على فقس البيض لتخرج من كل بيضة حشرة تتكون منها خلية فى لحم الفريسة ، وتشق طريقها إلى أن تصل إلى مقتل منه .

فإذا لم يجد الحيوان الرعاية اللازمة فى مدى يوم أو يومين حـدث له ضرر عظيم . وراعى البقر يعرف الحيوان المريض بمجرد رؤيته ، لأنه يهز رأسه على الجانبين كأن بأذنيه التهاباً ، والحيوانات الموسومة حديثاً تجب مراقبتها للتأكد

من أن الذباب لا يعبث بجروحها ، وقد درج الرعاة المحدثون على أن يرشوا دهاناً خاصاً فوق جروح الحيوانات ويحتفظوا معهم بزجاجات دواء القروح لاستخدامه عند الحاجة .

والمـادة التى يستخدمها الرعاة مركبة من حامض الـكاربوليك ، ومرهم البرزليك ، وشحم المحاور ، فالحامض يقتل الديدان ، والمرهم يشفى القروح ، والشحم يمنع الحامض من الالتهاب ، ويستخدم آخرون الـكلوروفورم ومرهم الـكرسليك .

وقد يترك الراعى طريقه للبحث عن عين ماء يعرف أنها قريبة منه ، وهو فى سيره يرقب الحيوانات والوحوش والراكبين ، ويقرأ معالم الطريق كأنمـا يقرأ كتاباً مفتوحاً ، فيعرف من آثار الأقدام إن كان الحصان محدوا أو بغير حدوة ، يمشى أو يجرى ، يساق أو يتجول على هواه ، مركوباً أو بغير راكب ، ويعرف من فروع الشجر والشجيرات والأعشاب الملتوية متى مر بها آخر حيوان وما يسميه « معالم » هــو آثار الأقدام وغيرها من الآثار التى يخلفها الناس أو الحيوانات ، ويسمى تفسير هذه العلامات فى متابعة السير « قراءة الآثار » و « تتبع الأثر » معناه فحص الأرض بحثا عن آثار الأقدام ، فإذا كان الأثر واضحاً ظاهراً سمى « الأثر الواضح » وإذا كان قديماً وغير واضح سمى « الأثر الأعمى » أو « البارد » ، والعودة من تتبع الأثر تسمى « الأثر الراجع » والسير فى أثر واضح لا يضيع يسمى « الانزلاق من الأخدود » والراعى يستخدم هذه العبارات فى حديثه العادى ، فإذا حاول أحدهم أن يخدع زميلا له قال عنه إنه « يعمى الطريق عليــه » ، فإذا كان يتتبع أحداً قيل إنه « يسير فى أثره » فإذا كان واجبه أن يركب الفلاة ليتتبع الحيوانات التى ضلت بعيداً ويعود بها »

أو ينقذ ماشية من عين ماء تردت فيها ، أو ما شابه ذلك مما فيه مصلحة مخدومه قيل إنه « يركب الأثر » .

و « العراف » هو الخبير بقراءة الأثر . وبعض العرافين على درجة من الخبرة حتى ليقال : « إنهم يستطيعون أن يتتبعوا دبيب نملة على حجر صلد فى ليلة ليلاء » أو يقال : « إن له أنفاً من الحدة بحيث يستطيع أن يتتبع آثار دب فى ماء جار » أو « يستطيع أن يتتبع النمل فى العاصفة الثلجية » .

ولأن راعى البقر يستخدم المبالغة دائماً فى أوصافه فهو حين يتحدث عن زميل لا يجيد تتبع الأثر يصفه بقوله : « إنه لا يكاد يرى عجلا فى الفلاة » أو : « إنه لا يرى الكرة فى قلب عابة الطاطم » أو : « إنه لا يستطيع أن يتتبع حملا من التبن المنثور فى حقل من الجليد مساحته أربعون فداناً » أو « إنه لايستطيع أن يرى فيلا فى ثلاث أقدام من الثلج » .

وفى الأيام الأولى : قبل إقامة سياج حول المزارع كان أصحاب المزارع يستخدمون صفوفاً من الراكبين ويقيمون معسكرات لهم على طول حدود فلاتهم يقيم بها واحد أو اثنان من رعاة البقر مهمتهم منع البقر من أن تضل فى الشتاء ، فالبقر إذا ضل جماعات كان يستحيل على عدد قليل من الناس الإمساك بها ، فكانت الطريقة الوحيدة لذلك أن تترك ثم يكلف جماعة من الرعاة بتتبعها .

وكانت المعسكرات صغيرة عادة يتألف كل منها من حجرة أو حجرتين ليس بهما إلا أثاث قليل لا يغرى رعاة الفلاة على البقاء بها ، ويمكن تركه بغير وقاية له أثناء الصيف حين يهجر المعسكر بغير خسارة أو ضياع ، وكان المعسكر يسمى « المغارة » أو « معسكر التتبع » أو « موقف جونر » وحين يكون المعسكر فى حالة من الفوضى — وهو ما كان يحدث دائماً — يسمى « عش الدب » وسر هذه التسمية أن المقيم فيه يهتم بعمله وواجبه كراعى بقر .

وفى المطبخ موقد تحترق فيه قطع الخشب ، وقد تكسر إحدى قوائم الموقد فيستعاض عنها بكتلة من الحجر . وأدوات المطبخ تتألف من وعاء أسود لصنع القهوة ، وبعض الأوانى القليلة الأخرى ، وجردل أو جردلين ، وسلة يضع فيها الراعى خبزه ، وصندوق خشبى يوضع على رف يحفظ فيه مواد طعامه ، كما تحفظ به الصحون والأكواب ، والشوك والملاعق ، وزجاجة فارغة من زجاجات البيرة يضع فيها خميرة البسكويت ، وعلى رف آخر يضع بعض الفول الجاف والملح والصودا أو مسحوق « البيكنج باودر » والشربات والقهوة والدقيق والدهن ، والعلب المعبأة ، وعلى الحائط أيضا تتدلى شريحة من اللحم مغطاة بطبقة كثيفة من الملح ، كما أن لديه مطحنة بن يطحن بها تموين يومين أو ثلاثة مقدماً ، وكان كثير من اللحم يفسد إذا كان رجل أو رجلان ذبحا كبشا معا ، وإذا لم يرسل صاحب المزرعة مقداراً من اللحم عند ذبح كبش إلى عماله ، عاش العمال على سمك « كانساس » وما شابهه .

وكانت بالمعسكر منضدة من نوع رخيص يغطيها مشمع أحمر وأبيض ، وتحيط بالمنضدة بضع كراسى عالية الظهر ، ذات مقاعد من الخيزران أو الجلد ، فإذا حل بالمعسكر ضيوف كثيرون ، استعان صاحب المعسكر بصناديق فارغة بدلا من المقاعد . وفراش صاحب المعسكر هو سرير عادى من الحديد تلاشى طلاؤه الأبيض ، وعليه حشية وملاءات بيضاء ، فإذا زاره ضيوف فى الليل نشر حشيته على الأرض لينام عليها وترك السرير لضيوفه .

والراعى يستيقظ فى الصباح على صلصلة منبه رخيص لا يزيد ثمنه على دولار فى ظلام لا يستمتع فيه بالضوء الذى يتوهج فى معسكرات النار ، ولا بالروائح المحبوبة التى تنبعث من تخمير اللحم وعمل القهوة . وقد كان يستيقظ فى الظلام الذى يجمد العظام فى الصباح الباكر ، فيرتدى قميصه وسرواله وحذاءه ، ويمضى إلى الموقد ، إذ أنه يوقد النار فى الخشب المدفون ببقية الرماد ، وينتظر

أن يسخن الماء فوق الموقد ليغسل وجهه ، ثم يعدّ قهوته ، ويحمر قليلا من اللحم لطعامه .

وقبل أن يتناول إفطاره يخرج لإطعام خيله فيعطيها بعض الشعير إذا كان البرسيم ما يزال أخضر ، ثم بعد أن يتناول طعامه وحيداً يسرج جواده الذى اختاره لعمل يومه ، ويكون الجواد قد طعم عند ذلك الوقت .

وكان الرعاة الذين يختارون للعمل فى هذه المعسكرات من العزّاب فى الغالب لا تربطهم بالبيت والعائلة روابط مهمة ، ولا يأبهون كثيراً بحياة الرهبنة ، فإذا أقام بالمعسكر أكثر من رجل واحد كانت القاعدة أن أول من يصل إلى المعسكر عليه أن يشعل النار وأن يعد الطعام ، فإذا صادف أن أحدهم كان يجيد الطهى وتدبير البيت ، اتفق رجال المعسكر دائما على أن يسبقهم إليه ، حتى ولو كان مكلفا بالطواف فوق البطاح .

وكانت عملية الطهو فى الغالب تنحصر فى تحمير بعض اللحم ، وطبخ بعض حبات الفول ، وعمل فطيرة من الدقيق والفاكهة المجففة . والرعاة يحبون أن يكون القائم بالطهو نظيفاً ، وهم يساعدونه فى غسل الصحون وكنس المعسكر ، وكان بعض الرعاة لا يهمهم الطهو ، ويفضلون أن يقوموا به بأنفسهم بدلا من أن يعهدوا به إلى من لا يثقون فى قدرته ، لكنهم جميعاً يعتقدون أن الطهى عملية متعبة ، وأنهم يحبون أن يقوموا بأى عمل غيره .

وكل راع كان يطوف بجزء من الحدود يرعى فيه مصالح مخدومه ، وكان يقوم بعمله الذى يستغرق ساعات طويلة وحيداً ، وإذا اشترك اثنان فى معسكر واحد وكانا برغم ركوبهما طوال اليوم فى اتجاهين متضادين لا يعتبران وحيدين ، فقد كانا يجتمعان بالليل ، وكان أكبر خيال يداعب الراعى هو اليوم الذى يعود فيه من المزرعة فيسمع الطاهى الحقيقى ينادى الرعاة بأن « يسرعوا إليه ليتناولوا وجباتهم » .

وراكبو الحدود الأمامية يسمون أحيانا راكبى الخارج وإن كان راكبو الخارج يكلفون بالركوب إلى أى مكان ، أما راكبوا الحدود الأمامية فعليهم أن يطوّفوا فى مكان محدد لكى يسهل رد الأبقار الضالة إلى حظيرة المزرعة ورد الأبقار الأخرى التى لا يمتلكها مخدومة عنها ، وكلما انتهت الماشية من رعى مكان ساقها الراعى إلى آخر به مرعى أفضل وأكثر ، وكان يهتم بحالة الماء والعشب فى المكان ويراقبهما مراقبة تامة كما كان يراقب حالة القطيع الصحية . والراعى يجب أن يلم ببعض مبادىء الطب البيطرى خصوصاً ما يتصل بالقروح والتقيحات لكى يزيل ما يعلق بأنف البقر .

ومن بين واجبات راعى البقر فى الحدود الأمامية إبعاد الماشية عن مناطق العشب الضار ، وعيون الماء الآسن ، فإذا كانت ذئاب المنطقة خطيرة قضى بعض وقته فى وضع الفخاخ لها ، أو إلقاء الطعم السام فى طريقها . وبعض المزارع تستخدم خبيراً فى صيد الذئاب ، فإذا رأى أنثى ذئب تتسلق إحدى المرتفعات تعقبها حتى جحرها وقتلها وقتل صغارها ، وإذا صادف بقرة سقطت فى عين ماء ربطها بحبله وشدها إلى الأرض الجافة ، وقد يجد عجلا طالت مدة رضاعه من أمه وأضعفها فيفصل بينهما ، ويجعل كلا منهما بمعزل عن الآخر ، ثم يربط العجل ويضع لوحة على أنفه لفطامه كى تستعيد الأم قوتها وتستمتع بالشتاء .

وإذا ساءت حال الجو اشتد ركوبه وحذره خوفا من أن تؤدى عاصفة مفاجئة إلى ضلال مواشيه عن طريق عودتها فيكون عليه أن يردها إلى حظائرها ليقيها من الرياح الثلجية ، وعليه أيضا أن يسد الشقوق الوعرة فى طريقها وأن يساعد الضعيفة منها بمختلف السبل ، وفى حالات الطوارىء قد يضطر للعمل طوال الليل بيدين وقدمين كاد البرد يجمدهما ، وأذنين استبد بهما الصقيع ثم يعود

بعــد ذلك إلى معسكره الخالى من كل راحة أو متعة .

وبعد أن يعزى نفسه بطهو وجبة ساخنة ، يقضى أكثر فترة نومه يقظاً يدبر ما ينتظره من عمل مضن آخر فى غـده مهما كان مستريح البال لما قام به من جهد فى يومه ، ولعل من الخير أن تفكيره مع كل هذه المسئوليات لا يتشعب ، فى حين أنه لا يتقاضى على مثل هـذا العمـل الشاق إلا ثلاثين دولاراً فى الشهر .

ركوب السياج :

لقد أدى التحول من الفلاة المكشوفة وإقامة السياج إلى إيجاد « راكب السياج » ، وكان عملا يقوم به رجل يحتمل الوحدة وطهو طعامه بنفسه ، وكان مقره دائماً عند الحدود الأمامية : يركب على طول السياج مسافة تبلغ عشرة أميال أو خمسة عشر ، يراقب الحالة دائماً حتى لا تحدث بالسياج فتحات تتطلب السد حتى لا تخرج الماشية منه أو تدخل ، والعادة أن راكب السياج يستمر ركوبه حتى الظهر أو بعده بقليل ، ويعود قبل حلول الظلام فى وقت مناسب لإطعام الماشية ، فإذا تقابل مع راع من المعسكر التـالى وقفا جواديهما ولف كل منهما سيجارة وأتاحا للجوادين بعض الراحة ليتبادلا الحديث .

وراكب السياج يصحو فى الصباح البكر ليقرأ تراتيله ويستعد للقيام بدوريته فى وضح النهار ، وبعد أن يشعل النار لإعداد إفطاره ينطلق لإطعام خيوله ، ثم يعدّ طعام غذائه ويأخذه معه ، وقد يرفقه بعلبة من عصير الطماطم كشراب له أو غذاء ، ويتناول إفطاراً ثقيلا ، ثم يترك الآنية على أن يغسلها بعد عودته .

وكانت القطع التى يحتفظ بها معه هى : الزردية ، والشاكوش وحذاء قديم يضع فيه بعض قطع من الأسلاك . وراعى البقر الذى يعمل فى الفلاة يأنف جداً من القيام بأى عمل غير الحبل ، ودق المسمار أو السلك كان يرى فيه

غضاً لكرامته وعملا مزرياً به . وراكب السياج يتناول عمله وهوالطواف بسياج يتألف من أربعة أو خمسة حبال مدقوقة فى أعمدة من خشب الزان كل منها على بعد ثلاثين قدما من الآخر وبعض بناة السياج يضعون عموداً فى أول كل سلك وآخره زيادة فى قوّته ، ويسمى السياج حينئذ « المزدوج » ، وكانت الأعمدة لدى الأركان أكبر فى الغالب ، وتربط برباط من السلك فتلف عدة لفات من الأسلاك الشائكة على العمود ثم يدق طرفها فى قمته ، أما الطرف الآخر فيلف على صخرة تدفن فى الأرض بعمق كبير ، وبهــذا تزداد قوة السياج ويخف الضغط على أعمدة الأركان .

وبعد إقامة الأعمدة تمد الأسلاك بآلة خاصة تشدّ الأسلاك شداً جيداً من عمود إلى عمود ، وقد تربط لفة السلك بعربة تمد السلك كلما تقدمت فى سيرها ، وكانت البوابات القريبة من المعسكر تصنع من الخشب وتتحرك بواسطة مفصلات ، أما البوابات الأخرى فكانت تصنع من الأسلاك الشائكة وتسمى « بوابات تكساس » وتشبك فى عمود يستخدم كالمزلاج .

وكانت هناك أسباب كثيرة تستدعى ركوب السياج ، فقد تبرق السماء برقاً يدمر أسلاك السياج ، وقد تؤدى مصارعة الثيران بعضها مع بعض على جانبى السياج إلى قطع أسلاكه المشدودة ، أو إلى سقوط الأعمدة وانقطاع الأسلاك ، وقد تؤدى الأمطار الغزيرة إلى مثل هذا ، فتنهار الأسلاك فى مسافة تبلغ ميلا أو أكثر ، وقد تتسع فجوة بين الأسلاك فى السياج فتيسر للماشية الدخول والخروج منها ، وقد تترك البوابات مفتوحة ، وقد يرفع أحد الرعاة وهو يمر بالمرعى العمود ليخفض السلك ثم ينسى إعادته إلى مكانه ، وقد يشتد التوتر على الأسلاك فتنقطع وتسقط على الأرض . وراكب السياج وهو يتابعه عن

كثب ، يبحث دائما عن كل تلف نشــأ من الطبيعة المدمرة أو من إهمال الإنسان ، وقد يحدث أحياناً أن يترك راكب السياج ركوبه ويعتمد على ركوب الجبل ليراقب أحوال الماشية من علوه .

ولم يكن فى الفلاة ما لا تراه عين راكب السياج إلا النادر ، فلو كانت هناك آثار أقـدام ذئب لرآها وتتبعها حول البوابات ليرى أثر أى حيوان دخل فيها منذ آخر طواف له بها .

(٢٦)

ركوب الفــلاة

فى المستنقعات ، وفى طواحين الهواء ، وفى الأدغال

وقت الذباب الطائر هو وقت ركوب المستنقعات ، وهو أرهب المواسم فى مناطق رعى البقر ، فالذباب تبدأ أخطر حالاته من منتصف فبراير حتى منتصف أبريل فى معظم الولايات الجنوبية ، وفيما بعد ذلك كلما سرت شمالا . وللتخلص من أذى الذباب تهرب الأبقار إلى المستنقعات لتحمى أنفسها فيها ، لكنها سرعان ما تغوص فيها فـلا تستطيع تخليص نفسهـا ، والرعاة الذين يكلفون بالرعى فى مناطق المستنقعات يسمون « رعاة المستنقعات » . وفى الأماكن التى لا تكون المستنقعات فيها خطيرة يقيم صاحب المزرعة سياجاً أو معسكراً للرعاة فى موسم الذباب الطائر ، وكثير من الأنهـار فى الغرب خادعة ، لأن بها رمالا ناعمة متحركة ، فإذا دخلت فيها الأبقار للشرب غاصت أقدامها فيها ، ومن ثم كان على الراعى أن يراقب المستنقعات المعروفة ، وأن يفتش بحذر على الأنهار ذات الرمال المتحركة .

وفى الأيام التى كانت الفلاة فيها مفتوحة كان صاحب المزرعة حين يبحث عن مكان لرعى ماشيته يبحث أولا عن مصدر المـاء الجارى ، ويقيم معسكره بقربه ، فيكسب بذلك حق المـاء ، وما دام متمتعاً بحق المـاء فإنه يستطيع السيطرة على الفلاة التى حوله كلها حتى ولو لم يكن يملك قدماً واحدة من الأرض ، ومعظم أصحاب المزارع كانوا يعملون على امتلاك جانبى النهر أو الغدير ، لأن العشب بدون المـاء لا قيمة له .

والوقت الذى كان يشغل فيـه بال راعى البقر على قطيعه فعلا هو وقت عبوره منطقة خلواً من المـاء ، أو حين تصاب الفلاة بموسم شـديد الجفاف ، فهو فى هذه الحالة لا يستطيع عمل أى شىء ، لأنه يرى أبقاره تتلوى من العطش ، ويحمـد الله على أنه ليس هو مالـكها ، ثم إنه لا يعبأ كثيراً بظمئه هو ، فإذا وجد ماء كثيراً ، نام على بطنه ومدّ فمـه فى ماء النهر ، أو خاض إلى بطن بركة وكسح المـاء الراكد فيها إلى سطحها ثم اغترف من المـاء الجارى تحته بقبعته وشرب ما يروى ظمأه ، وهو إذ ذاك لا ينظر إلى الجانب الآخر من البركة حتى لا تقع عيناه على جيفة لماشية نافقة فى المـاء .

فإذا كانت سنة جفاف غير عادى اختار قاع رمال متحركة كانت مجرى لغدير سابق وظل يحفر فيها حتى تظهر له الرطوبة ، فيمتص الماء من الرمال ، ويستخدم لذلك أوراق ترشيح يحصل بها على الماء من الرمال دون أن تصل الرمال إلى فمه ، وبعض الغدران فى الغرب ممتلئة بالمواد القلوية التى تسبب الإسهال لمن يمر بها مجرد المرور .

والحياة فى معسكر المستنقعات منعزلة مملة ، بعيـدة عن نشاط المزرعة ، فلا متعة فى أن تظل تسحب الأبقار من الطين ، وفيها الـكثير من المشى الذى لا يرضى عنه راعى البقر .

وراكب المستنقعات يركب حصاناً ضخماً ، ويحمل حبـلا قوياً ، ومجرافاً قصير اليد عادة ، ومن مميزات حصان المستنقعات أنه قوى ، معلوف جيداً فى الشتاء ، ويختار لقوة ردفيه ، وراكبو المستنقعات يركبون مثنى مثنى ، لأن العمل أعنف من أن يقوم به فرد واحد ، ولوضع الحبـل حول قرنى الحيوان يلف طرفه حول رأس السرج ، وبعد أن يحكم الراعى رباط السرج بقدر ما تحتمل أربطته يركب الحصان ويسوقه على مهل ، وكانت السحبة أحياناً تكون قوية

لدرجة تنزع قرون البقرة من محاجرها ، والبقرة التى لا قرون لها تربط من حول عنقها ، فإذا اشتد الجذب عليها كثيراً ، استراحت من عنائها ، ونقصت بموتها أبقار الحظيرة واحدة .

وبعد ربط البقرة التى تغوص فى المستنقع ، يقوم شريك الراعى بالخوض فيه ويبدأ فى إزالة الطين عن أقدام البقرة بجرافه لتخليصها ، ولكن تحرّك التربة تحت أقدام الحيوان يجعلها تغوص وتغوص كلما اشتدت محاولة تخليصه ، وبغير مساعدة الراعى لا يستطيع الحيوان التخلص . واستخدام أقوى الخيول فى ذلك غير كاف لسحب البقرة سحبة قوية تخلصها إذا كانت قدمان أو أكثر من أقدامها غائصة ، وقد تنكسر رقبتها أو قوائمها إلا إذا خاصت أقدامها .

وإذا لم يواصل راكبو المستنقعات العمل فى تلك المناطق أصابت المزرعة خسارة كبيرة ، فالبقرة إذا استمرت فى المستنقع عدة ساعات لم تعد تصلح لشىء ، وإذا كان الجو بارداً فقد تصاب بشلل فى وقت قصير ، وقد لا تمشى على أرجلها بعد ذلك أبداً ، وقد تموت قبل أن يقف الراعى لها على أثر ، وقد لا تعيش طويلا بعد إنقاذها . وكل ما يستطيع صاحب المزرعة أن ينقذه منها هو جلدها ، والأبقار غالباً ما تغوص فى المستنقعات فى أوائل الربيع حين تكون ضعيفة من أثر الشتاء ، وحينئذ يكون الرعاة مشغولين طوال النهـار وساعات متأخرة من الليل ، لا لأنهم يحبون كثرة العمل ، ولـكن بحكم ولائهم لمزرعتهم ، وبحكم عطفهم على الحيوان الذى يعرفون أنه لن يطول به العمر ليلة أخرى من ليالى البرد القارس .

وتبدأ البقرة الغائصة تتخلص من النقع بوصة بعد بوصة ، ويكون الرجل الذى يعمل بمجرفته غائصا فى الطين حتى ركبتيه ، وعليه فى ذلك أن يعمـل بسرعة مذهلة ليبعد الطين عن قوائم البقرة ، وفى الوقت نفسـه عليه أن يحرك ساقيه

حتى لا تغوصا فى النقع أيضا ، فإذا انسحب الحيوان نحو الأرض الجافة واصل الراعى عمله إلى أن يخلصه نهائياً .

فإذا نجح الراعيان فى سحب البقرة إلى الأرض الجافة ، تركاها حتى تفيق وتستعيد بعض قوتها ، فإذا كانت ما تزال حية رفعت من ذيلها ، وتكون إذ ذاك ضعيفة لا تكاد تسير متعثرة إلا بضع خطوات تقع بعدها على الأرض ، ولا بد عندئذ من أن ترفع من ذيلها عدة مرات قبل أن تستقر حوافرها على الأرض ، والراعى الذى يستخدم المجراف كان يرى فى هذا العمل شيئاً مضنياً ، فإنه لا يستطيع أن يعرف من أكثر غوصاً ، هو أم البقرة ، ثم إن راعى البقرة يكره أن يعمل على قدميه على أى حال : أما أن يحفر فى الطين ، فهذا ما لا بد أن يرفضه إذا لم يكن من صميم واجبه .

وحين يجد راكب النقع أن البقرة قد غاصت فى رمال متحركة فى أحد الغدران ، سلك سلوكا يختلف عما يتبعه فى النقع ، فيرى أحياناً أن يخلع سراويله وحذاءه حتى لا تمتلىء بالرمل ، وحتى لا تثقل منها جيوبه ، فالرمل إن تسرب إلى حذائه جعلها تضيق ، ويكون عليه – إذ ذاك – أن يضع فيها ماء حتى يطرد الرمل .

وتختلف طرق تخليص الماشية من الرمال المتحركة باختلاف الماشية وراكب النقع معاً ، فقد تنكسر رقبة الحصان بسهولة عند شده ثقلا كبيرا ، أما ذيله فقادر عليه ، والبقرة تتحمل الشد من رأسها أما ذيلها فسريع القصف ، ولأن الحصان يقف من أمام والبقرة من ورائه ، كانت السيقان الخلفية للبقرة تخلص أولا فتتخبط الساقان الأماميتان وقد تنكسران ، وقد يحاول الحصان أن يتخلص بنفسه أما البقرة فتستسلم فى يأس قاتل ، ولا تحاول التخلص إلا بعد أن تنقذ .

وبعد أن ينزع الراعى عن نفسه ثيابه يقترب من الفريسة فيزيل الرمل من حول ساقيها الأماميتين ، ويظل يزيل الرمل حتى يخلص ساقاً بعد ساق ، فإذا عمل بسرعة خلص الساقين الخلفيتين قبل أن تعود الأماميتان إلى الغوص مرة أخرى ، وبعد تخليص الأماميتين وإزالة الرمل من حول الخلفيتين يمكن إنفاذ حبل من تحت بطنها وربطه برأس السرج ثم سحب البقرة بعد ذلك ، ويجب أن يكون السحب فى اتجاه جسم البقرة حتى لا تنكسر رقبتها أو ساقها .

وقد جرت الأمثال بالقول : « أكثر عقوقاً من بقرة أنقذت من نقع » ، فالبقرة رغم ما تكون فيه من ضعف وبرد وتعب من طول حبسها فى طين النقع ، تستدير لمنقذها وتحاول أن تنفذ فيه أو فى حصانه قرونها ، ومن حسن الحظ أنها تكون متأثرة من شدة البرد متجمدة الأطراف فتتعثر بعد خطوات تقع بعدها على الأرض ، فإذا ظهر أنها قادرة على أن تؤذيه ، ربطها مرة أخرى إلى الأرض وتركها إلى أن يفر بنفسه من أذاها حتى تهدأ نزعة الحماقة فيها .

ركوب طاحونة الهواء :

لم يغير من حياة الفلاة شىء كما غيرها استخدام سياج السلك ، فالأبقار بعد حجزها عن عيون الماء بسياج السلك تكون بحاجة إلى أن يجلب الماء إليها ، وهنا ظهر جماعة السقائين الذين يحملون الماء فى قربهم ، ومن بعدهم جاء من يحفرون الآبار ، فالبقرة قد تستغنى عن العشب يوماً أو يومين ، لكنها إذا لم تجد الماء نفقت ولم يعد للراعى عمل معها ، وباستخدام السياج أصبح صاحب المزرعة يبيع اللحم بالرطل لا بالرأس ، فكان عليه أن يوفر الماء لها حتى لا يذهب شحمها ولحمها ، ومن هنا بدأ استخدام طواحين الهواء ، وكانت الطواحين الأولى من الخشب بدائية الصنع ، وكان الراعى لا يجد فيها ولا فى السياج فائدة

تذكر ، إذ لم يكن يحب شيئاً يغير من أسلوب حياته الطليقة فى الفلاة ، وكان لا يؤمن بأن طواحين الهواء تغنيه عن الماء الجارى .

وكانت أول طواحين الهواء التى استخدمت هى طواحين الولايات المتحدة المعروفة باسم « طواحين الحكومة » وكانت الواحدة تتكون من عجلة خشبية كبيرة ، ومن جناح مزدوج ، ومن محرك مباشر ، ولأنها كانت جميعاً من الخشب غير المصقول وليس بها أوعية أو خزانات للزيت كان لابد من تزييتها باليد مرات كثيرة ، ومن هنا نشأت حرفة خاصة لرعاة البقر ، وكانت المزرعة التى بها عدة طواحين هواء تستخدم اثنين من الرعاة فى عملية التزييت ، وكان يسمى العامل بها « راكب طاحونة الهواء » أو « قرد طاحونة الهواء » لأنه كان يتسلق الطاحونة لتزييتها ، وكان كل ما يحمله من أدوات عبارة عن زجاجة ممتلئة بالزيت ، لكنها سرعان ما تفرغ ، فاعتاد أن يترك واحدة عند كل طاحونة ليستخدمها حين يركبها .

وحين ركبت أول طاحونة هواء فى تكساس خرج صاحب المزرعة ورجاله لمعاينتها قبل تسلمها من المقاول ، فلما رأى أول قطرات من الماء تنبعث منها سر سروراً كبيراً وأعلن أن طاحونة الهواء ستطور صناعة رعى البقر تطوراً ثورياً ، لكن أحد الرعاة المتشككين فى صحة ذلك قال : « ما هذا الذى تقوله يا سيدى ، إننى أستطيع أن أختفى وراء هذه الشجيرة وأنثر ماء أكثر من هذا ! » .

ولم يكن الأمر بحاجة إلى جهد كثير لمعرفة أن الطاحونة بحاجة إلى التزييت ، فراكب الطاحونة كان يستطيع سماع صريرها عن بعد ، فيعرف ما تريد ، فيصعد على السلم بزجاجته ، ويسقى عددها حتى تشبع ، وكانت المزارع الصغيرة تستخدم

راعياً واحداً لهذا الغرض ، فإذا حدث عطل ما أخطر به إدارة المزرعة لتستعين بميكانيكى ، أما المزارع الكبيرة ذات الطواحين العديدة فكانت تستخدم عدداً من العمال لإصلاح ما يفسد ، وتزودهم بعدد وآلات .

وإذا رأى راكب الطاحونة أن طارتها تدور بسرعة دون أن تخرج ماء كافياً عرف أن « جابتها » قد انقطعت ، وكان البقر من حوله دائماً ينبهه إلى ضرورة الاتصال بالمزرعة فى طلب المعونة ، فالراعى لا يحب أن يرى البقر من حوله يتألم من العطش ، وينطح بعضه بعضا ، ورغم ذلك كانت عملية الإصلاح تستغرق ساعات طويلة ، وكان يحمد الله حين يرى الماء يعود إلى الانبثاق ، لكن كان عليه بعد ذلك أن يعالج القطيع حتى تحصل كل بقرة على فرصتها ونصيبها من الماء .

وقد ساعدت الأسلاك الشائكة وطواحين الماء راعى البقر على تربية أبقاره ، والعمل على زيادة لحمها وشحمها حين بدأ يبيعها بالرطل ، وكانت البقرة تمشى مسافة طويلة فى طلب الماء دون أن تتعب ، لكن النتاج الصغير لم يكن يستطيع ذلك دون أن ينقص لحمه ، ثم إن المشى الطويل كان يعرى الماشية من لحمها ، ولذلك بدأ صاحب المزرعة يتوسع فى بناء الآبار بالمراعى الكبيرة . وراكب الطاحونة يعمل باتصال فى إصلاح الطواحين ، وكان من الممكن معرفة عمق البئر من حجم الطارة ، وامتداد المرعى من ارتفاع الرافعة ، وارتفاع الطاحونة كان يجعل تسلقها أمراً صعباً على الراعى ، ولمقدرة الراعى على تسمية كل شىء ، فقد سمى كل طاحونة باسم يساعد على الاتجاه إليها مباشرة .

وحين يصعد الراكب إلى قمة الطاحونة يبعد الطارة عن اتجاه الريح ويربطها بحبل أو سلك حتى ينتهى تزييتها ، والصعود إلى قمة الطاحونة من العمليات الشاقة ، وإن كان القليل من الرعاة من يقع ويصاب بأذى ، إذ أن ذلك لا يحدث

إلا إذا كان الراعى فى غير وعيه ، وهو قلما يكون كذلك حين يعمل ، فقد كان يخلع معظم ملابسه حتى لا تعوق تسلقه ، وكان سقوط الراعى فى الغالب يحدث بسبب تآكل أخشاب الطاحونة ، وكان إذا سقط الراكب وأصيب بحالة خطيرة لا ينتبه إليه أحد إلا بعد ساعات طويلة .

أما فى السنوات الأخيرة — بعد أن اخترعت آلات الجازولين — فقد أصبحت عملية ركوب الطواحين من اختصاص ميكانيكى يعرف كل شىء عن الكربوراتير والشعلات والمضخات ، وقد تكون الطاحونة مجهزة بجهاز الجازولين ، لكنه لم يكن يستعمل فى العادة إلا فى الأيام التى يهدأ فيها الريح ، على أن راكب الطاحونة الذى كان يجهل تشغيلها كان يعهد إليه بعمليات أخرى ، وتترك عملياته ليقوم بها شاب صغير ملم بأعمال الجراجات ، إذ لم تعد العملية قاصرة على تشحيم المحاور ، بل كانت تتطلب معرفة بإدارة آلات الجازولين ، وقد سر معظم الرعاة الذين كانوا يقومون بهذا العمل للتخلى عنه حين استخدمت هذه الآلات ، وكما تحسنت حال الماشية تحسنت كذلك الطواحين كما أن الطاحونة فيما بعد أدخلت لمسة من الرفاهية فى المزرعة بأن أدخلت الماء الجارى فى كل بيت ، ومكنت من إنشاء الحدائق الغناء .

وكم من راكب طاحونة أخذ طريقه ليزور طاحونة أخرى قريبة يروى عندها ظمأه بمائها النقى ، أما الراعى القديم فكان يروى عطشه من أول ماء يصادفه مهما كانت درجة نقائه ، فقد يكون صافياً أو محملا بالطين ، بارداً أو سخناً ، فيه مواد قلوية أو غيرها ، وكثيراً ما تسبب الماء الراكد عند الراعى القديم فى ظهور القروح والبثور وإصابته بالحمى ، لكنهم كانوا من الصلابة والقوة بحيث يبرءون منها بسرعة .

وإننى فيما يلى أروى قصة سمعتها عن راع قديم اسمه « باد بوربير » من تكساس ، وكانت المزرعة قد أرسلت عدداً من الرعاة إلى الجنوب ليسرقوا قطيعاً من الماشية فى منطقة صحراوية ، وعانى الرعاة والقطيع من الظمأ كثيراً فلما وصلوا إلى جنوب المزرعة — وكان هناك خزان ماء — كان العطش قد استبد بالرعاة وبالماشية ، فما كادوا يشمون رائحة الماء حتى انطلقوا إلى الخزان .

ورقد « باد » على بطنه وسط الماشية ، ووضع فمه فى الماء ، أما باقى الرعاة فقد قصدوا إلى الجانب الآخر من الخزان ، لأن الماء به كان قليل الطين .

وقد صاح فيه أحد الرعاة يقول : « باد » لماذا لا تأتى هنا لتشرب فالماء هنا نقى » ؟ .

فأجابه « باد » بقوله : « وأى فرق فى ذلك ما دمت سأشرب الماء كله ؟ » .

ركوب الأدغال :

يختلف راكب الأدغال عن عيره من رعاة البقر ، يختلف عنه فى العمل وفى اللباس وفى الشكل ، فهو خبير فى رعاية البقر فى الأدغال ، وهو عمل لا يستطيع القيام به راعى السهول ، فإن عليه أن يجيد الركوب ، إذ يجب أن يركب فى كل وضع لينفذ فى الدغل ، فهو أثناء ركوبه قد يلتزم وضعاً يختلف عن وضعه الأصلى ، ولكى ينفذ بنجاح من الدغل عليه أن يكون مفتوح العينين رغم أن الأشواك والفروع تمزق وجهه باستمرار ، يجب أن يفتح عينيه

لينفذ ، وعليه أن ينفذ حتى يظل مفتوح العينين ، وعليه أن يستخدم ذراعيه ، ويديه وكتفيه ، وساقيه ، وقدميه ، كدروع يحمى بها نفسه .

والدغل الذى يعمل فيه يستمد اسمـــــه من كلمة أسبانية معناها الذراع أو الفرع ، وقد أطلق هذا الاسم على بعض أجزاء تكساس فى المنطقة المغطاة بالأحراش والأدغال .

وراكب الدغل يسمى بهذا الاسم أو يسمى « سالخ الأطراف » ، مع أن أطرافه هى التى كانت تتسلخ ، وكان من المعروف عنه أنه يهمز جواده وينطلق فى الجرى ، حين يكون فى الدغل ، وكان يحترم دائماً الدغل ، لكنه كان يعرف أنه لن يستطيع الإمساك ببقرة والبحث عن مدخل سهل ، فكان يجرى بمفرده فى الدغل يشق أولا طريقاً لنفسه فيه .

وكان يحين يخرج من الدغل ، يصاب بعقد فى رأسه فلا يستطيع أن يلبس قبعته ، وكان وجهه يصاب بخدوش وتسلخات كثيرة : تنغرز فى جلده الأشواك وتعلق بسرجه قطع من الأخشاب تكفى لشى لحم كثير ، وقد يمتلىء جلد جواده بالشوك فيرفع حافره وهو يخطو وقد خفض رأسه وثقلت ردفاه ، وعليه بعد ذلك أن يعود إلى الدغل . وفى كل مرة ينقذ بقرة واحـدة يعود بهـا إلى المزرعة وقد يربط الأبقار كلها إلى شجرة أو فى رقبة بقرة أخرى ثم يسوقها إلى مكان ينتظره فيه عدة رعاة يعملون معه أو تساق الأبقار إلى حظيرة أخرى .

وبمقارنة حال راعى الأدغال بما ينشر عن رعاة البقر من قصص نجد أن راعى الأدغال شخص رث الهيئة ، فهو لا يضع على رأسه قبعة كبيرة ولا تزين ثيابه أشرطة لامعة ، وهو لا يرى الشمس كثيراً ، والقبعة الكبيرة التى يلبسها تكون نهباً لأشواك الدغل ، وغالباً ما يضع قبعته وضعاً مائلا أو ملفوفاً إلى الإمام ، وبعضهم يربطها إلى رقبته بشريط .

وهو يلبس سترة تكاد تلتصق بجسمه ، وفضـلا عن ذلك فهو لا يعرف متى يعود إلى الأدغال من جـديد ، ولو تيسر له أن يلبس قفازات لفعل ، وإلا دفع الثمن من جلده ولحمه .

وسرج راعى الأدغال سرج متين ، وإن كان ناعماً أملس ، وبغير زينة أو رسوم بارزة حتى لا تسمح للأشواك بالنفاذ فيها ، وهو دائماً مزود بغطاء من لحاء الشجر يحمى ساق الراكب حين يمدهما إلى هذا الجانب أو ذاك ليصد الفروع الشائكة ، والذى يعمل كثيراً فى الدغل يبدو كأنما يلبس ثياباً مهلهلة ، إذ تتمزق ثيابه وتنتشر الخدوش والندوب فى جسده ، لكنه لا يأبه كثيراً بذلك ، فزملاؤه لا يختلفون عنه فى ذلك ، ومن ثم لا يكون هناك من ينتقده .

أما فى استخدام الحبال فليس لراعى الدغل قرين ، فحبله أقصر كثيرا من حبل راعى السهول ، وقد لا يزيد طوله على خمس وعشرين قدماً .

وهو حين يعمل فى الدغل لا يوجد لديه الوقت ولا المكان الذى يطوح فيه بأنشوطته ، لذلك يستخدم أنشوطة صغيرة ، والعادة أن يطوح أنشوطته بقدمه ، وحتى يتجنب أن يعترض طريقها شىء ، يجب أن يقوم بإلقائها بمهارة وخبرة فى الوقت المناسب تماماً ، والغالب أن الدغل يكون كثيفاً لدرجة أنه لا يستطيع استعادة الحبل ، فهو يمسك بذيل الحيوان إلى أن يستطيع النزول من فوق سرجه ، ويضع الأنشوطة حول قرون البقرة ، ولذلك فإن راعى السهول بحبله الطويل وأنشوطته الواسعة كبير القيمة لعمله فى أرض الأدغال ، حتى قيل إن راعى الدغل لابد له من شيئين حتى يجيد عمله : أن يكون هو مجنونا ، وأن يكون جواده كجياد السباق .

وحصان راعى الدغل خفيف الوزن ، قد تعلـم كيف يلف ويدور

فى الدغل كحصان جيد ، وهو لا يحتاج كثيراً إلى استخدام السرع معه ، لأنه بمجرد أن يرى البقرة لا يقف فى طريقه شىء ، وهو كراكبه سريع الهجوم . وراعى الدغل يحتفظ بعــدد من الخيول أكثر من غيره ، لأن عمله من المشقة بحيث يتعذر الاعتماد فيه على حصان واحد طويلا ، بل يجب أن يعطى الحصان راحة بين طواف وطواف حتى تستخرج الأشواك من جسمه وتلتئم جروحه ، أما الراعى فلا يهتم كثيراً بما قد أصابه من خدوش ، وإنما يكون على استعداد للعودة إلى الدغل عند أول فرصة تتهيأ له .

والطواف فى الدغل هجوم أكثر منه طواف ، ينتشر فيه الرعاة فى الدغل ويسوقون الأبقار أمامهم فى صمت وسكون حتى لا تثير اضطراباً لا داعى له ، ويسير القطيع إلى فتحة طبيعية فى الدغل أو نحو مصيدة أو حظيرة ، وهذا لابد منه فى الدغل ، لأنه لا يمكن جمع كل الأبقار التى به دفعة واحدة ، فتساق الأبقار المتجمعة إلى المصيدة ، ويعود الرعاة إلى العمل حتى يجمعوا كل أبقار هذا المكان .

ومعظم العمــل فى الدغل يجرى فى الصباح الباكر ، فيبدأ عند الفجر وينتهى عند الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ، ويسخن الجو فى الدغل عند منتصف النهار ، والخيول يصعب عليها العمل عند ذلك ، وقد يحدث الطواف فى الدغل فى الليالى القمرية ويسمى بهذا الاسم .

فإذا سقط المطر وأصبح الدغل موحلا استحال على الخيل أن تعمل ، وتستخدم بعض المزارع عندئذ كلاباً مدربة تساعد على العمل ، وهذه الكلاب تقلل قسط العمل على الرعاة والخيل على السواء .

(٢٧)

فى العواصف الثلجية والجفاف

راعى البقر يعمل فى كل جو ، بل إنه كلما ساء الجو كلما كثر ركوبه فى الواقع ، فحين تختفى الشمس وراء سحب داكنة أو حين يتغطى الأفق بغلالة كثيفة من المطر وينتشر فى السماء غمام أسود يرسل برقاً مدوياً ، يعرف الراعى أن أمامه ليلة ليلاء ممطرة .

وقد تستمر هــذه الأمطار أياماً ، لكن عملية الطواف لا تتوقف ، فينتقل الرعاة فى جو عاصف شاحب يثير الخيل ، كل شىء مبتل لزج ، فالأحذية يعلوها الطين حتى تبدو المهاميز المركزة عليها كأنها قطع من وحل ، والعمل يكون خطيراً لأن السرع مبلل والسرج مبلل ، والخيل نفسها تعانى من البرد والمطر ، ويصبح الركاب ينزلق من القدم بسرعة ، والحذاء المغطى بالطين من الأمور التى تؤكد أن همز الجواد بالمهماز هو الخطر .

فالركاب اللزج يجعل الراعى فى حيرة ودهشة مما إذا كان جواده سيسقط به ويقضى عليه أم لا ، ويتمنى لو أن جواده كانت له مئات السيقان كالحشرات ، فقد كانت الحبال مبللة عنيفة ، وفراشه مبتل وكل ما حوله مبتل ، وكان هــذا كله جانباً من الجوانب القاسية فى حياته ، ورغم ذلك يحرص الراعى على أن يحتفظ بهدوئه وجنانه لأنه يعرف أن ذلك جزء من عمله ، إنه قد يسب ويلعن حين يبدأ فى وضع سرجه على جواده الذى غاص فى الطين ، إذ يكون عليه عند ذلك أن يزيل الطين قبل أن يضع السرج المبلل عليه .

لكن أكثر ما يضيق به الراعى أن ينتظر الطعام وهو جائع ، حين يكون

الطاهى يلعن الخشب المبلل والملح الرطب والدقيق المبلل وهو يعد الطعام فلو أن الذباب انتشر على مائدته أو ناره لما حفل بالأمر ، لكن ما كان يحفل به هو أن يخبز طعاما من دقيق مبلل غير جاف .

وفى الليل ينام فى فراش مبلل مفروش فوق أرض مبللة ، وهو يعلم أن ذلك سيجعله يعانى من الروماتزم فيما بعد .

وقد يستقيظ بعضهم ذات صباح فى عنبر النوم فيسمعوا صرير الريح حول الأركان تبحث عن الشقوق والمنافذ ، وتحمل معها خيوطا من الثلج سرعان ما تتجمع فى كتلة كبيرة ، وفى كل ساعة تتغير الدنيا من حوله إلى حال له سر أبيض ، فمبانى المزرعة تلتف فى عباءة كثيفة من الجليد فتبدو مزيجا غريبا من الأبيض والأسود ، وأكوام الحشيش الجاف والدريس تختفى وراء قناع من الصقيع كأنه ثوب راقصة مجنونة ، ومع ذلك فإن فى وسط هذا الخليط العجيب من الطين والظلام كانت الحياة تدب : ماشية وخيولا ورعاة .

إن الراعى الذى يمتد طوافه فى السهول وجرب هبوب عاصفة ثلجية مفاجئة من الشمال تكتسح كل ما أمامها على الأرض لا شك مر بتجربة لا ينساها قط ، فالريح التى تزأر ، وتجمد الأطراف ، وشظايا الثلج الحادة تقطع فى لحمك كأنها السيف القاطع وتكسح فى طريقها كل ما يعترضها — كل ذلك يجعلك تحس فى موقف العاجز الأعزل .

وكلها تصيب الماشية بنفس الشعور ، فحين تهب العاصفة على القطيع ، ترفع الماشية أذيالها ، وتطير معها ، وإزاء شظايا الثلج الباردة التى تهرى عيونها ووجوهها يكون من العبث محاولة وقفها ، وليس هناك ما هو أعنف من هذا الاضطراب ، لكن الماشية تحاول ألا تواجه هذه العاصفة القاتلة ،

بل حتى الرعاة أنفسهم لا يستطيعون مواجهة العاصفة ، وسرعان ما تحس الماشية بالجوع ، والتعب وتصبح نحيلة هزيلة وتتدلى ذرات الثلج من أفواهها وآذانها وعيونها ، وهكذا تنجرف أمام العاصفة ويبدو عليها البؤس والمسغبة ، وتصير إلى عالم لا نهاية له ، وقد أرخت رءوسها ، وغطى الثلج ظهورها ، ولا ترى منها إلا عيونها كثقوب مظلمة فى ثنايا كتل من الجليد .

وتتعثر : رءوسها إلى الأرض وذيولها إلى فوق ، وسيقانها دامية متورمة من كثرة مشيها على الجليد ، فتترك أثراً من دمائها وأجسادها المتجمدة التى تقع فلا تقوم ، فترى هنا وهناك بقرة على الأرض تنتفض من البرد وفى أعقابها عجل صغير لعله يعجب من هذا العالم القاسى الذى قدم إليه ، وترى عجلا محولا لم تكد قرناه تبرزان فتعرف أنه لما ينته من طفولته ، وهذه الماشية النافقة تجعل كبار أصحاب المزارع يسبون ويلعنون حظهم ، وخسارتهم ، وتجعل صغارهم يبدءون من جديد فى الربيع التالى .

ومعظم أصحاب المزارع الكبيرة يحاولون عند هبوب العاصفة أن يمنعوا الماشية من الخروج فيها ، لكن قلما ينجحون ، لأنهم لا يملكون إلا أن يأمروا رعاتهم بأن يعودوا بالعربة إذا وجدوها ، فهم يعرفون أن الماشية ستتجمع بعضها مع بعض ، وأنهم سيجدون الأحياء منها عند سياج منهار ، أو عند مكان قرب الشط بعد أن تهدأ العاصفة ، هذا فضلا عن أن إجهاد الخيل فى محاولة استعادة الماشية يجعل الخيول تعرق وتسخن فيتعذر رفع السرج عنها .

والخيول تتقى العاصفة فى العادة ، لأنها تبحث عن مأوى يقيها منها وترقد على الحشيش ، ويبدو أن حركة الرقاد على الحشيش تجعل الخيل تظل دافئة ، أما عن حاجتها إلى الماء فهى تأكل الثلج بدله ، فإذا كان الثلج خفيفاً ، وكان الحشيش الجاف طويلاً ، استطاعت الماشية أن تقاوم العاصفة بعض الوقت ، لأنها تأكل الثلج

مع الحشيش . وقد عرف بعض الماشية أن تأكل الثلج بدلا من الماء ، وهذا أفضل من شق الشقوق فى الثلج الذى يغطى نهرا أو غديراً حتى تشرب ، لأن شق الماء هذا يضطر الماشية إلى البقاء إلى جوار النهر الذى لا عشب عنده ، مكتفية بأكل فروع الشجر حتى لا تبتعد عن الماء ، وفى ذلك اضطراب لأمعاء الحيوان لا يمكنه التخلص منه فيموت ميتة شنيعة .

ويحدث أحياناً أن تهب ريح « الشنوك » فى الشمال فتذيب الجليد والثلج ، ثم تعود باردة مرة أخرى فتغطى كل شىء بكتلة من الجليد حتى الشجر والدغل ، وعندئذ تهاجر الماشية بعد تجمد حاجياتها باحثة عن المأوى وتبقى فى يأس العاجز . والمعروف أن الخيل حين تهاجر تذهب إلى مسافة مئات الأميال إذا لم يكن هناك سياج متين أو حاجز طبيعى يحجزها ، أما إذا تفرقت وانفصلت فالغالب أن البقرة الوحيدة تستسلم فترقد على الأرض لتموت .

ويحدث أحياناً أن الثلج يتجمع فى حفر حتى مستوى سطح الأرض فتتجمع الأبقار فى هذه الحفر ثم لا تستطيع التخلص منها فتتحقق من ذلك خسارة كبيرة ، وتتبع آثار مثل هذا القطيع فيه خسارة مالية ضخمة ، ففى كل خطوة تجد حيواناً بلغ قمة احتماله فسقط على الأرض ميتاً ، وتتجمد لحومها وعظامها فإذا ما وصل بعض الماشية إلى سياج فقد يبحث عن فجوة فيه ، لكنها تندفع كلها فيه ويحدث هرج ومرج يؤدى إلى هلاك الكثير منها تحت أقدام بعضها البعض فلا يصل إلى داخل الفجوة شىء إلا على جثث ما سبقه منها .

وليس أخطر على حرفة راعى الماشية من العواصف الثلجية المفاجئة ، وهناك فى العادة شواهد تدل عليها ويعرفها خبراء الرعاة فى السهول ، ويعدون لها العدة إذا رأوا الشواهد فى وقت مناسب ، لكن معظم العواصف تأتى بغتة ، وقبل

أن يعرفها أحد ، ويتلبد الجو بكتل ناصعة من الثلج الأبيض تعمى البصر ، وهو ما يحدث فى « تكساس » بصفة خاصة ، وقد وصف أحد الرعاة الأقدمين هذه العواصف الثلجية بقوله : « إن الرياح الشمالية على تكساس ليست إلا تدفق القطب الشمالى عليها دون أن يقف فى طريقه شىء ، اللهم إلا سياج من السلك المتلىء بالفجوات » .

وبعد شتاء قارس تكون الماشية التى سلمت من الموت ضعيفة حتى يظهر عشب الربيع ، وفى تلك الأثناء يعمل الراعى وقتاً طويلا فى تغذية الماشية الضعيفة وإنهاضها ، وهى عملية شاقة إذا عملت فيها طوال يومك ، لأن البقرة الضعيفة قد ترفعها من ذيلها فتسقط إن كانت خائفة أو حاولت معها أن تجرى ، فكان على الراعى أن يسير بينها فى حذر وحرص ، ويجب أن يعمل على إنهاض البقر كل صباح حتى تخضر مراعى البرارى ، وتكسب الأبقار بعض القوة ، وهنا يبدأ الذباب الطائر عمله معها فيدفعها إلى أقرب مستنقع ، ويكون من الضرورى حينئذ تخليصها من الطين .

ومع أن العواصف الثلجية هى المأساة (رقم ١) فى الفلاة فإن حالات الجفاف هى المأساة (رقم ٢) فالماء كان دائماً المشكلة الأهم فى مناطق الرعى ، فكان صاحب المزرعة عند إقامة مزرعته يهتم أولا بضمان حقه فى الماء بأن يقيم مزرعته قرب نهر أو غدير ، لكن حتى أكبر الأنهار قد يجف فى سنوات الجفاف ، ومواجهة الشهور الطويلة من الجفاف الذى تبلى به الفلاة تتطلب نوعاً خاصاً من الشجاعة ، فلا بد أن يكون هناك صبر ورغبة فى مساعدة الجيران على تحقيق غرض مشترك .

والشمس اللافحة والريح الجافة يوماً بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع تقضى

على كل ماء أو رطوبة فى الأرض ، وتترك الأرض المعشبة جرداء لا حياة فيها حتى لا يبقى عليها من العشب فى الولاية كلها ما يكفى لرعاية كلب ، وتصبح المنطقة مكاناً تترك الشمس التى لا تعرف الرحمة فى وجوه أهله خطوطاً سمراء وتطبع عليها آثار الشيخوخة قبل الأوان ، مكان اعتاد أهله أن يروا فيه كل شىء جافاً ذابلا من شدة الحرارة التى لا تنكسر حدتها ، مكانا لا يعرف فيه الجار لون عينى جاره ، لأنه لم ير منها إلا مقدار ما تسمح به رموشه الضيقة من أثر أشعة الشمس المحرقة .

الأرض كلها قاحلة جافة كقنطرة مغطاة ، وجرداء كالحجر الصلد . هنا وهناك تشققت الأرض من فعل الحرارة ، حتى لتغيب فى شقوقها أقدام من لا يتنبه لها ، فتتعثر الأبقار فى يأس فى خوانق بحثا عن ماء لا تجده ، وتضيق جلودها بلحمها الذى يضغط على عظامها ، وتطل عيونها من مآقيها فى غباء وعجز ويأس ، وقد تتجمع حول جيفة ، فلا تنظر إليها ولا تعبأ بها ، وهنا وهناك عجول صغيرة فقدت أمهاتها ، تثغو فى عنف عند الخوانق فتردد الخوانق صدى ثغائها ، وتحوم الغربان حولها بالعشرات تلقى بظلالها الرهيبة فى سرعة على الأرض .

وتجف الأنهار حتى تصبح كأوراق الدخان ، وتشتد الحرارة حتى تكاد تسقط الشعر من جلد الدب ، ليس فى السماء ما يبشر بقطرة ماء ، وتجفف الحرارة كل عود أخضر على الأرض ، ومع ذلك يمضى الراعى فى صبر يؤدى عمله الذى يتضاعف بسبب ذلك ، ويزهو به كعادته ، دون أن يعترض طريقه ما يغريه بالتخلى عنه أو التهاون فيه .

ويخرج فى الصباح بعد ليلة عنيفة يبحث فى السماء عما يبشر بغيوم وسحاب مهما تكن بسيطة ، فعيون الماء والأنهار قد جفت إلى الأبد ، ولم يبق منها إلا

وحل جاف يحاول البقر عبثاً أن يمتص منه قطرة ماء يبلل بها ألسنته المتحجرة وما كان بها من ماء قد تحول إلى سائل عطن سام فيه الموت للضعيف ، وكثير من البقر أصيب بسببه بجنون فراح ينطح الصخر والشجر ، وبعض البقر أصيب بالعمى من جرائه ، فيتعثر فى طريقه ويثغو ثغاء أليماً محزناً يستدر عطف الراعى .

ولعل قرص الشمس الأصفر يسلط أشعته على الأرض حتى يجعل منها لوحا واحداً من الرمل الساخن ، كما وصفه أحد الرعاة بقوله : « لو أن رجلا مات هنا وانتقل إلى جهنم لأبرق إلينا يطلب غطاء » . وإزاء هذه الشمس الساخنة التى تشوى بحرارتها جلد الضفدع ، لا يبقى على الأرض عشب أخضر ولا يابس ، وتصبح الماشية هزيلة نحيلة ، فإذا لم تجد مكاناً تسعى إليه ، بقيت فى مكانها لتموت ، وتصبح الأرض خالية منها ككنيسة فى ليلة سبت .

وقد استطاع بعض أصحاب المزارع أن يتنبأوا بحالات الجفاف الطويلة المدى ، فكانوا يشحنون ماشيتهم إلى إحدى ولايات الشمال ، أو إلى منطقة فيها حشيش وماء ، لكن هذا كان عملا كثير التكلفة مضنياً ، وبخاصة إذا كانت منطقة الجفاف ممتدة ، واضطروا إلى إرسال ماشيتهم إلى مسافات بعيدة ، وفى الوقت الذى تكون فيه البلاد كلها جافة كقبعة حارق الجير ، فقد تحدث مأساة من مآسى الفلاة التى وصفها أحد الرعاة بقوله : « إن الفلاة كانت من الجفاف بحيث كان العشب يتبع الكلب بحثاً عن الماء » .

(٢٨)

الحرائق فى الفلاة

من ألد أعداء أصحاب المزارع حرائق الفلاة ، فهى دائما مصدر قلق لصاحب المزرعة وللراعى على السواء ، لأن القضاء على العشب كالقضاء على الماشية نفسها فالناس فى الفلاة يعملون ، ويكافحون ويموتون فى سبيل العشب ماداموا يرعون الماشية ، والحرائق كانت تصعب السيطرة عليها حين يكون العشب وفيرا ، ولا سيما فى الخريف حين يكون العشب قد استوى على ساقه ، كان هناك خطر من الحريق طوال نصف السنة ، لأن الربيع والخريف تضم الشهور التى يكون العشب فيها جافا ، والفلاة أرض مستوية فى العادة ، وجوها جاف وريحها قوية وكل ذلك يزيد من توقع مفاجأة النار .

إن جحيم العشب المحترق يحرم الماشية فى الشتاء من أن تطعم ، ويحرق البيوت والحظائر ومخازن الدريس ، فإذا احترقت الفلاة فى الخريف فلن يكون هناك عشب حتى الربيع التالى ، وحتى فى هذه الحالة يكون العشب قليلا لأن الأرض المحترقة لا ينمو فيها العشب إلا ببطء ، وقد تمضى أعوام طويلة أحيانا قبل أن تعود الأرض إلى قدرتها الطبيعية ، وكان من المسائل الخطيرة أن يفقد صاحب المزرعة عشب الشتاء ، إذ يضطر أن يبيع ماشيته بخسارة ، أو يبحث عن مزرعة أخرى بثمن مرتفع أو يترك ماشيته تموت جوعا .

لذلك كان طبيعيا أن يعنى أصحاب المزارع باتخاذ كل حيطة وحذر فى منع الحرائق ، لكنها كانت مع ذلك تحدث ، بسبب الإهمال أو بالصدفة ، أو بفعل الطبيعة نفسها . وللحرائق أسباب كثيرة ، فعلى راعى البقر أن يكون حريصا فى تدخينه ، إذ أن كثيرا منهم اعتاد أن يقسم أعواد ثقابه قسمين قبل أن يلقى

بها الى الأرض ثم إن الطهاة قد يهملون عند الانتقال من معسكر إلى آخر فلا يبللون رماد نيرانهم بالماء ، ويحدث أحيانا أن يتركوا قطعة فحم متقدة لتزهر حتى تعبث بها الريح فتلقى بها على عشب جاف ، لكن أعدى من يكرههم الرعاة أولئك الرحل الذين يمرون بالفلاة ، فقلما كان هؤلاء الرحل يعرفون أخطار الحريق فيها وكانوا لذلك يهملون معسكرات النار التى يقيمونها ، وقد تنشأ الحرائق من بعض الأحداث الذين لا يحسنون التفكير فيشعلون ناراً ليحرقوا فيها عشا للفيران ، أو بالقاء عقب سيجارة أو عود ثقاب مشتعل شكل إهمال .

وفى أول العهد بالفلاة كانت الحرائق تشعل عمداً بواسطة الهنود فى حربهم مع البيض ، أو يشعلها راع على خلاف مع صاحب مزرعة ليحرقه ، وكانت الحرائق تستخدم غالباً كأداة من أدوات الحرب ، وكان البرق أحيانا يتسبب فى قيام الحرائق ، لكن كان يحدث فى هذه الحالة أن يسقط المطر فيطفئها قبل أن تستفحل .

ومعظم أصحاب المزارع كانوا يشقون حواجب ضد الحريق حول بيوتهم وحظائرهم ومخازن الدريس التى يملكونها ، وكان هذا ينفع أحيانا ويفشل كثيرا تبعا لحجم النار وقوة الريح ، فاذا كانت الريح قوية طار الشرر بما يتجاوز حدود الحاجب فيشعل ناراً جديدة . وحاجب النار عبارة عن عدة مجموعات من حفر كل منها على مسافة خمسين إلى مائة ياردة ، وكل مجموعة تتكون من أربع حفر ، وفى الخريف حين يجف العشب بحيث يسهل احتراقه كان الراعى يختار يوما لا ريح فيه ويحرق الحشيش بين مجموعات الحفر ، ويحدد النار بعربات ممتلئة بالماء ولكى يشعل النار كان يستخدم قطعة من الحشيش مغموسة فى الكيروسين ومربوطة بسلك طوله عدة أقدام ، ثم يربط السلك بعد ذلك بحبل ، ويربط

الحبل برأس السرج ، ثم تشعل النار فى الخيش المبلل بالكيروسين وتسحب مسافة وراء الراكب وتشعل فى العشب كما تقدم ، وكانت النـــار تشعل فى الاتجاه المضاد للريح حتى إذا هبت عملت النار ضدها .

ويتبع الراكب رعاة آخرون معهم خيش مبلل بالماء من البراميل الموجودة بالعربة المرافقة ليخمدوا أية نار تشتعل داخل الحفر فى أى وقت ، ومع أن حاجب النار هذا كان وقاية فى الغالب ، إلا أنه لم يكن يجعل صاحب المزرعة بمأمن من النار ، فقطع لحم البقر المشوية كانت تطير أحيانا مع الريح الشديدة ، وتندفع كلوح ملتهب من الصفيح فتشعل الحريق أينما سارت أو يتطاير بعض العشب أو فروع الشجر فى الهواء وتهبط ككرات من النار على مسافات بعيدة فتشعل الحرائق حيث حلت .

وكانت هناك طريقة لمقاومة النار بالنار ، فتشعل النار عنوة بقصد منع النار القادمة من التقدم ، إلى أن تلتقى النيران فيأكل بعضهما بعضا ، وكان بعض أصحاب المزارع يستخدمون هذه الطريقة لحماية حظائرهم إذا أهملوا فى أقامة حواجب النار ورأوا حريقا فى طريقه إليهم ، وكثيرا ما كانت هذه الطريقة تنفع ، غير أنها كانت خطيرة دائما ، ويمكن هنا أن يطبق المثل الذى يقول « حارب النار بالنار » غير أنه إذا لم تراقب مراقبة دقيقة كانت فيها متاعب جديدة ، فكان من الأفضل أن يكون من ورائها خندق أو أخدود تشعل عنده النار قبل أن تصل النار القادمة بعدة أميال بشرط أن يكون هناك عمال يلاحظون أن شررا لم يتطاير إلى الداخل حتى يخمدوه بما معهم من خيش مبلل بالماء ، وبمجرد أن تشعل النار على مسافة تمنع العشب من أن تدق فيه النار ، ينتقل العمال بالخيش المبلل لكى يمنعوا النار من التطاير إلى أماكن أخرى ، وبهذه الطريقة كانت المقاومة تترك لتشتعل النار فى بطء فى الريح إلى أن تتقابل مع النار القادمة فيأكل بعضهما بعضا .

وخير طريقة لمقاومة الحرائق هى الحرارة ، فيذبح ثور ويقطع نصفين بالطول ، وتقطع الرأس حتى لا تعترض طريق البطانين (الذين يشدون بالحبال) ويسلخ أحد الجزءين من البطن إلى الظهر ، ويترك هذا الجلد التثنى ليساعد على إخماد قطع النار التى لم تطفئها الجثة ، وكانت الحبال تلقى حول الأرجل الأمامية والخلفية للذبيحة ، ويسحب اثنان من رعاة البقر الجثة فوق حافة النار المشتعلة ، وكل منهما يسير على جانب منها ، وهكذا تقوم كل ذبيحة بعمل جرارتين ، وبينما يكون اثنان من الرعاة يسحبان نصفها إلى اتجاه ، يكون آخران يسحبان النصف الآخر فى الاتجاه المضاد . ويجب تغيير الخيول التى تسير بمجاورة النار ، لأن الأرض تحت أقدامها تكون ساخنة وقد تصهر حوافرها ، ثم إنها وهى تسير على الأرض الساخنة ترسل رماداً أسـود سرعان ما يغطيها ويغطى راكبيها .

ولا يهم أن يكون الثور الذى يذبح ملك هذا أو ذاك ، إذ يجب أن يضحى به لصالح الفلاة كلها ، ومن الأفضل ربط ساق الذبيحة بسلك ويربط السلك بحبل يجر منه الراعى الذبيحة ، ذلك لأن النار قد تأكل الحبل وتقطعه ، ويساعد رعاة آخرون الراعيين اللذين يجران جزءى الذبيحة من ورائهم ليطفئوا ما قد يظل مشتعلا من نار بقطع الخيش المبللة التى يحملونها أو بغير ذلك مما يتسنى لهم حينئذ .

ومقاومة النار أخشى ما يخشاه الراعى ، فالذين يمشون وراء الجرار (الذبيحة المشطورة) ليطفئوا بقايا الشرر يجدون هذا العمل متعباً لأجسامهم ، ورئاتهم تحترق بالدخان والرماد الذى يضطرون إلى استنشاقه ، كما أن عيونهم تلتهب منه ، فضلا عن أن الحرارة ووهج الأرض المحترقة يكونان شيئاً لا يحتمل ، ومع ذلك يتحملونه حتى يتخلصوا من النار ، لأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الشرار

من ورائهم ، ويحدث أحياناً أن يعمل الرعاة على مقربة من النار فتحترق وجوههم ، ويملأ رماد العشب والدغل والحشائش المحترقة الهواء ، ومع ذلك يظل الرعاة يقاومون النار حتى يخروا إعياء .

وتضطرب الماشية وتقع من طولها ، وتفر أمام النار القادمة من ورائهم بصورة مجنونة ، والوحوش تنطلق أمام النار دون خوف من الإنسان ، وإنما تفر من شيء تعرف أنه عدو مشترك ، وقد تفر من النار إلى الأرض المحترقة حتى تكون فى مأمن بعض الوقت ، ولكن عليها أن تفتقد الطعام والماء ، وغالباً ما تكون الخسائر فى الماشية قليلة ، لأنها بغريزتها تتجه فى طريقها إلى الماء ، وغالباً ما تأخذ طريقها إلى خليج أو خزان ماء أو بحيرة تتخذ منها ملجأ .

والعجول الصغيرة وحدها هى التى تعانى من الحرائق ، إذ تتركها أمهاتها حين تبحث عن الماء ، ومن عادة العجول أن تختبىء فى العشب حتى تعود أمهاتها ، وهى لا تعرف شيئاً عن ذلك العدو الغريب ، وليس أمامها من يرشدها إلى طريق نجاتها .

وندر أن يهلك فى الحرائق رعاة ، إلا إذا كان العشب طويلا والريح شديدة ، فقد يحدث ذلك وبخاصة إذا اتخذت النار تحولا مفاجئاً فى طريقها .

ورعاة البقر وغيرهم من المقيمين فى الفلاة يرقبون دائماً تلك السحابة الخفيفة من الدخان حين يرونها فى الأفق لأنها تنذر بالخطر ، فإذا رأوا تلك السحابة طلبوا النجدة ، وهنا يترك من بالمزرعة ما بأيديهم ويسرعون لمقاومة الحريق ، وتتجمع العربات الممتلئة ببراميل الماء وقطع الخيش المبللة كلها استعداداً لمعركة ضد العدو الرهيب ، ولايهم أين يكون الدخان الذى يرونه ، فحتى لو كانت الريح

تهب فى اتجاه آخر غير اتجاه مزرعتهم فإنهم كانوا يحسون أن من واجبهم مساعدة زملائهم من أصحاب المزارع الأخرى ، هذا فضلا عن أن صاحب المزرعة لا يعرف متى تغير الريح اتجاهها وتدفع النار نحو مزرعته ، وحتى لو كان يكره أحد جيرانه ، فهو يحارب معه عدواً مشتركا رهيباً لا يعرف الرحمة .

وقد تكون سحب الدخان مضللة ، فيركب الرعاة مسافات طويلة قبل أن يقفوا لها على أثر ، ومع ذلك يمضون فى بحثهم لأنهم يعتبرون أن من واجبهم مساعدة بعضهم بعضاً بصرف النظر عن بعد الفلاة ، فقد تكون الحريق القادمة فى فلاته ، ويتمنى عندئذ أن يهرع إليه جاره البعيد لمساعدته .

وفى الليل تمكن رؤية النار من بعيد منعكسة على صفحة السماء ، وكان من ثم يصعب تحديد مكانها ، ومع ذلك تمكن معرفة الطريق الذى تسلكه النار من اتجاه الريح ، فإذا كانت الريح تتجه نحو فلاته ، كان طبيعياً أن يعجل محاولته للوصول إليها .

فإذا شوهدت النار انقلب كل فرد إلى محارب يحاربها ، حتى أهل المدنية ، فتقفل المخازن ، ويتوقف كل نشاط إلا ما كان مرتبطا بمقاومة الحريق . ولا يهتمون بسلامة المدينة فحسب ، بل بالمزارع أيضا ، لأن أصحابها هم عملاء التجار وأصدقاؤهم فتجمع قطع الخيش المبللة ، وتسحب المكانس ويبذل كل فرد جهداً فى المقاومة ويتسابق الناس فى شجاعة فوق البرارى والتلال حيث ينتشر وهج النار فى الليل ، ومع رجال المزرعة تمضى العربات محملة بالماء ثقيلة فوق أرض البرارى غير المطروقة ، وقد تكون العربة محملة ببراميل فارغة فتتراقص حول مقعد السائق الذى يجلس وساقاه تلتفان احداهما حول الأخرى ، وفى يده كرباج لا يكف عن

استخدامه ويتبعه الرعاة على ظهور الخيل ، أملا فى أن يجدوا ماء كثيراً فى بركة أو طاحونة هواء قريبة من مكان النار .

وكلما اقتربوا من النار أرسلت الريح الساخنة رائحة الدخان إلى وجوههم ، ونثرت شظايا من العشب الأسود المحترق والرماد يحط عليهم ويكثف الدخان والرماد حتى يمتلىء بها الهواء كعاصفة ثلجية طليت بحبر أسود ، وتصبح أنفاس الريح لهبا يلفح وجوههم ، وحين تقترب النار فى خط أصفر متراقص ، يسمعون قرقعة مدوية مما تلتهمه النار أمامها ، ويندفع الدخان نحوهم ويرتفع هنا وهناك فيظهر فيه وهج أصفر .

وتتراقص ملايين الشرر هنا وهناك فى ثنايا الدخان الذى يتلوى صاعدا إلى السماء : أحمر فى أول أمره ، ثم وردياً ، وأخيراً أسود ، وترى الناس يجرون ويعودون ، يخترقون حجب الدخان حينا ، ويمضون فى الفراغ البعيد حينا آخر ، وبعضهم يسرعون إلى العربة يتسلقون عجلاتها ليغمسوا قطعة خيش ملتهبة فى أحد البراميل ثم يرفعونها منه ويعودون إلى أقرب نقطة من النار والماء يقطر من قطعة الخيش ، وتسمع قطع الخيش المبللة وهى تطفىء النار ، تاركة وراءها الرماد الأسود ، وسحب الدخان المنبعث ، ورغم ذلك ترى قطع النار تثب إلى أمام ، والناس يثبون عليها وأذرعتهم توصل حركتها نحوها مهما كان تعبهم وإعياؤهم ، وهم حين يضربون النار بقطع الخيش المبللة ، تنبعث منها خطوط من الدخان الأسود وشظايا النار التى تدب فيها الحياة أحيانا بعد أن يبرحوها ، فتلتهم العشب فى شراهة عجيبة بألسنة النيران الحمراء الجائعة .

ويعمل الناس ساعات بعد ساعات فى يأس حتى يضطرهم الإعياء إلى التوقف للراحة قليلا ، تلفح حرارة الهواء وجوههم ويملأ الدخان رئاتهم وعيونهم بالتهاب موجع ، ويبدو الزمن حينئذ جامداً لا يتحرك ، وتبدو الدنيا كأنها خيال ، ممتلئة بالحرارة والدخان

القاتلين ، تلمع فيهما الشمس لمعانا ثقيلا ، ويتبعهما قمر أحمر مثلها ، ثم يتكاثف الدخان بمقادير متباينة كلما دفعها الهواء إلى السماء، ثم يردها تيار آخر إلى الأرض فتعمى الأبصار.

فإذا كانت الريح قوية والعشب طويلا وجبت مكافحة النيران من جانبيها ، فالنيران الأمامية تتحرك فى سرعة وخطورة تستحيل معهما مقاومتها من أمام، وحرارتها تكون كافية لأن تقتل كل إنسان، والأمل ضعيف فى وقف تقدم مثل هذا الحريق إلا إذا اعترضه عائق طبيعى من جدول أو نهر أو جبل قاحل ، أو إذا قلبت الريح طريقها فجأة أمام النيران الجانبية فتصير أبطأ ، ويمكن التحكم فيها بواسطة الجرار .

وبعد أن تنتهى آخر قطعة خيش سوداء ، كانت فى أصلها جديدة ، من القضاء على آخر لسان من ألسنة النار الحمراء ، يخر المكافحون إلى الأرض إعياء يحصون ما حدث لهم من خسائر .

وقد حدث أن أحد الرعاة رأى ما بذلوا كما رأى الخسائر التى تسببت النار فيها ، ورأى الفلاة كلها سوداء ، هنا وهناك فى أرجائها أشلاء بقرة محترقة ، أو حيوان غارق فى لجة من الدخان ، ورأى عالماً تعمل فيه عملها ريح حارة كثيفة الدخان ، وأشباح ميتة سوداء ، عالما يمتلىء برائحة النبات المحترق ، لا أمل له فى أن يرى الخضرة شهوراً طويلة قادمة ولم يسعفه من الكلمات ما يعبر به عن فكره إلا أن يقول : « إن الفلاة دون شك كجحيم أخلى من أهله » .

(٢٩)

الحبالون والتحبيل

على الرغم من أن كل راع يجب أن تتوفر له القدرة على التحبيل حتى يكون أهلا لوظيفته ، إلا أن القليل من الرعاة من يصل إلى حد الجودة . والتحبيل من أشق العمليات التى يحذقها الرعاة ، وقليل منهم من يجيد هذا الفن ، والراعى يستخدم حبله دائما ، فيوفر على غيره وقتاً وجهداً كبيرين ، وغالباً ما يكون تطويحه حبله تطويحاً سريعاً لا يخطىء سببا فى إنقاذ زميل له من موت أو إصابة من ماشية مجنونة ، وطبيعى أن رعاة البقر جميعاً يستخدمون حبالهم بحكم العادة ، لكن الراعى الذى يستطيع أن يمسك بقرة من كعوب أرجلها أو رأسها ، وهو على ظهر جواده بكل تطويحة من حبله ، راع نادر الوجود كما يقول أحدهم .

والحبال الماهر هو الذى يتوفر له الشعور بالتوقيت الصحيح ، والقدرة على القياس الدقيق للأبعاد والمسافات ، وهو حين يحسب سرعة البقرة التى تجرى مع سرعة حصانه يجب أن يضبط طول الحبل الذى يطوح به فى ضوء المسافة بينهما ، وبإحكام المسافة والزمن يكسب نصف معركة التحبيل الجيد ، والحبالون الممتازون يعرفون بالغريزة الوقت الصحيح لتطويح الحبل ، فهناك خبراء حاولوا أن يحققوا نجاحاً فى هذا المجال دون فائدة تذكر . والحبال الماهر وهو يطوح بحبله ليمسك ماشية من كعوبها يعرف تماماً متى تصل الأنشوطة إلى أقدام الحيوان فى جزء الثانية الذى يرفع فيه الحيوان ساقه عن الأرض ، على أنه مهما يكن عنده من موهبة طبيعية كان لا بد له من تدريب متواصل للتنسيق بين حكمه على المسافة وحكمه على الوقت وبين إلقاء الأنشوطة فعلا . ومشاهدة حبال ماهر مدرب وهو يعمل من المناظر الجميلة الرائعة .

والراعى الذى يحسن التحبيل حبال خبير يستخدم فى تحبيل الخيول لغيره من الرعاة ، ففى موسم الوشم كان عمله ينحصر فى تحبيل الماشية من كعوبها وسحبها

إلى القائمين بوشمها ، وكان يقوم بعمله بنظام وهدوء ، وقل أن يخطىء وهو يسير بجواده فى بطء بين العجول ، وهذه العملية من أجمل عمليات رعى البقر ، تظهر فيها فائدة الحبال كأحسن ما تظهر ، وكان غالباً ما يركب حصاناً راسخاً ، ويفضل الحصان الذى يركض كركض الثعلب « فوكس تروت » لأنه يهدىء خطاه وسط القطيع ، ويطوح بأنشوطته فوق رأس الماشية أو كعوبها بعد اكتراث ظاهر بالجهة التى يندفع إليها حبله ، فإذا طوح حبله استدار جواده تلقائياً إلى القطيع ليقابل العجل فى منتصف الطريق ليخلع عنه أنشوطة الحبال ، وأنشوطة هذا النوع من العمل عبارة عن عقدة لا تفزع القطيع ، فإذا كان فى القطيع قليل من العجول استطاع أن يسحبها من سيقانها الأمامية أو الخلفية ، وهو أحياناً ينشد بعض التسلية مع زملائه ، فيمسك بأنشوطته ثوراً كبيراً من رقبته ، ويستمتع بمراقبته وهو يحاول أن يتخلص من الأنشوطة ، ويصغى إلى تهكمهم عليه وهو يستدير ليمسك عجلا آخر ، ومزاحه هذا يكسر حدة الرتابة فى عمله ويخلق تنويعاً يستمتع به كل زملائه من الرعاة ما عدا الحبالين من أمثاله ، فإذا رفض زملاؤه أن يجانحوا الحيوان قام الحبال بذلك بنفسه لإنقاذ ماء وجهه ، فإذا نجح فى ذلك دون عناء يذكر كانت سخريته منهم أكبر .

ومداعبة الحبل عند رعاة البقر معناها ربطه نصف عقدة حول رأس السرج بعد أن يمسك بالفريسة ، على أن يظل الطرف الخالص فى يد الحبال حتى يتركه ينطلق من يده فى حالة الطوارىء ، أو يقصره . والمداعب بالحبل بحاجة إلى حبل أطول ممن يربط الحبل حول رأس السرج ، لأنه لا يستطيع أن يلقى به كله ، بل لا بد أن يترك جزءاً منه فى يده فإذا لف الحبل فوق رأس السرج فى اتجاه الساعة بدلا من الطريقة الصحيحة وهى لفه عكس اتجاه الساعة سمى ذلك : طريقة « طحن البن » وتسمى العقدة التى يربطها فى طرف حبله « برعم الورد » .

وبعض الرعاة يربط طرف حبله ربطا متينا فى رأس السرج ، وهناك جدل كبير حول مزايا ربطه أو مداعبته ، وكقاعدة عامة يربط الرعاة الحبل فى شرق جبال روكى ، وفى غربيها يداعبونه ، ورابط الحبل يستخدم حبلا أقصر من حبل المداعة ، وهو أكثر ثقة فى قدرته . وراعى تكساس يربط حبله ، وحين يطوح به يتشبث به ولا يتخلى عنه ، وراعى كاليفورنيا يبقى حبله غير مربوط ، فإذا طوح أنشوطته على حيوان داعب الحبل حول رأس السرج ، فإذا قاوم الحيوان لم يستطع أن يطلق سراحه ، ولا يرى راعى تكساس بأسا فى طريقة غيره ، أما راعى كاليفورنيا فيعرف أن طريقته أفضل ، ثم إن رابط الحبل يعتقد أن مداعبة الحبل فيها ضياع لجزء منه .

وفتح أخية الحبل بهزه هزات قليلة إلى الأمام واليد اليمنى ممسكة بالحبل من المؤخرة يسمى « هز الحبل » وهو من أوليات ما يعمل عند عمل الأنشوطة ، كما أن عمل الأنشوطة هو الخطوة الأولى فى التحبيل .

وغالباً ما يستعمل « التطويح » فى التحبيل من فوق ظهر الحصان ، والغرض منه أن تظل الأنشوطة مفتوحة أو توسيعها وهى تنطلق مطوحة ولتكسب قوة من رميها من بعد طويل . والهاوى يطوح ذراعه قبل أن يطوح الأنشوطة ، لكن المحترف الخبير يطوح الأخية قليلا ، مرة أو مرتين فوق رأسه ، وقلما يستعمل التطويح فى التحبيل فى الحظيرة ، لأن التطويح فى تحبيل الخيول يفزعها ، ويطوح بعض الرعاة الحبل فوق رأسه ، والبعض الآخر يبقى الأنشوطة إلى جانبه بارتفاع كتفه ، وتستخدم بعض حركات المعصم حتى تظل الأنشوطة مفتوحة ولا تنعقد ، وتمسك لفة الحبل فى اليد اليسرى ليسهل طرحها عند إلقاء الأنشوطة .

والحبال الذى يعمل على رجليه ، يمد الحبل إلى أحد جانبيه بدلا من أن يطوح به فوق رأسه قبل إلقائه ، وبطرحة رشيقة سريعة يلقى به فى غير خطأ

لهدفه فوق رأس الفريسة ، ويسمى عندئذ « الطارح » ، وهذه الطريقة تستخدم دائماً فى الإمساك بالعجول الصغيرة من بين القطيع ، فإذا اتبعت بسرعة وبساطة نجحت فى الإمساك بالحيوان قبل أن تتهيأ له فرصة الحركة أو الفرار ، وطرح الحبل بعد هزة واحدة فوق الرأس وبغير تطويح تسمى « لفة كاليفورنيا » .

وأنشوطة « بلوكر » عبارة عن أنشوطة كبيرة أخذت شهرتها عن « جون بلوكر » وهو من الحبالين المشهورين فى تكساس ، ابتدع هذه الأنشوطة الشهيرة وهى تبدأ بأنشوطة مستقيمة فوق الرأس ثم تلف حول الرأس إلى الشمال ، فإذا طرحت انقلبت ووصلت إلى كتف الحيوان وأمسكت بساقيه الأماميتين ، ويتم طرحها حين تكون الأنشوطة خلف الكتف اليمنى ، وتكون الذراع اليمنى قد امتدت إلى الأمام عبر الدائرة التى كانت تدور فيها ، وفى الوقت نفسه تعطى اليد والمعصم الأنشوطة لفة نحو اليسار وتنطلق الأنشوطة أمام الحبال ، ويبدو أنها تتوقف ، وتقف ، ثم تلف إلى اليسار .

وأنشوطة « بلوكر » تتميز بأنها أنشوطة طائرة ، يمكن إلقاؤها من فوق ظهر الحصان أو على الأقدام ، كما يمكن استخدامها لمسك الرأس أو الكعب أو الساقين الأماميتين ، وقد ذاعت شهرتها لأنها تهيىء أنشوطة واسعة أمام الشىء المراد تحبيله ، كما تسمح بفتحة أكبر فى المكان المناسب والزاوية المناسبة ، ويمكن إلقاؤها والراعى واقف على قدميه من أية زاوية من الجانب أو من الأمام دون تحريك القدمين ، وتواصل اليد اليمنى التشبث بالحبل بعد طرح الأنشوطة ، وتجعلها تسير حتى تصل إلى الحيوان المطلوب ، وهى بذلك تكون أنشوطة مفضلة فى المسافات القريبة .

فإذا عدنا إلى أيام الثيران الطويلة القرن نجد أنه كان من الضرورى استخدام أنشوطة كبيرة لتحتوى على القرون المتفرعة ، أما فى أيامنا هذه فالأنشوطة الكبيرة

لا لزوم لها وقلما تستعمل ، لأن الأنشوطة الكبيرة لا تنحزم بسرعة لتمسك بالحيوان الحالى الذى لا قرون له ، وللأنشوطة الكبيرة أسماء كثيرة منها « الأم هايارد » و « أنشوطة الغسالة » وغير ذلك ، وحين تسقط أنشوطة الحبال فوق كتف الحيوان المحبول وتحزم حول بطنه نتيجة استخدام أنشوطة كبيرة سمى ذلك الحيوان « محزوم البطان » ، وكان هذا الحدث ممتعا لكل من يراه ما عدا الحبال ، فقد كان بذلك يصبح موضع استهزاء بقدرته على التحبيل ، والرجل ذو الأنشوطة الصغيرة يلقيها تسمى «أنشوطة الكلب» ، والرماة ذوو الأنشوطة الصغيرة « خبراء فى الإمساك بالعجول الصغيرة » .

وهناك أيضا « أنشوطة المانجانا » ، والمانجانا كلمة اسبانية معناها « الكم » أو الشبكة « أو المصيدة » ، وهى أنشوطة تمسك بالساق الأمامية ، وقد تمسك بالرأس إذا ألقيت عالية ، وتلقى الأنشوطة بأن تتجه اليد إلى الأرض وتسحب الأنشوطة إلى الأمام وتطوح إلى الخارج ، وهى أنشوطة تتطلب توقيتا دقيقا ، لأنها تتطلب من الحيوان أن يتوقف بدلا من أن تصيبه إذا وقفت بعيداً عنه ، وهى من أحسن الرميات بالنسبة للخيول ، وقلما تستعمل مع الأبقار ، ويجب أن يمر الحيوان أمام الرامى ، وأن يكون قريبا منه بحيث يمكن مسكه .

« ومانجانا القدم » رمية استعراضية لا تستعمل فى العمل إلا نادراً ، وهى رمية تستخدم فيها القدم ، بأن توضع أنشوطة مفتوحة جيداً على الأرض ، فإذا مر بها الحيوان المراد مسكه ، تسحب الأنشوطة فوراً بالقدم ، وهى كرمية المانجانا تتطلب توقيتا دقيقا ، وبعض الرعاة الذين فقدوا أحد ذراعيهم يجيدون هذه الرمية ، إلا أن الراعى المحدث لا يعرف معناها ، فإذا استخدمت الآن اعتبرت رمية استعراضية ، وهى أيضا تستخدم فى مسك الخيول .

وهناك أنشوطة الحلقتين « رقم ثمانية بالإنجليزية » وتستخدم لمسك السيقان الأمامية فى الحلقة التحتية من الرقم ، فى الوقت الذى يمسك فيه الرأس بالحلقة الفوقية ، ويتم ذلك بإلقاء الأنشوطة مباشرة من فوق الرأس إلى الحيوان الذى يكون ماراً من جهة اليسار حتى تصدم الحبل من خلف الأذن اليسرى . والأنشوطة تمضى أمامه وتسقط على رأسه ، وعندما تصطدم الأنشوطة من ناحية الحبل ، يقف فجأة ويؤدى ذلك إلى أن تنطوى الأنشوطة بالعرض ، وعندئذ يدخل الحيوان بنفسه ساقه الأمامية فى الجزء التحتى من الأنشوطة .

وثمة رمية أخرى هى « الدحرجة » ، وتستخدم للتحبيل من الأرض ، وتتم بدحرجة الأخية إلى الأمام فوق اليد والمعصم ، ثم تطلق لتتدحرج على حافتها مائلة قايلا إلى اليمين ، وهى شبيهة بالمانجانا ، لكنها تكون أسرع حين تطلق فى الوضع الصحيح ، ويمكن استخدامها فى مسك الخيول من ساقها الأمامية ، لكنها أفضل لو استخدمت لمسك البقر من كعبه ، لأنها تدحرج أنشوطة صغيرة نسبيا تحت بطن الحيوان فى وضع يمكن من مسك قدميه الخلفيتين ، وهى مفيدة عادة حين تلقى على حيوان يمر أمام الرامى تجاه يمينه .

و « الرمية الفوقية » طريقة محبوبة لمسك الخيول فى الحظائر ، وهى تتميز بأنها تتجه إلى أعلى بعد أن تترك اليد ، والأنشوطة صغيرة نسبيا ، وتكون على ارتفاع الكتف ، والجزء السفلى منها يتأرجح ذهابا وإيابا ، وعند إلقاء الأنشوطة تطوح إلى الوراء حول الرأس ثم تطلق على الهدف ، وتستدير الأنشوطة وهى تطوح إلى أعلى قبل أن تلقى ، حتى أنه فى اللحظة الأخيرة يكون ظهر اليد مواجها لليسار ، ويكون الإبهام إلى أسفل ، وبذلك يكون حبل الأنشوطة عند سقوطها على اليمين بدلا من اليسار .

والرمية الفوقية أنشوطة دوارة ، لأنه لا يمكن توفير قوة لها بغير دوران ،

وتتم الرمية بأن يبدأ الدوران أمام الرامى إلى الشمال مع دورة أو دورتين حول الرأس لكسب القوة عند وصوله إلى الكتف الأيمن ، ولكنها أنشوطة دوارة لا تستخدم فى الحظائر ، وهذه الأنشوطة تصلح لمسك السيقان الأمامية للخيول والحيوانات الأخرى على السواء ، وهى أنشوطة سريعة ، ولأنها تلقى عمودية على الأرض فقد تخطىء إلا إذا أمسكت بالحيوان بسرعة .

و « الأنشوطة اليدوية » تستخدم فى مسك الكعب فحسب فى الماشية ويمكن استخدامها فى الحظائر المقامة على الأرض ، لكنها جيدة كذلك للراكبين فى أثناء الطواف ، وهى الأنشوطة الوحيدة التى تسمح بالدوران أثناء العمل بين الماشية ، وتظل متحركة على الجانب الأيمن فى مستوى أفقى وتتأرجح ، فإذا مر الهدف أمامها ، لف الحبال الحبل حوله بسرعة ليكسبه قوة ، وقلب الأنشوطة على ظهر اليد وهى تتأرجح إلى أعلى ، وهذا يؤدى إلى سقوط الأنشوطة وهى واقفة تحت بطن الحيوان فيقع فيها .

وهناك أنشوطة « القدم » وتستخدم مع الأبقار والثيران لا الخيول بعد أن يمسك بها من السيقان والرأس ، وهى تلقى من تحت اليد إلى وراء الأرجل الأمامية تماما تحت بطن الحيوان وهو يجرى والأنشوطة مفتوحة حتى تنفذ فيها الأرجل الخلفية ، فإذا ألقيت بمهارة أخذت الأنشوطة شكل حلقتين (رقم ٨ بالإنجليزية) وتمسك إحدى الساقين الخلفيتين فى إحدى الحلقتين والساق الأخرى فى الحلقة الثانية فإذا أمسك الحيوان بهذه الصورة لم يستطع أن ينطلق إذا ضغط على الحبل .

ومع أن أنشوطات مختلفة تستخدم للامساك بالحيوان ، إلا أن الإمساك به من ساقيه الأماميتين يسمى « المسك الأمامى » ، ويتم عادة بأن يقترب الرامى

من الحيوان من الناحية اليسرى ، ثم يلقى أخية متوسطة الحجم على الكتف الأيمن للحيوان ، أمامه قليلا فى وضع يسمح باستقبال إحدى القدمين عند وصولهما إلى الأرض ، وتعطى الأخية لفة داخلية عند إطلاقها ، مما يجعل الجانب الأعلى من الأخية يلف على ركب الحيوان من الخلف استعدادا لمسكه ، والحصان يمسك دائما من ساقيه الأماميتين لا من كعوبه ، وعند إلقاء الأنشوطة تتأرجح اليد إلى أعلى وإلى الأمام فى قوس سريع فوق اليد بحيث لا ترتفع عن مستوى الكتف وتسقط الأخية على حافتها وحبلها إلى أسفل .

والتكعيب « المسك بالكعب » ليس سهلا كالمسك الأمامى ، لكنه يتم بالقاء الأنشوطة تحت بطن الحيوان أمام الأقدام الخلفية تماما بحيث يسقط الحيوان فى الأنشوطة ، وبدلا من أن تلقى الأنشوطة إلى أعلى حتى تقع على حافتها ، كما هو الحال فى المسك الأمامى ، يلقى بها إلى الأمام ولكن حبلها يقع على الشمال ، ويتبع التكعيب مع العجول الوليدة حتى يمكن سحبها لوشمها بالنار دون مقاومة ، فيلقى الرامى أنشوطة كبيرة أمام الحيوان وهو يجرى حتى يجرى فى الأخية إلى أن تصل إلى ساقيه الخلفيتين ثم تحزم الأخية وهى تنزلق إلى القدم ، فإذا ألقيت الأنشوطة بسرعة تحت الحيوان انقفلت وأمسكت به عرضا ، وتستخدم هذه الرمية من فوق ظهر الحصان ، أما غير الراكبين فيستخدمون أنشوطة صغيرة يلقونها تحت بطن العجل .

ويجرى التحبيل فى المزرعة على العجول ، أما بالنسبة للماشية الصغيرة فيستخدم عند علاجها أو لقراءة وشم غطاه الشعر ، أو لإعطاء درس لراع جديد ، وتحبيل العجول يتم بمسك رقبته ثم ترقيده لربطه ثم سحبه إلى القائم بعملية الوشم بطريقة أسهل على العجل وعلى الواشم معا ، والتكعيب

يستخدم غالبا فى الحظائر أو فى الطواف فى الفلاة ، فإذا كان العجل فى الفلاة وبدأ الجرى كان من الصعب تحبيله ، ومن ثم يجب مسكه من رقبته .

وأصحاب المزارع لا يميلون إلى تحبيل صغار ماشيتهم ، لأن التحبيل قد يؤدى بها إلى العرج أو الهزال ، ولذلك لم تكن تستخدم فى المزرعة ولم يكن يجرى تحبيل العجول بها إلا عند علاجها من القروح ، أو لحلب بقرة ضاع صغيرها ، وغالبا ما يكون هناك اثنان من الحبالين يعملان معا فى تحبيل العجول : أحدهما يمسك العجل من قرنيه فى الوقت الذى يكون فيه الثانى يمسك بكعوب الحيوان ليمدده على الأرض ، والحبال الأمامى يحاول أن يتجنب الإمساك برقبة الحيوان حتى لا يختنق ، وحتى لا تشتد مقاومته . والإمساك بقرنى الحيوان يسهل رفعه لتحديده ، لكن فى أيامنا الحاضرة اختفت القرون وأصبح معظم التحبيل يجرى على الرقبة .

وإذا أراد حبال أن يلقى أنشوطة على حيوان بيد واحدة ، ركب إلى أقرب ما يكون منه قبل إلقاء أنشوطته ، فإذا استقرت حول قرونه وانطرحت لتمسك به سقط ارتخاء الحبل تحت الورك الأيمن للحيوان تماما وحول عجزه وعندئذ يحرك الراكب سرع جواده إلى اليسار ويعد نفسه لمواجهة الهزة التى لابد أن تحدث ، فإذا عاد الحبل إلى اشتداده انقلب الحيوان فى الهواء وهبط على الأرض ورأسه إلى مؤخرة الحصان الذى يكون فى ذلك الحين يعيد شد الحبل ويبذل جهداً لشد الحيوان نحو الراكب .

وغالبا ما يطول وقت انطراح الحيوان على الأرض حتى يتمكن الراعى من علاجه أو الانتهاء مما أمسك به من أجله ، ثم تأتى عملية نزع الحبل والانطلاق بجواده قبل أن ينهض الحيوان حتى لا ينطحه ، فإذا كانت للحيوان قرون لف الراعى رأسه إلى أعلى ما يمكن وغرس أحد قرونه فى الأرض ، وفى

هذه الحالة يقاوم الحيوان بضع ثوان ليعدل رأسه ثم لينهض على أقدامه ، وفى هذا الوقت يكون الراعى قد ركب حصانه وجمع حبله وربطه إلى رأس سرجه أما إذا لم تكن للحيوان قرون فإنه يملأ عينيه بالرمل ليعميه بضع ثوان .

فإذا كان الثور عجوزا فقد يمسك بساقه الأمامية ، وذلك بأن يجرى فى حذاء الحيوان ويلقى الأنشوطة فوق كتفه الأيمن بحيث تلف بعد أن تبرح يده حتى تسقط الأنشوطة أمام الساق الأمامية للحيوان مباشرة ، وحين تلقى الأنشوطة يستدير الراكب فى زاوية إلى الشمال ويمضى فى اتجاه مضاد لحبله ، فإذا كانت المسكة تشمل الساقين الأماميتين سقط الحيوان دون أن يدق عنقه ولكن الغالب عكس ذلك ، أما إذا أمسكت بساق واحدة ، فقد ينتهى الأمر بكسر أحد ساقيه أو كتفه ، وهذه الرمية تتطلب مهارة أكبر مما تتطلبه الرأس أو القرون ، وكان أصحاب المزارع لا يرضون عنها بسبب خسائرها الكثيرة ، وقلما تستعمل إلا فى حالة الماشية الهزيلة أو الضالة .

والرامى الذى يلقى الحيوان إلى الأرض بقسوة لا يرضى عنه رئيسه ، فالحيوان المكتنز اللحم حين يتأرجح فى الهواء على طرف الحبل يهوى إلى الأرض بعنف شديد ينتهى بأن تنكسر قرونه أو يدق عنقه ، وإذا كانت الأرض صلبة فقد يصاب الحيوان برضوض عنيفة يصبح لحمه بعدها لا قيمة له ، وتسمى هذه العملية « إسقاط الحيوان إلى الأرض » وهناك طريقة أخرى يميل فيها الرامى فوق ظهر الحيوان ويسقط الأنشوطة حول رجليه الأماميتين ، ثم يهمز جواده بسرعة فتسقط الفريسة وتنقلب على ظهرها وتسمى هذه الطريقة « كاليفورنيا » .

ويربط الحيوان بعد إسقاطه إلى الأرض من ساقيه الخلفيتين وإحدى ساقيه

الأماميتين بقطعة حبل قصيرة فى أحد طرفيها الأنشوطة التى أسقطها الراعى على الساق الأمامية للحيوان ، ثم يقف الراعى خلف الحيوان ويضع إحدى ركبتيه عليه ويدفع الساقين الخلفيتين إلى الأمام ويسحب الحبل فى نفس الوقت تحت وحول الساقين الخلفيتين ، وهذا يرفع الساقين الخلفيتين إلى أعلى متجهتين إلى الخلف ويلف الحبل لفتين أو ثلاثًا حول الحيوان ، على أن ذلك لا يجرى على الخيول .

وكثير من التحبيل يقوم به غير الراكبين وبخاصة فى الحظائر ، وتحبيل الخيول المسرجة لم يكن يكلف مشقة بعد مسكها ، لأن الخيول تعرف ما يقصد بالحبل ، لكن تحبيل عجل محولٍ يتطلب من الراعى أن يعرف كيف يحكم الرباط وكيف يتجنب رد الفعل حين يشتد ارتخاء الحبل . والكعب العالى فى حذاء الراعى يساعده على أن يتوازن وهو يميل إلى الوراء ليلف الحبل حول فخذى العجل ، وطبيعى أنه لو قام الراعى بعملية تكعيب للحيوان لما كان بحاجة إلى هذا كله ، لأن الحيوان يفقد معه مقاومته ، وكل ما عليه أن يشد الحبل شداً يمنع الحيوان من الرفس .

والتحبيل من فوق ظهر جواد يرجع الفضل فى نصف العملية للحصان نفسه مهما تكن مهارة الراكب ، فإن معظم نجاحه يتوقف على الحصان المدرب ، وهو أخطر من التحبيل على الأقدام ، فأنت تستطيع على قدميك أن تستدير فى انطلاق ، لكن حين يشتبك حصان وثور لا يتسع لك مجال التخلص ، ومعظم التحبيل يجرى من فوق ظهور الخيول لأن العجول الصغيرة كثيرا ما تهاجم الحبال على قدميه ، وكان هذا الهجوم خطيرا ، وعلى الراكب أن يستوثق من أن حبله محزوم جيدا على الحيوان ولا يمكنه سحبه من جانبيه وذلك بأن يجعل الحصان يستدير تجاه الحيوان المربوط أو بعيدا عنه .

(٣٠)

حذاء الخيول الصغيرة

بعض المزارع الكبيرة بها دكان حداد منتظم تستخدم فيه إدارتها حدادا خبيرا يصلح العربات وحدوات الخيول ، ولكن فى المزرعة المتوسطة يستخدم راع يكون من مسئولياته أن يحدد حصانه بنفسه ، وحدو الحصان عملية شاقة ، فيها خطر كثير ، لكنها جزء من عمل الراعى ، أو كما يصفها أحدهم بقوله : « إنها عمل شاق بكل تأكيد ، وكم من راع فشل فى عمله بسببها » والخيول تكره أن تحدى ، ولا تتعاون مع الرعاة فى هذا السبيل ، سواء أكانت خيولا كبيرة أو صغيرة ، وفكرة أن راعى البقر مقوس الساقين لكثرة ركوبه الخيل فكرة خاطئة ، صوابها أن تقوس ساقيه راجع إلى أنه يحمل تسعمائة رطل من اللحم هى الحصان الذى يرفس حين يكون رافعا ساقه ليركب له حدوة . وحدو الحصان من أكثر لحظات الراعى ألما وضيقا .

وقليل من الرعاة من يحب هذا العمل ، وبعضهم يكرهه كرها يجعله يتفق مع غيره من الرعاة على أن يقوم به نيابة عنه مقابل عمل آخر كرفع الصقيع عن الفرس فى صباح يوم بارد . وفى المزارع التى ليس بها دكان حداد يصنع الحدوات التى تناسب كل قدم تشترى الحدوات جاهزة وتركب على البارد مهما كانت مختلفة الأحجام .

وطبيعى أن الحدوة التى تصنع على السنديان والمطرقة أضبط وأدق لأنها تطرق وتتشكل حسب قدم الحيوان ، ولكن فى زحمة الطواف وغيره من تحركات البقر لا يكون هناك وقت لصنع الحدوات ، ولهذا كانت تستخدم الحدوات الجاهزة مع بعض الطرق والتوضيب حتى تناسب القدم التى تركب فيها .

ويرى البعض أن الحصان يجب أن تركب له حدوات كل شهرين ، لكن صحة ذلك ترتبط بنوع الأرض التى يعمل فيها ، ففى الأرض المنبسطة تركب الحدوة قبل الطواف لتستمر طواله ثم تنزع الحدوات عندما تؤخذ الخيول إلى الفلاة فى الطواف التالى ، أما فى الأرض الوعرة أو الصخرية فتعتبر أدوات حدو الحصان من الأجهزة التى يجب أن تزود بها العربة .

والحصان فى مراعى الخيل لا يعمل إلا إذا كانت أقدامه فى حالة طيبة ، لذلك يحرص الراعى على مراقبة أقدام حصانه فيركب لها حدوة كلما ضاعت حدوة أو تقلقلت أو بليت ، وقد تكون عنده عشرة خيول ، وقد لا يكون ركب كلا منها أكثر من مرة فى الأسبوع ، لكنه يركبها على التوالى لأنه لا يريد أن يرى أحدها ذات يوم بغير حدوة .

وكثير من الناس يرون أن الحصان ذا السرج يجب أن يكون محدوًّا دائماً ، وهذا خطأ ، لأن الحصان إذا أطلق سراحه بعد أن ينتهى عمله فى رعى البقر يكون أكثر صحة ومرحا مما لو نزعت حدواته وسار عارى القدمين وإلا كان كشاب سليم يلبس حذاء فى شهور الصيف .

والراعى الحريص يرقب أقدام حصانه دائماً ، فقد يجد أن عليه أن يركب له حدوات جديدة ، لأن حافره قد نما خارج الحدوة وحولها ، وإذا لم تركب حدوات جديدة جعل ذلك الحدوة تضغط على بطن القدم الرقيق بدلا من جدار الحافر الصلب ، وهذا يؤدى بالحصان إلى العرج ويجعله غير صالح للعمل .

وعند اختيار حدوة تناسب قدم كل حصان يقيس الراعى اتساع الحافر عند أوسع نقطة ، وطوله من الأصبع إلى الكعب ، ثم يختار حدوة قريبة من هذا المقياس ، ونظراً لأن الحدوة كانت تركب قبل أن توضب القدم لها ، كانت

تهيأ لتركيبها قبل قص الحافر ، ولم تكن هناك ضرورة لإنزال القدم بعد رفعها أو ربطها .

وكل حدوة يجب أن تغير بأن توسع أو تضيق حتى تنطبق تماماً على حافة الحافر . وكعب الحافر يجب أن ينطبق على الحدوة حتى إذا كانت الحدوة واسعة جداً أو ضيقة جداً عند الكعب وجب ضبطها حتى تنطبق ، وهذا يتطلب بعض الدق على الحدوة .

وبعد أن يستعد الراعى لإعداد الحافر لحدوه ، يضع أدواته فى أعلى حذائه أو على الأرض قريباً منه ، ويضع المسامير فى فمه ، وكانت هذه المسامير أحياناً تنثنى من أطرافها قليلا قبل دقها ، وغالباً ما يتطلب الحصان أن تربط قدمه ، لكن لا تربط عاليه بل قريبة من الأرض بما يكفى أن يحس الحصان أنه عاجز عن الحركة بعض الشىء ، وحتى ألطف الخيول يعترض على حدوه وخاصة إذا دق راع مهمل مسماراً فى الجزء الناعم من حافره .

ومن الطرق الطيبة لحدو الحصان دفعه إلى سياج حظيرة والاستناد عليه بكتفك ، فاستنادك عليه يجعله يلقى بثقله على الرجل المقابلة ، ويكون من السهل أن ترفع الساق التى تريد أن تركب الحدوة فيها ، وفى رفع ساق خلفية يحسن حمل الرجل خطوة إلى الخلف قبل وضعها بين ركبتيك ، فإذا كنت تحدو رجلا خلفية مثلا ، فأمرر يدك فى بطء على ساقه الخلفية إلى أسفل لتمسك بالقدم ، ثم تأخذ خطوة إلى الوراء وتضع قدمه بين ركبتيك ، وأنت تواجه ذيله ، ومعظم الرعاة يحدثون الفرس أثناء عملية الحدو ليعطوه ثقة حتى يصرف انتباهه عنها .

وكان من المهم أيضاً تنظيف أقدام الحصان لتخليصها من القذارة أو الحصى وغير ذلك ، ويجب أن تنظف كل الفجوات فيها وبخاصة حول الكعب ، وأن يجرى

التنظيف من الكعب إلى الأصبع ، كما أن بطن الحافر والجدار الخارجى يجب تقليمهما لإزالة الحافات الخشنة ، ويجب أن يترك الجدار أعلى قليلا من باطن الحافر .

ثم يجب تقليم الحافر وتهيئته ليكون مستويا ناعماً ، ومن المهم أيضاً أن يكون الجدار مستوياً لينطبق على سطح الحدوة ، وكل هذه الاستعدادات مهمة جداً قبل تركيب الحدوة فى القدم ، لا القدم فى الحدوة ، وكان سحل الجدار الخارجى للقدم لتناسب حدوة صغيرة الحجم خطأ كبيراً قد يؤذى حوافر الحصان .

وعند دق المسمار فى الحافر يمسك المسمار بين الإبهام والسبابة مع إطلاق الأصابع الأخرى ، ويوضع المسمار الأول فى ثقب المسمار الثانى من الخلف بأحد الجوانب ، والجانب المستقيم من المسمار فى اتجاه الخارج ، وبعد التأكد مرة أخرى من أن الحدوة صالحة يدق مسمار فى الجانب الآخر منها لتثبيت الحدوة فى مكانها الصحيح . ولما كان المسمار يدق قريباً جداً من الكعب كان من المحتمل أن تدخل فى مناعم الكعب ، لذلك كان يجب مراعاة ذلك . وكل مسمار يدق يلف سنه إلى الخارج حتى لا يؤذى الحذاء إذا أطلق الحصان قدمه .

ولا يحدث أبداً أن المسامير تدق فى جدار القدم حتى تمسك بها ، ولكى نتجنب ذلك تستخدم مسامير صغيرة ، لأنه يمكن إخراجها بسهولة من الحافر ، وبذلك لا تتلف إلا أقل قدر من الحافر حين يعاد حدو الحصان ، وفى هذا الوضع أيضاً تصنع برشمة المسمار زاوية قائمة مع جدار الحافر عما لو كانت تدق بمسمار كبير ، فالثقوب القديمة من المسامير إذا كانت عميقة تضعف الحافر ، ولكن من ناحية أخرى إذا كانت المسامير موضوعة منخفضة فإنها تمزق الثقوب بسهولة .

وبمجرد دق المسمار يثنى سنه نحو الحدوة أو يلف بمقبض المطرقة ، وبالبرشمة الحادثة على الجدار الخارجى تحت المسمار يجب أن يطرق رأس المسمار فى ثنية الحدوة . وبعد برشمة المسامير يبرد الحذاء فجوة صغيرة فى جدار الحافر تحت المسمار تماما حتى يبرشم المسمار جيدا ، لأن كتلة البرشمة حين تمسك برأس المسمار وتستخدم المطرقة على سن المسمار تهيىء سطحا أكبر لبرشمة أفضل .

وفى المناطق الجبلية تحدى الخيول عادة فى الأقدام الخلفية فقط ، وذلك لأنها لابد أن تنزلق قليلا ، وبأقدامها الأمامية غير المحدوة التى تصبح طرية تتعلم الخيول كيف تنزلق على أقدامها الخلفية وهى الطريقة الصحية لوقف الحصان ، ثم إن الحصان يستطيع أن يدور بشكل أسرع إذا وقف على قدميه الخلفيتين وبذلك يكون أكثر فائدة .

وهناك أنواع كثيرة من الحدوات لكل منها اسمه ، منها الحدوة ذات الكعب المحشو « المجلفط » وهناك « الحدوة القضيب » التى تلحم بها قطعة من المعدن بعرض الكعب ، ويمكن القول بأن الحصان ذا الحافر الأبيض بحاجة إلى أن يحدى مرات أكثر من الحصان ذى الحافر الأسود ، لأن الحافر الأبيض أكثر نعومة وأسرع بلى .

وحين تنزع الحدوات القدمية يجب أن تنزع أطراف المسامير المبرشمة بقصافة . واستخدام الكماشة تحت كعب الحدوة يتطلب تحريكها إلى الأمام والضغط عليها إلى أسفل لاستخدام المسمار ، وبعد نزع الحدوة يجب تنظيف مكانها من كل مادة غريبة ثم يقلم الحافر من كل نتوء جديد فيه باستخدام سكين خاصة أو مقص .

كتب « فيليب أ . رولنز » يقول : « إن حدو الحصان العادى فى الفلاة

عملية مزعجة لهدوء الإنسان ، وحدو بعض الخيول يعتبر معجزة أو عملا شيطانيا حسب ما يرى القائم به » ثم راح يروى قصة صاحب مزرعة أرسل اثنين من الرعاة لحدو حصان وليد ، وبعد سماع صياح وصهيل كثير ملأ المزارع المجاورة كلها ذهب إلى حيث وجد مهرا غاضبا ينظر إلى الرجلين وقد سال العرق على جبينهما فسألهما : « هل انتهيتما من حدوه ؟ » وإجابه « بيل » قائلا : أظن ذلك ، لقد ركبنا قطعة حديد على كل ما طار فى وجوهنا ، لقد كان من رحمة السماء بنا أن الخيول ليست من الحشرات ذوات المائة ساق » .

وبصرف النظر عن وحشية الحصان ، فقد كانت عملية الحدو فيما مضى من واجبات راعى البقر ، لكنها كانت أحيانا عملا مستحيلا استحالة من يوسوس لزميل فى ريح عاصف ، أو كمن يحاول أن يحك أذنه بمرفقه .

(٣١)

الطـــواف

كان الطواف من العمليات الكبيرة فى حرفة رعى الماشية فى الزمن السالف الذى كانت المراعى فيه بغير سياج والعشب لمن يرعاه ، والطواف معناه حصاد الماشية : جمعها وفرزها ، ووشمها صغيرها وكبيرها ، إذا لم يكن وشم الملكية واضحا بالنار على جلودها ، والطواف وإن كان عملية تختلف عن مجرد الانتقال بقطيع كبير من الماشية فى الفلاة إلا أن العمليتين عبارة عن جزءين متكاملين من حرفة الرعى فى تلك الأيام الخالية .

وعملية الطواف ليست كغيرها من العادات فى مناطق الماشية ، فهى ليست أمريكية أسبانية ولا أمريكية غربية فى أصلها ، بل نشأت فى منطقة الجبال فى « كنتكى وتينيسى ، وكارولينا ، وفرجينيا » فالناس فى تلك الولايات كانوا يطلقون ما شيتهم ثم يعقدون طوافا كل سنة لجمعها ، لكنهم كانوا يقومون بذلك بطريقة اعتباطية ، أما الراعى الغربى فقد أكمل الطريقة ، ووضعها تحت أنظار الناس كناحية هامة من نواحى حرفة الرعى .

كان القائم بالطواف فيما مضى يجمع عددا من أصحاب القطعان الجيران للبحث عن الماشية الضالة ، لكن شئون القطعان المجاورة الصغيرة لم تكن تشمل بحثا دقيقا منظما لمنطقة كبيرة من الأرض ، كما لم تكن تشمل اعترافا منتظما بملكية كل الماشية المجموعة ، وهو ما يقصد من الطواف فى الفلاة فى السنوات الأخيرة .

وكانت الماشية التى تجمع من المراعى المجاورة تسمى « أبقار الصيد » أو « قوافل البقر » أو « الماشية الضالة » .

وقد نشأت فكرة الطواف فى الفلاة حين اتسعت صناعة الماشية وزادت ، وتحسنت فى النظرة إليها ككل شىء غيرها فى عالم متطور ، وأصبح الطواف ضرورة من الضرورات التى نشأت من اشتغال المنطقة برجال معهم قطعان كبيرة وبازدياد أصحاب المزارع والقطعان بدأت الفلوات تتداخل حدودها بعضها فى بعض وهيئت بذلك الفرصة لاختلاط قطعان الجيران ، وعلى ذلك كان لابد أن يتبنى أصحاب القطعان خططا تعاونية تعمل فى ظلها الفلوات فى جمع الماشية وفرزها ، وعملية الطواف تختلف فى تفاصيلها باختلاف المناطق ، لكنها فى أساسها واحدة فى كل مناطق الرعى .

كان هناك طوافان كل سنة : واحد فى الربيع ، وآخر فى الخريف ، أما طواف الربيع أو طواف العجول فكان لوشم العجول الوليدة ، ويبدأ هذا الطواف حين يظهر العشب فى الربيع ويقاس الوقت فى معسكر البقر لا بتاريخ التقويم ، بل بظهور العشب حين تبدأ الفلاة فى الاخضرار .

أما طواف الخريف أو طواف اللحم فكان الغرض منه جمع الماشية لشحنها إلى الأسواق ولوشم العجول الحديثة أو التى أغفل وشمها فى الربيع ، والعمل يسير فيها على نفس الأسلوب السابق ، غير أن الطواف يتم فى تأن وروية ، لأن الحيوانات تكون قد اكتنز لحمها ، وكان الطواف أهم عمليات مناطق الرعى كعملية حصاد الفلاة ، وأصبحت كلمة « العمل » تنطبق على كل عمليات الطواف وجمع الماشية ووشمها .

وقد بدأت صناعة الطواف وانتشرت فى الغرب حتى أصبحت نظاما كاملا كما يعرف اليوم ، ولما جاء السياج بطلت العادة ، لكن فى أيام الفلوات المطلقة كانت عملية الطواف تغطى آلاف الأميال ، فقد كان أصحاب القطعان يجدون

من الضرورى لحمايتهم المشتركة أن يتخذوا إجراء تعاونيا ، فوضع نظام الطواف واتبع وأتقن ، وأصبح كل صاحب مزرعة يقدم العمال اللازمين ويتحمل نصيبه من النفقات العامة ، وكان هذا النصيب يتناسب مع عدد ما يملكه من رءوس. وكان كل صاحب مزرعة يقدم الخيول اللازمة للفرسان ، أما أصحاب المزارع الكبيرة فكانوا يقدمون عربات المئونة ، وكانت كل منطقة تقسم إلى أقسام تفحص على التتابع فى دورات منتظمة ، وفى نهاية كل طواف يعرف كل مالك كل زيادة فى قطيعة وعدد الرءوس التى كانت له وجمعت من فحص الفلاه .

على أن نظام الطواف فى الفلوات المطلقة « المفتوحة » لم يدم إلا سنوات قليلة نسبيا ، لكنه فى أثناء قيامه كان هو النظام الذى يتطلع إليه كل راعى بقر بكثير من الاهتمام والعناية ، إنه لم يكن وقت حصاده فحسب ، بل كان فرصة يجتمع فيها بأصدقائه القدامى ويخلق صداقات جديدة .

وبعد تنظيم اتحادات أصحاب مزارع الماشية صدرت قوانين تنظم الطواف وتحدد المكان والزمان الذى تجرى فيه هذه الطوافات ، ولما كان الأصل فى تنظيم ذلك حمايتهم من اللصوص ، فقد صدرت قوانين تمنع أى فرد من العمل فى الطواف لكسب شخصى ، وكفلت التواريخ المحددة لكل فرد فرصته ، كما منعت فحص الفلاة أكثر من مرة .

وفحص الفلاة قبل الطواف المنتظم كان يساعد بعض الناس على جمع بعض الماشية الضالة التى تصبح ملكا لهم .

وكانت خطة الحملة التى تشمل مساحة كبيرة من أرض الفلاة توضع بعناية شديدة حتى تحقق نتائج طيبة فى الوقت المحدد لها ، وكانت مساحة المنطقة

تتحدد فى ضوء عدد الحاضرين من أصحاب المزارع أحياناً ، وتبعا لطبيعة المكان أحيانا أخرى .

وصاحب المزرعة لايحس حاجته للراعى أكثر مما يحسها فى الطواف ، حيث إن العملية تتطلب مهارة خاصة ، وجرأة وشخصية كبيرة ، وقد تمضى الأيام الأولى من الطواف فى انتظار تجمع القطعان فى مرح وفراغ لأن الرعاة يعرفون أن العمل إذا بدأ فلن يكون هناك مجال للعب ، ومع ذلك فكل رجل يعرف ما عليه من واجب ويعد نفسه له ، وكل أدواته معدة وصالحة : حباله وأحزمته وثيابه ، فإذا كان بين خيوله حصان غشيم أخذ يدربه تدريبا كبيراً .

وعملية الطواف عملية هامة ، والأيام التى تسبق العمل الجاد فيها تمضى كلها فى التنظيم والاستعداد ، ثم إن التجمع نفسه هو من طبيعة الاتحاد ، لأنه يجمع بين عدد كبير من أصحاب القطعان فى مناطق شاسعة كل منهم صديق للآخر أو من معارفه .

والاختيار الصحيح للراعى فى الطواف ليس هو العمل الذى يؤديه فى المعسكر ما بين تحبيل أو وشم ، بل هو قدرته على أن يحضر ماشية من أوعر الأماكن وأكثفها ، فهذا يتطلب معرفة تامة بالمكان الذى يركب فيه ، كما يتطلب نظراً سريعا وإدراكا طيبا إلى جانب المهارة فى الركوب .

ورئيس العربة الذى عليه أن يصدر لهم الأوامر بالتحرك يتقدم رجاله على ظهر جواد ، فهو يتميز ، بذلك فإذا وصل إلى المكان المناسب فى رأيه ولحق به من وراءه من رجاله ، توقف وجمع رجاله من حوله ثم أرسلهم فرادى أو مثنى إلى نقط محددة يعودون منها وهم يسوقون أمامهم ماشية من مختلف المناطق وتسمى هذه العملية « توزيع الفرسان » أو « إصدار أوامر التحرك » .

وحين يتوقف الرجال لتلقى الأوامر أو « القذائف » يترجلون عن خيولهم لإعادة ترتيب سروجهم وللاستعداد للرحيل الشاق الذى ينتظرهم ، ويرسل الرعاة مثنى مثنى عادة ، واحد يعرف كل خفايا الفلاة مع واحد لا يعرفها ، وواحد يركب جواداً لا يعتمد عليه مع آخر يركب حصانا يعتمد عليه .

وهناك شىء من الفن فى توزيع الرجال بحيث لا تترك فجوات فى الفلاة بغير راكبين قد تكون فيها ماشية تضل فيها ، فذلك يتطلب دراية بالفلاة من جانب الرئيس وطاعة تامة له من جانب رجاله ومن جانب الخيل التى توسل لهذا العمل ، أما المسافة بين الراكب وغيره فتتوقف على نوع الفلاة وعدد الماشية .

والرعاة الذين يعملون فى الدائرة الخارجية يسبقون غيرهم فى الرحيل ، لأنهم يحتاجون إلى وقت أطول رغم أنهم يركبون أقوى الخيول وأصلبها ، ولأنهم يركبون الحدود الخارجية للمنطقة ويسمون طلائع القيادة ، أما الحدود الداخلية القصيرة فالعـــادة أن يركب فيها رجال لم تصل خيولهم إلى درجة كبرى من الصلابة فى هذا العمل . وفى كل رحلة يعمل كل راع على أن يبقى جواده مستريحاً حتى يكون على أهبة العمل الجاد فى الأدغال والخوانق ، وأحياناً فى المناطق التى تجد فيها الماشية أمكنة تختبىء فيها يذعرونها بالنار « بأن يطلقوا البنادق ذات الستة أعيرة » .

وبمجرد أن تركب هذه الجماعة من الرعاة إلى الفلاة تنتشر فيها بعد أن تقسم نفسها إلى جماعات أصغر ، ثم ينتشرون حتى تفصل بينهم مسافات تختلف باختلاف طوبوغرافية المكان ، وعلى كل راع أن يمسك بكل الماشية التى يجدها فى الأرض التى يركب فيها ، فإذا كانت الماشية متفرقة عمل فى البحث عن أفرادها أو جماعاتها الصغيرة المتفرقة .

وسرعان ما ترى سحب التراب فى كل مكان ، ومعنى هذه السحب الترابية فى الفلاة أن القطعان قد جمعت وسيرت ، وكلما ضاقت الدائرة كثر عدد القطعان وتكثف التراب ، وكلما تقدم الطواف اشتد ضغط العمل على الرعاة ، واستطالت ساعاته وحمى وطيسه ، ويظل بعضهم يعمل ما بين اثنتى عشرة وخمس عشرة ساعة فى اليوم ، والرعاة جماعة أشداء صلاب العود ، يتحملون المشقة أكثر من أى عمال غيرهم على الأرض ، وعملهم محفوف بالمخاطر التى يلاقون فيها حتفهم .

وهذا الحشد من الماشية المتجمعة يساق إلى مكان معلوم ما بين عجول وليدة تسير فى استحياء وراء أمهاتها ، وفى خطوات قصيرة وقد تدلت ألسنتها من جانب أفواهها تقطر زبداً كثير الرغوة ، وبقرة تثغو ثغاء طويلا عالياً ، وكل هذا الثغاء والعواء ، مع قرقعة القرون ووقع الحوافر والتراب الثائر من الماشية الثائرة ، ليس إلا جزءاً من الطواف ، يضاف إليه صياح الرعاة فى موسيقا موحشة محمومة .

وما أن تصل القطعان المختلفة إلى المكان المقصود حتى يحيط الرعاة بالماشية ، وبعد وقت كاف لأن يغير الرعاة جيادهم ، يقوم هؤلاء الرعاة بعملية قطع للقطيع كله ، وهى عملية تتطلب مهارة فائقة لما فيها من خطر شخصى ، لأنها عملية شاقة متعبة تستوجب أن يكون الراعى يقظاً منتبهاً فوق جواده ، ويقوم بها ثلاثة رجال أو أربعة ، لأن كثرة الرجال عن ذلك تجعل الماشية تثور ، فتنفصل الأم عن وليدها ، والسرعة فى العمل لا توفر وقتاً كثيراً ، فمن الخير أن يسير العمل فى بطء وهوادة .

و « القطع » جماعة من الماشية تفصل عن القطيع لغرض ما ، كالشحن أو الوشم ، و « قطع الأبقار ذوات العجول » هو فصل كل الأبقار ذوات العجول غير الموشومة فى قطع مستقل ، وإذا قطع قطيع لشحنه إلى الأسواق سمى « قطع

لحم » والعادة أن يقوم بعملية القطع رجل واحد ، وقد يقوم بها رجلان .

والرعاة الذين يتولون أمر القطيع يقال عنهم إنهم « يمسكون القطع » ، وهذا يتطلب مهارة فى الركوب ويقظة كبيرة ، لأن أبقار القطع تحاول أن تعود إلى القطيع إلى أن يكبر حجم القطع ، وهذا القطع من القطيع الأصلى إلى قطوع صغيرة لأى سبب كان يسمى « تشغيل القطيع » ، لكن كلمة « العمل » أو « العمل العام » تقصد بها كل عمليات الطواف .

وبعد يوم واحد غالباً ـ حين يلح العمل ـ يبدأ ما يسمى « القوافل الليلية » أو « القمرية » ، فتخرج قوافل من الرجال ، من كل مزرعة واحد أو أكثر إلى مسافة عشرة أميال أو خمسة عشرة ميلا بعيداً عن عربة التموين ويعسكرون هناك ، وفى الصباح الباكر يبدءون فى سوق الماشية من المنطقة التى يقررونها لذلك اليوم ، ونظراً لأنهم يعملون بعيداً عن عربة التموين ، فإنهم يأخذون معهم أكياساً من القطن فيها بعض الطعام ويسمى ذلك أحياناً « رحلة كيس القطن » كما أن العمل فى منطقة يتعسر فيها سير العربات يسمى « ضوء القمر » .

والماشية الأخيرة التى تساق من الحدود الخارجية أثناء عملية الطواف تسمى « التمشيط » ، إذ يجب تمشيط كل الطرقات وسفوح الجبال والسهول جيداً بحثاً عن الماشية المختبئة فيها ، والتمشيط الدقيق للفلاة ضرورى لأنه إذا كان عجل لا يوشم قبل أن يرحل فى رفقة أمه ، اعتبر ضالا ومن حق أى باحث عنه غير صاحبه الأصيل أخذه ، وأحياناً قد يعاد إرسال راكبين « لفحص » الفلاة ، ومعنى ذلك العودة إلى الفلاة للبحث عن ماشية ضلت ، فإذا أرسل رجل فى عملية فحص وحده وبقى بعض الوقت أخذ معه متاع معسكر فرد ، فإذا كان الرئيس قد جمع كل الماشية التى له فى منطقة ما قيل إنه « غطى كلبه » .

وتستخدم بعض المزارع راعياً يزور المزارع الأخرى على مسافة خمسين ميلا أو أكثر أحياناً ليجمع الماشية الموشومة بوشم مخدومه من أى مكان يجدها فيه ، ويأخذها معه إلى المزرعة أو الفلاة التالية ، ويعود بما جمعه منها إلى مزرعته ، ثم يغير خيوله ويخرج مرة أخرى للفحص ، ويسمى هذا الراعى : « الراكب المرتد » .

وحين يقوم رعاة البقر فى فلاة من الأرض بتجميع مواردهم ورجالهم سمى ذلك « طواف التجميع » ، ومعسكر الطواف لهذا التجميع يسمى « معسكر التجميع » كذلك . وفى السنوات الثمانينية استولى اتحاد أصحاب مزارع الماشية فى « ويومنج » على مساحة واسعة من الأرض ، فكان يضطر إلى إذاعة إعلانات عن تواريخ بدء الطواف .

وكان نقل معسكر الطواف من المناظر المثيرة ، فيقوم رئيس العربة بإعطاء تعليمات لا يفهمها إلا الراعى العليم بالمنطقة ويوقظ صقر الليل الركب فى البكور فيسرجون بعض الخيول ويتركون الباقى يرعى فى المنطقة المجاورة ، وتلف حبال الحظائر وتوضع فى العربة ، ويلف الفراش ويكوم فى العربة كذلك ، ويساعد بعضهم الطاهى فى المطبخ ، كما يقوم آخرون بحزم أوانيه وأوعيته .

ويتم إعداد كل شىء ، ثم يزحف الطاهى إلى مكانه فى العربة ، ويأخذ فى إعداد الطعام ، وهو يعجب كيف تجمع هذا الجمع الحاشد . وفى الوقت الذى يكون فيه الرعاة قد وصلوا إلى المعسكر الجديد عند الظهر يكون الطاهى قد أعد معسكراً له ، ووجدوا عنده وجبة ساخنة فى انتظارهم .

وبعض المزارع الكبيرة يستخدم دليلا أو مرشداً يرشد عربات الطواف عبر السهول والمواقف فى الطريق إلى مكان المعسكر التالى ، ويجب أن يكون خبيراً بالمكان ، وأن يستخدم حسن إدراكه فى تحديد المكان للمعسكر التالى من حيث توفر الماء والبيئة المناسبة لرعى الماشية .

وفى الخريف إذا جمعت مزرعة كل حيوان صالح للسوق وساقته إلى حظائر الشحن قيل إن الماشية « على ذمة الشحن » ، وكان هذا يحدث فى الغالب بسبب ظروف العشب أو كثرة الرعى أو أسعار السوق ، وأحياناً فى الخريف بالمناطق الجبلية يطاف بالماشية من الأرض العالية إلى الوديان لقضاء الشتاء ، وبعض المزارع يخصص قافلة طوافه من خمسة رعاة أو ستة معهم طاه لركوب الفلاة فى شهور الشتاء لوشم العجول الوليدة وغيرها من العجول التى لم توشم أثناء الطواف .

ويسمى الرعاة هذه الفترة « النوم فى العراء » ، لأنهم ينامون فى العراء ، لكن هذا الطواف لا يستمر وقتاً طويلا .

ومن المناسب أن نذكر أن الطواف كان من عمليات الزمن الماضى ، وأن كان ما يزال يجرى بشكل مختلف نوعاً فى بعض المناطق الغربية ، وما تزال الكلمة مستعملة بمعناها العام وإن خرج المعنى إلى مجرد تجميع القطيع بعضه مع بعض ، فإذا كان قطيع يساق إلى محطة سكة حديد لشحنه ، كان تجميع القطيع من أوليات العمل ، أما العملية الحقيقية فكانت شيئاً آخر ، لقد كانت تجميع الماشية فى الفلاة ، وكان ميدانها السهول المفتوحة ، لكن إقامة السياج قضى على الفائدة منها ، ولم تترك لنا إلا ذكرى تلك الأيام التى لن تعود .

(٣٢)

السمات والعلامات

لغة السمات والعلامات لغة خاصة تتطلب معرفة خاصة رمزية ومفيدة معاً وهذه المعرفة تبين الراعى الأصيل أكثر من كل شىء عداها ، فهى معرفة لا يمكن شراؤها إلا بالخبرة ، ومن اليسير كتابة كتاب ضخم عن العلامات وأصلها وفوائدها وطرق استخدامها ، لكن ما نقصده أن نلتزم لغة الرعاة فى كل جانب من جوانب عملهم .

أما أصل السمات فيرجع إلى تاريخ قديم ، ولم يسبقها عمل آخر للدلالة على الملكية الدائمة ، يقول الراعى فى ذلك : « إن السمة شىء لا يمحوه الماء » .

وهناك أنواع كثيرة من السمات ، وأشكال كثيرة ، ولكل منها اسمها الخاص بها ، وهى علامات يعرف بها أصحاب الماشية ما شيتهم وعلامتهم المسجلة ، وقد أصبح الوشم عملا منتظما ، وأصبحت العلامات تسجل عند موظف مختص فى المنطقة أو الولاية كوثيقة مكتوبة تتيح له الحق فى أن يرسم بالنار على جزء من الحيوان رسما خاصا وقطوعا محددة فى الأذن أو فى الجلد ، فإذا لم ينازعه فى هذا الرسم أحد كان له الحق فى تسجيله فى كتاب العلامات المسجلة .

وإذا أراد أحد أن يبيع حيوانا استطاع المشترى أن يضع علامته عليه ، لكن كيف يمكن ذلك دون أن يثير عند جاره شبهة أنه سرقها ؟ كان ذلك يتم بوضع ما يسمى « علامة البيع » فصاحب الماشية الأصيل يضع علامة على

جزء آخر من الحيوان تدل على أنه باع حقه فيه لمالك جديد تحمل الماشية علامته أيضا ، ولها قوة إلغاء علامة الملكية ، وبهذا تعتبر وثيقة بيع ، وكانت توضع غالبا فى نفس الجانب الذى وضعت فيه العلامة الأصيلة .

وحين تلغى إحدى العلامات بالشراء أو باستكشاف أن علامة وضعت خطأ على الماشية أو وضعت فى غير مكانها الصحيح ، كانت العادة بأن القائم بالوشم يشم بالنار خطا فوق العلامة الأصلية ، ويضع علامته الصحيحة بأعلى الوشم القديم أو تحته ، وكذلك على جزء الحيوان الصحيح إذا كانت العلامة الصحيحة موضوعة فى غير مكانها ، وكان إلغاء العلامة فيما بعد يتم بتكرار العلامة غير المطلوبة ، ووضع العلامة الجديدة على المكان الصحيح من الحيوان ، وبذلك لم تعد هناك حاجة إلى الوشم بخط من النار على العلامة القديمة .

ولما فتحت الفلاة أمام الماشية بدىء باستخدام علامة أخرى سميت « علامة الطريق » ، وهى علامة خاصة بأى رسم لقطعان الماشية ، كدليل على ملكيتها فى الطريق ، وقد ساعدت هذه العلامات أصحاب الماشية فى الاحتفاظ بماشيتهم من أن يختلط بعضها ببعض .

وظلت هذه العلامة تتبع فى تكساس إلى أن صدر قانون يقضى بضرورة وضع علامة على كل قطيع يتعدى الحدود الشمالية للولاية ، على أن تكون علامته كبيرة واضحة بالشكل الذى يراه ، وأن توضع من ناحية الشمال خلف الكتف .

ثم كانت فى تكساس علامة أخرى تسمى « علامة الولاية » وهى عبارة عن حرف أو حروف لكل منطقة من ولاية تكساس توضع على رقبة الماشية ، وليس لها تشابه بغيرها ، وكان الغرض منها صعوبة سرقتها ، إذ تتعذر على اللص إزالة علامة الولاية المسجلة فيها .

وكانت العلامات تتكون من حروف أو رموز أو طغراء أو غير ذلك ، وكانت قراءة العلامة فنا يحار الغريب فى قراءتها والوقوف على أصل خطوطها وحروفها وأقوامها ، وكان الراعى من ناحية أخرى يفخر بقدرته على التعرف عليها صحيحة ، فهو يسجل علامة كل مزرعة فى خياله ويستطيع قراءتها من بعد تعجز معه العين غير المدربة .

وقد دعت العلامات إلى وضع لغة خاصـــة بها ، وهى كأى لغة أخرى لها قواعدها ، فحروف العلامة تقرأ من أعلى إلى أسفل أو من الخارج إلى الداخل أو من الشمال إلى اليمين ، والقدرة على قراءة العلامات يسمى « معرفة العلامات » .

و « خاتم العلامة » كالذى يستعمل فى هذه الأيام يصنع من قطعة حديد تحمى فى النار لوشم العلامة كلها فى طبعة واحدة .

وكان عسيرا أن يسوق الراعى رأسا أو رأسين لوشمهما ، أصعب من سوق قطيع كامل ، فكان الراعى الماهر يتجنب ذلك ، ومن هنا نشأت فكرة الوشم فى الفلاة ، فكان هذا الإجراء يتبع فى الفلاة فى الأيام السالفة ، أما فيما بعد فقد كان ينظر إلى هذا بعين الريبة إلا فى حضور عدد كبير من رعاة المزرعة ، وكانت الماشية التى توشم فى الفلاة تسمى « وشم الفلاة » .

أما « وشم الحظيرة » فكان يجرى فى الحظيرة ، وقد لا يكون ممتعا كالوشم فى الفلاة ، لكنه أسهل على الرعاة والماشية والخيول ، فإنه نظراً لعدم وجود قطيع كبير يستلزم الرقابة كان يمكن للرعاة جميعا أن يساهموا فى عملية الوشم وكان العمل يسير كما يسير فى الفلاة ، غير أنه عند الوصول إلى الحظائر تفصل الأمهات عن العجول الوليدة ، وتظل الأمهات تثغو حتى تعود إليها عجولها وتطمئن عليها وتواسيها .

وتستخـدم المزارع الحديثة ما يعرف « بوشم المحبس » فيمر الحيوان فى محبس ضيق وبوضع أمامه قضيب وينزل من ورائه آخر حتى لا يتحرك ثم يوشم من جوانب الحاجز .

ووشم الماشية المنظم يجرى عادة فى الربيع ويسمى « وشم محصول العجول » ، لأنه كان يشمل وشم عجول الموسم ويشترك فيه اثنان من الرعاة لعملية المسك ، ولم يكن أجمل من أن ترى حبالا ماهرا وهو يمضى وسط القطيع يهز أنشوطته ليختار العجل الذى يرى سحبه للوشم ، وبهزة قصيرة من حبله — حتى لا يثير القطيع — يلقى أنشوطته ليمسك به ، ثم يستدير حصانه تلقائيا ويتجه به نحو الوشامين .

وحين يصل العجل إلى طرف الحبل يتقدم أحد الرعاة ليمسك الحبل بيده اليسرى بين الحصان والعجل ثم يترك الحبل ينزلق من يده حتى يقترب العجل من الوشامين ويمسك أحد الرعاة إذن بالعجل من الجانب المقابل له وينزل يده على ردف العجل ، وبضغطه بركبته على جانب الحيوان وهو يثب وثبته التالية يهوى العجل على جنبه ، فيرفع الحبل عن رقبته أو كعوبه حتى يذهب الراعى ليمسك بغيره .

وبعد أن يبسط العجل على الأرض يجلس راع من ورائه وهو يزيح بقدمه إلى الأمام رجل الحيوان الخلفية التى من أسفل ويمسك بيديه الرجل الخلفية الأخرى ليشدها بقدر إمكانه إلى حجره ، ويضع راع آخر ركبته على رقبة العجل ، والأخرى على كتفه كما يمسك بالساق العليا مثنية عند الركبة بكلتا يديه ويصيح « العجل على الأرض » ، ومعنى ذلك أن العجل جاهز للوشم ولوضع العلامة على أذنه وغير ذلك من العمليات ، وكل ما كان العجل يستطيع القيام به هو أن يتلوى أو يثغو ، ولكل عدد من الرعاة حبالهم التى يجلبون العجول بها ، والحبال الماهر يستطيع أن يجعلهم فى عمل دائم ، فإن وشم العجول عمل جاد لا راحة فيه -

و « الوشام » هو الرجل الذى يقوم مباشرة « بوضع الخاتم » على الحيوان .

وبمجرد أن يمدد الحيوان على الأرض يصيح فى طلب خاتم محمى « باسم الوشم المطلوب » فيسرع القائم بحمى الأختام إليه بالخاتم المطلوب وهو يتوهج ويمسح الوشام على الخاتم بمقدمة ذراعه ليزيل تراب الفحم العالق به ثم يضغطه على جلد العجل ، وتسمى هذه العملية « طبع الوشم » ولا يتطلب وضع علامة على الأذن إلا ثوانى قليلة بسكينة حادة ، لكن هذه الثوانى القليلة هى تعذيب قاس للعجل ، والعادة أن العجل يحتمل السكين بغير أنين ، أما الخاتم المحمى فيسبب له ويلا مؤلما من الرعب والخوف ، فإذا أطلق سراحه كافح حتى يقف على سيقانه ووثب يبحث عن أمه يلتمس عندها الطمأنينة .

ويتوقف نجاح الوشم على خبرة الواشم بعمله ، فعليه أن يكون على معرفة خبيرة باستخدام خاتم الوشم استخداما دقيقا ، فإذا لم يكن الخاتم محميا تماما فقد لا يترك أثرا ، وإذا كان ساخنا جداً فانه يحرق الجلد إلى درجة عميقة تشوى اللحم وتطمس الخاتم وتترك جرحاً قد يصبح معديا ، وإذا كان بارداً لم يترك وشما بل يترك التهابا ، وعلى ذلك يجب أن يكون ساخنا بما يكفى لحرق الشعر والتأثير فى سطح الجلد تأثيراً يشفى بعد وقت قصير ، على ألا يسمح للشعر بأن ينمو فوقه ، ويجب أن يكون الخاتم خلوا من أى صدأ أو تلوث حتى يترك وشما ظاهرا ، فإذا كان الخاتم محميا بسخونة مضبوطة ، وكان ظاهرا فإنه لا يحتاج إلى ضغط شديد عليه . وفيما يلى بعض التحذيرات التى يجب أن يعيها الراعى عادة :

لاتحمى الخاتم إلى درجة كبيرة تشعل النار فى الشعر وتؤدى فى الغالب إلى وشم غير ظاهر ، ولا تستخدم نار الفحم لأن نار الخشب أحسن وقود لتحمية الخاتم ، ولا تستعمل أحماضا أو غيرها ، لأنها تترك ندوبا لا وشما وتسبب التهابا

شديدا ويكون الوشم لا يقرأ ، ولاتستخدم فى ختم الماشية خاتم الخيول الصغير ، فالخاتم الصغير لا يترك وشما مقروءا ، ولاتستخدم خاتما رقيقا لأنه يحفر حفراً عميقا أو يترك جرحا سطحيا سرعان ما يغطيه الشعر ، ولا تحاول أن تشم حيوانا مبللا أو مندى ، ولا تكن عجولا ، فالماشية ستحمل الوشم طوال حياتها ، وأنت تريد أن تعود إليك ، ولا تكن رقيق العاطفة ، بل يجب أن يغوص الخاتم بحيث يزيل الشعر والطبقة السطحية من الجلد ، وحين ترفع الخاتم يجب أن يكون الوشم فى لون جلد السرج ، ويحسن تجنب الأختام ذات الحافات الحادة أو الأختام ذات المسافات الضيقة بين العلامات ، وإذا أردت وشما نظيفا حتى لو استخدمت خاتما جيداً فإنه يصعب أن تحصل على وشم على الحيوان إلا إذا كان راقداً كطفل نائم طول الوقت ، وعند طبع الختم يحسن هدهدته حتى يتخلل بعض الهواء من تحته ليكون الختم أكثر تجانسا .

والخاتم له أسماء كثيرة منها « الحديدة » اختصارا لكلمة « حديدة الوشم » ومنها « السخنة » أو « المحرقة » أو « الموقد » ، وبعد أن يوشم العجل يؤخذ إلى أمه القلقة عليه ، وقد أصبح يطلق على الوشم « حرق العجل ورده إلى أمه » أو « حرق العجل وقص شعره » والواقع أن شعر العجل يقص بعضه قبل الوشم .

والمشرف على النار هو الذى يتولى حمى الأختام ، وعليه أن يراقب مقدار الوقود اللازم مقدما بما يكفى العمل المطلوب ، وفى الأيام الأولى حين كانوا يقومون بالوشم فى مناطق لا شجر فيها كانوا يعتمدون على عظام البقر ، لكن كان من الصعب الاحتفاظ بمثل هذه النار مشتعلة ، وعمل المشرف على النار عمل قاس ، فالحرارة والدخان يؤذيان عينيه ، لكنه لا يجرؤ على أن تكون أختامه باردة ، بل عليه أن يضع وقودا جديدا دائما ، وأن ينفخ أو يهوى على

النار الضعيفة بقبعته وهو يحاول أن يبعد الدخان حتى لا يؤذى عينيه ثم يجرى نحو الواشم بالأختام ، فهو دائما فى حركة ، ولا يتوقف عن عمله أو يسمح له بإطفاء النار إلا بعد أن تغرب الشمس .

وهو كغيره من القائمين بالوشم يجب أن يعرف العلامات والأختام التى تلزمها ، فإذا صاح الواشم فى طلب خاتم معين ، كان عليه أن يعرف أى الأختام يريد ، وبعد رفع الخاتم عن جلد الحيوان يأخذه إلى النار ويدفنه فيها ليحمى استعدادا لوشم البقرة التالية .

والذين يقطعون علامات الأذن أو غيرها يسمون « الجزازين » أو « القطاعين » وهم يجلسون القرفصاء ، ويسنون مشارطهم على قطعة من حجر الصوان ويستخدمون سكينة عادية من التى يستخدمها الرعاة فيعيدون سنها كلما ثلمت من كثرة الاستعمال ، وعملهم عمل دام ، لأن للعجول طريقة فى تطويح رءوسها بعد قطع علامات آذانها ، وهم لا يضيعون علامات الاذن فحسب ، بل يخصون فحول المستقبل ، وعليهم أن يعرفوا مختلف علامات الأذن ، وهم يعملون فى التراب وفى دخان الشعر المتطاير من الحريق ، وفى الدم الذى ينزف من عمليات القطع ووسط الاضطراب والثغاء الصادر من الحيوانات التى يجرى العمل عليها ومن أمهاتها القلقة ، فمنظرهم بعد الانتهاء من العمل منظر مفزع رهيب .

و « الأطباء » أو « رجال الطب » يقومون باللمسات الأخيرة فى العملية كلها ، فهم يسرعون بوعاء القطران أو غيره من المواد المانعة للعدوى ويغطون بها الجروح الناشئة من العمليات ، ورجل « الحقن » يستخدم محلوله بسرعة ومهارة يحقن بها الماشية ضد الأمراض المعدية .

وليس فى عملية الوشم ماهو نظيف إلا عملية « المسجل » ، وهو رجل يكلف بالعمل عادة من قبل قائد الطواف ، الذى يختار من بين الشيوخ رجلا من

أصيبوا حديثا فى العمل أو أصبحت صحته لا تقوى عليه ، والمهم أنه يختار لأمانته ، لأن هـذا العمل يتيح فرصا كثيرة لتزوير السجلات ، وعلى بيانه يتوقف تقدير المالك لأرباحه فى الموسم ، فإذا كانت له قدرة على الأعمال الكتابية كان ذلك من الصالح ، ورغم أن عمله يعتبر أسهل عملية إلا أنه يقوم بعمل هام إذا كان من رعاة البقر حقاً .

ففى كل مرة يتقدم فيها عجل نحو الواشم يسمع الرعاة يتغنون باسم علامة أم العجل وجنسها ، وهو يردد النداء ويقيده فى سجله ، وكلما كثر عدد العجول غير الموشومة طال ما يسجله فى دفتره ، وبين القيد والقيد يقضى وقته فى شحذ قلمه الرصاص الذى يتآكل بسرعة ، وفى تلك الأثناء ينادى الواشم فى طلب عجول أخرى بأن يقول « مزيدا من التبن » لكن هذا النداء كان كالموسيقى فى أذن المسجل ، لأنه يتيح له فرصة من الراحة .

والعمل فى حظيرة ممتلئة بالعجول المكوية بالوشم عمل لا يحتمله الضعفاء وله لحظاته الخطرة ، فالأمهات القلقة والعجول الموجوعة تجعل الوشم شيئاً مثيراً ، فحين تسمع بقرة أم ثغاء صغيرها تتهيأ للنطح ، فيجب أن يكون الراعى على حذر حتى لا يفاجأ بقرونها ، فإذا سمع نداء يقول « ابعد عن البقرة » أو « انتبه » فليس من العار أن يهرب .

وهناك أشياء كثيرة تحدث حول نار الوشم ، فالرعاة يتندرون بعضهم على بعض ، ولما كان يجتمع حول النار رعاة من مختلف المزارع لم يكن أحد يستطيع أن يعرف من أين تأتى النكتة التالية ، وكان إذا رفس عجل أحد الرعاة ضحكوا عليه حتى يستلقوا على خيولهم .

وهكذا يسير العمل بمهارة تجعل لكل حركة قيمتها إلى أن يعود آخر عجل إلى أمه القلقة ، ويكون الهواء غاصا بالدخان ، والتراب وروائح العجول والرعاة

تعلوهم القذارة والدم ، وعيونهم ملتهبة من التراب والدخان .

والعلامة التى تترك أثراً عميقاً تسمى « علامة دائمة » كما أن قيد الماشية فى دفتر يسمى « تسجيل العلامات » .

أعود إلى قراءة العلامات فأحاول أن أوضح بعضها ، فالعلامة التى تحيط بها خطوط من نواحيها تسمى « علامة صندوقية » أما إذا كانت بغير إطار فتسمى « علامة مطاقة » و « العلامة المقعدية » هى العلامة التى ترتكز على خط أفقى يكون كالمقعد لها ، و « العلامة المائلة » هى العلامة التى لها بروز فى قاعدتها يصنع زاوية بدرجة ما ، و « العلامة الطائرة » هى العلامة التى تكون لحروفها أو أرقامها أجنحة ، أما العلامة « المتشعبة » فهى العلامة التى يكون الشكل ٧ ملحقاً بأى جزء من حروفها .

وأى حرف أو رقم يميل عن وضعه العادى على أحد الجانبين يسمى « عارقة بايدة » و « العلامة الشائكة » هى العلامة ذات البروز القصير فى جزء منها ، والخط المستقيم يسمى « قضيباً » إذا كان فى وضع أفقى ، فإذا جرى فى وسط حرف سمى « صليبا » ، فإذا كان رأسياً سمى « واحدا » فإذا كان الخط الأفقى المستقيم طويلا يمتد من أول الكتابة لآخرها سمى « حاجز السياج » .

والأرقام الرومانية تستخدم كعلامات أيضاً و « العلامة المختلطة » هى العلامة التى تجمع بين حرفين أو رقمين أو أكثر .

وقد استخدمت فى العلامات كل الأشكال الهندسية المتصورة : المثلثات ، والأوانى والأوعية ، والأدوات ، والمهاميز ، والقوالب ، وغير ذلك ، وكان من السهل قراءتها ، لكنها كانت كثيرة بحيث يتعذر على الراعى أن يقرأها صحيحة إذا لم يكن قد عاش فى المنطقة وسمعها مرات عديدة ، والعلامة غير الواضحة التى يحملها حيوان قدم من خارج المنطقة ، وليست فيها حروف ولا أعداد ولا أشكال معروفة ،

كان الراعى يسميها « المائعة » ، كما كان يسمى العلامة ذات الأجنحة الكثيرة دون شكل يتوسطها « قدة العجل » فإذا كانت العلامة غامضة بحيث لا يمكن إعطاؤها اسماً مختصراً سميت « علامة بلهاء » .

والعلامات المكسيكية أكثر تعقيداً وتحييراً من العلامات الأمريكية ، وراعى البقر الأمريكى عند الكلام عن العلامات المكسيكية المعقدة لا يحاول أن يترجمها بل يشير إليها باللغة الدارجة فيقول إنها « كخربطة المكسيك » أو « جحر الثعابين » .

وكانت المزارع تستمد أسماءها من العلامات التى توشم بها ماشيتها ، وحتى أصحابها كانت أسماؤهم تختفى وراء علامات ماشيتهم ، بل حتى أسماء الرعاة الذين يعملون فى المزرعة .

وكان الرعاة يمرحون بأن يطلقوا اسماً جديداً على علامة ما ليروا إن كان ذلك يحير القائم على إعداد العلامات بالنار أم لا ، فكان الراعى إذا سحب عجلا صاح بعلامة أمه ، فينادى الواشم بكلام آخر مختلف ، وإن كان يناسب هذه العلامة .

وبعض العلامات اكتسب اسماً دائماً ، وإن يكن عن غير قصد ، لأن أحداً لم يستطع تفسير اسمها تفسيراً صحيحاً .

وعلامات الأذن كانت كذلك وسيلة من وسائل التعرف على الماشية ، وكان يحدث أحياناً أن علامات الجلد تصعب قراءتها ، وبخاصة فى الشتاء حين يطول شعر الحيوان ، فكان من السهل التعرف عليه من علامات أذنه على بعد .

وعلامات الأذن كعلامات الوشم لكل منها اسمها المأخوذ من لغة رعاة البقر .

« فالقطع العلوى » وهو ما كان على شكل ٧ يتم بتطبيق الأذن وقطع قطعة صغيرة طولها بوصة من الجزء العلوى من الأذن بطول بوصة وعمق ٣/٤ بوصة ، فإذا حدث

نفس القطع فى أسفل الأذن سمى ذلك « قطعاً سفلياً » ، فإذا كان القطع من أعلى ومن أسفل سمى « قطعاً مزدجاً » .

« وشوكة البرج » فصدان يقطعان فى الأذن من نهاية الثلث الخلفى لها ، وفى منتصف المسافة إلى الرأس ثم تنزع القطعة الوسطى حتى يكون الفاصل بين الفصدين حوالى بوصة .

و « شوكة الخطاف » تتم بتجويف الواشم الأذن بالطول مبتدئا من النصف الخلفى وعمل قطع فى شكل زاوية قدرها ٤٥ درجة نحو الطرف ، و« ذيل الخطاف » يتم عن طريق قطع طرف الأذن على شكل ذيل الطائر .

و « الميل العلوى » عبارة عن قطع فى الأذن يبلغ ثلثى المسافة بين الطرف الخلفى ووسط الأذن من أعلى ، أما « الميل السفلى » فهو نفس القطع من أسفل الأذن و « الحاد » قطع ميل علوى « وميل سفلى » .

و « الجزء العلوى » عبارة عن قطع طوله بوصة على الجانب الأعلى للأذن أما « الجزء السفلى » فهو نفس القطع على الجانب الأسفل ، والدائرة العلوية عبارة عن قطع فى شكل نصف دائرة من أعلى الأذن ، على حين أن الدائرة السفلية عبارة عن نصف دائرة من أسفلها و « علامة الثقب » هى عمل ثقب فى الأذن ، أما سن المنشار » فهو قطع فى طرف الأذن من الداخل والخارج فى شكل أسنان المنشار .

والماشية الخالية من علامات فى أذنها يقال عنها « كاملة الأذن » ، أما الأخرى فتسمى « مقطوعة الأذن » .

وهناك علامات أخرى للملكية غير علامات الأذن ، فهناك « الغبب » ويقطع

على الجانب السفلى من الرقبة ، وهناك « الصدر » ، وهو قطع جزء من صدر الحيوان دون إزالته ، فإذا شفى القطع ظل ذلك الجزء معلقا ، وهناك « يد الإبريق » وهو قطع فى صدر الحيوان إذا شفى ظهر كيد الإبريق .

وهناك « اللبلوب » وهو قطع على رقبة الحيوان أو فكه بأن يقبض على جزء من الجلد ويقطع دون استئصاله ، فإذا شفى ظل متدليا .

والوشم للتعرف على الحيوان علامة ممتازة ، فهو يتم فى لحظة ، لكنه يظل فى الحيوان طوال حياته ، ومهما ضل الحيوان فى المزرعة أو الفلاة فإن التعرف على صاحبه عن طريق وشمه محقق ، والقدرة على قراءة الوشم وعلامة الأذن قراءة صحيحة بمجرد النظر ، عمل لا يقل فى أهميته عن قدرة الراعى على ركوب جواد جامح .

(٣٣)

الوشم وتعليم الأذن

ما أكثر ما سمع أهل الشرق عن رعاة البقر وحياتهم ، لكن لهم آراءهم الخاصة عن وشم الماشية ، فهم يعرفون الألم الذى ينشأ من وضع خاتم محمى فى النار على جلودهم الرقيقة ، ولهذا قاموا بعاصفة من الاحتجاج على وشم الماشية ، وأثارت الجمعية الإنسانية للشرق احتجاجاً شديداً على طريقة رعاة البقر فى التعرف على ماشيتهم .

ومن سنوات عديدة قرأت قصة فى مجلة « راعى البقر » جاء فى بعضها : « أن أقوى حجة فى الدفاع عن عدم الوشم قدمتها سيدة من الشرق ، فبدلا من أن تحفزها الرغبة إلى تخفيف ألم الحيوان الموشوم أو القضاء عليه ، وبدلا من الاعتقاد بأنه ذنب لا قيمة له ، نظرت إلى الموضوع من زاوية فنية ، وعلته من ناحيته الجمالية فقالت : إن هذا الوشم يشوه جمال الحيوان ، فهو يجرى بيد غير فنانة ، وليست ذات مقاييس دقيقة ، وهندستها غير متقنة » .

وكان رئيس التحرير عندئذ يعلق على خطابات القراء بمساعدة راعى بقر من هواة النكتة ، حاد الذكاء ، فكتب فى جد يقول : « سيدتى ، إن هذه الأبقار لا تعبأ بالمظهر كثيراً ، فلقد نشأت فى الريف ، ثم إن العجول لن تلتحق بالجامعة » .

وأحسن قصة كتبت عن قسوة الوشم كتبها رئيس تحرير مجلة « سونجنجيل » ، وكان فى ذلك اليوم قد ركب من مكتبه ليرى كيف يتم الطواف ، وكان شيخاً لا يحتمل الجهد المضنى ، لكن الرعاة كانوا قد تركوا المزرعة إلى الفلاة ، فتأثر بوحدته فى المزرعة ، إذ لم يعد يسمع فيها إلا ثغاء البقر ، ولا يشم إلا رائحة الشعر المحترق .

وبعد العشاء ، لزم الرعاة الصمت احتراماً لشيخوخته ولمركزه الممتاز ، وتركوا له مجال الحديث إن أراد ، وإلا كان له أن يحدد الحديث الموعد الذى يروقه .

وبعد أن نفض نار غليونه على كعب حذائه قال : « أيها السادة ، إن وشم العجول المحولة تعود بذاكرتى إلى تكساس ، فى أوائل الثمانينات حين كانت تجارة الماشية رائجة ، فقوافل الماشية إلى كانساس ، والثمن الضخم الذى كان يدفع لحمها جعلت الناس يعتقدون أن التجارة الرابحة كلها فى الماشية ، فتدفقوا على تكساس حتى غصت بهم الفلاة كلها .

وجاء الرأسماليون الذين لا يعرفون البقرة من الثور ، وقد أتخمت جيوبهم بالمال ، كما جاء المزارعون الذين لا يملكون من حطام الدنيا سوى عدد من البغال العجفاء ، ومع كل منهم زوجة ذهب الزمن بمحاسنها ، وكبشة من الأطفال يفتحون مدرسة كاملة ، جاءوا فى إثر أولئك على أمل الثراء العاجل من جانبهم .

وأصبح موضوع البقر موضوعاً شهيراً شعبياً فى الشرق ، دفع بعض الشباب غير المجرب إلى أن يكتب المقالات عن القسوة التى يعامل بها البقر حين وشمه ، ويقارن بين راعى البقر والهنود ، مع أنهم لم يروا من البقر إلا ما يرونه حين يقتربون من عربة اللبن فى المدينة ، لكن الناس اعتقدوا أن ما كتب صحيح كله ، وبدأوا يضعون خطة لتعليمنا نحن أصحاب مزارع البقر كيف ندير تجارتنا .

وكنت فى تلك الأيام أدير العمل لشركة ماشية « بوتهوك » ، وكنا قد بدأنا وشم عجولنا ، فى معسكرنا باالفلاة السفلى ، وكانت لنا بها حظيرة تستوعب العجول ، وقبل غروب الشمس بوقت ما جاء إلينا « بوب جاكسون » فى عربة مطهمة من اصطبله العامر بالمدينة ، وكان يركب معه رجل غريب يلبس قبعة عالية وملابس أخرى ثمينة .

وصاح « بوب » فى صاحب المزرعة قائلا : « معى هنا شخص من بوستن فماذا تريد أن تعلمه عن عملية وشم العجول ، لقد أحضرته إلى هنا لأنى أعرف أنك ستعلمه شيئاً لا يتعلمه من أحد سواك » .

وقال الغريب ، وقد رفع يده البيضاء : « نعم يا سيدى ، لقد أرسلتنى جريدة بوستن التى أعمل بها للحصول على معلومات أصيلة عن تلك العادة المتوحشة التى اعتادها أهل الغرب وهى وشم العجول ، إن الجمعيات الإنسانية فى الشرق مهتمه اهتماماً كبيراً بالقضاء على تلك العادة المتوحشة ، وتفكر فى إصدار قانون عام من واشنطون بذلك ، ولهـذا أرسلتنى جريدتى إلى الغرب لعلى أكشف لجمهور القراء سر هـذه العملية ، والطريقة العنيفة التى تستخدمونها أنتم يا أصحاب المزارع .

ووقفنا نحن نصغى إلى هذا الحديث الهجومى ، واسترد صاحب المزرعة أنفاسه ليعلن سخطه ، لكنه تمالك نفسه وقال :

« حسناً ، تعال يا ولدى واجلس إلينا لتأكل لقمة معنا ، فنحن الآن نقدم الطعام لرجالنا ، وسنعلمك ما نستطيع أن نعلمه إياك عن عملية الوشم » .

غير أن شهية رجل بوستن كانت أقل من عصفور طائر فى تلك الليلة ، لم يكن يحب طعاماً إلا إذا كان قد أعد فى بوستن ، ولا يشرب قهوة إلا إذا خفقت بالقشدة ، وكل ما أكله لم يتعد فطيرة بالتفاح المجفف ، دون أن يلمس قشرتها ، وهنا طبعاً استعدى عليه الطاهى .

وفى اليوم التالى لف الصحفى ودار فى مزرعة كبيرة ، وإذ كان حذاؤه ضيقاً فقد كان يتعثر كثيراً فى مشيه ، وكانت أطراف ثيابه تتطاير بصورة مضحكة وهو

يسير ، فتجعله يبدو غريباً فى مكان غريب ، وكانت عيناه تدل على أنه لم ينم طوال ليله ، وشهيته لم تنفتح .

ولما اقترب السعى « الخيول » عرضت عليه جواداً ، لكنه ارتاب فى الأمر وقال إنه سيواصل المشى كأن الحظيرة على مسافة مائة ياردة منه .

وكنا نعمل بجد حين وصل ، فاضطجع على حافة السياج ليستطلع سير العمل وأعمل قلمه إعمالا جاداً ، فكان يزحف أحياناً إلى مقربة منا ليدقق النظر ، لكنه كان حين يستنشق رائحة الشعر المحترق يبدو كأنه مغمى عليه .

ولا بد أنه تخيل نفسه فى حظيرة أبقار ، فالعجول تثغى ، والبقر يخور ، والرعاة يصيحون ، والدخان والتراب فى كل مكان ، والرعاة يحاولون أن يروا مدى توحشهم فى معاملة العجول ، فكان بعضهم حين يخور عجل يضغط على عنقه حتى يبح صوته .

وكانوا أحيانا حين يظنون أن الصحفى ينظر إليهم يصيح أحدهم بصوت عال جداً فيقول : « احرص على حياتك ، إياك أن ترفسنى وإلا قطعت رجلك » فإذا وصل العجل إلى مكان الوشم أمسك الراعى بأحد سيقانه وجعله يسير على ثلاثة أرجل ، وفى غمرة هذا الدخان والتراب والضجيج يبدو العجل كأنما فقد ساقه .

وأخذ الصحفى يكتب ويكتب حتى ملأ كل ما معه من ورق وعاد إلى المعسكر فى طلب ورق آخر ، وترك كل ما كتبه فى العربة ، وحين عاد بورق جديد استدعاه « بادلوكاس » إلى صلبة النار .

وقال له « بادلوكاس » : « لو كنت أحد الصحفيين الذين يريدون أن يطلعوا الجمهور فى الشرق على أننى أعرف كيف أكتب ، لاشتركت فى عملية

الوشم بنفسى ، بدلا من الوقوف إلى جوار السياج ، ومراقبة العمال ، وهذا هو السبيل الصحيح للحصول على المعلومات ، وبذلك أضمن لك أن ما تكتب يكون مقنعاً » .

وسلم الصحفى بما يقوله له ، وعد بمحاولة ذلك ، وبدأ الحبالون فى إحضار العجول من رقابها بدلا من سحبها من أرجلها الخلفية كما يجب ، وأخذ يشرح له « بادلوكاس » طريقة سحب العجول من رقابها ، وكيف يصل إلى ظهر العجل ويقبض على جزء من جلده ، وكيف يطوى سيقان العجل من تحته ويرقده على الأرض ، لكن الصحفى لم يكد يفهم شيئا مما سمع ، فألقى بنفسه إلى الأرض .

وقبل الظهر بساعة بدا عليه الضعف والشحوب فأرثى لحاله ، وأقول له : إنى سأشرح له طريقة تكعيب العجل ، وكيف نمسك به من ساقه الخلفية وهو يدفع رجله الأخرى إلى الأمام ، ويجد الصحفى فى فهم ذلك بعض السهولة ، لكن الدخان يهب فى وجهه .

ونعود به إلى المعسكر ، وما أن رأى الطاهى حتى اعتقد أن فى رأسه شيئا غير قبعته ، فقد استولى عليه حب استطلاعه ، وراح يقرأ ما كتب ، وكان ما كتبه يحوى كلمات كبيرة عجز الطاهى عن قراءتها ، ولكنها توحى بأن قسوتنا على الحيوانات المسكينة لا بد أن تستدر دموع كل من له قلب فيه ذرة من حنان .

ويقول « بادلوكاس » : « سنريه كيف تكون القسوة فى الوشم ، فأنا أرى أن فى عقله شيئا » .

وفيما نحن فى منتصف الأكل جاء الصحفى يلهث كعجل فقد أمه ، وكانت أمامه كل أطباق اللحم والفطائر الشهية ، لكنه ترك هذا كله ولم يتناول شيئاً .

وركبنا إلى الحظيرة ، فلاحظت أن بعض الرعاة يركبون معا ويتهامسون ، ولكننى شغلت بجوادى فلم أعرف ماذا كانوا يقولون ، ويمضى وقت قصير ويأتى الصحفى بعده ماشيا وقد تحسنت حاله قليلا فيستأنف عمله .

وبعد الظهر بوقت طويل كانت الشمس على أشدها والتراب على أكتافه ، والصحفى فى غاية الإعياء والضعف ، وكان لا بد أن يعطى لنا « بادلوكاس » إشارة البدء فى العمل ، ويأتى أحد الرعاة ساحبا عجلا سمينا من رقبته ، وهو أكبر عجل فى الحظيرة ، ويؤنب « بادلوكاس » الراعى على هذا التصرف من إحضار العجل من رقبته ، فيجيبه الراعى قائلا : « لقد أخطأت أنشوطتى قدمه ، فكان طبيعيا أن تنفذ رأسه فى أنشوطتى ، فمن الأفضل أن تكلف بهذا العمل أحداً غيرى .

ولا يعبأ « بادلوكاس » بما قاله الراعى ، ويقول للصحفى : « أظن أن عليك أن توقعه إلى الأرض ، وهذه فرصتك ، إذا أردت أن تقول لقرائك إنك رأيت بعينيك . أوقع هذا العجل إلى الأرض وسيساعدك العمال » .

ولست أدرى ماذا كان شعور الصحفى ، لكنه بدأ يوقع العجل ، وبدأ العمال يساعدونه ، فعجز عن عمل أى شىء ، حتى أوقع العمال العجل على الأرض .

ويترك الراعى الحبال على عنق العجل . ولم يكن قد فعل ذلك من قبل قط ، ويقول « باد » للصحفى أن يكعبه ، ونحن جميعا نجلس فوق جسمه — جسم العجل طبعا ، ويحاول الراعى مساعدة الصحفى ، وأرى أنه يلف الحبال حول قدمى الصحفى وما أن انتهى من ذلك حتى خيل إليه أنه اشترك فى العمل فعلا .

فلما نزل الخاتم المحمى على رجل العجل ، أرسل خواراً ، وحاول أن يتخلص من كل قبضة إلا قبضة الصحفى الذى كان متعلقا بإحدى سيقان العجل كهندى معلق بزجاجة خمر ، ونهض العجل على سيقان ثلاث ، ورفس الصحفى رفسة فى فمه كسرت فكيه ، وأطارت أربع أسنان من مقدمته .

وينطلق العجل نحو الباب ، والحبل ملتف حول الصحفى ، فيتمدد فى التراب وينسحب عليه ، ويجرى الرعاة إلى جوار العجل يحاولون وقفه ويصيحون فيه ويوجهونه نحو النار مرة أخرى ، ويرى العجل النار أمامه ولا مهرب له منها فيثب وثبة يتخطى بها إلى الجانب الآخر من النار ، لكن الصحفى يطير فى الهواء ثم يهوى فى وسط النار يتلوى ويتوجع من لسعتها ، ويصرخ حتى يشده العجل من النار .

واستطعنا آخر الأمر أن نقف العجل ، وأن نفك قيود الصحفى ، وكان منظره يستحق الرثاء والعطف . كان يعلوه الدم والتراب والدخان وكل ما استطاع عمله أن يصرخ ويشتم بأسنان ضائعة لا تبين من شتائمه شيئاً .

ووضعه « باد » على جواد هادىء وطلب إليه أن يقضى بقية يومه بعيداً عن مجال العمل ، ولم يكن بحاجة إلى أن يطلب منه ذلك .

فلما انتهينا من عملية الوشم عدنا إلى العربة ، وكان الطاهى يمسك بجبينه من الضحك ، فقد أشار إلى أوراق مقطعة مبعثرة فى المكان ، كانت كل ما بقى مما كتبه الصحفى عن قسوة الرعاة فى وشم العجول ، وقال الطاهى إن الصحفى لابد قد راجع نفسه .

وقال الطاهى وهو يضحك : إنه يحزم متاعه وأثر الوشم ظاهر فى رأسه وبين جنبيه ولن ينساه ، وأنه يلعن الرعاة جميعاً ، والبقر والفلاة كلها ويقول : إنه سيترك لك جوادك فى جرن « جاكسون » بالمدينة ، ولتذهب الفلاة بمن فيها وما فيها إلى الجحيم .

وانتابت الطاهى نوبة ضحك أخرى وقال : « إنه حين تعاوده رغبة الكتابة

مرة أخرى فلابد سيغير رأيه فيمن يعانون فعلا من عملية الوشم » .

وملأ الرجل الشيخ غليونه بالدخان مرة أخرى ، وواصل كلامه قائلا : « ليس هذا هو آخر القصة ، فحين يعود الصحفى إلى مكتبه سيستقيل من عمله ، وبمجرد أن يركب أسنانا جديدة سيعود إلى هذه الفلاة ليشترى مزرعة « بوتهوك » ويغير الوشم بوشم آخر يستطيع أن يضعه على جلد الحيوان كله بحيث يقرأ فى ضوء القمر ، وسيقول بعد ذلك إنه سيرى هذه الحيوانات تقاسى من الوشم بالنار الحامية العذاب .

(٣٤)

فى الطريق إلى السوق

ليست هناك ناحية من نواحى تجارة الماشية أروع ولا أهم من تحرك القطعان فى طريقها إلى السوق . لقد أنقذت هذه القطعان أصحاب المزارع فى تكساس من الإفلاس ، ووفرت للشرق والجنوب ما هم بحاجة إليه من لحم ، وأقامت فى الشمال الغربى حرفة تربية الماشية ، ولقد تعلم الرعاة الأوائل علم السير بالقطعان إلى السوق ، ومن التجربة والخطأ عرفوا أن الماشية لاتساق وإنما تتعقب ، وأنها يجب أن ترعى الكلأ فى الشمال حتى يكثر لحمها وشحمها أثناء السير ، وعرفوا كيف يسقون البهائم ، وكيف يعبرون الأنهار بها ، وكيف يريحونها ، وكيف يعالجون جفلتها .

فى تلك الأيام التى كانت تساق فيها الماشية إلى السوق كان كل راع بمزرعته فى تكساس يطمع فى مرافقتها إلى كانساس ، وكانت تلك المرافقة لها كالدراسة الجامعية بالنسبة لطالب المدرسة الثانوية ، تتيح له فرصة التخلص من رتابة حياة الفلاة ومللها ، وتهيىء له مجال « أن يرى الدنيا » .

وكانت عملية سوق الماشية إلى السوق « تسمى بهذا الاسم » لكن الوقت الذى كانت تساق فيه فعلا هو وقت الخروج بها من الأرض المألوفة حين تركت المزرعة لأول مرة ، لإجهادها بقصد التغلب على جفلتها ، أو للوصول إلى العشب والماء فى المناطق التى يندر فيها العشب والماء ، أما فى الأوقات الأخرى فكان يجرى تعقبها مجرد تعقب فى الطريق الذى يريد راعيها أن ترعى فيه ، وكانت الماشية فى هذه الحالة تقطع ما بين عشرة أميال واثنى عشر ميلا فى اليوم ، وكانت تسير فرادى أو فى قوافل تتألف من اثنين أو ثلاثه ، فى خط طويل متعرج

لو نظر إليه من عل لبدا كأنه ثعبان مارد فى حركة بطيئة ، ولم يكن أسخف فى نظر الراعى القديم من أن يرى فى التليفزيون أو السينما قوافل الماشية وهى تجرى وتتجمع دون إتاحة أية فرصة لها لكى ترعى .

وكان الرعاة القائمون بتعقب الماشية يسمون « رعاة الطريق » أو « سائقى الطريق » وكانوا يشملون « رئيس الطريق » و « مساعده » و « الطاهى » وغيرهم ممن يشرفون على القطيع بمعدل راع لكل مائة وخمسين أو ثلثمائة رأس ، وكان « الدليل » راعيا يسبق الراكب للبحث عن العشب والماء للقطيع ، وكان هو رئيس الطريق عادة .

وكان يختار لهذا الغرض أحسن الرعاة إلا إذا كان هؤلاء قليلى العدد ، وكانت ساعات العمل طويلة ، والعمل شاقا وخطيرا ، وكان أجر الراعى هنا أحسن من أجره فى الفلاة ، وكان الطريق يتيح للرعاة فرصة أن « يروا الفيل وأن يسمعوا نعيق البوم » فى نهاية الطريق ، ولم يكن هذا العمل يتسع لراع تخونه أعصابه أو يفقد شجاعته ، بل يجب أن يكون رجلا يعتمد عليه فى كل أزمة .

وبالقرب من طريق السير كان هناك رجلان : واحد من كل جانب يسمى « راكب النقطة أو مرشد النقطة » وكانا من أكثر الرعاة خبرة ، وأصدقهم إدراكا فى مواجهة التبعات ، كعبور الأنهار وما شابهها ، وكانت وظيفتهما أكثر وظائف العمل احتراما وأكثرها خطورة ومسئولية ، فقد كانا أول من يعبر الأنهار أو يواجه هجمات الهنود ، وكانا يعملان معا ويرشدان القوافل ، ولم يكن أحد يركب أمام القافلة مباشرة ، بل إلى جنب منها عند مقدمتها ، فإذا أرادا أن يغيرا اتجاه الماشية ركبا إلى جنب أول بقرة فى الصف ، كل منهما على جنب ثم يتجهان فى الاتجاه المقصود وتتقدم الماشية التى تقود الصف فيتبعها الباقى -

وقد يستدير المرشد فى سرجه لينظر وراءه إلى ذلك الجيش الزاحف من القرون والجثث ، وقد اختفى نصفه فى سحابة من التراب تثيرها الماشية ، وأمام هذا الجيش تسير ما شيتان قائدتان تتأرجح رأسهما من جنب كبندول الساعة فى تتابع منتظم .

وقد يحدث أحيانا أن تسكون الماشية المحلية فى طريق القافلة فيتولى المرشدان إبعادها عن طريقها ، ولا يسمح إلا لأحد المرشدين بمبارحة القافلة فى وقت واحد ، إذ لابد أن يكون أحدهما قائما بعملية الإرشاد وتحريك القافلة ، فإذا ترك أحدهما مكانه بسبب ما ، قام بعمله مساعده .

وفى ثلث المسافة التى بطول القطيع يسير « مساعدا المرشد » واحد من كل جانب من جانبى القطيع ومهمته أن يمنع الماشية من الخروج من الصف ، وأن يبعد أبقار المنطقة من أن تدخل فيه ، ولم يكن ذلك يمنع من أن تدخل فى القطيع ماشية ضالة ، لتحل محل ماشية من القطيع ضلت أيضا ، وكل مساعد من هذين يكن الولاء لرئيسه ، ويحرص على أن يصل إلى نقطة السوق بعدد من الماشية يساوى العدد الذى خرج به من المزرعة .

وفى الثلث الثانى من طول القطيع يسير رعاة راكبون « يقومون بعمل مساعد المرشد » ، إذ يركبون بطول القطيع لمنع الماشية من السير فى طريق متعرج ، وإبعاد الماشية المحلية عن الاختلاط بالقطيع . وإعادة الماشية الضالة من القطيع إليه تسمى « الإعادة » وغالباً ما تجنح بعض الماشية إلى العناد ويضطر مساعدا المرشد والرعاة الراكبون إلى بذل أكبر جهد مما يبذله مرشدا النقطة ، وهذا يجهد جواديهما بسرعة ، ورغم عملهما الشاق طوال النهار فإنهما يضطران إلى العمل بالليل حين تهجع الماشية .

وفى مؤخرة القطيع يسير « الجرار » أو راكب المؤخرة ، وعمله من أشد الأعمال مضايقة ، لأنه يركب وسط التراب الذى يثيره القطيع كله ، وينازع مع الأبقار الضعيفة والعنيدة والمتكاسلة والكليلة ، حتى يضيق صبره بها ، وفى الوقت الذى ينعم فيه غيره بالهواء الطلق لا يحظى هو بنسمة منه ، ويستخدم قوة صوته فى اللعن والسب من تحت منديل رقبته الذى يضعه فوق أنفه وفمه ليحمى نفسه من الاختناق ، وهذا الجزء من عمود القطيع يسمى « الجرار » أو المؤخرة وهو للعجزة من الماشية بمثابة المستشفى أو الحظيرة ، وتسمى الماشية فى هذا الجزء من القافلة « الجرار » أو « المؤخرة » ، كما يطلق نفس الاسم على كسالى الرعاة أيضا .

وعلى راعى المؤخرة أن يركب ذهابا وجيئة ويدور حول الأركان ، وألا يزحم ماشيته أو يزج بجواده داخل القطيع حتى لا تدوس على كعوب بعضها البعض فتدميها أو تسبب لها رضوضا ، ويقوم بعمل راعى المؤخرة أقل الرعاة خبرة ، لأنهم يستطيعون أن يتعلموا ماهو مطلوب منهم فى مدى ساعتين .

والراعى فى المؤخرة يمسك بحبل أو كرباج يبعث به الحياة فى القطيع حتى لا تضل الماشية منه ، ويوصف عمله دائماً بأنه « أكل تراب المؤخرة » أو « تابع المؤخرة » أو « مبتلع التراب » .

وعند البدء فى السير يحدث كثير من الهرج والمرج ، وتسبب الماشية كثيرا من المتاعب حتى تعتاد على السير فى الطريق ، وقد ترغم على السير السريع حتى تبتعد عن الفلاة المألوفة لها ، ولإجهادها حتى تهجع فى الليل ، فإذا مضت الأيام الأولى رتب القطيع نفسه ، تتقدمه أقوى الماشية وتسير الماشية الضعيفة فى مؤخرته ، وتسمى « الماشية المكدودة » حتى لو كانت متوحشة ومجموعة من فلوات مختلفة ، فانها سرعان ما تصبح وحدة متجانسة إذا أحسنت قيادتها .

وبعض رؤساء الطريق لايرضون أن يفزعوا الماشية من رقادها وينتظرون حتى يجف الندى عن العشب ، إذ أن الرطوبة تلين حوافرها وتبليها بسرعة ، لكن هذا غير ضرورى إذا سيقت الماشية ببطء ، وكانت هناك مسافة بين الماشية والأخرى حتى لا تدوس إحداها على أقدام الأخرى فتتعثر ، والطريقة الصحيحة هى أن تبدأ الماشية فى السير عند شروق الشمس لتسير مدة ساعة قبل أن تأخذ الطريق الصحيح ، ثم تساق حتى الساعة الحادية عشرة ثم تبعد عن الطريق مرة أخرى لترعى حتى ساعة الرقاد ، ويجب تجنب السير بعد الظهر توقيا للحرارة .

ومتوسط عدد ماشية القافلة بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ رأس ، وهذا العدد يغطى مسافة ثلاثة أرباع الميل ، ويحسن برؤساء القافلة أن يحددوا سرعة السير بسرعة الماشية ذات الأقدام المتألمة من القطيع .

وبعد أن تترك القافلة مكان رقادها فى الصباح لتقف فى صف واحد يبدأ رئيس القافلة ومساعده فى عد القطيع ، فيرتفع أصبع كل منهما وينخفض كلما أشار مباشرة إلى كل حيوان يمر بهما . وكلما انتهيا من عد مائة رأس ألقى كل منهما حصاة فى صندوق قريب منه ، فإذا مر القطيع كله عد كل من الرجلين حصاته ، وأعلن رقمه لزميله ، والغالب أن يكون العد متطابقا بينهما ، فإذا كان هناك فرق كبير ركبا إلى أول القافلة وبدءا العد من جديد ، فإذا كان قد نقص كثير منها عاد راع أو اثنان إن أمكن فى الطريق نفسه للبحث عن الماشية الضالة ، ويسمى هذا العمل « عد الطريق » وهو ضرورى أحيانا للتأكد من عدد الماشية .

وعبارة « التزام الأركان » يقصد بها أن الماشية السريعة فى حركتها

تسير فى المقدمة حتى لا تعوق تقدم الماشية الأخرى ، وللتحقق كذلك من أن مؤخرة القافلة لا تكون على مبعدة منفصلة عن المقدمة ، أو أن الماشية تسير بسرعة تفوق طاقتها ، أو أن القافلة لا تتجزأ بفواصل بين أجزائها يطول معها السعى .

ووراء القافلة تسير عربة الطاهى وإن كان الغالب أنه يتقدم القافلة بعد الظهر ليقيم معسكراً بعد العشاء قبل أن تهجع الماشية . وكانت العادة فى الأيام السالفة أن تصحب القافلة عربة تجر باليد تحمل أعظم بعض الحيوان حين تكون القافلة سائرة فى منطقة يندر بها الخشب ، وتسمى هذه العربة « عربة الوقود » كما قد تصحب القافلة عربة أخرى تسمى « عربة العجول » لإنقاذ العجول التى تولد أثناء السير ، لكن معظم الرعاة يسخرون منها ، وبدلا من تعطيل سير القافلة كانوا يعطون المواليد الجديدة للمقيمين على الطريق ، وكان الراعى الذى يقوم بهذا العمل الحقير يسمى « المرضعة » ، أو « مارى الصغيرة » ، وكان هذا الراعى يرد على من يطلق عليه هذا اللقب بكلمات لا تصلح للنشر .

ومكان الرقاد هو المكان الذى تقضى فيه الماشية ليلها ، وكان رئيس القافلة يعمل على أن يصل إلى مثل هذا المكان ليعسكر فيه حوالى الخامسة بعد الظهر ، وكان يختار المكان بعناية كبيرة ، حتى يتجنب موقعا قريبا من غابة أو نهر أو حرش ، فمن الصعب أن يعرف الرعاة متى تجفل الماشية ، وكانت العوائق الطبيعية شديدة الخطر عليها ، فكانت تختار أرض عالية جافة ، لأن الماشية تفضل الرقاد على الأرض العالية حتى يمكن بسهولة هش الذباب عنها ، وكذلك تفضل الأرض المستوية عن الأرض المنخفضة ، وحتى لا تواجهها مجار مائية أثناء الجفلة .

وكان من واجب رعاة النهار أن يصلوا بالقافلة إلى معسكر رقادها قبل الغسق وتسمى هذه العملية إعداد القافلة لراحة الليل ، وهى عملية علمية تتطلب ألا

يتزاحم القطيع بعضه مع بعض ، ولا أن يتناثر فى نطاق واسع ، وبالنسبة لقطيع الطريق يجب على القائمين بأمره بمجرد أن تبدأ الشمس فى المغيب أن يجمعوا الماشية فى مكان محدود ، وأن يسمحوا لها بالالتجاء إلى أرض مكشوفة مستوية تختار لرقادها ، فإذا كان القطيع قد حصل على مرعى جيد وماء جيد أثناء النهار ، فسيتوقف ويرقد بعضه على الأرض يجتر ما أكله ويظل الراعى إلى جواره فى صبر إلى أن يتسلمه منه حراس الليل ، ويقال عنه فى هذه الحالة إنه « أب القطيع » وتطلق عبارة : « ترقيد الماشية » على عملية جمع الماشية وجعلها ترقد ، فإذا أحسن ترقيد القطيع وكان العشب كثيرا ولم يزعج الماشية ضجيج غير عادى ، رقدت ثلاث ساعات أو أربعا بغير حركة ، ثم تقوم كلها قومة واحدة تهتز فيها بضع دقائق ثم تعود إلى الرقاد على جانبها الآخر .

ويجب أن ترقد الماشية مطلقة من القيد حتى تأخذ راحتها فى النهوض والاستدارة بغير إزعاج جارتها ، لكن لا يسمح لها بالانطلاق فى مكان واسع حتى لا تنتشر فيتطلب الركوب حولها وقتا طويلا ، وحتى لا يجد بعضها فرصة لأن يضل .

ورئيس العربة يعرف طريقه بالنجم القطبى ، ففى الليل بعد أن يحدد مكان هذا النجم يوجه مقدمة العربة فى الطريق الذى تسلكه القافلة فى اليوم التالى ، ويسمى ذلك « تعقب المقدمة » ، والعادة أن يعلق فانوس داخل العربة أو فى مقدمتها كإشارة ترشد الراكبين من وراء القطيع ليعسكروا فى الليالى المظلمة ، لكن الراعى الذى يركب جوادا من الخيول التى تحسن السير بالليل يعرف طريقه دائماً بغير نور .

وفى صباح اليوم التالى – حين تعاود القافلة السير – يتجه الدليلان فى الاتجاه الذى أراده رئيس العربة ، ويسمى ذلك : « القيادة » ، كما يسمى بدء التحرك « الحفز » ، وهنا

تشق القافلة طريقها إلى غايتها تاركة العربة لإزالة المعسكر ، ويسبق الدليل القافلة بحثا عن الماء وعن مكان تستقر فيه القافلة فى الظهيرة ، وسرعان ما تنطلق العربة فى إثر القافلة البطيئة السير ، وتستعيد مكانها فى المقدمة .

وبعد اختيار المكان المناسب للمعسكر يسبق رئيس الركب القافلة بمسافة على مرأى النظر ، ويلوح بقبعته لمن خلفه ، وهنا يسرع الطاهى فى عربته إليه ، وبعد وصوله إلى المكان المختار ، يقام المعسكر وتبدأ عملية الطهو الروتينية . وأثناء الأكل يترك القطيع لينتشر فى المرعى ليرعى ويستريح ، ثم تتكرر نفس العملية فى المساء .

ورعاية القطيع بالليل هى مراقبة الماشية بعد رقادها ، ويقوم كل راع فى المعسكر بدوره فى هذه الحراسة ماعدا الطاهى ومساعده ، وكانت العادة أن يقوم بالحراسة رجلان لكل قطيع متوسط ، وكانا عند وصولهما إلى الأرض التى يعسكر فيها القطيع ويرقد يركبان فى اتجاهين متضادين للاحاطة بالقطيع ، وهذا يعلل الغرض المزدوج من بقاء الرجلين منفصلين ليقوم كل منهما بالمراقبة فى أحد الجانبين حتى لا تفلت ماشية من القطيع دون أن يراها فى الظلام أحد ، وركوب اثنين من الرعاة معا فى اتجاه واحد كان معناه أنهما يهملان عملهما .

وهما غالبا ما يسبقان القطيع بأربعين أو خمسين قدما حتى لا يزعجاه وهما يغنيان ، وحين يركبان ، وكان هذا الحداء يطمئن العيس « القافلة » بل يحول أنظارها عن أشياء أخرى ، فإذا سارت الأمور سيراً هادئا استمرا فى حدوها حتى يسلما أمر القافلة للحارسين التاليين . وفى كثير من الليالى لا يؤنس الراعى نجم ، ولا يستطيع أن يشعل عود ثقاب ، فلو أن القافلة ثارت أعصابها كما يحدث عادة فى الليالى العاصفة كان عليه أن يلزم جانب الحذر ، فلا يبصق إلا على مسافة ميل من العيس ، أما فى الليالى الصاحية فلا يكون العمل شاقا ، ولكن رغم ذلك

يجب أن يظل الراعى راكبا طوال الوقت . وتبدو الساعات إذ ذاك طويلة مملة . وقد يحدث أن ماشية تسعل ، وينبعث شبح أسود من الظلال ويندفع إليه الراكب ، لكن الشبح سرعان مايذوب فى الظلال التى ليست سوى «العيس» النائم ، وترتفع إلى خياشيم الراكب تلك الرائحة الغريبة الخاصة بالقطيع ، وعبر الطريق يصل إلى سمعه صوت الحداء البطىء المسترسل بنغمة واحدة ، فإذا لم يكن هناك حداء فترة من الوقت فمعنى ذلك أن زميله قد أتاح له فرصة الاستمتاع بالوهج الخفيف الذى ينبعث من سيجارة يدخنها .

والراعى حين يقوم بعمله فى الطواف أو فى الطريق إلى السوق لا يطول نومه ، وما يصيبه من نوم تقطعه نوبات حراسته بالليل ، لكنه بمجرد أن يستقر فى العمل لا يكون بحاجة إلى ما يوقظه ، وكان من تسمعه بأذنه على الأرض يستطيع أن يسمع وقع خطا الراكب الذى يحرس القطيع على مسافة بعيدة ، فإذا ما وصل هذا الراكب إلى المعسكر كان الراعى على استعداد لأن يحل محله .

وكانت هناك عدة فترات للحراسة أثناء الليل وفى «الغسق» ، وهذه هى الحراسة الأخيرة التى تسبق شروق الشمس ، وكان الرعاة يكرهونها ، لأنها الوقت الذى يجب فيه كل فرد أن ينام ، فقبل أن تنتهى الحراسة يكون الصباح قد أقبل وبدأ القطيع فى الحركة ، والرعاة الآخرون يتناولون طعام الإفطار ويشربون القهوة الساخنة ، ويسمى وقت الحراسة من غروب الشمس إلى الثامنة صباحا حراسة «قتل النقار» فى بعض المناطق ، وحراسة «قصير الذنب» فى مناطق أخرى . أما حراسة «المقبرة» فتمتد من منتصف الليل حتى الثانية صباحا ، ولكن فترة من فترات الحراسة اسم يختلف فى منطقة عنه فى الأخرى ، وكل فوج حراسة جديد يسمى «رجال الراجات» ، كما أن الذين ينتهون من حراستهم يسمون «الخالين» .

ولم تكن عبارة «الحراسة الواقفة» تستعمل كثيرا ، فقد كان معروفا أن حراسة العيس بالليل تقتضى الحداء لها ، لأن الراعى فى تلك الفترة كان يطيل الغناء والحداء ليطمئن الماشية .

وفى كل قطيع يوجد ثور يستطيع بشراسته وعدوانه أن يتقدم القافلة كأنما قد نصب نفسه زعيماً عليها إلى نهاية المسير ، ويعرف بأنه «الثور الزعيم» ، وغالباً ما كان يطلق عليه اسم من أسماء التكريم ، وهو بالنسبة للراعى قائد القطيع عظيم الفائدة ، وبعض تلك الثيران الزعيمة كان يحتفظ به ليستخدم فى الرحلات التالية ، ويعقد الراعى صداقة مع «الثور الزعيم» كالتى يعقدها مع زملائه الرعاة .

وكان طبيعياً أن الحيوانات الأكثر قوة تشق طريقها إلى المقدمة ، والأضعف منها يبقى فى المؤخرة . على أن أى مكان يلتزمه الحيوان فى المقدمة أو فى المؤخرة يظل فيه إلى نهاية الشوط . والعجول التى لم تنبت قرونها بعد سرعان ما ينضم أحدها إلى الآخر وتبقى بعضها مع بعض لكى تحاول أن تتجنب الأبقار ذات القرون حتى حين ترقد فى الليل .

وسقاء القطيع الذى يعنى أكثر من مجرد إطلاق سراح الماشية لتأخذ مكانها من شاطىء النهر ، كان علما من العلوم ، فالمرشد الحكيم يهدىء من سرعة سير قطيعه وهو مقبل به على الماء ، حتى يصل القطيع إلى الماء ويشرب ماء صافياً ، لأن القطيع إذا هجم على الماء مرة واحدة تزاحمت الماشية القوية عليه فلا يجد باقى القطيع ماء كافياً ، أو لا يجد إلا ماء موحلا ، فإذا كانت الريح جهة اليمين أمكن للقطيع أن يشم الماء على بعد أميال ، وأصبح على الرعاة القائمين على أمر القطيع أن يعانوا المشقة فى السيطرة على الماشية العطشى حتى يتجنبوا الخطر والاضطراب ، وبعد الرحلة الطويلة التى لا ماء فيها يحس القطيع بكثير من المتاعب ، فلو أن قطيعاً جاء ليشرب من مجرى ماء صغير ممتد بعض الامتداد عمل قائد الرحلة على أن ينشر القطيع على طول جانبى المجرى ، والماشية التى تحسن سقايتها تحب أن تأخذ زادها من الماء فى العبة الأولى لتخرج إلى الشاطىء و «تتجشأ» بعض دقائق لتعود إلى الماء فى طلب المزيد منه ، وهى تكرر العملية عدة مرات إن تهيأ لها الوقت لذلك.

والقاعدة أن تسقى الماشية من الماء مرة واحدة فى مساء كل يوم . يقول تشارلى جودنايت : « إن علم قيادة الماشية فى الطريق إلى السوق يتمثل فى شطرين : فى رعيها العشب، وفى سقايتها ، والسقاية أهم الجزءين » .

و « ضغط الماشية » يقصد به تضييق مسافة السعى لعبور نهر أو لأى غرض آخر ، فإذا كان ماء النهر عميقاً لا يمكن اجتيازه بغير العوم ، سمى تقدم قادة السعى فى الماء لعبوره « بدء العوم » . وعبور الأنهار عمل ليس بالسهل ، وسقاية القطيع تتطلب قدراً كبيراً من الصبر والجلد ، ومعرفة لنفسية البقر ، وكثيراً من الخبرة .

وإذا أحجم السعى عن عبور نهر كان من الصعب إعادته إلى الماء إلا إذا تمكن قادته من إدخال « الثور الزعيم » فى الماء ، فعندئذ يتبعه باقى الماشية ، وإذا كانت الماشية عطشى كان ورودها الماء أسهل ، لكن حتى مع ذلك تكون الماشية بحاجة إلى زعيم ، ويركب المرشد فى المقدمة ويعوم بفرسه غير بعيد أمام السعى ، ويعوم الحراس الآخرون بخيولهم على جوانب السعى ليمنعوه من الانزلاق ، والخيول تنتفخ فى الماء ، فمن الحكمة أن يخفف ضغط حزام السرج عنها ، والسرج فى الحصان وهو فى الماء لا يعنى شيئاً وشده خطير ، وخير طريقة لقيادة حيوان فى الماء أن تطرطش الماء فى وجهه من الناحية المقابلة للجهة التى تريد أن يمضى فيها ، وشد السرج قد يجعل الحصان يتراجع بظهره فى الماء فيغرق ويغرق راكبه .

والماء العميق والرمل السائب والشواطىء الهائرة تسبب نكبات كبيرة ، كما أن التشنجات العضلية والفجوات العميقة والتيارات التحتية والماء السريع الجريان وغير هذه وتلك تقضى على حياة أمهر العوامين ، وإذا سقط شعاع الشمس على عين الماشية وجدت مشقة فى أن ترى الشاطىء الآخر ، فتحجم

عن ورود الماء . وقائد السعى إذا كان ماهراً ويعرف هذا كله فإنه لا يقود القطيع فى الماء فى ظرف من هذه الظروف .

وقد يتم بدء العوم بأن يحجز السعى بعيداً عن الماء يوماً أو بعض يوم ثم يقاد إلى مكان يسهل خوضه ، وبمجرد أن يصل السعى إلى حافة الماء تدخل الخيول فى النهر وتسبق مقدمة الماشية وتتجه إلى الشاطىء الآخر فلا يجد قادة السعى مشقة فى حمل الماشية على تتبع الخيول .

وعند تعويم السعى لا يصادف قادته مشقة إذا كان الماء متوسط العمق هادىء التيار ، أما إن كان الماء عميقاً سريع الجريان أو ما يسمى « العوم الكبير » تطلب ذلك جهداً عنيفاً ، وإذا وصل السعى إلى عمق العوم سار مباشرة إلى الجانب الآخر إلا إذا صادفته كتلة طافية أو حدث شىء غير متوقع يجعل الماشية تضرب فى وسط الماء . والضرب فى وسط الماء يسمى « الأرجوحة » وهو خطيراً جداً ، وعلى الرغم من أن أرجحة الماشية على الأرض أمر مرغوب فيه من قطيع مذعور إلا أن أرجحته وسط الماء تؤدى إلى نتائج خطيرة ، فإذا بدأت الماشية العوم فى دائرة مقفلة تكتلت فى يأس وحدثت خسائر كثيرة من غرقها إلا إذا استطاع القادة أن يفرقوا هذا التكتل فى أول حدوثه . ووقف الماشية فى هذه الحالة عمل صعب وخطير ، لأن الراكب لا يستطيع الدخول إلى وسط التكتل ليفرقه ، ثم إن اندفاعه من جانب التكتل يزيد من شدته ، لذلك يعمد الراعى أحياناً إلى التخلى عن حصانه والزحف فوق ظهور الماشية ليردها إلى الشاطىء ، فإذا نجح فى ذلك تعلق بذيل واحدة من الماشية ليخرج إلى البر .

فإذا وصلت إلى رئيس القافلة معلومات بأن أمامه نهرا فى مرحلة الفيضان عسكر بالقافلة على مسافة آمنة من النهر ، وركب هو إلى مجرى النهر ليعاين الأمر بنفسه ،

فإذا عاد بتقرير يقول إن النهر « يغطى الشجر » كان بذلك يعنى أنه فى مرحلة الفيضان ، وأن الأمر يتطلب العموم مسافة عدة مئات من الأمتار . وعبور نهر بقطيع من الأبقار الطويلة القرون فى أى ظرف من الظروف عمل لا يقوى عليه الضعفاء ، فهو يتطلب شجاعة نادرة ، وليس أقوى فى تحية الراعى من وصفه بأنه « يستطيع مرافقة طوال القرون فى الماء » .

وغالباً ما يبدأ السعى سيره من جنوب تكساس مثلا فى الربيع حين تكون الفلوات الشمالية ما تزال مغطاة بالجليد ، غير أن التباشير الأولى من العشب تكون قد ظهرت فى أثناء السير ، وبتقدم الوقت مع تقدمه يكون العشب قد اخضر ، ويسمى ذلك : « الرحيل مع العشب » .

وأحياناً تمرّ أسابيع من المطر تضيق بها الماشية والرعاة على السواء ، فمن المضايقة البقاء فى المعسكر أسبوعا على هذا الحال ، على أن هدم المعسكر وإقامته كل يوم مضايقة أكبر ، ففى كل ليلة يعد الفراش للنوم على العشب المبلل فيمتص الفراش مزيداً من الرطوبة ، والوحل والطين حين ذلك يغطيان الأيدى والوجوه ومن العبث تنظيفها أو تجفيفها ، لأن كل ذلك يزيد من مضايقة الراعى .

ومن الأشياء التى تسبب خسارة فى أيام السعى كما تسبب متاعب للرعاة كالمتاعب التى يلقونها فى الحجر الصحى ، انتشار حمى تكساس ، وهى حمى التهاب الطحال ، ويعرف هذا المرض بالحمى « الجنوبية » أو « الاسبانية » .

وقد حقق انتقال الماشية على هذه الصورة هدفاً ممتازاً فى تنمية المنطقة كلها ، لأنها ربطت بين شمالى وادى المسيسبى وجنوبه بعد الحرب الأهلية ، وكان لهذه أثره العظيم ومزاياه الضخمة من النواحى الاقتصادية والتعليمية والسياسية فى شمالى الوادى وجنوبه معا ، وأدت إلى تفاهم أكبر بين الجزءين .

(٣٥)

الجفـلة

الجفلة هى اضطراب الماشية من الخوف ، وهى ـ كما يصفها أحد الرعاة الأقدمين ـ حالة كل ما يرى فيها « وثبة من الماشية على أقدامها تعقبها وثبة إلى الجحيم » .

ولعل أخوف ما يخافه الراعى فى حياته حدوث جفلة فى الليل ، ففيها دائما خطر كبير أو موت أو عجز لأحد أطرافه ، أما صاحب المزرعة فيخشى طبعا ما يحدث من خسارة فى القطيع سواء فيما يموت منه أو فيما تنقطع بعض أوصاله . وقد تحدث الجفلة فى النهار ، لكن أغلب حالاتها تكون فى الليل حين تكون الأشباح غير مرئية ، وكلما كان الجو عاصفا ، كانت الجفلة أكثر توقعا .

ومن العبارات القصيرة التى تسمع : « أيها الرعاة ، إن الماشية مذعورة » ولكنها رغم قصرها تكشف عن موقف لا يحتاج إلى تفسير ، فيجعل الرعاة يهبون من عالم الأحلام ، ويرتدون ثياب العمل ، والعادة أن البقرة حين تنهض من الأرض تتخذ وضع « الصلاة » على ركبتيها ثم تقوم برجليها الخلفيتين ، لكنها حين يصيبها الذعر تثب قائمة فى الهواء ، منتصبة على قوائمها الأربع أسرع من استواء الرجل على « ساقيه » .

وليس أسرع من حدوث الجفلة ، ومن الصعب أن ندرك كيف ينهض هذا العدد الضخم من الماشية فجأة على قوائمه ويفر ، فهى كما يصفها أحد رعاة البقر « كأن الماشية قد اشترت تذاكر إلى جهنم وأسرعت تلحق بأول قطار » أو كأنه خروج من الباب الخلفى لجهنم فى يوم شديد الحرارة والفرار بأسرع ما يمكن ، وبمجرد أن يركب الراعى فرسه يصلى بأنفاسه صلاة يتجه بها إلى

السماء ، ويذهب فى طريقه إليها . وفى الليالى العاصفة غالبا ما يبقى الراعى حصانه مسرجا استعدادا للطوارىء .

والجفلة شديدة الخطر سواء على الماشية أو على الرعاة التى يحرسونها ، فحبس قطيع فى ليلة مظلمة عاصفة عمل خطير . صحيح إن ركوب خيول جامحة والعوم بها فى أنهار تفيض وغير ذلك مما يقوم به الراعى أعمال بالغة الخطر ، لكن الركوب بسرعة جامحة فى سواد الليل وبجهد عنيف للقضاء على جفلة هو أخطر أعمال الراعى على الإطلاق ، فلو أن المنطقة كانت مشققة كثيرة الشقوق لتوقفت حياته على ثبات قدم جواده ، فإن أى زلل يورده حتفه ، وكم من شق كان قبراً لراع قدم حياته فى سبيل واجبه . والحصان قد يكون قادرا على أن يسير فوق رمل سائب أو على شاطىء نهر ، وقد يتعثر فى الطين أو يغوص فى شق من الشقوق ، فيقع الراعى والحصان فى طريق الماشية وتدوسهما بأقدامها . على أن الماشية قد تتفرق صفوفها إذا سقط أمامها جسم ورأته فى حينه ، لكن هذا يحدث غالبا فجأة . وإذا كان الضغط من الخلف أو من الجانبين شديدا فإنها لا تستطيع تجنب الموقف ، وحتى لو لم يحدث إلا أن يصاب جواد الراكب بعرج فالنتيجة ما تزال خطيرة .

والجفلة تفسد الماشية وتجعلها عصبية تصعب السيطرة عليها عدة أيام . والقطعان التى تصيبها الجفلة فى أول السعى لا تشفى من محنتها ، بل تظل وقتا طويلا وتتلف أعصابها إلى درجة تجعلها تجفل عند أية إثارة . وكثير منها يموت أو يفقد بعض أطرافه ، وبعضها يهيم على وجهه فى الفلاة فلا يسترد .

والماشية حين تجفل تجرى أميالا طويلة حتى يستبد بها الإجهاد وتقف ، وفى ذلك ضرر على وزنها وعلى حالتها ، والراعى الماهر يبذل ما فى وسعه لوقف الجفلة . وقائد القطيع الماهر لا يهيىء لماشيته مرقدا على أرض وعرة أو قريبة من غابة أو شجر ، بل يختار مكانا مستويا كالذى تعتاد الماشية بطبيعتها أن تختاره لنفسها

لو استطاعت ، ويحرص على أن يظل المعسكر هادئا فلا يسمح فيه بإطلاق النار أو بحدوث ضجيج ، كما يحرص على سقاية الماشية وامتلاء بطونها بالعشب قبل أن ترقد ، فالماشية إن امتلأت بطونها بالماء والعشب قبل أن ترقد كانت أكثر اطمئنانا وهجعت لتستريح .

لكن الماشية التى تعانى الجوع والعطش يستبد بها القلق فتظل متنبهة متهيئة للانطلاق عند أول إثارة ولأتفه سبب ، والسر فى تجنب الجفلة هو الحرص على أن تكون الماشية مطمئنة فى مرقدها يتاح لها فيه مكان متسع مع تجنب الحوادث المفزعة والعواصف بطبيعة الحال .

ويعمد بعض رؤساء القطعان إلى أن يكون فيها أبقار لها ولدان ، فحين تحدث الجفلة ينفصل الوليد عن أمه فتتوقف الأم للبحث عنه ويؤدى ذلك إلى أن تعود الثيران إلى وعيها وتتوقف ، ثم إن القطعان المختلطة لا تجرى فى تجانس وتوحيد .

والقائد الماهر يرقد ماشيته منطلقة من كل قيد ، ومنفصلة كل منها عن الأخرى لأن قرب إحداها قد يؤدى إلى أن تطوح بذيلها فتصيب عين أخرى ، وقد ينتهى ذلك بجفلتها وإثارة القطيع كله إلى الجرى والفرار ، فإن حدثت الجفلة فى المكان الذى ترقد فيه الماشية سمعت بعضها يخور فجأة ، والأبقار التى تتأخر فى النهوض على أقدامها تدفع ثمن تأخرها للجثث التى تتعثر فيها ، وحدوث معظم حالات الجفلة فى الليالى العاصفة يجعل سيطرة الرعاة على الماشية أشق وأكثر خطراً .

وقد تحدث الجفلة من أى شىء ، فالقطيع مهما بلغ هدوؤه يتطلع دائما إلى ما يثيره ، وقد يكون البرق أو الرعد سبب كثير من حوادث الجفلة ، فالماشية يصيبها الذعر والخوف من قصف الرعد ، فتحاول الفرار ، كما أن بعض المناظر

والأصوات والروائح تفزع الماشية ، فاهتزاز فرع شجرة أو جرى أرنب برى أو اهتزاز سرج فوق جواد لا يركبه أحد ، أو وهج عود ثقاب يشعل أو غير ذلك من آلاف الأسباب قد يسبب الجفلة ، وبعض هـذه الأسباب بسيط إلى حد يثير سخرية من لا يعرف حقيقة الأمور .

والجفلة تحدث غالباً فى المرحلة الأولى من السعى ، لأن الماشية تـكون سائرة فى طريق غريب عليها ، فتكون ثائرة الأعصاب ، كثيرة الريبة ، فالتغير من الوطن المألوف إلى بيئة غريبة ، ومن عادات رقاد فى وحدة تامة إلى حشر لمئات الأبقار تحت رقابة ذلك العدو الأزلى الذى يسمى الإنسان ، لا بد أن يثير الأعصاب عند الماشية ، ففى الفلاة التى كانت الماشية تعيش فيها كانت بطبيعتها تألف كل شجرة وكل جبل ، وكل حجر ، فإذا انتقلت إلى أرض غريبة لا تعرف منها شيئاً ، كان طبيعياً أن ترتاب فى مناظرها وأن تتهيب كل شىء فيها ، وكذلك كانت الطريق التى تسيرفيها الماشية أيام السعى غاصة باللصوص والهنود الذين كانوا يعملون على أن تجفل الماشية للحصول على بعض الماشية الفارة .

والعادة أن ينقسم القطيع الجافل إلى قسمين أو أكثر ، وهـذا يجعل أمر السيطرة عليه شاقاً بسبب قلة الرعاة ، على أنه نظراً لأنها تسير موازية بعضها لبعض يستطيع الرعاة أحياناً أن يضموا أقسامها بعضها لبعض ، وأحياناً أخرى ينتشر القطيع فى البرارى ويطلع النهار على القطيع الآبق وقد أمسك به الرعاة الذين استبد بهم البلل والتعب والجوع من طول ما عانوا مع القطيع فى الليل ، وهذا الانتشار يسبب كثيراً من العطل وضياع الجهد فى تجميع القطيع ، وبعض الماشية يضيع إلى الأبد ، وأغلبها يفقد الكثير من لحمه المكتنز ، ويحدث أحيانا أن ينقسم القطيع إلى أقسام بسبب أى ظاهرة طبيعية ، ثم ينقسم كل جزء إلى أقسام أخرى ، وهكذا حتى يتمزق القطيع فى الفلاة كلها .

والقاعدة أن الماشية ترعى العشب فى مواجهة الريح ، فإن حدثت الجفلة فرت أيضا فى اتجاه الريح أو ضده ، لكنها سرعان ما تتجمع لتفر فى مواجهته ، والقطيع الجافل لا يجرى فى خط مستقيم ، بل ينقسم ويدور حتى يتجنب أى شىء فى طريقه ، وقد يعود فيجرى فى اتجاه الريح .

والغالب أن يكون فى كل قطيع بعض الماشية التى تسبق باقى القطيع فى الجفلة والفرار ، ويسمى هذا النوع « الجفول » ، وهو يقضى الوقت يترقب فرصة رؤية أى شىء يزعجه ، واذا عرف الراعى هذه الأعداء من الماشية السباقة دائما إلى الجفول تخلص منها بسرعة .

والعادة أن الطاهى لا يكون له شأن بأمور القطيع ، لكن حين تحدث الجفلة يستنجد الراعى بكل العمال وبالطاهى . يقصد بذلك الإخطار بطوارىء تتطلب أن يكون كل رجل فى عمله فورا ، وتتناطح القرون بعضها ببعض يجعل القطيع يهب من مرقده لينتشر فى الفلاة كالسراب بغير تحذير ولا استعداد للفرار وبلا تردد فى انتظار توجيه أو قيادة ، ومهما يكن السبب فإن الماشية تنهض غير عابئة حتى بأقدامها الموجعة .

وليست الماشية وحدها التى ترهب الرعد والبرق ، بل إن أخشى ما يخشاه قائد السعى هو البرق ، ومكافحة الجفلة عمل مجهد شاق ، إذ أن الرعاة يعتقدون أن الحرارة والحديد يجذبان الكهرباء ، فعند حدوث برق يلقى الرعاة ما معهم من بنادق ومهاميز وسكاكين وغيرها مما يصنع من المعدن فورا خشية أن تجذب البرق إليها ، وبعضهم يفضل أن يبلل غطاءه ليبرد جسمه ، وبذلك يكون أقل قابلية لجذب البرق إليه .

والضوء الفوسفورى الذى يرى عادة يتلاعب على قرون الماشية وآذانها ، وكذلك على آذان الخيول أثناء تلك العواصف يسميه الراعى « نار الثعالب » وتلك الكرات من النيران المتراقصة فوق آذان الخيول ومن قرون الماشية ، وأحيانا حول حافة قبعة الراعى ، منظر ساحر ولكنه خطير ، وأحيانا فى الوقت الذى يبصق فيه الراعى يبدو البصاق كأنما هو حمم من النار ، وفى سواد الليل بين ومضات البرق يكون هذا المنظر رهيبا مهيبا .

وأكثر الرعاة تعصبا يتجاوز لزميله عن لعناته إذا كان الجو رهيبا أو إذا تعرض لله فى عليائه بشتم ، وقد لا يكون الرعاة مؤمنين فى قلوبهم بدين ، لكنهم يخافون عقاب الله ممثلا فى عناصر الطبيعة ، إذا كانوا قريبين من واحد يسخر من مشيئة الله .

وكثيرا ما يحدث بعد أن تأوى الماشية إلى مرقدها فى أمان لقضاء الليل ، أن ترتفع حرارة الجو فجأة ، ويغلف الهواء شعور غامض ، ولا يمضى وقت طويل إلا ويصبح الهواء مشبعا بدخان كبريتى ، ويدل ذلك على أن الرعد بدأ يقصف وراء الأفق ، ويبدو أن فى الجو ما يتوقع : سكون كأن الدنيا قد حبست أنفاسها فى انتظار كارثة ، ويبدأ القطيع إذ ذاك فى الإعلان عن قلقه .

ويأخذ الظلام فى التكاثف وتأخذ سحابتان سوداوان قاتمتان فى التمزق إلى أعمدة ممزقة ثقيلة ، ويصبح الهواء ثقيلا على الرئتين ، وفجأة تومض ومضة من البرق فى سكون بأطراف السحب ، وينتظر الناس الرعد وينطلقون يعدون الثوانى فى انتظاره ، ثم يدوّى فى صوت مكتوم وصدى طويل ، وهنا تنهض المـاشية التى كانت راقدة وترسل خوارا متكررا .

ثم تعتم السماء ، وتضطرب السحب المتجمعة وتتكتل وتتكاثف وتهب العاصفة ويقصف الرعــد ويبرق البرق من وراء السحب السوداء ، وتلمع ألسنته البيضاء كأنها انهيار جبل من الجليد ، ثم يدوى الرعد كأنما يقلقل أساس الأرض ، ثم تصطدم سحابة بسحابة فتختفى السحابتان ويسود الصمت فترة إلى أن تتجمع سحب أخرى .

وصخب الريح المقتربة ، وقصف الرعد المتزايد ، والومضات اللامعة من البرق الخاطف والوهج الكهربائى حول قرون الماشية ، كلها تجعل الراعى يحن شوقاً

إلى فراش جاف فى بيته . والقطيع فى مثل تلك الليلة التى يظل قصف الرعد فيها يملأ الجو بدوى المعركة ، يكون فى هرج ومرج مبعثهما القلق والخوف ، وينتشر الفزع فى بهيم الليل فى كل شىء فتفر من مراقدها .

ويحدث الاضطراب والتزاحم هنا وهناك : أجساد متلاطمة ، لأن ماشية تعثرت بعيدا عن أعين الحراس فلا يرونها ، وحتى وهم يسوقون خيولهم لمتابعتها يكون القطيع قد ذهب مرعداً فى الظلام وعندئذ يحمد القائد لنفسه أنه كان قد أمر كل راع بأن يعدّ جواده مسرجاً لطوارىء الليل ، فالرعد دائماً فوق رءوسهم ، وفى لمعة البرق يرى الرعاة هذا الهدير الزاخر من الماشية الفارة فلا يعرفون ما هناك ولا ما سببه ، وليس سوى الخوف الأعمى يقيد أقدامهم وضجيج أقدام الماشية يحيط بهم كأن الجحيم يهجر مكانه ، وخوار الأبقار أعلى من هدير الرعد ، وفى وسط هذا الصخب كله تسمع قعقعة القرون ، وتلاطم الأجسام . وتمضى القرون فى حركتها ، لكن ما يظل يهتم به الراعى أكثر من كل شىء آخر هو اهتزاز الأرض .

وفى أثناء الجفلة يبـذل الرعاة كل جهد فى أن يكون وضعهم إلى جانب مقدمة القطيع ، ويحاولون أن يجمعوه فى دائرة ، فإذا ما وصلوا إلى المقدمة حاولوا بالصياح أو بإطلاق البنادق أن يجعلوا القطيع يعود فى الاتجاه المضاد ، والعادة أن الماشية المتأخرة تتبع الماشية التى فى المقدمة ، وعن طريق إقامة دوائر أصغر فأصغر سرعان ما يسيطر الرعاة على الموقف ، ويحاول كل راع أن يعلو صوته بضجيج معين ، فإذا استطاع أن يسمع صوت زميله من وسط الضجيج الآخر عرف أنه آمن ، فإذا لم يسمع صوته قدر أنه هلك ، وبعد أن يحولوا ماشية المقدمة إلى أن يصبح عمودها على شكل الرقم U يركبون إلى طرفى العمود حتى يختلط الطرفان معا ، فإذا دارت هذه الكتلة فى دائرة مقفلة قيل إنها تلف « طاحونة » ، وتستمر المـاشية فى هذه الحركة إلى أن تتوقف من الإعياء وتنتهى الجفلة .

ثم تضيق الدائرة شيئا فشيئا حتى لا يتسع المكان لحركة واحدة أخرى فتتوقف الماشية .

وفى سباق الرعاة مع مقدمة القطيع يستحث الراعى جواده للاقتراب من القطيع حتى يحس بأنفاسها الساخنة على قدميه ، وبرائحة الفزع فى خياشيمه ، ويستخدم غطاءه عصا يلوح بها فى وجوه الماشية الأمامية ، ويصيح ويصرخ ويسب ويلعن تلك الحيوانات المتوحشة حتى يحس الخضوع فيها ، وفى الظلام الدامس يحس الراعى كأنما هو بحاسة سادسة ينجح فى رد القطيع .

وأخيراً بعد أن تنتهى الجفلة يكون الماء قد أعد فى كل مكان ، لأنه يصعب بل يستحيل إعادة الماشية إلى رقادها على الفور ، ويكون الرعاة قد غرقوا فى عرقهم ، وأخذوا يتململون من البرد والبؤس ، لكنهم يقفون للحراسة بقية الليل ، وقد يبدأ واحد أو اثنان منهم فى الغناء ، لكن الشجاع منهم وحده هو الذى يستطيع الغناء فى هذه الحال المضطربة .

وفى الفجر ينتظرهم عمل كبير ، فهم أولا يعدّون الماشية ، فإذا وجدوا أن بعضها مفقود تتبعوا آثاره على ظهر خيول جديدة ، وقد تكون الماشية الهاربة بعيدا ، وقد تكون على مسافة عشرين ميلا ، لكن عليهم مع ذلك أن يعودوا بها حتى ولو كانت فى منتصف الطريق إلى المزرعة .

هذا جزء من عمل الراعى . لكن الجفلة تجربة تهز روحه ، وتجعله يحلم أحلاما مفزعة ، وقد تنتهى الجفلة بعد أن تتمزق السحب فى السماء لتسقط فى شكل مطر غزير تسبح فيه بقايا السحب السوداء التى خلفتها العاصفة ، لكن الراعى عليه أن يبقى مع القطيع حتى يطلع النهار ، إنه قد يكون بعيداً عن عربة الطعام أميالا ، وقد يكون المعسكر الذى قضى فيه ليلته السابقة بارداً رطبا لا يمكنه النوم فيه فى تلك الليلة ، وقد يحرم من طعام الإفطار ، لأن الجفلة تجربة لا ينساها بسرعة ، لكنه مع ذلك يقتنع بأنه أدى واجبه الشاق كما يجب أن يؤديه .

(٣٦)

ركوب الخيل الغشيمة

راكبو الخيول الغشيمة الذين يحترفون بصفة دائمة حرفة تدريب الخيول الوليدة أو الجديدة — هؤلاء يجب أن يكونوا أكثر مهارة ممن يركبون الخيول الجامحة ، لذلك لم يكن من اليسير أن تجد واحداً منهم ، وأحسن الرعاة هو الذى يستطيع أن يركب الخيول الجامحة ، لكنه لا يحب أن يفعل ، لأن هذا عمل المدرب ، وكان هذا يحصل على عدة دولارات كل شهر ، علاوة على ما يأخذه الراعى العادى ، فالراعى العادى لا يدعى أنه يستطيع ركوب الخيول الغشيمة ، والواقع أنه كان يكف عن العمل فى مزرعة للعمل بمزرعة أخرى يجد فيها خيولا مدربة هادئة .

وعملية المدرب توصف بأنها عملية « ملاطفة » ومسايسة « وصقل » للخيول الناشئة ، فالمدرب لا يدلل الخيول ، وهو فخور بعمله ، ويرى شرفاً كبيراً فى تكليفه بتدريب الخيول الناشئة فى مزرعة كبيرة ، وهو يبذل قصارى جهده فى أن يجعل منها خيولا طيبة ، لا فى أن يدللها ، فالمزارع لا تريد خيولا مدللة .

ويفضل بعض المدربين أن يضعوا عصابة على جبين الحصان الجامح حين يسرجونه ويرفعونها حين يركبونه ، وبعض اللجم تزود بعصابة ترخى على العينين ، وقد تستخدم فى ذلك مناديل الرقبة أو كيس من الخيش أو أى شىء تصل إليه يد الراعى ، فإذا كان الحصان متوحشاً فعلا وحاول العض أو الرفس ، ربط الراعى أحد سيقانه الخلفية بقيد ، فهو حين يربط بهذا الشكل لا يستطيع أن يضرب أو يرفس دون أن يقع .

والمدرب الماهر لا يرى قيمة فى حصان لا يظهر قوة وتمنعاً حين يركب لأول مرة ، لكنه إذا كان ماهراً حقاً يجب أن يتمسك بالصبر ، وأن يستغرق فى ذلك وقتاً وبخاصة إذا كان يدرب جياداً ناشئة ، والمدرب المفسد هو الذى يتقاضى أجراً على كل جواد يدربه ، ولذلك يتخذ مع الخيول أساليب خشنة ، ولهذا كانت المزارع التى ترغب فى جياد طيبة تستخدم مدربين بأجر منتظم دائم .

وكل راع فخور بقدرته على ركوب خيوله ، لكنه لا يفخر بأنه يركب الخيول الغشيمة ويرى مهانة له أن يضع سرجه على جواد غشيم .

والقاعدة أن الراعى الطويل النحيل يستطيع الركوب خيراً من غيره ، والراعى الذى يقوم بذلك يجب أن يكون شجاعاً ، جريئاً ، يعرف كيف يبتسم فى الشدائد ، فإذا تقدمت به السن لدرجة تضطره إلى التخلى عن استمتاعه بركوب الجياد الغشيمة ، كان من الخير له أن يطلب إلى صاحب المزرعة أن يضعه فى كشف أجود الرعاة ، وأن يعطيه جواداً لطيفاً يركبه حتى إذا سمع صهيل جواد غشيم استمتع بذلك ، لأن أحداً غيره يركبه .

ولكل مزرعة مهما كان حجمها خيولها الغشيمة التى تتكون من خيول متوحشة ، وخيول وليدة ، وخيول مدللة لا يستطيع الراعى العادى ركوبها .

وهناك مثل قديم يقول : « قد يكون راكب الخيول الغشيمة لا يستمتع بذكاء شديد ، لكن لا بد أن يستمتع بنزوة جامحة » فركوب الخيول الغشيمة تتطلب شجاعة كبيرة ، وراكبها يعرف ذلك ، ومدربو الخيول الغشيمة من الشباب دائماً ، فإذا بلغوا الثلاثين من العمر أصبحوا لا يصلحون لهذا العمل ، وأصبح عليهم أن يكلفوا بالعمل شباباً آخرين ، وأن يقنعوا بركوب الخيل الهادئة . ولا يجد أى مدرب مشقة فى الحصول على عمل ، لأنه لا يعيش طويلا ، فهو إذا لم يقتل

أو يصب بعجز فى أحد ساقيه ، كره العمل ولم يعد قادراً عليه .

وتدريب الخيول فى مزرعة يختلف عن ركوبها فى الفلاة ، ففى المزرعة يحاول المدرب أن يمنع الجواد عن الزهو بنفسه ، لكنه فى غير الفلاة يريد منه أن يزهو بنفسه ليظهر قدرته هو على الركوب ، فإذا كان الحصان راقصاً ممتازاً كانت العشر الثوانى طويلة جداً . وركوب الخيول الراقصة فى المزرعة لا يكون للاستعراض إلا إذا أراد المدرب نفسه ذلك ، لكن التدريب عمل فى الواقع جاد يحاول فيه المدرب أن يثبت به شهرته كمدرب للخيول الجامحة .

ولكل مدرب طريقته فى التدريب . لكن كل مدرب ماهر يحاول دائما أن يلطف من سلوك الحصان دون أن يلطف من حدة روحه ، لأن الحصان الذى لا روح له لا قيمة له ، والمدرب الماهر يحاول أن يدرب جياده بسرعة ، لأن ذلك معناه توفير الوقت والمال لصاحب المزرعة . والعادة أن المدرب يحول الحصان إلى الراعى بعد أن يركبه ويضع السرج على ظهره ثلاث مرات ، وأياً كانت طريقة تدريبه فهو يهتم ببقائه فوق ظهر الحصان أكثر من اهتمامه بتدريبه ، لأن عمله يتطلب منه البقاء على ظهره من باب الفخر من ناحية ، ولأن الخيول الجامحة تعمل دائماً على أن تسقط راكبها من فوق ظهرها ، والراكب إذا تفاخر بأنه لم يسقطه جواده كان ذلك دلالة قوية على أنه لم يركب جواداً جامحاً ، أو لم يطل عهده بالركوب ، أو أنه كذاب أشر .

والحصان يبدأ تدريبه فى سن الثالثة والنصف والرابعة ، أما تدريبه بعد سنته الخامسة فهو عمل صعب يتطلب جهداً ووقتاً كبيرين ، لأنه بعد أن يقضى هذه السنوات كلها فى الفلاة يصبح قوياً متوحشاً يصعب ركوبه . وفى الأيام السالفة حين كانت الخيول كثيرة ورخيصة كان المدربون يدربونها بأساليب عنيفة ،

فكانوا يربطونها بالحبال أو يخنقونها أو يعصبون عينيها قبل سرجها ثم يركبونها ويرفعون العصابة ويعملون المهماز فى لحمها ، ويلهبونها بالسوط وينكلون بها كل تنكيل .

ولما اشتد الطلب أخيراً على الخيول الجيدة ، كان المدرب يستغرق وقتاً طويلا فى تدريب الخيل ، وكان يقضى وقتاً طويلا مثلا فى تعليم الجواد الغشيم متاعب الحبل ، وقد يسحب الجواد المربوط بالحبل حول الحظيرة عدة مرات ، وكان المدرب أحياناً يعمل من الحبل أنشوطة حول قائمة ثابتة فى وسط الحظيرة ، وبعد أن يجرى الجواد فوق الحبل من أوله إلى آخره يتعثر فيه عدة مرات ، كان يتعلم أنه لاجدوى من مقاومة الحبل ، وقد يقضى المدرب بعض الوقت يحاول تهدئة الجواد بحديث لطيف بأن يقول له أى كلام حتى يجعل الجواد يأنس بصوت الإنسان .

وفى بعض المزارع كان يستخدم مساعد للمدرب ، وواجب المساعد ـ بصفة خاصة ـ أن يمنع الجواد حين يدرب خارج الحظيرة ، من أن يتمادى فى تراقصه ، كما يساعده فى مسح الجواد بقطعة من الخيش ، وذلك بأن يضع قطعة من الخيش على ظهر الحصان عدة مرات حتى يعتاد عليها ، وكانت العادة أن يبدأ ذلك بأن يشم قطعة الخيش ثم يحكها فوق فكيه ورقبته وكتفيه وجبينه وظهره لإقناعه بأنها لن تؤذيه ، ثم يضعها على الجزء الباقى من ظهره متشددا فى المسح بها تدريجياً . والخيول الغشيمة تضيق بالمسح لأول مرة ، لكنها سرعان ما تقتنع بأن المسح لن يؤذيها .

وكثيراً ما يضع مساعد المدرب السرج ثم يترك الحصان « يلقى السرج عن ظهره » وهو مربوط بحبل ، ليقنعه بأن السرج وضع على ظهره ليبقى ، وبعض المساعدين يستخدمون « عصابة » تكون قطعة من القماش أو الخيش لتغطى عينى الحصان أثناء إسراجه ، ويسمى هذا العمل « التعصيب » ، وهو يجعل الحصان يقف ثابتاً

أثناء إسراجه ، وآخرون « يهمسون » فى أذن الحصان لشغل اهتمامه حتى يستطيع الراكب أن يركب ، وأحياناً يقوم المساعد الذى يمارس الوسوسة فيمسك بأسنانه طرف الأذن التى فوق يده ، لأن وذلك يجعل الحصان يقف هادئاً جداً لتجنب الألم ، وإذا اضطر الراكب إلى أن يركب بغير مساعد ، حول الراكب انتباه الحصان بوضع أصبعه الإبهام فى العين اليسرى للحصان .

وبعض الخيول عند إسراجها تأخذ أنفاساً طويلة حتى يتقاقل السرج وقت بدء الركوب ، ولكن الراكب الحكيم يفطن لهذه الحيلة ، ذلك فهو حين يحزم حزام السرج يضرب الحصان فى بطنه ، وهذه الحركة المفاجئة تجعل الحصان يزفر الهواء الذى فى رئتيه فيساعد هذا الزفير الراكب على أن يحزم فى الحزام ثقباً آخر أو ثقبين ، فإذا كان الحصان واقفا على أقدامه وهمس إليه ، أمكن للراكب أن يأخذ مكانه فى السرج بسهولة ، أما إذا كان لا بد من عقل الحصان فللراكب أن يمتطى الحصان وهو بارك على الأرض ثم يطلب من مساعديه أن « يطلقوه » أو « يعقلوه » أو « يهدئوه » أو « يريحوه » إلى غير ذلك .

فإذا كان التدريب يتم فى حظيرة فقد يكتظ السياج بالمتفرجين الذين يتطوعون بمشورتهم وتشجيعهم الذى لا قيمة له ، ويسمى السياج فى هذه الحالة « دار الأوبرا » كما يسمى المتفرجون « طيور السياج » أو « البصاصين » .

ويحاول المدرب دائماً أن يمنع الحصان من أن يضع رأسه بين ساقيه الأماميتين ، وهذه أول خطوة فى الترقيص ، فحين تكون رأس الحصان عالية لا يرقص رقصا عنيفا ، وحين يبدأ الحصان فى الرقص يستخدم الراعى عبارات كثيرة فى وصف هذا الرقص ، فالحصان « يقوس ظهره » أو « يغلى » أو « ينقسم قسمين » أو « ينتفخ » أو « يتمزق » أو « يفك مفاصله » أو « ينطوى وينفرد » أو « يثبت لملاقاة أمه » أو « يجعد عموده الفقرى أو يطوى شراعه » .

وعمل المساعد يتطلب قوة ومهارة ، ويجب أن تكون له حاسة سادسة يعرف بها أين تتجه وثبة الحصان التالية ، فإذا ألقى به من فوق ظهره كان قادراً على أن يثب إلى ظهر الحصان فوراً ، إلا إذا كان قد أصيب بعرج فى ساقه ، فالحصان يأخذ فكرة سيئة إذا تركه الراكب يظن أنه انتصر ، وقد ترى بعد ركوب شوط كبير أنك تكاد تصاب بالعرج بعد قليل ، لكن السقوط من على ظهر الحصان لا يخيف الراكب الخبير ، غير أن فكرة أن « تعلق » أى أن يكون رجلاه معلقتان فى الركاب أو أن يجد نفسه تحت حوافر الحصان فهذا ما يشغل عقل الراكب ، فكثير من الراكبين قد رفسوا أثناء سيرهم فى موكب جنائزى ، وهناك دائما الخوف من أن « يلقى الحصان به من فوق ظهره » حين يتراجع الحصان بظهره فجأة ، وهى حيلة الحصان الغادر .

ولا يستحى الراعى من أن يكون ضحية حيلة من حصان جيد ، فقد يحدث أن يقوس حصان ظهره ويطلق ساقيه للريح حتى يخيل للراكب أن هذا الحصان يريد أن يوقعه إلى الأرض ويحطم أسنانه ، أو يخيل إليه أنه يحاول ركوب إعصار لا لجام له ، وكثير من الراكبين التقوا على الأرض بظالهم ، وقد يحدث أن راكبا بعد أن يمتطى مثل هذا الحصان « الإعصار » يعود دون أن يصاب بأذى ، لكنه رغم ذلك تتفكك أوصاله ومفاصله . ومن الممتع أن ترى راكباً كأنه يسبح فى الهواء وساقا الحصان الخلفيتان يضربان فى الهواء ، كضفدعة تطير .

ويصف أحد الرعاه هزيمته فيقول : « وجدت أن لا بد من أن أستخدم عصاى معه ، لكنه ما إن لمست عصاى جلده حتى زادت متاعبى ، ولم أعد أستقر على سرجى ، فقد انطلق يطير فى الريح وأنا أطير من فوقه حتى انسلخ منى جلدى فلم يعد يغطى لحمى » .

وكثير من المدربين لهم تجارب عنيفة فى الركوب يطير من هولها شعر الرأس ، فكثيراً ما ألقى حصان بمدربه فى الهواء حتى أيقن أنه هالك وحنى رأسه حتى لا تصطدم بالنجوم .

وعلى الراكب أن يعرف كيف ينزل عن الجواد من غير أن يمس حافره ثوبه ، ومن غير أن يجفل ، لكن معظم الراكبين يسلكون الطريق الخطأ حتى يلقى بهم الحصان من فوق ظهره .

ومن الأوليات التى يجب أن يعرفها راكب الحصان الغشيم طريقة سقوطه حين يلقى به من فوق ظهره ، وكيف يطلق العنان للحصان ، وهو يعرف دائماً أنه يسبق بوثبة أو بوثبتين المكان الذى قد يسقط فيه ، وإن كان لا يتسع له الوقت لاختيار مكان لين يسقط فيه ، وقد يسقط فى أرض كثيرة الشوك ، ويتطلب منه ذلك أن يبقى أسبوعاً فى فراشه حتى لا يبدو كالقنفذ ، وقد يسقط على أرض وعرة فيتمدد عليها كورقة شجرة جافة ، ينقل بعدها ليرقد أسبوعاً فى عربة النوم .

وهناك عبارات دارجة كثيرة يوصف بها من يلقى به الحصان من فوق ظهره فيقال : « إنه يأكل التراب » أو « يحرش الزلط » أو « يقبل الأرض » أو « يتكوم » ، فإذا ألقى به ورأسه تسبقه قيل : « إنه وقع على ظله » أو « فرد ساقيه لأعلى » ، فإذا سقط وقد انفردت ساقاه ويداه قيل : « إن النسر فرد جناحيه » ، فإذا ألقى به فى الهواء قيل : « إنه يصيد السحاب » .

والعادة أن المزارع الكبيرة تستخدم مدرباً دائماً طوال السنة ، وإن كان يقوم ببعض الأعمال الأخرى أحياناً ، ولكن بعض المدربين يتنقلون من مزرعة لمزرعة ليقوموا بالتدريب فقط ، وكان هؤلاء تستخدمهم المزارع الصغيرة التى

لا تستطيع أن تحتفظ بمدرب دائم ، وهم يتنقلون فى البلاد من مزرعة إلى أخرى يدربون الخيول مقابل مبلغ عن كل حصان ، ويسمى هؤلاء « مدربو تراحيل » وبعد أن ينتهوا من تدريب خيول مزرعة ، يذهبون إلى مزرعة أخرى ، وهكذا يجدون عملا بعد انتهاء موسم التدريب ، وهم غالباً من الشبان الذين يحاولون أن يجمعوا لأنفسهم مالا يشترون به خيولا لهم ، ويركبون أى نوع من الخيول .

والمدرب يعمل دائما على أن يجعل الحصان يعرف سيده ، والكلمات الطيبة والربت على ظهر الحصان لا تسوس الحصان العنيد ، إلا بعد عدة شهور ، غير أن المدرب لا يضايق الحيوان أكثر من اللازم حتى لا يجعل منه عدواً له .

ولا يستوى جوادان فى سرعة التشليت ، فلكل حصان طبعه المختلف ، والبعض يشلت من الخوف ، والبعض يشلت لأن المهماز لمســـه ، وهناك خيول تشلت بدافع المكر ، وهذه تصبح عدوا للراكب فى العادة .

ولـكل طريقة فى التشليت اسم يصفها كأى شىء فى الغرب ، فهناك « التشليت على العملة » إذا شلت الحصان فى مكان واحد ، وهناك «التشليت المستقيم» ، وهو التشليت الخالى من أى وثب أو لف أو تراجع ، والخيول التى تشلت هذا التشليت كبيرة الحجم قوية ، عنيفة فى حركاتها فى الغالب ، وأهم حركاتها الوثب العالى ، ثم الرقص إلى أعلى بساقيها الخلفيتين وهى نازلة إلى الأرض ، وفى الوقت نفسه قد يصطدم ظهر السرج بمقعد الراكب ، ومثل هذا الحصان يؤذى راكبه حين ينطلق ، لأنه غالبا ما يلقى براكبه إلى الأرض فى عنف .

والحصان الذى يثب عاليا فى الهواء عند التشليت يسمى « النطاط » أو « المتماوج » ، ومثل هذا الحصان يرضى المشترين ، لأن منظره عظيم ، ولأن حركاته سهلة التتبع ، فإذا كان الحصان يشلت فى اتجاه متعرج قيل إنه « يرسم

سياجا » أو « يقيم سياجا » فإذا تراجع بظهره فى عنف ووثب إلى أعلى وهو يمد ساقية الأماميتين قيل إنه « يصطاد السحاب » .

وهناك نوع من الخيول التى تشلت يسمى « النساج » أقدامه لا تمس الأرض فى خط مستقيم ، بل له حركة نسيج خاصة لا تنسجم مع الراكب الذى لا يستقيم تماما فى سرجه ، والحصان « الرائد فى التشليت » هو الحصان الذى يشلت فى شكل دوائر أو حلقات كالرقم 8 وهو يسمى « الرائد » لأنه يبحث دائما عن أرض جديدة ، أما « صائد الشمس » فهو الحصان الذى يلف جسمه فى شكل هلال ، أو بمعنى آخر حين يبدو كأنه يحاول أن يمس الأرض بأحد كتفيه ثم بالآخر ، محاولا أن تصل الشمس إلى بطنه ، فهذه الحركات تسمى « صيد الشمس » .

وإذا قلب الحصان وضعه بسرعة بأن صنع نصف دائرة فى الهواء قيل إنه « يدور كطاحونة الهواء » ، وهذه الحركة تجعل الراكب يصاب بالدوار . و « حامل الكومة » هو الحصان الذى يقوس ظهره كأنما يضع بطيخة تحت سرجه ، وينزل بأقدامه الأربع فى صلابة كباس البندقية ، ونتيجة ذلك تكون صدمة طاحنة تجعل العمود الفقرى يصطدم بقبعة الراكب . و «الغزال» هو الجواد الذى يشلت فى دائرة كاملة يغزل فيها إلى اليمين أو الشمال ، ومثل هذا الحصان يشلت فى مكان صغير ، لكن حركاته تكون عنيفة ، وهو يشلت بحركة خلفية حين يضرب الأرض حتى أن الراكب العادى قد يصاب منها بدوار ويفقد شعوره بالتوازن ، وسرعان ما يأكل الزلط ، وهذا النوع قلما يؤذى راكبه حين يلقى به من فوق ظهره ، لأنه لا يطوح به إلى أعلى ، بل يدور من تحته وينسحب ، ويتركه يسقط بسهولة نسبيا .

و « المتراجع » هو الحصان الذى يتراجع بظهره عن قصد، على أن الخيل من هذا النوع نادرة و « حصان العرض » حصان يشلت بسرعة، ويضع أنفه بين ساقيه الأماميتين، وإن لم يكن من الصعب ركوبه.

والحصان الذى يثب بظهر مقوس وركب متصلبة متظاهرا بالتشايت يسمى « وثب الغراب » أو « ظهر القط » أو « مشية الضفضعة » أو « العد ». والحصان الذى يقوم بوثبات قصيرة بأرجل متصلبة يسمى « وثب الغنم »، أما الحصان الذى يثب وهو يشلت فيقال عنه « وثبة التشايت ».

ويقال: « التشليت الأعمى » للحصان الذى يفقد وعيه حين يركبه راكب فيشلت لأى شىء، كما يقال إنه « حصان انتحار » لأنه يبدو كأنه أصيب بجنون من الخوف، ويصبح أشد خطرا على نفسه منه على راكبه، لأنه قد يقتل نفسه وهو يشلت فى عقبة من العقبات، و « التشليت الأمين » يقال عن الحصان الذى يبدأ فى التشليت بمجرد ركوبه، ويتخذ كل وسيلة لقاقلة الراكب عن ظهره، وبعض هذه الخيول لا يبدأ التشايت إلا إذا كان الراكب غير متنبه لها وللنوايا الشريرة التى عند جواده إلى أن يجد نفسه على الأرض، وهذه الخيول لا تدخل ضمن الخيول الأمينة.

و « التشليت الدائرى » هو تشليت الحصان فى وثبات طويلة سريعة، مستوية فى دائرة قطرها ثلاثون أو أربعون قـدما، ويميل الحصان إلى مركز الدائرة. و « التشليت القريب من الأرض » نوع من التشايت يقوم به حصان سريع جدا فى حركاته، ورغم شدة تشليته لا يعلو كثيرا عن الأرض وهو يرفس من جانبيه برجليه الخلفيتين، ويبدو كأنه يتمزق أو ينفجر، وهو يهز رأسه من جنب لجنب، ومع كل حركة سريعة التغير يدفع بجسمه فى الهواء ويبذل

كل جهده لكى يحير الراكب، وبحركاته العنيفة السريعة لا يبدو أنه يضلل راكبه، بل يجعله يفقد تقديره للوقت والاتجاه، وكثيرا ما يفقد الراكب سيطرته على جواده، ويجد نفسه آخر الأمر ممسكا شيئا لا يريده.

وهناك نوع من الخيول يسمى « الفار »، وهو يبدأ بالجرى لا بالتشليت ثم فى الوقت الذى يقرر فيه راكبه أن يتركه يجرى إلى آخر ما يستطيع، يبدأ فى التشليت، والغالب أن وثبته الأولى تكون عالية وقوية، فإذا حدث أن كان راكبه متناوما لم يجد فرصة يبقى فيها على ظهره، وحين يجرى الحصان بأقصى سرعة ثم يثب فى الهواء أربع أقدام أو خمسا وينزل بسيقان صابة تكون سقطته ثقيلة جدا، فالحركة السريعة إلى الأمام تتوقف فجأة حتى يبدو الحصان كأنه يدفع نفسه إلى الخلف حين يضرب الأرض، وكثيرا ما أودت هذه الحيلة بحياة كثير من الراكبين.

وإذا شلت الحصان إلى الخلف قيل إنه: « يصيد الطيور »، والانتقال المفاجىء فى مشيته تسمى « النقلة المزدوجة »، وكل حصان يشلت يسمى «مشلت» لكن الحصان الذى يوصف بالتشاليت القوى يقال عنه إنه « حصان لا يمكن ركوبه » أو « البرق الثائر »، ويوصف الراكب الذى يسيطر على الحصان الجامح بأنه « يلتصق بالحصان كالذبابة فى أذن البغـل » أو « يلتصق بظهر الحصان كما يلتصق طابع البريد بالخطاب »، أو « لا تستطيع أن تخلعه عن ظهر حصانه ولو بفأس »، أما الذى لا قدرة له على الركوب فيوصف بأنه « لا يستطيع ركوب عربة مقفلة » أو « لابد أنه تعلم الركوب على حصان من الخشب ».

ووضع السرج على ظهر الحصان فى المرات الأولى مسألة عظيمة الأهمية من

ناحية الانتفاع بالحصان مستقبلا ، وعمل المدرب أن يعد الحصان ليكون فى خدمة راعى البقر ، وبعد إجراء محاولاته الأولى لتهذيبه يدفعه إلى غيره من الراكبين وقد لانت عريكته ودرب ، لكن لابد من مضى وقت طويل قبل أن يستطيع راكبه الجديد أن يركبه فى عمله ويمنع تقوس ظهره ، وهو ما يسميه الراعى « طرد الصقيع منه » أو « تسوية شعره » أو « إنزال المطرقة » والحصان اللطيف لابد أن يقوس ظهره فى الشتاء فى الصباح البارد ليدفىء نفسه ، ولو أن هناك سببا يجعل الخيول تقوس ظهورها لكان دسامة العشب ، وبعد شتاء كله كسل واسترخاء يجب على الراعى أن يركب حصانه أشواطا طويلة قبل أن ينجح فى تسوية ظهره .

وقد يكون راكب الحصان الغشيم طويلا ونحيفا ، وقد يكون قصيرا ، على أن قوامه هذا لا يهم كثيرا ، وهناك شىء واحد هو الذى يهم ، ذلك أن يكون مصنوعا من عظام الحوت ومن جلد لا يبلى ، فهو لا يركب الخيول الجامحة ليصل بها إلى السماء ، وكثيرا ما يعلو الجواد بالراكب علوا يخشاه من ليس له جناحان .

إن ركوب الخيل الجامحة إن لم يكن فنا فهو دون شك صراع يتطلب مهارة وشجاعة وقوة ، وبخاصة إذا كان حصانا مدللا ، أو نشأ على اللعن والشتم ، ولست أتصور أن فى دنيا الخيول سواء فى المزرعة أو فى حلقات السباق ما هو أروع من راكب ماهر فوق جواد جامح .

— ٣ —

راعى البقر فى لهوه

الركوب فى المعارض

الركوب فى المعارض هو ما يسميه الراعى « التسابق للحصول على جائزة مالية فى حلقات السباق » ، وهو عمل يقوم به الراكب المحترف .

ويخيل إلىّ أن فكرة السباق تعود إلى الأيام الأولى حين كان الراعى يخمن من هو أحسن راكب وأسرع حبال فى الفلاة ، أو من هو أفضل من يروض حصانا غشيما عرف بالتشليت العنيف ، ولعله كان هناك رهان فى سباق يجرى دائماً فى نهاية كل عملية طواف .

وقد يحدث أن جماعة من الرعاة المهرة فى الركوب يسمعون أن حصانا « لا يمكن امتطاؤه » موجود فى مزعة مجاورة ، فيركبون إلى المزرعة فى يوم أحد ويساق هذا الحصان إلى إحدى حظائر المزرعة ، وبعد عقد الرهان على الحصان يبدأ الرعاة فى ركوبه ، ولعل هذا هو بداية حفلات سباق الخيل التى نعرفها اليوم .

وهذه المسابقات المحلية سرعان ما انتقلت إلى المدينة وبعض المدن تدعى أنها كانت هى السابقة فى إقامة حفلات السباق ، فمدينة « بيكوس » بولاية تكساس فى الرابع من يوليه سنة ١٨٨٣ أقام فيها بعض الرعاة هذا السباق احتفالا بهذا اليوم ، وفى الوقت نفسه أقيم السباق لفض النزاع بين الرعاة ، على أيهم أكثر قدرة على البقاء فوق ظهر الحصان ، وأى الحبالين أمهر فى الإمساك بالعجول ، ولم يكن هناك أجر لدخول حلقة السباق ، بل لم تكن هناك حلقة ولا سياج ولا سور ، ولم يكن هناك إلا حكم وحظيرة تقف فيها العجول التى تحبل .

ثم تسحب الخيول الغشيمة إلى وسط ميدان السباق بحبل بحيث تكون رأسه فى حجر الصاد ، وتعصب عينا الحصان أثناء قيام هذه المعركة بين الصاد وبين الحصان .

وقد يسحب الحصان من أذنيه إلى أسفل أحيانا بأن يمسك رجل أو اثنان بأذنى الحصان الغشيم ليظل فى مكان واحد أثناء وضع السرج عليه ، وهى عملية خطيرة ، لأن الحصان تكون ساقاه الأماميتان غير مقيدتين ، ولا يتهيب من استخدامهما ، وقد يتطلب الأمر أحيانا أن يلقى الحصان إلى الأرض ويسرج وهو على هذه الحالة ، ويركبه الراكب بسهولة قبل أن ينهض على قوائمه .

وقد انتشرت سباقات ركوب الخيل وتحبيلها فى أجزاء مختلفة من البلاد : فى سنة ١٨٨٨ بمدينة بريسكوت بولاية أريزونا ، وفى الرابع من يوليه كذلك أقيم أول سباق وزعت فيه الجوائز وحصل له رسم دخول ، ومن ذلك التاريخ أصبح سباق الخيل عملا تجاريا رابحا ، لكنه استمر وقتا طويلا قبل أن يصل إلى ماهو عليه اليوم .

ولقد كانت الفلاة تهتم كثيراً بركوب الخيول الجامحة وتحبيلها ، وحتى حين يكون بعض الرعاة فى المدن يحب جماعة منهم أن يوازنوا بين مهاراتهم وقدرة بعض الخيول الجامحة ، ولاشك أن هذا الصراع بين الإنسان والحيوان هو الفكرة الأولى فيما نراه اليوم من سباق الخيل .

وهم ينظرون إلى هذا الأمر كهواية وبوسائل قليلة من التسلية يستخدمونه كرياضة وكتسلية معا ، ولم تكن تلك المسابقات تعقد بين أبناء المزرعة الواحدة وحسب ، بل بين المزارع المتنافسة كذلك ، فالعمل الذى يقوم به هؤلاء المتنافسون يزيد من مهارة زملائهم ، وبذلك يستطيع مساعد المدرب الركوب خيرا من الراعى العادى ، كما يركب الحبال خيرا من مساعد المدرب ، ويحاول كل عامل

أن يتفوق فى عمله ، وهكذا يبدو أن هذا العمل الذى يجرى فى الفلاة هو أساس هذه الرياضة اللامعة المنتشرة فى أمريكا مع كل ملابساتها من تنافس عنيد ونحوه قد ينتهى بكسور فى العظام .

وعمل الراكب على هذا الصورة هو الذى ساعد على أن تكون رياضته منبثقة من عمله ، فكل العاملين فى الفلاة عندهم روح التنافس . وقوة راعى البقر وجرأته ومهارته تبعث فيه تلك الحيوية التى تجعل من التنافس شيئاً دائما ، ومن وقت بدء هذا السباق وهو يتعرض إلى كثير من التغيير والتبديل ، فكان يسمى فى أول أمره « سباقا » ، لكنه أصبح بعد ذلك « سباقا فى الركوب والتحبيل » ، ثم أصبح لكل سباق قواعده ، لكن عدم وجود قواعد موحدة أدى إلى كثير من سوء التفاهم والخلاف ، ولم يكن هناك تنظيم ولا تعاون ، ومن ثم لم يكن هناك نظام ، وكان كل شيء فوضى واضطراب ومواعيد متضاربة .

أما اليوم فالتنافس حاد والتخصص عال ، فالمتسابق يقضى وقتا كبيرا فى التمرين لتحسين حاله كما يتمرن لاعب الكرة الماهر دائما ، والمتسابق بالخيل يختلف فى رياضته عن غيره من الألعاب فى أنه يتحمل كافة نفقاته ، بل يدفع رسم دخول لكل مسابقة أيضا ، وهو يوفر لنفسه ما يحتاج إليه ، وليس هذا فحسب ، بل هو يدفع نفقاته الشخصية ومصاريف انتقاله . ونفقات راكبى الخيول كبيرة بصفة خاصة ، لأن معظم المدن ترفع أسعارها أثناء حفلات السباق ، وإذا كان الراكب محترفا ركب آلاف الأميال أثناء السنة ، وهو لا يتقاضى أجرا ولا ضمانا مقابل عمله ، وكل ما يطالبه مقابل رسم اشتراكه فى السباق هو فرصة عادلة لحصانه ، فإذا كان راكبا ماهرا على جواد ماهر فقد يوفق فى الحصول على جائزة السباق ، فضلا عن الرهان الذى يدفعه منافسوه ، فيجب أن يكون بالدرجة الأولى من المهارة حتى يفوز فى هذه الرياضة الوعرة ، لأن الأربعة الأول من

المتسابقين هم الذين يحصلون على جوائز نقدية ، فمهارته بحاجة دائما إلى تدريب ، لأن السباق هو الطريق الوحيد الذى يسلكه إلى شباك صرف الجوائز ، فيجب أن تتوفر له مهارة الاحتراف وإلا لم تتحقق له أية فائدة من السباق وبخاصة فى السباقات الكبرى ، ويلعب الحظ دوره معه كذلك ، فقد لا يحصل بعض مهرة السباقين على الجائزة لأن الخيول التى يركبونها ليس فيها الحماس الكافى ، والراكب لا يحصل على الجائزة لركوبه حصانا كالمقعد الهزاز .

وأقل خطأ قد يحرم الراكب من الجائزة ومن استرداد نفقاته ، ولا ينفعه ما يتقدم به من شكاوى أو طعون ، وقد يسعد الحظ بعضهم فيحصل فى السباق على جوائز مالية وعلى كئوس ، وهذا ما يحمله على الاشتراك فى السباقات ويتحمل من أجله أجور الانتقال ورسوم الاشتراك ، لكن الأمر كله أمر حظ فإما أن يعود مدحورا خاسراً كل ما أنفق ، أو مثقلا بالجوائز ، أو محمولا على نقالة .

وحلقات السباق الحديثة تستخدم عددا كبيرا من العاملين ، وهى كالسيرك تستخدم أولا من يعلن عنها ، كما تستخدم بائعى التذاكر وعمال الباب الذين يتسلمونها ، والمضيفين الذين يجلسون المتفرجين فى مقاعدهم ، وهناك أيضا متعهد الخيول الذى يقدم الخيول ومعها من يشرفون على خدمتها ، وللسباق الآذن ببدئه ، وملاحظو وقته ، والحكام ، ومساعدوهم ، والسكرتيريون وموظفو الحسابات وغير ذلك ، وكل هؤلاء لا يشتركون فى المراهنات ، لكنهم يحصلون منها على مرتبات .

وهناك خمسة أنواع من السباقات : سباق البوانى ، أو المهور الغشيمة ، وركوب الخيول بغير سرج ، وركوب الثيران ، وتحبيل العجول ، ومصارعة الثيران ، وفى الأيام الأولى لم تكن هناك استعراضات فى التحبيل ولا فى التهريج ، ولم تكن هناك بطولات إلا فى ركوب المهور والخيول ، وكان هناك أيضا سباق على حلب البقر

المتوحش ، وفى هذا السباق تطلق بقرة متوحشة فى ميدان السباق ، ويجرى من ورائها رجلان أحدهما يربطها بحبل والثانى يحلبها محاولا أن يحصل على مقدار بوصة من لبنها فى زجاجة ، وبعد حصوله على اللبن المطلوب يجرى إلى المحكمين ليريهم ما جمع .

وإلى جانب النمر العادية فى السباق توجد ألوان أخرى من التسلية تجذب التفات المشاهدين ، كالسباق بين الخيول المتوحشة ، والمهارة فى الركوب ، وفى تحبيل الماشية ، وسباق عربات المطبخ ، والرقص بالخيول ، وسباق البراميل ثم القلعة ، وهذه نمرة غالبا تلعب فى آخر السباق ويجمع فيها عدد من الثيران والعجول والبغال على ظهورها رعاة تندفع فى ميدان السباق وتشلت فى كل ناحية ويتوقف عدد ما يعرض من ألعاب على خيال المخرج ، وما يتوفر له من مال لإخراج الحفل .

وهناك فرق كبير بين ركوب الحصان الغشيم فى السباق وبين ركوبه فى الفلاة ، ففى الفلاة يحاول المدرب أن يدربه على أن يكون صالحا لراعى البقر ، لا للجرى ثمانى ثوان أو عشرة ، كما هو الحال فى السباق ، وقد ترى أن هذا يجعل مهمة الحصان فى السباق أسهل ، لكن خيول السباق صغيرة السن ، ثم إن المهور الجيدة تخاف كثيرا ، وهى خيول كبيرة السن أفسدها تدليل من ركبوها من قبل ، أو هى فاسدة بطبيعتها ، والمدرب الماهر هو الذى يعلم الحصان كيف يكون نافعا لمزرعته ، أما الراكب فى السباق فهو الذى يريد أن يجرى جواده بصورة تظهر قدرته على الركوب .

وفى أول العهد بسباقات الخيل لم يكن هناك تحديد زمنى لركوب الخيول كما هو الحال الآن ، فالمحكمون كانوا يتركون المتسابقين يركبون والخيول تجرى

إلى أن يحسوا أنهم قطعوا شوطا يبين قدرة الراكب واحتماله ، ويعتبر السباق منتهيا بإطلاق رصاصة فى الهواء من بندقية ، إذا لم يكن الراكب قد ترجل وتمدد على أرض السباق من التعب ، أما اليوم فإنه إذا كان الحصان طيبا يبدو أن الثوانى العشر التى يجريها هى وقت طويل ، وكل حركة عنيفة تبدو كأنها آخر ما يحتمله الراكب .

وحين كان المتسابق يسحب رقم الحصان الذى سيركبه من القبعة كان أمله ألا يسحب رقم حصان أحمق ، وكان الحصان الأحمق يزيد من ضيق الراكب به ، لأنه لا يرضى أن يترك الأصطبل إلا بعد أن يستعد استعداداً طيبا ، وكان يقعى على ردفيه ، ويجمع نفسه بعد أن يفتح الباب ، ولا شىء يمكن أن يثيره قبل أن يستعد ، وفجأة يثب وثبة غير متوقعة تجعل الراكب يختل توازنه على مقعده ، وغالبا ما يلف طلبا للهواء ، والحصان الأحمق شديد الخطر ، لأنه يتراجع بظهره ويقاوم ويرفس إلى أن يجهد نفسه .

وسباق الخيل الآن منظم وله قواعده الصارمة ، وكان فى مبدئه يتيح للراكب أن يستخدم أى سرج يريد ، لكن اتحاد السباق قرر فى السنوات العشرينات استخدام ما يسمى « سرج الاتحاد » أو « سرج السباق » واستعماله الآن إجبارى ، وهو يقوم على قالب متوسط الارتفاع به ثقب ارتفاعه أربع عشرة بوصة ، وقربوس ارتفاعه خمس بوصات ، وليس به ما يسمح للراكب بأن يسند نفسه .

والشكمة أهم قطعة يستخدمها الراكب ، وهى عبارة عن قطعة حبل مفردة تتصل بالرسن ، وبمسكها يحتفظ الراكب بتوازنه ، لكنه فى السباق لا يسمح له بتغيير يديه عليها ، وهى تصنع من العشب أو القطن المجدول ، ولا يزيد سمكها

على بوصة ، كما لا يسمح فيها بأى عقدة أو حز ، ولا تلف على اليد ، بل توضع فى قبضة اليد ، ويبقى الباقى طليقا بحيث يرى الفراغ بين اليد ورقبة الحصان ، وهو يخرج من الحظيرة ويحفظ الراكب توازنه بواسطة هذه الشكمة ، كما يسيطر على الوقت وعلى مشاعر الحصان .

فقواعد سباق الخيول الغشيمة — كما وضعها اتحاد السباقات فى أمريكا — هى إذن أن يكون الركوب باستخدام رسن وشكمة واحدة وسرج تقدمه إدارة السباق ، ولا مانع من أن يستخدم الراكب سرجه الخاص إذا كان مطابقاً لمواصفات الاتحاد . ويجب أن يبدأ المتسابق من نقطة الابتداء وقدماه فى الركاب ومهمازاه فوق كتفى الحصان ، وعليه أن يبقى على ظهر الجواد مدة عشر دقائق إلى أن يسمع صفارة فيقف وراء السايس ، والسايس رجل يجيد الركوب ويقف مستعداً لتسلم الحصان المتسابق بعد أن ينتهى من السباق .

ويعتبر الراكب خاسراً إذا ألقى به الحصان من فوق ظهره ، أو أمسك السرع بيديه على التبادل ، أو لف السرع حول يده ، أو حرك الركاب ، أو لمس السرج أو الحصان بيده الطليقة ، أو إذا تأخر عن الركوب عندما يطلب منه ذلك ، أو لمس الحصان بقبعته ، أو نظر بعين الاستخفاف إلى المحكمين . والتهوية على الحصان بالقبعة تسهل الركوب على المتسابق ، لأنها تساعده على حفظ توازنه ، كما أنها تكسبه منظراً جميلا . لكن السباق الحديث يمنع ذلك ، كما يمنع حتى من لمس الحصان باليد .

واستخدام المهماز فى الركوب له أسماء كثيرة عند راكب السباق ، فهو يسمى « الخدش » إذا ترك الراكب ساقيه تتحركان فى وضع الوخز وهو راكب ، أما إذا أطلق ساقيه فى جانبى الحصان من كتفه إلى كفله سمى ذلك

« مطاردة » ، وهى من أروع مهارات الراكب ، كما أنها من أصول السباق . لكن فى الفلاة يعتبر الجزء الخلفى من الحصان ملكا للراكب ، أما الجزء الأمامى فهو ملك للمزرعة ، ولهذا لا ترضى أن تهمز جيادها فى كتفيها .

و « الدراجة » هى خدش الحصان بإحدى القدمين ثم بالأخرى كما هو الحال فى ركوب العجلة ، وأما « إرساء المهاميز » فيقصد به أن تعلق المهاميز على ظهر الحصان أو تحت كتفه ، لكنه غير مصرح به فى المسابقات .

ويعتبر الراكب خاسرا أيضاً إذا ظهر مخموراً فى ميدان السباق أو كان كثير الشجار ، أو أساء معاملة الخيل ، أو رفض ركوب حصان سحب رقمه عليه ، أو تأخر عن موعد الركوب المحدد له ، أو ارتكب غشاً أو حاول الغش .

والركوب الحر كركوب الخيول الغشيمة فى قواعده إلا أن الحصان فى هذه الحالة يحاط بحزام ، والحزام وأربطة العجز هى كل ما يسمح به من قطع ، فلا يسمح بركاب ولا بسرع ، ولا يمسك الراكب بشىء إلا بمقبض يد فى الحزام لا يزيد اتساعه على عشر بوصات ، وبه حلقة على شكل نصف دائرة قطرها ست بوصات على الأكثر ، ولا يسمح للراكب بأن يستخدم أكثر من يد واحدة أثناء الركوب ولا يغيرها ، ويجب أن يترك يده وذراعه طليقين ، وبعيدين عن صهوة الحصان .

ويتناول الحكم عليه طريقة ركوبه ، وكيف يهمز حصانه ، وشراسة الحصان ، وهو يخسر إذا أخل بالشروط التى ذكرناها بالنسبة لركوب الخيول الناشئة ، وهذا السباق من أجمل الألعاب ، وقد يطوح الحصان بالراكب إلى أعلى حتى يبدو كأنه يكتشف القمر .

وإذا كان الراعى يقوم كثيراً بالتحبيل فى عمله بالمزرعة فإنه لا يشترك فى السباق بالنسبة لهذا العمل ، لكن بعد أن أدخل التحبيل ضمن ألعاب السباق أصبح من الألعاب المحبوبة ، بل من الألعاب الخمس المشهورة . ويبدأ الحبال التسابق من وراء حاجز ، ويجب أن يثير العجل قبل أن يمسك به ، واللعبة محددة بزمن ، ولذلك يشترك فيها ثلاثة محكمين للوقت ، ومحكم للميدان ، وحكم على خط البدء .

وبعد تحبيل العجل يربط الحبل إلى السرج ، ويترجل الراكب . ويجب أن يلقى الراعى بالحبل على العجل بيده ، فإذا لم ينهض العجل من الأرض بعد تحبيله وجب إنهاضه ثم يلقى عليه الحبل باليد ويربط . والربطة تشبه نفس الربطة التى يعقدها الراعى على العجل فى الفلاة ، ويجب أن تبقى حتى يراها الحكم ، وبعد المعاينة يعطى موافقته على إطلاق العجل ، فإذا تخلص العجل بنفسه من الحبل قبل المعاينة اعتبر المتسابق « خاسراً » وضاعت عليه فرصة الكسب النهائى .

ولكى يكسب المتسابق يجب أن تنطلق أنشوطته من يده ، ويجب أن يكون الحبل على العجل عندما يصل الراكب إليه ، فاذا تخطى الحاجز عوقب بإضافة عشر ثوان لوقته ، ولا يسمح بمساعدته من أحد ، وإذا رأى الحكم أنه أمسك بالعجل قصداً اعتبر خاسراً ، وإذا سحب جواده العجل كان لحكم الميدان أن يقفه وأن يفرض عليه عقوبة ، ويسمح للحبال بإلقاء الحبل مرتين فإذا فشل فى المرتين كان خاسراً .

ومسابقة ركوب الثيران من أكثر المسابقات إثارة فى حفلات السباق ، فالناس دائماً يتوقعون أن يروا راكباً طوح به ثور هائج أو نطحه بقرونه ، وكانت تستخدم فى أول الأمر ثيران من الفلاة ، ويزود كل ثور بما يسمى « حبل الثور » ،

وفى أول الأمر أيضاً كان يسمح للراكب بأن يتعلق بالثور بواسطة كلتا يديه ، وأن يجلس وقد مد ساقيه إلى الأمام ، ولا يهمز إلا الكتفين والرقبة . وحبل الثور هو شريط من الجلد الثقيل عرضه ثلاث بوصات ، وطوله قدمان ، وبه مقبضان لليدين تفصل بينهما مسافة ثلاث بوصات ، وفى نهاية كل من طرفى الحبل توضع حلقات ثقيلة ، وقد بطل استعمال هذا الحبل اليوم .

ولا يستخدم الآن إلا حبل ، ولكل راكب حبله المجدول من نفس المادة التى تصنع منها الشكمة ، ويبلغ طوله اثنتا عشرة قدما ، وكلا طرفيه منبسطان ، وفى الوسط عند الجزء الذى يمر ببطن الثور توجد أنشوطة إضافية منسوجة بها جلجلة من جلاجل البقر مصنوعة من المعدن ، ويجب أن يكون الحبل ناعماً خالياً من الشعر الشائك ، وأن يكون مجلفنا جيداً ، والغرض من الجلجلة أن يثقل بها الحبل إذا انطلق فيقع إلى الأرض .

وعند وضع الثور فى ميدان السباق يستقبل نصفه الأمامى هذا الحبل الذى يربط بحالة يمكن فكه منها بعد إتمام السباق ، على ألا يسمح فى الحبل بعقد ولا بحزوز ، فإذا لم تكن هناك جلجلة لم يسمح بالركوب ، والحصان يزود كذلك برباط للكفل ، وإن كان هذا لا ضرورة له .

ويجب أن يبقى الراكب على ظهر الثور ثمانى ثوان من وقت أن يغادر الثور نقطة البدء ، وهو وقت قد لا يبدو طويلا ، لكنه طويل فعلا حين يركب الراكب ظهر ثور هائج ، ويجب أن يكون الركوب بوضع يد واحدة على الحبل ، وتكون الثانية فى الهواء طوال وقت السباق ، ويجب أن يهمز الثور بالصورة التى يرضى عنها المحكمون ، ويخسر الراكب إذا استخدم أى صورة من صور الغش ، أو إذا سقط من فوق الثور ، أو لعدم استعداده للركوب عند استدعائه ، أو للمسه الثور باليد الطليقة ، أو لاستخدام مهاميز حادة . ويجب ألا يهمز الثور

عند نقطة الابتداء ، فإذا سقط الراكب من فوق الثور عند نقطة الابتداء أو وقع الثور أثناء السباق أعطيت للراكب فرصة أخرى إذا رأى المحكمون ذلك .

وفى أوائل العشرينات فى مدينة « فورثويرث » بولاية تكساس دخل الثور السباق لأول مرة ، وثبت أنه سباق ممتع وخطير أعجب به جمهور المتفرجين فأصبح جزءا دائما فى كل سباق ، فسلالة الثور كلها تكون لها نفس الصفات السيئة وراثياً ، وليست لها أية صفات طيبة ، فلا يمكن الوثوق بثور منها ، فإذا جمعك ميدان السباق بواحد منها كان كأنه مارد يقف على حوافره . والثور من أعنف الحيوانات فى ركوبه ، وبمجرد انطلاقه من نقطة البدء يأخذ فى الوثب الملفوف ، ويستمر فى هذا الغزل حتى يسقط الراكب من فوق ظهره .

وبإدخال سباق الثيران ضمن برامج السباق دخل دور « المهرج » . والمهرج وقاية ضرورية لراكبى الثيران ، فالثور لا يحمل فى رأسه غير أمرين : أن يلقى براكبه إلى الأرض ، وأن يبقر بقرونه أى إنسان أو حيوان يراه ، وقد يبدو دور المهرج مضحكا ، لكن عمله الحقيقى هو حماية الراكب ، وهذا ما يستخدم من أجله ، أما ألعابه المضحكة فأشياء عارضة ، وقد لا تبدو مضحكة لبعض الناس ، لكن فيها أشياء طيبة ، وحين يسقط الراكب عن الثور يعمل المهرج على إبعاد الثور عنه ، وهو يبعث المرح بمزاحه وثيابه المضحكة ، لكنه حين ينجح فى إنقاذ راكب من الأذى يكون سروره شديداً سواء نجح فى إضحاكك أو لم ينجح ، وفى سنوات عمله فى حفلات السباق يعرف الخصائص التى تختص بها الثيران التى يعمل معها ، وكيف يعاملها ، لكنه مع ذلك لا يسلم من أذى الثيران .

وهناك لعبة « البلدجة » (من البولدج وهو نوع من الكلاب) كما تسمى الآن ، وهى تتم بإلقاء الذراع الأيمن على رقبة الثور ، والضغط باليد اليمنى على الجلد المسترخى أسفل القرن الأيمن ، أو على أنف الثور ، والإمساك باليد اليسرى بطرف القرن الأيسر للثور ، ثم يرتفع المتسابق عن الأرض ، ويهوى

بجسمه على مرفقه الأيسر ، وبذلك يلف رقبة الثور إلى أسفل حتى يفقد الثور توازنه ويسقط على الأرض . وكان أول من قام بهذه اللعبــــة زنجى اسمه « بل بيكيت » ، حصل على جائزة فى سنة ١٩٠٣ من أجل اختراعها ، وقد أدهش غيره من الرعاة حين استطاع أن يسقط من فوق ظهر حصان يجرى على رقبة ثور ويسقط الثور إلى الأرض بيده .

« والبلدجة » جاءت من أن « بيكيت » بعد وثوبه من فوق ظهر الحصان والقبض على الثور من قرنيه ، يلف رقبة الثور حتى تصير أنفه إلى أعلى ثم يعض شفة الثور ، ويفك قبضة يده ويميل إلى الخلف ، إذ لا يعود بحاجة إلى القبض بيديه ، لأن رقة الشفة تجعل الثور يسقط إلى الأرض ليخفف من ألمه . ومن استخدام الأسنان بهذه الطريقة أخـذت «البلدجة» اسمها ، لأن البولدج (كلب الصيد) يتبع نفس الطريقة فى الإمساك بالفريسـة ، فعندما يخفض الثور رأسه لمقاومة الـكلب يغرز الـكلب أسـنانه فى شفة الفريسة . وقد حاول رعاة آخرون تجربة ذلك ، لـكنهم لم يرضوا عن عض الشفة ، فآثروا لفها بأيديهم . ولم ينتشر ظهور هؤلاء المتسابقين فى حفلات السباق إلا أخيراً ، لـكنها كانت تكتب فى البرنامج لمجرد الاستهواء والإغراء ، وأحبها كثير من المتفرجين حتى أصبحت هذه اللعبة قاسماً مشتركا فى كل برنامج سباق ، واختفت كلمة « البلدجة » كلازمة من لوازم حفلات السباق لتحل محلها مصارعة الثيران .

ومصارعة الثيران تحكمها قواعد دقيقة كقواعد البدء والانتهاء ، ويحكمها ثلاثة حكام : حكم للوقت ، وحكم للميدان ، وحكم للخطوط ، وأى عدد آخر من رجال إدارة السباق يراد استخدامهم . ويحضر المتسابق معه حصانه ومساعده ، ويكون الثور تحت تصرف المتسابق بمجرد خروجه من خط البدء ، فيسير مساعد المتسابق على أحد جانبيه والمتسابق على الجانب الآخر ، ويحاول الرجلان أن يجعلا الثور يسير

فى خط مستقيم ، وبهذا يكون المتسابق مستعدا للوثوب على رقبة الثور ، وبعد ذلك يترك السايس الموقف ليمسك بحصان المتسابق .

وبعد مسك الثور يجب على المصارع أن يقفه بأن يلقى بجسمه إلى الأمام مستخدما كعبى رجليه كفرامل ، ومع أنه يثير زوبعة من التراب إلا أنه حتما يقف الثور ، وهنا يبدأ الصراع للايقـاع به إلى الأرض . ولو ألقى بالثور أرضا وهو يجرى عليه من الحصان ، دون أن يلفه بقبضته كان هـذا خطأ لا يقبل ، وفى هذه الحالة يجب عليه أن يرفع الثور على أقدامه الأربع ، ثم يلفه إلى الأرض ، وهذا يستغرق وقتاً طويلا . ولا يعتبر الثور مهزوما إلا إذا كانت أقدامه الأربع ممددة إلى الأمام فى استقامة .

ويتوقف كثير من الصراع على حجم الحلبة ، وما إذا كان الصراع يجرى وراء حاجز أو « وجها لوجه » ، ففى الحلبة الصغيرة يستطيع المصارع أن يثب على رقبة الثور بمجرد أن يدخل الحلبة ، ويسمى هذا « وجها لوجه » ، لـكن العادة أن يكون الوثوب من وراء حاجز يتألف من حبل ممتد أمام المصارع وحصانه على مسافة من نقطة البدء ، ويمكن أن تختار المسافة وتكون بين عشر أقدام وأربعين قدما ، ويطلق من زنبرك مربوط فى سقاطة باب واقع تحت ضغط قطعة من الخشب ، وبعد أن يخرج الثور من الحظيرة ويعبر أنفه الخط — وهو شريط أبيض مربوط على الأرض — يؤشر حامل الراية برايته ويزيل الحاجز ، ويعاقب المتصارع بأن تحسب عليه عشر ثوان إذا تخطى الحاجز بنفسه .

أما السايس فلا يهتم بالحاجز ، لأنه يكون فى الحلبة من أول الأمر ، وعمله أن يبقى الثور فى خط مستقيم حين يكون المتصارع جادا فى الإمساك به ، وهو لا يساعد المتصارع فى إلقاء الثور على الأرض ، فإذا وثب بحصانه على الثـور اعتبر خاسرا ، والمـاشية التى تستخدم فى السباقات الأخرى كالتحجيل وغيره

لا تستخدم فى المصارعة ، كما لا تستعمل الثيران ذوات القرون ، ولا السيقان المكسورة .

وبعض الولايات لا تسمح بمصارعة الثيران بحكم قوانين المجتمع الإنسانى ، ولذلك يستبدل فيها بمصارعة الثيران ما يسمى « تزيين الثيران » ، وهى لعبة أقل متعة وأقل خطرا أيضا ، وتجرى بأن اللاعب حين يثب من فوق حصانه إلى رأس الثور ، وأثناء جرى الثور بأقصى سرعة — يضع حول أنف الحيوان عصابة من المطاط أو يضع عصابة مزينة بأشرطة حول قرنه ، ويجب أن يكون الثور واقفا على سيقانه الأربع عند تزيينه ، ويعتبر المتسابق خاسرا إذا تحطمت عصابة المطاط أو قصرت الأشرطة .

وركوب الخيول الجامحة وتحبيل العجول من عمل الراعى فى الفلاة ، أما ركوب الثيران ومصارعتها فلا علاقة لها بالعمل فى الفلاة ، ولذلك كان على رعاة البقر أن يمارسوا ذلك فى غياب رئيس المزرعة .

وقد أصبحت حفلات السباق تجارة كبيرة ، وخرجت من يد الرعاة ، وأصبح معظم العاملين فيها من المحترفين المتخصصين فى لعبة أو اثنتين يتدربون عليهما دائما لزيادة مهاراتهم ، وما تزال هناك سباقات قليلة كسباق مدينة « ستامفورد » بولاية تكساس يقيمها اتحاد رعاة البقر فى الرابع من يوليه كل عام ، وهو سباق قاصر على رعاة البقر ويمتنع على المحترفين ، ولا يسترعى اهتمام المواطنين ، لكنه من أحسن ما رأيت من سباقات ، لأنه يتيح للراكب العادى فرصة المنافسة لمجرد الاستمتاع بالمنافسة ، ويجب أن نذكر أن روح المنافسة وحدها هى السبب الأول فى إقامة هذا السباق .

(٣٨)

راعى البقر فى تسلياته

لا يتوفر للراعى أن يستمتع بالسينما أو بالراديو أو بالجرامفون أو بالتليفزيون ، لذلك كان عليه أن يصنع تسليته بنفسه ، وهو كذلك ليس فى حياته نساء ، فكان من ثم خشنا فى سلوكه ، ومرحه من نوع جاف كالحياة التى يحياها .

والراعى لا يتزوج عادة ، فهو خلو من مشاغل الأسرة ، وكل هدفه من الحياة أن يحيا ، وهو لا يعبأ بجمع المال ولا المتاع ولا يحب إلا أن يكون راعى بقر ، فالحياة ترضيه ، وهو يقنع بالثلاثين أو الأربعين دولاراً التى تعطى له كراعى بقر ، ويحب حياة الحرية هذه ، فإن أراد أن يرى مكانا آخر من الفلاة ترك المزرعة وركب إليه ، وهو يستمتع بحياته كلها دون أية مسئولية ، وهو يستيقظ فى الصباح من نومه لا تثقل رأسه إلا قبعته ، ومادام يملك حصاناً طيباً وسرجاً وفرشاً ، فليس هناك ما يتعبه مالياً . وراعى البقر لا يأبه بأى مشكلة من مشاكل الحياة بصورة جادة .

ورعاة البقر كجنس يفيضون بالمرح وسرعة الخاطر ، وهم على استعداد دائماً للمزاح — والفكاهة ، وهو برغم ما تصوره به السينما والقصص لا يجرى وراء الشجار والمعارك ، فهو دائماً فى سلام مع كل من يعرفه . صحيح إن حبه للمرح يؤدى به غالباً إلى المتاعب ، لكن ذلك يرجع إلى أن غريمه يكون رجلا غير كامل الإدراك حتى يتقبل المرح بروح المرح ، والغربى دائماً سريع فى تقدير الزائرين ، يملؤهم بالبيانات الخادعة ، ومع أنه غير متعلم إلا أنه قادر على فهم الطبيعة البشرية ، وقادر على أن يرضى غرور الآخرين .

وصحته القوية تملؤه باللهو واللعب ، ويجد الكثير من مرحه متنفسا له فى ألعاب الخيل العنيفة ، وفى الحيل والألاعيب .

والرعاة جميعا يحبون المزحة حين تنال من غيرهم ، والمزحة الرائعة الحلوة هى شعار حياة الراعى ، والحياة فى العراء فى الجو الصائف أو الرطب تملؤه بالمرارة ، وهو لا تقيده تقاليد ولا عرف ، ولذلك تنطلق روح مرحه إلى غير حد ، ومن ثم كانت ألعابه خشنة عنيفة كالحياة التى يحياها ، وهو بحكم طبيعته شجاع ، ولا يفكر قط فى شىء اسمه العواقب .

والبحث عن غير المتوقع يلذ له ، فكثيراً ما استأجر الراعى شخصاً لمجرد أن يضحك منه ، يكون شابا حدثا يريد أن يعمل راعى بقر ، وقد لا يكون الشاب قد كسب أية تجربة من حياته ، لكنه على أى حال يجعل من الرعاة قوما سعداء ، وتتنافس ملكاتهم للتفكير فى مزاح ومرح جديدين ، ويتحمل الشاب كل سخرية يتعرض لها ، فهى جزء من تعليمه ، وهذا هو الذى يجعل منه راعى بقر بمعنى الكلمة فيما بعد .

وكل شاب حدث مادة جديدة فى يد الراعى ، وتعهده له بالتعليم والتدريب أحب رياضة له ، وغارات الهنود الزائفة أحسن ما يكشف فى الحدث عن مواهبه ، وهى مزاح طيب إذا سارت الأمور على ما يرام ، لكن يحدث أحيانا أنهم ينسون إخراج طلقاتهم من بنادقهم ، وعندئذ يكون المزاح وخيم العاقبة .

والمسافات خادعة فى الغرب ، فأحيانا يبدو جبل قريبا ، فيطلب إلى واحد أن يركب عبره ليطلب من مزرعة وراءه مفكا أو مقصا أو غير ذلك ، فإن حدث إن كانت وراءه مزرعة فعلا طلب إليه أن يذهب إلى مزرعة أخرى ، فإذا لم يتنبه الشاب إلى أن المقصود هو الضحك منه ظل يركب ويركب حتى يتورم جسمه من الركوب .

أما إطلاق الرصاص على قدم الراعى الحدث حتى يرقص فهى من خيال

كتاب القصص ، ولا يحدث ذلك فى الفلاة قط ، فالراعى فى حياته الحقيقية لا يجيد إطلاق الرصاص ، ولا يعقل أن يصيب شخصا بالعرج لمجرد المزاح .

ووضع شاب فوق حصان يشلت لعبة مشروعة ، والاحتيال عليه بالثعابين والسحالى من المزاح العادى ، والمشاجرات الصورية مع الشاب عند مواضع الخطر فيها تسلية كبيرة للرعاة أيضا .

والرعاة يستمتعون بأن يلعبوا حيلا بعضهم على بعض ، ففى الأيام الأولى من الطواف العام أثناء انتظار الموكب للتجمع وكانوا يعقدون دورة لمحكمة الكنغرو يحاكم فيها الرعاة على اتهامات شخصية ، ويحكم عليهم فيها دائما بالإدانة ، وتفرض عليهم عقوبات مختلفة تنفذ ، وقد تكون التهمة أن الراعى ألقى بنفسه فى أحد المجارى المائية ليتطهر من آثامه ، وقد يكون الحكم عليه أحيانا بأن يركب عجلا صغيراً ، فاذا دافع المتهم عن نفسه بأن ركب أى حيوان يعرض عليه فقد يحكم عليه بأن يركب حصانا جامحا .

وكل هذه الألعاب الخشنة كان الرعاة يتقبلونها بطبيعة سمحة ، بل كانت جزءاً من حياتهم ، وقلما كان بين الرعاة من يرضى أن يفقد روح المرح فيه ، فكان ينتظر حتى يسترد مرحه ، لأن الذى يفقد أعصابه لا يستمتع بالصحبة .

وعند النوم فى الفلاة فى موسم الطواف قد يسحب بعض المازحين مجموعة من السلاسل لتحدث ضوضاء إلى جانب فراش النائم ، ويصيحون بصوت عال ، وهذا يجعل النائمين يهبون فزعين ، ظنا منهم بأن عربة الطعام تجرى فوق فراشهم ، وتتجمد دماؤهم من الذعر .

ووضع قطعة من الجليد تحت سرج راكب بعد أن يسرج حصانه كان مزحة عادية فى أيام الصقيع يقصد بها أن يروا الحصان يشلت ، والراكب يحاول

أن يستقر فوق ظهره ، وقد يسحب فراش النائم الذى يتأخر فى النوم وهو راقد عليه إلى جدول ماء أو إلى مرتفع فى أرض وعرة ! !

ويمزح الرعاة كثيراً بان يضعوا ملحا أو ضفدعة أو سحلية فى فراش بعضهم البعض ، أو أعشاب شوكية فى حذاء أحدهم ، أوأن يهجم اثنان على واحد فى فراشه فيكتفه أحدهم بحبل على حين يمرر الآخر ثعبانا متحركا على جسده .

وبعد أن ينتهى عمل الخريف فى المزرعة ويحصل الراعى على أجره قد يذهب إلى المدينة يلف فيها ويدور حتى يبدأ عمل الربيع ، وبسبب اعتياده على العمل وطول وقت الفراغ أمامه ، سرعان ما يندمج فى بعض الألاعيب الشيطانية . والراعى المتعطل لا يغلبه أحد فى هذه الألاعيب ، وكل ما يقصده من مزاح هو أن يسلى ضحيته ، فإذا كان الضحية شخصا يتقبل المزاح فقد يدعوه إلى تناول الشراب معه فى إحدى الحانات ، فإذا لم يتقبل المزاح وأستاء منه تخلى عنه ، وتكون الحياة إذ ذاك عقيمة فى نظر الراعى فلا يحب البقاء فى المدينة .

وأيام الفراغ والجدة فى الشتاء عند الراعى تسمى موسم « صيد الجهاليل »[1] فيجتمع الرعاة مع بعض أهل المدينة ، لأن أهل المدينة يستمتعون بالسخرية من زائرى المدينة المحدثين ويتحدثون فى حماس وجد عن موسم صيد الجهاليل القادم الذى يعدون له العدة حتى يزينوا الفكرة للرعاة الشبان لدرجة يطلب معها أن ينضم إليهم ، ويرحبون بانضمامه ، بطبيعة الحال ، ثم يبرحون المدينة فى الظلام ، وأثناء السير يشرحون للرعاة الشبان سهولة صيد الجهاليل ، وأنه طعام لذيذ ، ويظلون يركبون فوق الجبال والوهاد والبرارى والقفار فى خطوط غير مستقيمة ويدورون فى حلقات مفرغة غير بعيدين من المدينة والرعاة الشبان لا يعرفون .

---

(١) الجهاليل مفرده جهلول : طائر .

وطبيعى أن الراعى الشاب لا يرى ضيراً فى صيد الجهاليل ، فهو من ثم يتبع التعليمات والنصائح التى يقدمها له الراعى القديم ، وأخيراً يجد المكان الذى يصلح لأن ينصب فيه فخاخه ، فإن كان مستنقعا أو منطقة كثيرة البعوض كانت أفضل ، فإذا ما وصلوا إلى هذا المكان ترجل رجلان ومعهما الراعى الشاب ويضيئون فانوسا ثم يعطونه شوالا ويشرحون له كيف يمسك بفوهته مفتوحة ، وكيف أن الضوء سيجذب الجهاليل لتدخل فى الشوال إذا حرص على أن تبقى فوهته مفتوحة ، ثم يتركونه بحجة ذهابهم لإعطاء التعليمات لغيره ، ويذكرون له أن من الأفضل أن يأخذوا حصانه معهم حتى لا يفزع الجهاليل ، ومن ثم يعودون إلى المدينة ، وفيما هم يضحكون من غفلة الراعى الشاب ، يكون هذا غارقا فى عرقه يحارب البعوض وكله أمل فى أن يصيد جهاليل كثيرة ليرى زملاءه أنه ماهر فى صيدها .

لكن الفجر يطلع وهو لا يرى جهلولا واحدا فيدرك أنه غرر به فيعود ماشيا إلى المدينة إلا إذا حدث أن راعيا كان يمر بالمكان وأخذه على ظهر جواده الاحتياطى .

وبدون متنفس لروح المرح عند الراعى لا يستطيع أن يعيش ، لا من قسوة عمله وعنفه ، بل من وحشة موسم فراغه ومله فى أثنائه .

(٣٩)

الراعى فى حانة الشراب

يميل كثير من أهل المدينة ممن يكتبون عن رعاة البقر إلى أن يصوروا لنا الراعى على أنه لا يعمل شيئاً سوى أن يستند بمرفقيه على منضدة حانة من الحانات ، مع أن الحقيقة أن الراعى لا يعاقر الشراب بالقدر الذى يعاقره به ساكن المدينة الذى يستطيع الذهاب إلى الحانة فى كل يوم .

والراعى يشرب الخمر فى فترات متقطعة — حين يذهب إلى المدينة ، أما فى المزرعة أو الفلاة فلا يبدو أنه يمكنه الجمع بين العمل والشراب ، ولذلك فإن القاعدة المحتومة أنه « لا يجوز أن يكون فى عربة الطعام خمر » فلا غرابة فى أنه حين يقدم إلى المدينة يكون فى غاية التعطش ، ويصاب بما يسمى حمى الخمر .

فإذا ذهب جماعة من الرعاة إلى المدينة ، فإنهم لا يضيعون أى وقت فى النوم ، ولذلك كان من المناظر المألوفة أن ترى عشرات من المهور الصغيرة تتجمع فى اصطبل الحان الصغير ، وعشرات الرعاة يتزاحمون فى باب الحان وراء بعضهم البعض ، فيشغلون خادم الحان فى إجابة طلباتهم طوال الوقت .

وليس الشراب بصفة خاصة هو الموبقة التى تضايقنا من الراعى ، فهو بعد شهور طويلة من العمل الشاق المضنى ، يهجر فيها الشراب ، كان يجد من الطبيعى حين يعود إلى المدينة بعد طوافه بالفلاة أن يطلق لنفسه العنان ، وأن يرفه على نفسه بالشراب ، وقد يحدث أحياناً أن يقترب الطواف من مدينة ، فيسمح رئيس العربة لبعض رجاله بأن يذهبوا إليها ، وأن يتركوا جماعة قليلة منهم لرعاية القطيع .

وبعد أسابيع طويلة فى الطواف والعمل الشاق الممل ، وفى صحبة البهائم ، يكون الرعاة فى شوق بالغ إلى كل إثارة ومتعة تقدمها المدينة ، على أن رئيس العربة لا يعطيهم من النقود إلا ما يكفيهم فى ليلتهم حتى يعودوا بعد ذلك ، إلا أن بعضهم كان يحالفه الحظ فى المقامرة ، وبفعل الشراب ومضى الليل يقرر بعضهم عدم رضاه عن أن يكون تابعاً لأحد ، وقد يقوم شجار بين واحد منهم وآخر ، لأن أحدهما كان موفقاً فى كسب ود إحدى فتيات الليل ، وهكذا لا يجتمع رعاة وشراب وجنود فى مكان واحد إلا قام الشغب بينهم من نوع أو من آخر .

والذى أثار اهتمام الناس إلى معاقرة راعى البقر للشراب ، هو أن الراعى حين يشرب يحب أن يعرف الناس عنه ذلك ، ومعظم متاعبه إنما تكون من خلط أنواع مختلفة من الشراب ، فراعى الغنم شاب جرىء ، قوى الجسم ، لا ينفك يثير الصخب والثورة المكسيكية ، والقانون لا يعرف قط إن كان يمزح أو يجد ، يغنى أو يلعن ويسب ، وقدر كبير من ذلك يعتمد على نوع الشراب الذى يشربه ، على أن الحانة وملاعب القمار تمتلىء بالضجيج والغناء حين يقدم إلى المدينة جماعة من الرعاة .

فهنا وهناك ترى أحد الرعاة وقد أمسك كأسه بيده وأخذ يلف بها فى حركات مدروسة على المنضده المبللة يصغى إلى متاعب جاره ، وقد يكون فى الطرف الآخر من الحان بعض الرعاة المشاغبين الذين يخشاهم صاحب الحان ، والابتسامة لا تفارق شفتيه ، وفوق ذلك كله تنتشر سحب الدخان فى طبقات متراصة تتغير وتتبدل تبعاً لحركات الرواد .

وهناك كثير من القصص المبالغ فيها عن حب الراعى لشرابه ، فيها ما يروى عن اثنين من الرعاة ظلا يقتصدان من مالهما ما أمكنهما عدة سنوات ، ثم ذهبا إلى مدينة

لشحن الماشية ، واشتريا الحانة الوحيدة فيها ، وأقفلا الحانة لإدخال بعض التحسينات عليها ، ومضى أسبوع دون أن تفتح ، وبدأ هواة الشراب يتجمعون أمام الحانة ويصيحون على صاحبيها مطالبين بفتحها ، وتضايق أحد الصاحبين من الصياح أمام الباب فذهب إليه .

وسأله أحد الصائحين : « متى تنوون فتح هذه الحانة ؟ »

فأجابه أحد صاحبي الحانة : « ستفتح لك جهنم أبوابها ! لقد اشترينا هذه الحانة لشرابنا نحن فقط ! » .

وبعض أنواع الشراب كفيل بأن ينبت قروناً فى رأس بقرة وليدة ، فلا غرابة فى أنك بعد أن تشرب نصف دستة من زجاجات هذا الشراب تبدأ فى أن ترى ثعباناً منطلقاً مع كل كأس ، فلا يمكن بعد ذلك أن ترى أحداً يشرب من هذا النوع من الخمر دون أن يرى بعينيه هذه الثعابين .

وهناك قصة تروى عن اثنين من رعاة البقر ظلا يعاقران الشراب أياما فذهب أحدهما إلى الطبيب يطلب منه الكشف على رفيقه ، فلما كشف عليه لم يجد فيه مرضا إلا إفراطه فى الشراب ، وروى لصديقه ذلك .

فقال رفيقه : « ما أجهل أن تقول إنه لا مرض فيه ، إن الحجرة غاصة بالفيلة الحمر ، والنمور الخضر ، وهو لا يراها ، ويخيل إلىّ أنه أصيب بالعمى » وحين يبدأ الرجل فى أن يرى هذه الأشياء فى وضح النهار ، يكون الوقت قد آذن بالنوم .

وسمعت ذات مرة قصة راعيين ركبا القطار لأول مرة ، وأخذا معهما زجاجات شراب من هذا النوع ، وفتحها أحدهما ، وبعد أن شرب بعضها قدمها إلى

رفيقه ، وكان القطار فى ذلك الحين يمر بهما فى نفق ، فقال الأول لرفيقه : « لا تشرب هذا ، فقد أصابنى بالعمى » .

وقد تتصور أن هذا الساقى بميدعته البيضاء ينفث عصير الدخان فى دن الخمر ليجعل الشراب أحلى مذاقا حين تشرب بعضه ، فإذا كان عند شاربه استعداد للشجار أظهر الشراب هذا الاستعداد فيه ، وأحال المدينة كلها إلى ميدان قتال ، وساعد على أن يشتهر الرعاة بالوحشية ، فلا تبرح جهنم المدينة إلا بعد أن يبرحها هؤلاء الرعاة .

وحين يذهب راعى بقر إلى المدينة ليشرب الخمر ، تكون له فيها ليلة حمراء ، فهو لا يرضى أن يترك حصانه فى حرب مع الذباب خارج الحانة ، فى الوقت الذى يكون هو فيه فى حرب مع الشراب فى الحانة ، فهو يذهب إلى الاصطبل ليجد مكانا يستريح فيه حصانه وينام ، وليطمئن على أنه يجد له فيه طعاما وعشبا وماء ، قبل أن يلجأ إلى الحانة يملأ بطنه بالشراب .

وأول ما يفعله الراعى فى الحانة أن يثبت كعبى حذائه على القضيب المعدنى فى أسفل المنضدة كأنما يزرع نفسه فيه ، ثم يطلب إلى الساقى أن يريه بعض زجاجات الشراب ثم يأخذ فى تجرع الشراب . والراعى لا تستهويه الأنواع المشهورة من الشراب ولا الزجاجات المزينة ، وقلما يضيع وقتا فى شربها ، كما أنه لا يميل إلى شرب الجعة ، لأنه كان يصعب حصوله عليها مثلجة فى تلك الأيام ، وقليل من الحانات كانت تقدم أنواعا ممتازة من الشراب يقبل عليها الرعاة حتى يستولى عليهم الشراب .

وحدث أن « تشارلى راسل » و « كيد برايس » فتحا فى شبابهما حانة ، وذات يوم دخل الحانة رجل غريب وطلب شرابا من « الكوكتيل » ، وكان

تشارلى لا يعرف أنواع الشراب بعضها من بعض ، لكنه حاول أن يخلط بعضها ببعض وخلط كل ما وجده أمامه حتى قشر الليمون .

فقال له تشارلى : « يخيل إلىّ أنه لا يفرط فى الشراب ، لأنه ما أن ابتلع جرعة من كأسه حتى ذهب ولم يعد ، ولعله ذهب إلى « نهر اللبن » يطفىء النار التى اشتعلت فيه وغاص فى الرمل .

وحين يدخل الراعى إلى الحانة يلتهم بعض كئوس الشراب ليشبع نهمه له ، وتحل هذه الكئوس عقدة لسانه ، فيبدأ فى الحديث مع الساقى ، وقد يكون الساقى راعياً قديماً جاء إلى المدينة وأصبح ساقيا ممتازاً ، لكن قلبه ما يزال يحن إلى الفلاة ، ومن ثم يدور حديثهما حول الفلاة والبقر ، وبعد تناول كئوس قليلة يصبح هذا الراعى أحسن الرعاة فى المقاطعة ، ويتعب الساقى من الاستماع لزهو الراعى فيبدأ فى التثاؤب ، ويلجأ إلى الكئوس ينظفها .

ويشرب كئوسا أخرى يصبح بعدها أحسن الرعاة فى الولاية ، ويلجأ الساقى إلى ميدعته يعبث بها ، ولا يمضى وقت حتى يصبح أحسن الرعاة فى الغرب ، ويأخذ فى وصف القطيع الذى يملكه ، حتى لو كان أجيرا لايزيد أجره على ثلاثين دولارا فى الشهر ، ثم يأتى دور الساقى فيضيق بالحديث ويمسك بالزجاجة ويغطيها بالغطاء الفلين ويضغطه بكاية يده ليقول للراعى بالمحسوس إنه تجاوز حسابه .

وبعد جدل عقيم ينصرف الراعى سائرا فى طريق متعرج كأنه قارب سرقت دفته ، يتحسس طريقه حول الجدران كأنما تثقل عليه ساقاه ، مدهوشا من أنهما فارقتاه .

وفى حانة أخرى يكون لسانه قد ثقل قليلا ، وأكاذيبه قد كبرت إلى حد

أنه يصدقها بنفسه ، ويكون الوقت قد تأخر فلا يجد من يحدثه إلا نفسه ، ويكون الساقى فى الطرف الآخر من الحانة يسب ويلعن بعيدا عن الأسماع ، ويمتعض الراعى لهذا الإهمال الذى يستقبل به فيقرر أن يفعل شيئا ينبه إليه الساقى بما يستحق ، فيخرج غدارته من غمدها ، وهو لا يعرف أن الساقى قد أخرج الطلقات منها تجنبا للمتاعب .

ويتمايل ويترنح وهو يحاول أن يصل إلى الساقى فيسقط على الأرض ، لكنه لا يجد من تحته شيئا لينا يتمدد عليه .

ومع أن معظم رعاة البقر يشربون الخمر حين يفدون إلى المدينة إلا أن بعضهم كانوا لا يقربونها قط ، وكان الشراب لديهم وسيلة للترفيه من أثر موسم عمل شاق مجهد كثير التراب ، وكان يعطيهم فرصة للتنفيس عن متاعبهم ، ومعظمهم كانوا يشربونه للتسلية وللاجتماع مع غيرهم من بنى جنسهم كى يقيموا صداقات معهم .

وكان من بينهم من يفرط فى الشراب حتى يعمى فيرتمى على الأرض أو يصاب بالجنون ، وهؤلاء هم الأصل فى سوء سمعة الرعاة ، فإذا لم يكن يستطيع أن ينتظر حتى يجد من يتشاجر معه ، تشاجر مع الساقى وغالبا ما يكون الساقى محاربا يحتفظ بغدارة أو بندقية ذات ست طلقات ، وكثيرا ما أصيب أمثال هؤلاء الرعاة بكدمات أو جروح فى رءوسهم ، وتورمات كبيرة عنيفة إذا كان الراعى يمتلىء بالخمر حتى لا يقوى على المشى ، وفى هذه المرحلة يرى أشياء ليست موجودة ، لكنه لا يدرى متى يكف عن الشراب ، بل الغالب أن يطلب إلى الساقى وإلى زميله الراعى شرابا آخر .

وبعض الرعاة يشربون الخمر ليغرقوا أحزانهم فيه ، لكنهم بذلك يغذونها

ويزيدون منها ، وإعطاء بعض الناس خمرا يشربونها لا يختلف عمن يحاول أن يلعب على الأرغول بمطرقة .

وإذا قضى الراعى ليلته على هذه الصورة وجد نفسه فى الصباح آسفا كمن أوشك على الموت بعد حياة شريرة ، ويجد رأسه مصابا بصداع لا يقوى على احتماله حصان ، ويخيل إليه أن رأسه صارت أكبر من رأس الخيل ، وأنه يستطيع أن يأكل التبن والشعير معها ، ويجد طعم فمه مرا ، وجسمه يهتز ، وهذه المتاعب والآلام والخيالات المريضة تجعله يتمنى الموت .

وبعد أن ينتهى موسم الجفاف يعود هذا الراعى بعد احتفاله ببطالته من المدينة إلى الريف لا يملك شيئا سوى رأسه وبعض الديون ، وقد قال أحدهم مرة فى ذلك : « الرأس ثقيلة جدا والجيب خفيف جدا » فإذا بقيت له أية نقود اشترى بها زجاجة خمر وأودعها سرجه ، ليشربها فى الطريق إلى المزرعة . سأل شاب أحد الرعاة مرة عن طول المسافة بينه وبين المزرعة ، فرفع الراعى زجاجة الخمر فى يده وأجاب قائلا : « حوالى ربع هذه الزجاجة » .

وإننى أذكر قصة زجاجة أودعها راع فى سرجه ، وكان لها الفضل فى شفائه من دائه ، فإنه حين غادر المدينة مع زميله إلى المزرعة أودع زميله فى سرجه زجاجة خمر ، لأن سرج الزميل لم يكن به جيب ، وبعد مسيرة بضعة أميال تحرق زميله شوقا إلى الخمر ولم يستطع أن يقاوم الإغراء ، فأخرج الزجاجة المودعة لديه وفض غلافها وتجرع منها جرعة تشبعه .

لكن لم يمض وقت طويل حتى أصيب بتقيء أفرغ فيه كل ما فى بطنه ، ولما نظر الراعى إلى زميله وإلى الزجاجة ورأى ما فعل ، قال له فى تأنيب : «أيها الأحمق ماذا فعلت بالدهان الذى أدهن به قدمى » ؟

وكان الراعى الذى شرب الدهان كثعبان جمده البرد ، وصار أهلا للعطف كحصان فرغ فورا من وشمه ، ووصل المزرعة ضعيفا كقطة سحبوها على الأرض ، ومن وقتها لم يقرب الخمر قط ، وانتهت أيام مرضه بحمى الخمر .

وعند الراعى أسماء كثيرة يطلقها على الخمر التى يشربها ، فهو يسميها « وميض البرق » و « مشعل القاعدة » و « صانعة الشجعان » و« عصير الدنان » و « طلاء الكفن » « والديناميت » و « السم الناقع » و« زيت الرقبة» و « الفزع الأحمر » و « عصير المرح » و « لبن المهر الوحشى » وغير ذلك . أما النوع الردىء من الشراب فيسميه « أفراح الغنم » وهو يستخدم أحيانا الاسم الذى يطلقه الهنود على الخمر فيسميها « ماء النار » ، وقد أخذت الخمر هذا الاسم من أن تجارها يبينون درجة الكحول فيها بأن يلقوا ببعضها على النار فتشتعل ، وكان الهنود لا يقبلون على شراء خمر لا يكون فيها هذا القدر من الكحول .

وكثير من المدن القريبة من الفلاة بها حانات وصالات رقص وحلقات مقامرة ، يغشاها الناس ليغرقوا أنفسهم فى الخمر والنساء والغناء ، وكانت مدنا يعصف فيها بالأخلاق كما يعصف الريح بالورق .

وكانت هناك حانات يطلق عليها « وعاء الدم » ، وقد أخذت اسمها من وكر أنشأه « شورتى يونج » فى مدينة الهافر بولاية مونتانا ، واشتهر ، ومن هنا أصبح الاسم يطلق على كل حانة ، ومعظم هذه الحانات كان يأنف الثعبان أن يلقى أمه فيها .

وثمة حانة أخرى مشهورة اسمها ، « ووباب » وهى حانة كانت على الحدود

السكندية شمالى « شيلبى » بولاة مونتانا ، وكان خط الحدود يخترق هذه الحانة ، وكان هذا عاملا يساعد الحانة على بيع الخمر للهنود ، وكان كثير من الرعاة يغشون هذه الحانة لينسوا متاعبهم ، لكنهم يغادرونها وقد غرقوا فى متاعب جديدة ، فلم تكن الحانة مكانا يحاول فيه الراعى النسيان .

وكانت هناك حانات كثيرة فى الشمال الغربى أيضا تسمى « مزرعة القنفذ » يؤمها سيدات متحللات يبعن الخمر أيضا ، ومعظمهن ذوات دم بارد كثعبان فى البرد القارس .

ويبدو كأن الراعى حين تلعب الخمر برأسه يحب أن يفسد أى شىء ، فإذا كسر مرآة أو أطفأ بعض الأنوار سره هذا التلف ، وكان صاحب الحانة يحتفظ بأشياء أخرى فى حانته ، لكن بعض السقاة فى الحانات كانوا لا يرضون عن ذلك ، فكان إذا رأى أحدهم راعيا يريد إفساد شىء وضع بندقيته أمامه على منضدة الحانة ، ليتصور هذا الراعى المفسد ماذا تكون نتيجة عمله لو جرؤ على إفساد شىء .

وكانت الحانات منشآت هامة فى أول العهد بها ، فقد سدت فراغا فى الحياة الاجتماعية للبيئة ، إذ كانت المكان الذى يلتقى فيه كثيرون من رجال الأعمال فيعقدون الصفقات ، ويكونون الشركات ، وكانت هى المكان الوحيد الذى يلقى فيه الراعى أصحابه دون أن يضيّع ماله ، ومع ذلك يلقى الترحيب ، كانت مكانا يقرأ فيه الرجل جريدة أو يسأل عن عمل ، لأن الحانة كانت تضم المتعطلين كما تضم أصحاب الأعمال الذين يبحثون عن عمال ، وفى الشتاء القارس يجد الناس فيها نارا تدفئهم ، وطعاما يملأ بطونهم ، وكان صاحب الحانة فى تلك الأيام مواطنا كريما يقدم النصح والمشورة ضمن خدماته .

وكان بكل حانة راعى بقر فر من الفلاة إلى المدينة ، لكى يعمل

بالحانة فى تنظيف الأوانى والأوعية وكنس الحانة ، وكان أجره لا يتعدى عدداً قليلا من كئوس الشراب حين يبيع الشراب للزوار ، سوى العملات الصغيرة التى يلقيها المقامرون فى مطافىء السجاير حول موائد القمار أو قريبا من منضدة الشراب ، وكان لا يقرب الماء قط ، لا فى شرابه ولا فى نظافته .

وقد يحدث أن يمر أحد الفنانين الأفاقين بالحانة فيرسم صورة فتاة عارية على مرآة الحانة مقابل كأس أو كأسين ، لكن معظم معلقات الفن الأخرى كانت صوراً تقطع من مجلة البوليس ، أو إعلانات شركات التقطير .

وخارج الحانة كانت توجد بعض براميل الجعة الفارغة يتسكع حولها بعض الأفاقين إلى أن يدعوهم أحد إلى كأس يشربونها ، وكل راعى بقر يحتفظ معه بمدية يحتاج إليها فى عمله ، فإذا جاء إلى المدينة ودخل حانة كان أول عمل يقوم به أن يخرجها ليحفر اسمه على عمود من أعمدة الحانة ، وبعض الأعمدة تعرضت لكثير من الحفر حتى عادت تكاد لا تتماسك .

وفى الأيام السالفة لم تكن سيدة صالحة تطمئن إلى السير بجانب الشارع الذى به حانة ، وكان أصحاب الحانات كذلك يحرصون على ألا يغشى حاناتهم من يفسد فيها .

وكان شرب الخمر فى تلك الأيام عادة اجتماعية ، ولم يكن ينظر إليها على أنها رجس إلا الصالحون من رجال الكنيسة . يروى أن أحد الرعاة وجهت إليه إحدى المسيحيات الصالحات تأنيبا على شرب الخمر ، وقالت له : « ماذا يظن الله حين تنتقل إليه فى السماء بأنفاسك المثقلة بالخمر ؟ » فأجابها الراعى بقوله : « سيدتى ، إننى حين انتقل إلى السماء سأترك أنفاسى هنا على الأرض » .

(٤٠)

الراعى والقمار

إن لراعى البقر ميلا قويا إلى المقامرة، وتـكاد تـكون عنده طبيعة ثانية، وهو يقامر بجرأة عجيبة كذلك، فإنه بعد أن يشترى بعض الملابس وما يلزم لسرجه لا يعود يرى فائدة تذكر فيما بقى معه من مال، وهو قلما يطمع فى أن يوفر مالا، والقمار من أسوإ خصاله التى عرفت عنه، حتى أن الصحف الحديثة والسينما والتليفزيون تذكر أنه يقضى معظم أيامه فى لعب القمار.

ومعظم رعاة البقر من الشبان الذين يتميزون بالجرأة ولا يعنون بأية مسئوليات، على أنهم فى الوقت الذى يجدون فيه تسلية وإثارة من لعب الورق لا ينسيهم هذا اللعب واجباتهم.. وكثير من الوقت الذى يقضونه فى اللعب إنما هـو لقتل الوقت أو للتمرين على أمل أن يهزموا أهل المدينة حين يذهبون إليها فى موسم الجفاف.

وقليل من المزارع هى التى يسمح أصحابها بالمقامرة فيها، لأنها تخلق العداء بين الرعاة وتصرفهم عن واجباتهم، لـكن الرعاة كانوا يلعبون فى غفلة من أصحاب المزارع الذين لا يزورون عنابر النوم كثيراً، وقد يقامرون حول معسكر النار على الأرض بعد أن يفرشوا غطاء سرج عليها. قال «تشارلى راسل» ذات مرة: «تستطيع أن تحكم على حظ الراعى فى القمار من غطاء سرجه وهو يركب جواده» وكانت ألعابهم صغيرة حتى أطلق عليها: «ألعاب غطاء السرج».

وعمل الراعى فى الفلاة شاق وخطير، وأجره قليل لا يسعه معه أن يتوقف عن التفكير فى أنه يستطيع أن يكسب من القمار فى المدينة فى ساعات قليلة أكثر

مما يكسبه من العمل شهورا، وهو يتصور أن حياة المقامرين فى المدينة حياة سهلة، فإنه بعد أن يتم شحن السعى يجد الرعاة لديهم فرصة يتحررون فيها ويفعلون ما يشاءون يوما أو أكثر.

وبعد ساعات طويلة من الـكد والتعب والمسئوليات فى الطواف، كان الراعى حين يصل إلى المدينة يبعثر أمواله فى القمار، وكان المقامرون يعرفون مقدار غرامهم بالقمار فيعدّون أوراق اللعب لهم، وسرعان ما يشتهرون كثعبان فى مدينة محرمة.

والراعى لا أمل له على الإطلاق فى الـكسب من المحترفين، فهؤلاء يعرفون أوراق اللعب من الناحيتين، وبعد أن يأخذ الراعى أجره ترى هؤلاء الشياطين يترجلون أمام أحد الحانات، ويحييهم الساقى تحية خبير، فهو حريص أيضاً على أن يأخذ مال الراعى حرص المقامر فى الحصول عليه.

وبعد تناول بعض كئوس من الشراب تدور عجلة الروليت، وتدعو اللاعبين ويسمع صوت الـكرة وهى تجرى على الرخام، ومدير اللعبة وهو يلقى بالفيشات بين أصابع اللاعبين على موائد البوكر، ومنظر اللاعبين وهم يجلسون فى حلقات حمراء وزرقاء وبيضاء — وكل هذه أشياء تستهوى الرعاة.

ولعبة البوكر أحب لعبـة لدى الراعى، لأنه يخيل إليه أنه يعرف شيئاً عنها، وتبدأ اللعبة فى الغالب صغيرة، لـكنها تـكبر تدريجياً، ويمضى الليل بطوله وهو يحاول أن يرى أوراقا كاسبة، لـكنه لا يحصل على شىء منها، وحتى لو وفق إلى بعض الأوراق التى تمنيه بالـكسب يـكون لا عب المدينة بيده أوراق تـكسبها.

وبعد مباراة فى لعبة البوكر، يحسب نقوده ويضعها فى جيبه، لـكنه لا يعود إلى

بيته ، بل يتمنى أن يرد له الساقى ما نسى أن يسترده من باقى الحساب .

وبعض أصحاب المزارع يميلون للعب القمار كذلك ، لكنهم لا يجيدون اللعبة إجادة المحترفين ، فأحدهم يبدأ اللعب بحزمة كبيرة من الأوراق المالية ، لكنه سرعان ماتتبخر أمواله . يقول تشارلى راسل فى ذلك : « حين يبدأ اللعب تكون مع أحدهم حزمة كبيرة من أوراق النقــد تتخم بقرة ، لكنها لا تكون حين يترك الحانة تتخم عصفوراً » .

واللاعبون حول مائدة البوكر يجلسون عادة فى صمت وسكون ، وفى جد كأنهم قسس يؤدون شعائر مقدسة ، ويتركون الأوراق وقطع النقد تتكلم عنهم ، ويحاول الراعى أن يرقب توزيع الأوراق من بين دخان السجاير المتصاعد ، لكن القائم بالتوزيع إذا كان يجيد بعض حيل اللعب فإن الراعى قلما يفطن له . والقائم بالتوزيع شديد الحرص ، لأنه لا يريد أن يجد نفسه ملقى إلى جوار منضدة اللعب وقد تمرغ فى الوحل والطين .

وقد يخسر الراعى قطيعا من البقر أو الخيل فى صفقة واحدة من صفقات اللعب ، وقد يخسر كل ماله كأنما وقع من ثقب كبير فى جيبه ، لكنه حين يغادر منضدة اللعب لا ترى على وجهه أى أثر للخسارة ، ولا تتصور أنه عاد لا يملك شيئاً قط .

وحين يفقد الراعى كل ماله ويذكر محترف القمار فى المدينة وهو يرفل فى ثياب الحرير ، وقد امتلأت جيوبه بالمال ، لا يتصور أن هذا كله مبعثه الحظ ، بل يتصور أنه كان ضحية للغش ، لكنه لم يستطع ضبط أحد ولا إثبات الغش عليه ، ولا يسعه إلا أن يملأ حزامه بالرصاص والنار ليطلقها على هؤلاء المقامرين المحترفين ، وهـذا سبب من أسباب سوء سمعة الرعاة فى

بعض المدن ، نذكر منها « ابلين » و « دودج » و « كولدويل » و « وشتيا » .

وهذه الأموال السهلة فى يد الراعى تجذب إليها الناس من كل مكان : المقامرين والمحترفين وبنات الهوى وغير هؤلاء وأولئك يظلون يحومون حوله ، والراعى يكره هذا الجهد المنسق لسرقة ماله الذى يتعب فى كسبه ، فهو حين يدرك مرة أخرى أنه أفلس ، يستولى عليه ذلك الشعور الفارغ الذى يستولى على الإنسان حين يعرف أنه سرق ، وعجزه عن إثبات أنه سرق يلهب رغبته فى أن يطلق النار ، ولذلك فهو يركب حصانه فى شوارع المدينة يطلق النار هنا وهناك على أمل أن تصل إحدى طلقاته إلى أحد غرمائه المقامرين ، وكان يتمنى أن يطلق رصاصة على غرمائه مباشرة لولا أنه لا يريد أن يرتكب جريمة قتـل ، وبعد أن يفرغ ما فى بندقيته من طلقات يهدأ روعه بعض الشىء فيأخذ طريقه إلى المعسكر ، وفى طريق عودته إلى المزرعة يكون مفلسا ، لكنه يكون غنيا بالحكمة والخبرة وإن لم تصل حكمته إلى حد أن يمتنع عن الشرب واللعب فى جولات الطواف القادمة .

يقول المثل السائر : « إن الراعى يلعب بالألوف وينام على الأرض » ورغم ذلك لا تهدأ رغبته فى اللعب .

الفــلاة والمرأة

كانت الفلاة فيما سلف وقفاً على الرجل ، وكانت ندرة النساء فى الفـلاة سببا فى تهيب الراعى للنساء ، وفى النظر إلى المرأة على أنها شىء نفيس .

وليس بين أهل الأرض جميعا من يحترم المرأة كرعاة البقر ، فهو حريص على حمايتها ، ويعتقد أن من الخسة أن يجعل الرجل المرأة تعمل وتسكد ، وهو يضعها دائما فى مكان السمو ، لأنه يحب أن يرتفع ببصره إليها ، يحب أنوثتها محاطة بما يناسبها من زخرف وزينة ، ولا يرى خيراً فى تلك المرأة المسترجلة التى تلبس السراويل وتحاول محاكاة الرجل .

من سنوات قليلة كنت واقفا فى أحد طرقات « أماريللو » أتحدث مع أحد رعاة البقر ، وفيما نحن فى حديثنا مرت بنا سيدة سمينة ممتلئة بالشحم واللحم ، ترتدى قميص رجل فوق سراويل من الحرير ضيقة محبوكة ، ومن ثم فقد الراعى كل اهتمام بحديثنا حتى استدارت السيدة فى ركن الشارع ، ثم نظر إلىّ آخر الأمر وقال : « والله إنها كخنزيرين يتصارعان تحت غطاء عربة » .

على أنه فى السنوات الأخيرة قدم إلى الفـلاة كثير من المتزوجين ومعهم عائلاتهم ، ولو كانت بينهن فتاة جميلة للعب « كيوبيد » دوره فى قلوب شبان الفلاة جميعا ، ولذهب لزيارتها بعض المحظوظين من الرعاة بانتظام ، لـكن قـلة النساء لم تقلل من رغبة راعى البقر فى أن يبحث عنهن ، وكان يسمى هذا البحث « بالغزل » أو « حمى النساء » .

والمرأة الجميـلة تستطيع أن تختار من الفلاة ما تشاء ، وطبيعى أن الفتيات يستطعن إثارة قدر كبير من الغيرة ، كما أن الرجال الذين يقع عليهم الاختيار سرعان ما تتحول صداقة الآخرين لهم إلى عداء ، فالمرأة الغيورة كرجل مهمل يمسك ببندقية ، كلاهما عرضة لأن يؤذى غيره .

إن ذلك الشاب العارى الذى يحمل القوس والسهم ونسميه كيوبيد ، لا بد أن يصيب بسهمه أحدا ، وما أن يصيب سهمه أحد الرعاة حتى يبدأ فى تعقب صائده حتى يوقع به ، أو يمضى فى تعقبه له إلى آخر الدنيا ، فما دام الأمر يتصل بالحب فإن الراعى المصاب بحمى المرأة يطلق لنفسه فى ميدانه العنان ، فإذا ألقى أنشوطته على الفتاة التى اختارها ألقى بها فى بيته وأقفل عليها الباب .

ولقلة النساء اللاتى يتغزل الراعى فيهن فى الأيام السالفة لم يكن الرعاة يظهرون شيئا من فنونهم فى الغزل إلا ما يظهره ، الأعرج فى ميدان السباق ، ولا يمكن القول بأنه لم يحاول ذلك ، لـكن حرمانه فى هذا الميدان لم يحسن من طبعه ، على أنه ما لم يشف من مرض حبه فإنه لا يختلف فى شراسته عن كلب الراعى الذى يستحيل السير معه .

ولست أحب أن أذكر إلى أى مدى يمضى الراعى فى البحث عن فتاة ، فقد كان هناك مثلا « برازوس جو » الذى اعتاد أن يركب عشرين ميلا إلى المدينـة فى كل مرة يقبض فيها أجره لينفقه فى شراء الفطائر وأقراص النعناع والحلوى ويأ كلها كحصان نهم حتى أصيب بمرض مزمن فى معدته ، وكل ذلك كان لأن الفتاة التى تبيع له الحلوى كانت تروق لعينيه ، وبعد أن لقى هذه الفتاة أقسم أن تقرير الإحصاء الأمريكى خطأ ، لأن الولايات المتحدة ليس فيها سوى فتاة واحدة .

واعتاد راع آخر هو « ميل ايرون » أن يركب من الفلاة حتى مزرعة رجل آخر ، لأن بها فتاة جميلة كغزال فى حوض ورد ، وكان يعتذر عن مجيئه دائما بأنه يبحث عن خيول ضلت من مزرعته ، وذات يوم وجد بالصدفة والد الفتاة جالسا فى مدخل البيت ، فدهش من ذلك وتحير ، لـكنه سأل الرجل : « إننى أبحث عن خيول ضالة ، ألم تر فرسا حمراء متلألئة الوجه تحمل وشم مزرعتنا ؟ » فأجابه الرجل فى تكشيرة وضيق : « ادخل إلى الصالون أمامك وستجدها

جالسة على مقعد كبير ، لكنها لا تحمل وشم مزرعتك على أى حال ! » ولم يستطع الراعى الشاب أن يخدعه عن قصده ، فقد كان الرجل شابا قبله ! !

وحين كان شاب من الرعاة يجلس إلى جوار الفتاة التى يحبها كان أبوها يغرق عتبة البيت بالماء حتى لا يطول جلوسهما طول الليل ، فكم من راع كان سبب هلاك حصانه جوعا فى يوم الأحد من أثر ربطه على باب بيت حبيبته بغير طعام ولا شراب .

وكان يحدث أحيانا أن أحد رعاة البقر يحاول أن يظهر فروسيته لفتاته ، فكان إذا ركب إليها ووجدها تنتظر على باب بيتها همز جواده فى مكان رقيق حتى يشلت ، فإن كانت فتاته من الشرق قنع ببعض الركض والوثوب ، أما فى حضرة فتاة من المزرعة فلم يكن من السهل إرضاؤها بمثل ذلك ، وكان الحصان أحيانا يلقى بالراعى إلى حيث يجد نفسه قابضا على ما لم يكن يريده ، ولا يجد شيئا بين جنبيه غير نفسه ، أما مفاصله فتكون قد تخلخلت من الصدمة .

وحدث أن راعيا ركب حصانه وخرج يتفقد بعض السياج ، وفيما هو يضع رجله على الحصان ظهرت فتاة على الباب الخلفى تودعه ، وظن أنه قد يثيرها بعض حركاته فى الركوب ، فهمز حصانه بمهمازيه ، فانطلق الحصان ، لكن بعض الثياب كانت معلقة على حبل فى طريقه ، فاعترضته وخلعته من فوق سرجه وأمسكت به من تحت ذقنه وجعلته كرجل يشنق نفسه ، وعادت الفتاة إلى البيت وقد تثنت أعطافها لا تألماً له ، وودعته فعلا ، فقد أسرع إلى اللحاق بحصانه ، ولم يعد ينظر إلى هذه الفتاة بعد ذلك أبداً .

وكان بعض أصحاب المزارع حين يفدون إلى الفلاة يحضرون معهم فتاة جميلة ، وسرعان ما يعرف راع أو أكثر مقامها ، فكان إذا ركب إلى بيتها بين الحين والحين أحد توقف عنده متعللا بظمئه وحاجته إلى الماء ، وحتى إذا قدم له الماء عكراً فإنه كان يعبه كما يعب الخمر ، وكان ينظر إلى عينيها من وراء الكوز الصفيح

فيرى أنهما مليحتان ناعمتان فيتغزل فيهما إلى أن ينتشر غزله فى الفلاة فتصده عن بابها .

فاذا كان والدها رجلا متديناً لا يحب رعاة البقر لأنهم يشربون الخمر ويلعبون القمار ، كثيرو الشجار ، ينفقون مالهم فى تبذير وسهولة ، فإن الفتاة ترى فيهم جاذبية وسحراً لا تجده فى شباب المدينة ، فهى تحب مهاميزهم وثيابهم الخشنة وتكشيرتهم العريضة وقلوبهم الخالية ، وكان الراعى حين يأتى لمغازلتها يحضر لها أكبر صندوق حلوى يجده فى المدينة ، لا كما يفعل شباب المدينة حين لا يأتون لها إلا بعلبة من اللبان الرخيص ، والراعى دائما كريم مع إخوتها الصغار أيضاً ، وسرعان ما يكسب صداقتهم ، وكانت الفتاة دائمًا ترى فى الراعى خيالا لا تراه فى شباب المدينة .

وكان الراعى حين يركب فى الفلاة إذا صادف بيتا صغيرا من ورائه حديقة أو رأى حوض زهور أمامه كان ذلك دلالة على أن به سيدة ، وإذا رأى بعض علب الطماطم وراء نافذة تغطيها ستائر راح يفكر فيما وراء ذلك كله .

ولما استقر الغرب بعد ذلك ، أحضرت بعض المعلمات لتعليم أبناء الفلاة القراءة والكتابة والحساب ، وكان بعضهن من الشرق مثقفات ، بل على علم كثير ، وكن ناعمات مهذبات فلم يكنّ يعدمن من يعرض عليهن خيولهم لتوصيلهن إلى بيوتهن والسير فى ركابهن لخدمتهن .

ومن الأقوال المشهورة أن معلمة جميلة أفضل فى الفلاة من رائد فضاء ، فكل راع يريد أن يتزوجها ، وهى تستطيع أكثر من أى واعظ أن تجعله يسلك السلوك المستقيم ، وقد استمر الحديث طوال فصل رعى كامل عن معلمة جاءت تعلم فى أحد الفلاة وكان أحد الرعاة يلقى عليها أنشوطته قبل انصراف المدرسة كل يوم ، وفى بعض الفلوات كان الناس يرون أنه إذا لم يعين للتعليم معلمات عجائز قبيحات الشكل ، فلن يكون هناك تعليم .

وكان يحدث أن بعض كبار الرعاة يقرر أن يحصل على التعليم الذى فاته ويحاول أن يأخذ دروسا خصوصية من المعلمة ، لكنها كانت تعرف ما يريد ، وأن تعليمه كان مسألة خطيرة ، لأنه لا يريد تعلم ما فى الكتب .

وأحيانا كانت المعلمة تخلف حبها فى الشرق فتكون فى الغرب وحيدة كنعجة ضلت فى الجبل ، وسرعان ما يعمل أحد الرعاة على استمالتها إليه ظناً منه أنه يمكنه أن يلجمها ويخضعها لعواطفه ، لكنها هى تلجمه ، ولأنها متحضرة من الشرق فقد كانت تهذبه وترقيه .

ولم تكن كل المعلمات جميلات ناعمات ، بل كان بعضهن عجائز متغضنات ، فلم يكن يجذبن إليهن أحدا من الرعاة حتى يعبأ بهن فينزل لهن عن سرجه ، فان كان أحدهم مهذبا إلى حد كبير عاملته معاملة ترده عن شراسته ، وكانت المعلمة العجوز دائماً تحس بمرارة فى حياتها لا تستطيع التخلص منها ، وكانت المدرسة إذا لم تستخدم بين معلماتها إحدى العجائز لم يبق فى المدرسة معلمات ولا تعليم ، لأن الرعاة سرعان ما يتزوجون جميع المعلمات .

وكثير من الرعاة يضيق بالمكان الذى يسكنه حين يقع فى حب فتاة ، فمعظم العزاب من الرعاة يعيشون عيشة وحدة وعزلة ، ومن ثم يبحثون عن صحبة الأرامل من السيدات ، وكان هؤلاء يجدن إلقاء الأنشوطة على الرجل ، فإذا وقع فى حبائل إحداهن رجل لم يستطع الفكاك منها أبداً .

أذكر مرة أننى راقبت أرملة تنسج خيوطها على راع كما ينسج العنكبوت خيوطه حول ذبابة ، وكانت سيدة سمينة كثيرة الكلام ، فسرعان ما أقنعت فريستها بحاجته إليها حاجة السمك إلى الماء ، ومن ذلك الحين ربطته من ساقه وأمسكت بالجرس فى يدها.

والأرملة دائما خطيرة حتى فى البهائم ، فكونها بهيما لا يعنى أنها لا تدرك ، فهى حين تضع عينيها على ذكر لا تنفك عن إعمال حيلتها حتى تحصل عليه .

وبعض الفتيات كن يأتين إلى الغرب لتتزوجن من أعزب يعيش وحيداً عن طريق مكاتب الزواج ، ذلك أن أحد الرعاة المتعطشين للحب حصل صدفة على نسخة من مجلة بالبريد ، وقرأ بمزيد من الاهتمام بعض إعلانات الزواج فيها وصدق ببساطة وبراءة ما فيها من أوصاف ؟ أليست مطبوعة ؟ ولم يكن يصدق أن ينشر شىء يخالف الحقيقة ، وكان الراعى يعتمد فى وقت ما على مكاتب الزواج فى الحصول على زوجة ، كما يعتمد على إعلانات المتاجر فى الحصول على حاجاته .

وحدث أن أرسل أحدهم خطاب تحية لإحدى الأرامل اللاتى ينشرن إعلاناتهن ، ولعل ذلك كان بدافع حب الاستطلاع وتمضية الوقت والوقوف على أخبار من الخارج ، وقد يكون على سبيل المزاح والتسلية ، لكنه اتضح له آخر الأمر أن الهزل قد فات أوانه ، وأن فتاة فى طريقها إليه لكى تستسلم له كما يستسلم الشجر للريح ، وكان المعروف أن الزواج مقامرة ، ولكن التربص هو الذى كان يستهويه ، فقد كان هناك دائما أثر للتوقع ، كما تفتح علبة مقفعلة لترى ما فيها ، وقد يكون ما فيها شىء لا تحبه لو كنت رأيته من قبل ، والغالب أن الفتاة حين تصل تكون صورتها مخالفة للصورة التى أرسلتها ، وتكون قد نسيت أن تذكر له شيئاً عن أولادها ، وقد تكون قبيحة الشكل لا يرضى شكلها أحداً .

لكنه رغم ذلك كله رجل تربطه كلمته ، ووعده كعقدة المشنقة على عنق لص الخيل يظل يحترمها ويخضع لها ، وأحيانا بعد أن يعاشرها يجد أنها تمتاز بجودة الطهو وكثيرا ماثبت نجاح مثل هذا الزواج ، سواء أكان من ناحية تقبله له أو رضاه عنه .

وقد تكون حواء التى قطفت أول تفاحة فى الجنة سلكت نفس السبيل مع آدم ، لكن منذ ذلك الحين إلى اليوم حين تلقى امرأة أنشوطتها لا بد أن يقع فيها رجل ، فالمرأة دائماً تؤثر فى الرجل تأثيرا حسنا أو سيئاً ، وكلنا يعرف أن الابتسامة من امرأة فاضلة أحلى كثيرا من عشرات الكئوس التى يقدمها لنا الساقى .

(٤٢)

حفلات الرقص أو هز الحافر

قلما ترى راعياً لا يحب الرقص حب الجنون ، فإذا ركب راع من أهل المهوى إلى المدينة لقضاء وقت يمرح فيه لف نفسه فى أجمل ثيابه ليلتقى بملكات قلبه ، ففى المدينة يجد الفتاة التى استولت على نقوده آخر مرة زار المدينة فيها تنتظره بأصابعها وزينتها لتسلبه نقوده مرة أخرى ، وفى وضح النهار تبدو بعض الفتيات صفراوات مكدودات ، أما فى الليل فى ضوء مصابيح الغاز التى يحيط بها الدخان ، وأما وراء الأصباغ فهن يظهرن بمظهر يجعل الهندى يغار من الراعى الذى يرى فيهن الفتنة والجمال .

لم يكن هناك قبلا ما يعرف الآن بصالونات الجمال ، ولم يكن أمام الراقصات من الوقت ما يسمح بأكثر من طلاء ينثرنه على وجوههن للتدليل على أن بها مسحة من الشباب ، وكان شعرهن يصفف بمكواة تسخن على زجاجة مصباح الزيت ، وكانت ثيابهن تتلألأ بخرز رخيص ، وكن يتضمخن أيضاً بعطر رخيص كأنما ليبلد إحساس الرجل ، وكان الرجـل والمرأة حين يرقصان غالباً ما يخلفان حولهما زوبعة من دخان الطباق ، وكان وقع كعوب أحذيتهن العالية يجعل مصابيح الزيت المعلقة تتراقص دائماً ، وهذا الرقص لم يكن ليرفع المستوى الأدبى للراعى ، ويجعله مهذبا فى المدينة ، بل كان فقط ينسيه متاعبه ، ويجعله يحس بالرضا والسعادة .

وكان حين يترك المدينة يتركها مفلسا ، لكنه مع ذلك يظل يغنى ويتبهج ، ولعله أيضاً يحلو له أن يداعب فوق ذراعه حمالة جورب إحدى الفتيات اللائى عرفهن ، وهكذا كان يحاول أن

يوهم أصدقاءه بأنه ساحر السيدات ، دون أن يفكر قط فيما كلفه ذلك من ثمن .

على أن الحادث الاجتماعى الحق فى حياة الراعى كان حفلة الرقص التى تعقد فى مكان ما بالفلاة بعد طواف الخريف ، ولم يكن أحد يدعى لها دعوة خاصة ، بل كانت الدعوة تتم بمجرد أن يمر أحد الرعاة ويخطر بالحفلة ، فإن سمعت بخبرها قبلا اعتبرت نفسك مدعوا ولن تكون بحاجة بعد ذلك إلى دعوة .

وحفلة الرقص فى الفلاة تختلف اختلافا بينا عن رقص المدينة ، فهنا فى الفلاة لا يلتقى إلا بالبقرات الرقيقات لا بذكورها ، وكان ذلك يقتضيه أفضل سلوكه كما يقتضيه الاستعداد ، فيبحث فى حقيبته عن ثيابه ذات الرقبة المنخفضة التى وفرها للمناسبات الخاصة ، ويخرج منها قميصا زاهى الألوان لعبت به التجاعيد ، وينشره فى الهواء لتذهب الريح بتجاعيده .

وكان يطلب إلى أحد الرعاة إن كان يملك مقصا أن يصلح من شعر رأس زميله حتى يبدو كالرجل الأبيض لا كالهنود ، وكانت هناك عملية مؤلمة تجرى أمام المرآة هى عملية حلاقة الذقن ، وهى عملية سهلة اليوم ، أما فى ذلك الحين فقد كانت الأذقان طويلة والموسى غير حادة ، فلم يكن غريبا أن يصاب الوجه بجروح يزيد عددها على مافى علم الولايات المتحدة من نجوم .

ولو وقع راعى البقر فى غرام امرأة لقام بأشياء لا يقوم بها فى وقت آخر ، فهو يغتسل ويكوى ملابسه ويهندم نفسه حتى لو عرف أنه سيجد فى الحفلة المدعو اليها فتاة ، وكان هذا يكلفه كثيراً من الصابون والماء ، لكنه فيما عدا هذا الوضع لا يعنى بنظافته قط .

وبعد أن يستكمل زينته وينظف حذاءه ، ويلمع مهاميزه يركب إلى المدينة التى تكون على مسافة تصل إلى عشرين ميلا .

وغالبا ما يركب الراعى حصانه المعتاد ، غير أن بعض من تزيد جرأته منهم قد يركب حصانا جامحا حتى يصل به بسرعة ، وهو يستمتع بحركة الرفع والخفض إذ ذاك فوق جسم الحصان ، ويكون نادما على الوقت والجهد اللذين أضاعهما فى عملية الحلاقة لأن الحصان العنيف الذى يركبه كان يغنيه عن هذه العملية .

وصاحب المزرعة الذى يدعو إلى هذه الحفلة ينشغل كثيراً مع رجاله فى إعداد الطعام ، ويظل نساؤه يعددن الفطائر والحلوى أياماً حتى يوفرن الطعام لهذا العدد الكبير من الأفواه الجائعة ، وما لم يكن هناك طعام كثير ، فإنه لا يعتبر قد قام بواجبه نحو ضيوفه ، وقد تكتفى ربة البيت فى المدينة بأن تطعم ضيوفها شطائر لا تسمن الراعى ولا تغنيه من جوع ، أما ربة البيت فى المزرعة فتعرف أنها لن تطعم عصافير ، فهى تعمل على أن يحس الضيوف بأنهم يأكلون شيئاً يختلف عما يأكلونه من عربة المطبخ .

ويبدأ الضيوف أنفسهم فى الحضور لوضع الترتيبات النهائية للحفلة ، فيمدون الموائد للعشاء الكبير ، أو ينقلون الأثاث من الحجرات الأمامية لإعدادها للرقص أو يكومونه خارج الحجرات إن كان الجو لطيفاً ، وترص الصناديق والدواليب حول الجدران وتغطى بألواح من الخشب لتجلس عليها السيدات ، وتنظف أرضية الحجرة وترش بمادة ناعمة لتكون أكثر نعومة ، وتطعم البهائم وتطلق فى العشب حتى تخلى مكانها لخيول الضيوف .

ويؤخذ فى إعداد القهوة فى وعاء كبير ، بينما يدور الحديث حول الفلاة وشئونها . على أن معظم الحديث يتناول حفلة الرقص الأخيرة والجو ، ومحصول البقر ، وأسعار اللحوم ، والعشب ، وغير ذلك مما له أثره فى حياتهم ، وفى انتظار باقى الضيوف يتضاحكون ويسخرون من هذا تارة وذاك أخرى حتى يضج المكان بمرحهم .

أما شباب الرعاة فيندمجون فى لعبة البوكر بعنبر النوم ، ولا يخلو الأمر من أن أحداً منهم يحضر معه زجاجة خمر ، وما إن يتعبوا من اللعب حتى يخرجوا إلى الجمع ويشتركوا فى أحاديث الخيول وقراءة الأوشام فى المواشى ليعرفوا من جاء من الضيوف .

ويظل الضيوف يتوافدون على ظهور الخيل أو فى العربات ، كما تتوافد فتيات المزارع فى ثيابهن التى يختصون بها يوم الأحد ، تجرجر ذيولها وراءهن ، فالفتيات فى تلك الأيام لم يكن يكشفن عن أجسادهن ، ولهذا كانت تعلو وجوههن الحيرة ومتاعب الطريق ، لكنهن لا ينثرن على وجوههن المساحيق على ملأ من الناس ، وتأتى كذلك بعض فتيات المدينة فى ثياب أحدث طرازا ، كلها من الحرير والديباج تهفهف فوق صدورهن ، كما يفعل الريح بالعشب الطويل ، ولا غرابة فى أن منظر فتيات المدن إذ ذاك يبعث الحسد فى نفوس هيفاوات الفلاة .

أما الرجال فيلبسون تبعاً لأذواقهم وماليتهم ، وكان بعض شباب المزارع يحاول تقليد رعاة البقر أيضاً ، لكنهم لا يوفقون فى ذلك ، فإن أحذيتهم العادية سرعان ما تدل عليهم ، كما تنم عليهم مشيتهم ، وأما المتزوجون فزوجاتهم يقمن حولهم الحصار حتى أنك تستطيع أن تعرف المتزوج منهم بسهولة ، فهن يكلفنهم بأن يشبكوا قمصانهم وأن يزرروا معاطفهم .

وفى أثناء المائدة الأولى يكثر التضاحك والضجيج حتى يعلو فوق صوت الصحون ، والمنتظرون للمائدة الثانية يتحدثون فى نغمات أكثر هدوءاً ويأملون ألا يطول انتظارهم حتى ينالوا نصيبهم من الطعام ، وقد يسمع فوق كل هذه الأصوات ضحك بعض الفتيات من نكتة ألقاها أحد الرعاة .

ثم تسمع صوت المقاعد وهى تنقل وتحرك فتعرف أن الوقت قد حان لدخول الفريق

الثانى إلى المائدة ، وينتهى العشاء ويخرج الرعاة ليدخنوا سجائرهم أو غلايينهم ، وفى الوقت نفسه ترفع المائدة .

والعازف فى الفلاة ذو شهرة واسعة : سيئة أو طيبة ، فهو معروف فى الأيام العادية بكسله وبحديثه الفارغ ، وبقضاء معظم وقته فى اللف والتسكع حول الحانة ، فإذا جاء دور الشراب خرج عن وعيه وصوابه ، لكنه أثناء حفلة الرقص يكون رجل الساعة ، ويعتبر الراقصون أن من الشرف لهم أن يلحظهم ، وحتى الفتيات رغم حياتهن العادى يغازلنه ليعزف لهن الأدوار اللائى يفضلنها .

ولو تأخر العازف عن الحضور لساد الجمع قلق ، لكنه إذا حضر عند العشاء ولم يكن مخموراً تأبط صندوقه الذى يضم قيثارته ، وهو مغرم بآلته غراماً يجعله يتناولها بلطف وعناية ، ويلفها بإحكام حتى لا تتسرب الرطوبة إليها .

والغالب أنه لا يفرق بين نغمة ونغمة ، لكنه يستطيع أن يلعب طوال الليل دون أن يردد نغمة مرتين ، وهو يقضى وقتاً طويلا فى إعداد قيثارته : يلف مفاتيحها ، ويصغى لرنينها وهو مركز الجاذبية والسمع ، ويسعده أن يكون كذلك ، لكنه ينتهى من ذلك كله ويمسك بقوسه ويحركه على الأوتار عدة مرات كأنه يحييها .

وما أن يستعد العازف حتى يأخذ المغنى مكانه . وهو رجل يظن أنه مهم بياقته الجديدة ، فإذا تقدم إلى وسط الحجرة ارتد الباقون إلى الجدران ليفسحوا المكان للرقص ، ويردد المغنى بصوت عال أنغاماً وأغانى ذات وقع رتيب يحفز الحاضرين إلى الرقص .

وهو ممن يعنون بثيابهم ، فهو يزينها بالودع والخرز والأشرطة ، ويلبس القمصان الزاهية الألوان ، وهو يغنى من الذاكرة ، فإذا نسى كلاماً ألف غيره بدله من عنده ،

وهو يلقى برأسه — حين يغنى — إلى الخلف كغطاء وعاء القهوة ثم يصيح ، هيا إلى الرقص فيندمج الناس فيه ، ويغنى قائلا :

« اختر رفيقك وكون معه حلقة .

على شكل حلقتين ، واهتزا معاً يمنة ويسرة » .

وإذ ذاك ينسى العازف كسله ويصبح إنساناً نشيطاً ويضرب أحياناً برأسه وأحياناً بقدميه أو بكل جزء من جسمه فى الوقت نفسه ، فهو يقوم الآن بالعمل الذى يحبه ، وبروح الفنان يجعل من آلته لساناً ينطق بكلمات تلهب قدميك وتسكرك ، وتثير مثل هذه الموسيقى الحاضرين إلى الحركة ، فحتى الذين لا يرقصون يشتركون فى الغناء حين يغنى المغنى ويقول :

« البط فى النهر يسعى إلى الخور .

والقهوة موجودة والسكر كثير »

وفى معظم حفلات الرقص فى الفلاة يكثر الرجال فى عددهم عن النساء ، فلكى تكمل المجموعات يتطوع بعض الشباب للقيام بدور السيدات ، بأن يلفوا منديلا أبيض حول ذراع كل منهم ، ومعنى ذلك أنه يقوم بدور السيدة ويرقص رقصتها ، وتكون مكافأتهم على ذلك أن يجلسوا بين النساء خلال الرقصات ، مع أنهم يشعرون عندئذ أنهم فى وسط غريب عليهم ، وقد ينسى بعضهم أحياناً تلك اللفافة البيضاء على أذرعهم فيسلكون سلوكا خشناً ، لكن بعض السيدات يتقبلن منهم ذلك بلا تذمر .

ومعظم الشبان يحسون خجلا من ذلك فى أول الأمر ، لكن أنغام القيثارة ووقع الأقدام العالى ، وغناء المغنى سرعان ما يجعلهم ينسون خجلهم ، هذا إلى أن ضجيج الرعاة وصخبهم يثير الدم فى عروقهم ، ويجعل العازف أكثر حماساً وقوة ـ

ولا يشترط أن تكون كل امرأة ترقص جميلة ، فحتى لو كانت قبيحة فإنها تدخل الميدان ، وقد يحدث أن ترفض واحدة أو اثنتان الرقص رغم قلة عدد النساء بوازع من التمسك بالدين ، لكن ذلك لا يثنيهن عن أن يحمسن غيرهن على الرقص ، وهذا النوع من النساء يكون طويل اللسان عند الكلام لا يستطيع أحد أن يقف إحداهن عنه ولو ربط لسانها بحبل طويل إلى قائمة متينة .

فإذا تعب الراقصون تسللوا إلى عنابر النوم ليستريحوا قليلا ، لكن هذه المتعة كان يحرم منها السيدات ، غير أن هؤلاء كن لا يتعبن كثيراً فى الرقص ، لأن الرجال كانوا يحركونهن بشدة فلا يكن بحاجة إلى جهد كبير ، ومع ذلك فإن هذا لم يكن يحدث دائما ، وإنما الذى كان يحدث أن ترى رجلا نحيلا يحاول أن يحرك سيدة بدينة جداً ، فكانت من ثم تقوم بالقسط الأوفر من العمل ، وكل ما كان عليه أن يلف حولها ويدور متعلقا بها كما يتعلق الهندى بزجاجة الخمر .

وبعض الرعاة يرقص كما يرقص الدب حول عش النحل خشية أن يلدغه ، وبعضهم يبدو عليه أنه لا يعرف كيف يعامل النساء ، فيسلك معهن سلوكا خشنا كسلوكه مع البهائم فى الحظيرة .

ولم يكن الرقص فى تلك الأيام مجرد أداء حركات معينة ، بل كان عملا شاقا ، إذ كانت أقدام الراقصين تخبط على الأرض بعنف يثير من أرضية المكان رغم نظافتها التراب الذى لحق بها منذ أن بنى البيت .

على أن فى رقص رعاة البقر ما يسرك ، فموسيقا القيثارة تحرك الدم فى عروق الشيوخ حتى تراهم يندمجون فى الرقص ويهتزون فيه كالشباب سواء بسواء ، وكان هناك منهم من يخضع لتعاليم الدين ، فلا تغريه الموسيقا ، لكنه رغم ذلك لا يحتاج أن يدعى دعوة ثانية إلى الرقص بمجرد خروجه من الكنيسة .

وفى كل حفلة رقص كان يأتى القليلون من مكان بعيد ، لكنهم يصلون متأخرين . غير أنهم ما إن يسمعوا صوت المغنى على بعد نصف ميل حتى يهرعوا إلى المكان ولا ينتظرون حتى يربطوا خيولهم إلا بعد أن يرقصوا رقصة أو اثنتين ، ويذهبون بعدها إلى عنابر النوم ليعلقوا قبعاتهم فيجدون العنابر غاصة بالمتكاسلين فيلقون قبعاتهم ويعودون إلى الرقص ، ويسعدهم فى ذلك أنهم يكونون فى كامل ثيابهم ومهاميزهم وغير ذلك ، ظناً منهم أن ذلك يجذب أنظار الفتيات إليهم .

والمجتمع فى مزارع البقر مجتمع ديموقراطى ، فكل رجل رجل فى ذاته ولذاته لا يسأله عن شأنه أحد ، فيرقص مقامر المدينة مع المعلمة الجميلة ، وإلى جانبهما يظهر شخص لا يعرف له أصل ولا فصل يرقص مع ربة البيت ، وهناك الطاهى يرقص مع الطاهى المكسيكى الذى يعمل فى المزرعة المجاورة .

وفى تلك الأثناء يكون وعاء القهوة على النار دائما ، وكل ضيف له أن يطلب القهوة كلما أرادها ، لكن كانت العادة أن يطلب السيدات القهوة ، فبين الرقصات قد يغمز أحد الرعاة بعينه أو يهز رأسه ، ومن ثم يتقاطر الراقصون إلى الخارج كجماعة الذى فى الخيول وراء مهرة جميلة ، وفى الخارج ينظرون إلى القمر من ثنايا رقبة زجاجة .

ثم يعود بعض الرعاة إلى تحية الزمار والمغنى بزجاجة خمر ، وبعد أن يمسحوا شفاههم من الخمر والعرق الذى فى وجوههم ، يستأنف الرقص من جديد ويردد المغنى :

« هيا أيها الشباب إلى واجبكم .

حركوا أقدامكم وارقصوا مع فتياتكم » .

وقد يحدث أن يكون ضيف قد قدم من بعيد ، من مسافة أربعين أو خمسين ميلا ويرى أن يعود مبكراً ، فيعلن وداعه ويرقص رقصته ، ويخرج ليعد جواده ،

فإذا ركب صاح صيحة يقف لها شعر رأسك ، صيحة وداع من ينتظره سفر طويل .

ويستمر رقص رعاة البقر طوال الليل فى العادة ، فإذا توقف عند طلوع النهار ذهبت السيدات ليصففن شعورهن وينثرن المساحيق على وجوههن ، ويخرجن المتكاسلين الذين يكونون قد استيقظوا حينئذ من نومهم ، ويمر الساقى بآخر جرعات الخمر ، ويبقى جزءاً منها للزمار حتى يلعب آخر الأنغام ، ثم يرقصون الرقصة الأخيرة ، فالرعاة لا يتعبون كثيراً ، وأخيراً ينتهى ما معهم من الخمر فلا يعود لديهم ما يرشون به الزمار ، فيذهبون إلى المطبخ ويشربون قهوة الوداع وأقدامهم متعبة كأنما عادت من طواف شتاء متعب .

وفى خارج المطعم ينتشر التهليل والصياح ممن يعدون خيولهم ويودعون رفاقهم قبل أن يعودوا أدارجهم .

وكل راع يحاول أن يعرض فى طريق عودته ما يملكه من سرج وغيره ، ويترك باب المزرعة مفتوحا بحجة أن يقفله من يخرج بعده ، لكن أصحاب المزرعة يكلفون من يقفل الباب وراءهم وهم سعداء ، لأن حفلتهم قد دخلت تاريخ الفلاة .

خاتمة

والآن آمل أن أكون قد رسمت لك أفضل صورة لراعى البقر القديم : حياته وجده وهزله ، فليست أريد أن تتأثر بما تراه فى التليفزيون عن رعاة البقر الذين يقضون طوال وقتهم فى المدينة ، فعلى راعى البقر أن يعرق ويكد حتى يحصل على أجره ، وعليه أن يركب إلى جوار قضيب من المعدن ، فالحياة عنده كانت شيئاً آخر إلى جانب الدم وطلقات الرصاص والحانات ، والمدينة مكان غريب على من كان فى مثل موارده الهزيلة ، وما لم يكن هناك أبقار يخدمها فسرعان ما تذهب موارده ، ثم هو بعد أن يستولى المقامرون على ماله القليل لا يبقى إلا حديثا يروى .

ولا شك فى أنه يسعى إلى المرح ، لكن عليه أن يقوم بعبء كبير من

العمل ، وهو يستمتع بصداقة الكثيرين ، لأنه يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا .

وقد يكون له اسم من بين الأسماء الكثيرة المعروفة ، لكنه لابد أن يلقى به فى اليم وهو فى طريقه إلى الفلاة ، وقد يكون الراعى أحيانا مالحا كمياه ولاية أوتاه ، وقد يكون ثائرا كثعبان غاضب ، لكنه دائما يتمسك بقواعد الشرف فلا يثير من حوله الغبار إلا إذا كان على حق ، ومن كثرة مايرى الناس رعاة البقر فى التليفزيون كونوا فكرة عن أن راعى البقر لا يعمل شيئاً إلا أن ينتقل من الشمس إلى الظل ، وظنوا أنه كسول يمتد كسله إلى حد أنه يميل على الجدران لكى يبصق ، لكنه ليس ذلك الرجل الذى لا عمل له ، فإذا لم يكن واقفا يعمل شيئاً كان راكبا حصانه ليمارس العمل الشاق الذى استخدم من أجله .

ولست أحاول أن أجعل من راعى البقر القديم بطلا ، لكننى أريد أن أقول إن له بعض فضائله ، وقد أكون تأخرت فى وضع هذا الكتاب ، فالناس يقولون : إن الميت إنما تذكر فضائله عندما يهال التراب عليه ، لكننى كراع قديم وجدت أن فضائله عديدة ، ولست أريد أن تتصوره شيطانا لا يرفع أصبعه عن زناد غدارته كما يظن بعض الناس ، لقد كانت له أخطاؤه ، لكن حسناته كانت دائماً تفوق سيئاته ، وإننى أعرف عن يقين أننا لن نشاهد بعد ذلك من يماثله فى البيئة الأمريكية .

(تم الكتاب)



دار الكرنك للطبع والنشر والتوزيع

عمارة رمسيس - ميدان رمسيس - (باب الحديد) القاهرة

تقدم

مشروع المكتبات العشرين

١ - المكتبة الثقافية
٢ - المكتبة الدولية
٣ - المكتبة الطبية
٤ - المكتبة العلمية
٥ - المكتبة السياسية
٦ - المكتبة المسرحية
٧ - المكتبة الفنية
٨ - مكتبة « أطفالنا »
٩ - مكتبة الحضارات
١٠ - المكتبة القصصية
١١ - مكتبة « العقائد والدين »
١٢ - المكتبة الوطنية
١٣ - المكتبة العمالية
١٤ - المكتبة الصناعية
١٥ - المكتبة القانونية
١٦ - المكتبة الاقتصادية
١٧ - مكتبة « الأعلام وأبطال التاريخ »
١٨ - دائرة المعارف العامة
١٩ - المكتبة الأدبية
٢٠ - المكتبة التربوية والفكرية

الثمن ٥٠ مـ